

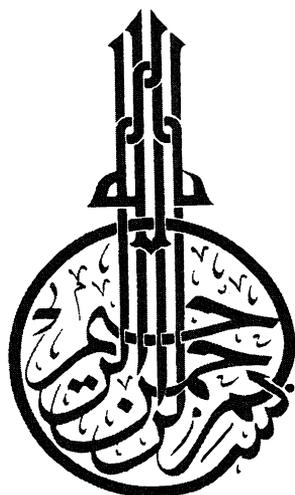
# التفسير الموضوعي لِسُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

تأليف  
عبد الحميد محمود طه ماز

المجلد السابع :

ويحتوي على تفسير هذه السور  
سبأ . فاطر . يس . الصافات . ص . الزمر . غافر  
فصلت . الشورى . الزخرف . الدخان . الجاثية  
الأحقاف . محمد . الفتح . الحجرات . ق

دار القلم  
دمشق



التفسير الموضوعي  
لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أسَّسَهَا:  
مُحَمَّدُ بْنُ وَوَلِيَّةَ  
سنة ١٢٨٧هـ - ١٩٦٧م

دار القلم  
دمشق

الطبعة الثانية  
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

[www.alkalam-sy.com](http://www.alkalam-sy.com)

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-29-024-5



9 789933 290245

## تفسير سورة سبأ الرِّسَالَةُ وَالسَّاعَةُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَدِّمَةُ  
وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ رسالة الله تعالى إلى عباده؛ ومسؤوليتهم عنها يوم الحساب والجزاء أمران ضروريان لتنظيم وضبط حياة المجتمعات البشرية، ولا يغني الناسَ عنهما التقدّم العلمي والمادي، فالله العليم الخبير يعلم ما يصلح للناس، ولهذا أرسل إليهم الرسل لهدايتهم إلى صراطه صراط العزيز الحميد.

وضرب سبحانه في آيات السورة مثلاً بمجتمعين بشريّين حكمهما نبيان ملكان بما شرع الله تعالى لهما، وهما: داود وسليمان عليهما السلام. فأدى ذلك بهما إلى أن وسع الله عليهما، وأخضع لهما كثيراً من القوى الظاهرة والخفية.

ثم ذكرت آيات السورة بعد ذلك على سبيل المقارنة مجتمعاً بشرياً ثالثاً في سبأ، كانوا في سعة ورغد في العيش، فأعرضوا عن رسالة رسل ربهم، فأسرع فيهم الفساد، وانتهى بهم الأمر إلى الضياع والتمزق، حتى أصبحوا أحاديث تُروى بين الناس.

ولا خلاص للمجتمعات البشرية بعد بعثة النبي الخاتم المرسل للناس كافة ﷺ إلا إذا التزمت بمنهج رسالته، وتمسكت بأحكام شريعته، فرسالته رسالة الحق، أنزلها عَلَامَ الْغُيُوبِ، لا غنى للبشرية عنها، وإن لم يبادروا إليها فسيكون مصيرهم كمصير سبأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَكِّ مُرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤].



## تفسير سورة سبأ الرَّسَالَةُ وَالسَّاعَةُ فِي سُورَةِ سَبَأَ

### الحكيم الخبير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ ﴿٢﴾﴾ .

افتتح الله سورة سبأ بالثناء على نفسه لكمال ملكه وسلطانه في الدنيا والآخرة، فهو سبحانه المتصف بصفات الكمال التي لا يتصف بها أحد غيره، فقال:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ .

أي: وهو الحكيم الذي أحكم أمور المخلوقات في الدنيا والآخرة، والخبير ببواطن الأشياء وحقيقتها فيضعها في مواضعها الصحيحة اللائقة بها، وهو يستحق الحمد أيضاً لأنه منعم مفضل، فهو منعم على وجه الحكمة والصواب. وكما أن سلطانه تعالى شامل كل المكونات فعلمه أيضاً محيط بها لا يغيب عنه شيء منها:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ ﴿٢﴾﴾ .

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: يعلم كل ما يدخل في الأرض ويغيب

في طيات ثراها، كماء الأمطار، وأجساد الأموات، وبذور النبات، ويعلم ما يخرج منها من نبات وحيوان ومياه ومعادن.

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا﴾ أي: ويعلم أيضاً كل ما ينزل من جهة السماء من أمطار وأرزاق وملائكة، وما يصعد في جو السماء كالملائكة والأبخرة والأدخنة وأعمال العباد، فعلمه سبحانه وسع كلِّ المخلوقات المتحركة والساكنة من أعماق الأرض إلى آفاق السماء.

فكم من قطرة بخار صاعدة من بحر، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم، وكم وكم مما لا يعلمه سواه؟! وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما في اللحظة الواحدة، ولو قضوا الأعمار الطوال في العدِّ والإحصاء؟! وإن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لمما يوحي بأن هذا القرآن ليس من قول البشر، فمثل هذا الخاطر الكوني لا يخطر بطبيعته على قلب بشر وهو مع هذا يستر ويغفر<sup>(١)</sup>.

﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ يرحم عباده المقصّرين في طاعته، ويغفر لهم، وفيه إشارة إلى أنهم مهما شكروه فإنهم مقصّرون في حق شكره.

\* \* \*

## العلم والساعة

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْرَبُ عَنْهُ مُقَالٌ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْعُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

هذا الإله العظيم المتصف بكمال القدرة والعلم، وتمام الحكمة وطلاقة المشيئة، لا يمكن أن يخلق هذه المخلوقات العظيمة سدًى وعبثاً من غير حكمة تدل على كماله ووحدانيته، ولهذا فإن الرسالة والساعة من الأمور اللازمة الدالة على أنه حكيم عليم:

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٥/٢٨٩٢.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ قالوا ذلك جحوداً لرسالة النبي ﷺ، وإنكاراً للقضية الكبرى التي أخبرهم بها وطالبهم بالإذعان لها؛ وهي التصديق بيوم القيامة؛ وما فيه من جزاء وحساب.

فجاء الرد عليهم حاسماً جازماً مستعملاً كلمة: (بلى) الدالة على إبطال نفي المشركين ليوم القيامة، ومؤكداً بالقسم باسم من أسماء الله المقدسة، الدالة على أنه وحده الخالق المدبر لأمر مخلوقاته، وجاء مع القسم اللام المؤكدة الواقعة في جوابه والنون الثقيلة المؤكدة:

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

واختارت الآية من صفاته المقدسة كمال علمه، لبيان الارتباط بين كمال العلم ويوم المسؤولية والجزاء:

﴿عِلْمِ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هو عالم الغيب المغيب عنكم، لا يبعد عن علمه أصغر ذرة في أي مكان كانت من السماوات والأرض.

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ولا يبعد عن علمه أيضاً ما هو أصغر من الذرة، وما هو أكبر منها، وكلها مكتوبة أيضاً في كتاب مبين، وهو لوح القدر، فالعلم ثابت لله تعالى بكل معلوم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وأشار قوله: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ إلى حقيقة علمية، وهي أن في الذرة جزيئات صغيرة، وهذه الحقيقة ما كانت معروفة عند نزول القرآن الكريم.

## الصراع بين الحق والباطل

﴿لِيَحْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْحٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَرَبِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

ثم بينت الآيات الحكمة من إثبات يوم القيامة وما فيه من مسؤولية وحساب وجزاء:

﴿لِيَحْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

أي: أولئك المتصفون بالإيمان والعمل الصالح لهم مغفرة لما فرط منهم من تقصير، ولهم رزق في الجنة طيب لا تعب فيه ولا انقطاع.  
وأما مصير الفريق الآخر الذين جحدوا الساعة وكفروا بالرسالة:

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْحٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي: والذين سعوا في آياتنا المنزلة، وصد الناس عنها، ظانين أنهم يعجزون الله، ويفلتون من قبضة قدرته.  
وفي قراءة: (مُعْجِزِينَ) أي: مثبطين عن الإيمان ومعوقين عنه.  
ودلت كلمة (سعوا) على شدة عنادهم وتكذيبهم، وأنهم بذلوا جهداً كبيراً في الصّدِّ عن آيات الله، ولهذا فهم يستحقون أسوأ العذاب:  
﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْحٍ أَلِيمٌ﴾.

ولا يتوقف الصراع بين الحق والباطل؛ فهو مستمر ما دامت الحياة مستمرة، ويقف في مواجهة الساعين في إبطال آيات الله وإطفاء نورها، الفريق المؤمن في ميدان المواجهة ثابتاً قوياً:

﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلِ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ  
الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ .

﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم  
ياحسان، أو الذين أسلموا من علماء أهل الكتاب.

﴿الَّذِينَ أَنْزَلِ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ فهم يرون أن القرآن الكريم المنزل  
إليك من ربك هو الحق الثابت، وأن كل ما يخالفه ضلال.

﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: ويهدي إلى منهج الحق الذي شرعه الإله  
الغالب في سلطانه، المحمود في كل شؤونه، ووصفهم بأنهم الذين أوتوا العلم، فيه  
تعريض بالكافرين الجاحدين ليوم القيامة، بأنهم المتصفون بالجهل والغفلة والعناد.

\*\*\*

### جهل وعناد

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْتَئِكُمُ إِذَا مَرِفْتُمْ كُلَّ مَرْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾  
أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالصَّلَاتِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا  
إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ يُحْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسُفَطْ عَلَيْهِمْ  
كَسَفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَدُوٍّ مُنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ .

ومن صور جهلهم وعنادهم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْتَئِكُمُ إِذَا مَرِفْتُمْ كُلَّ مَرْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ  
جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ وهو محمد ﷺ .

﴿يُبْتَئِكُمُ إِذَا مَرِفْتُمْ كُلَّ مَرْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هكذا جعلهم جهلهم

وعنادهم يتعجبون أشد العجب مما أخبرهم به ﷺ، وهو أنهم سيبعثون بعد الموت للحساب والجزاء، وأن أجسادهم التي تفرقت وتمزقت وصارت تراباً ستخلق بقدرته تعالى من جديد.

﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: أهو مفترٍ على الله كذباً أم به جنون؟!.

وبادر سبحانه يرد على جهلهم وعنادهم بقوله:

﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أي: ليس فيه شيء من الافتراء والجنون، فهو أصدق الناس وأعقلهم، ولهذا أضربت الآية عن قولهم وكذبتهم، وبينت أن الأمر ليس كما قالوا، بل إن أصحاب هذا القول في العذاب والضلال البعيد، والمراد من العذاب إما عذاب الآخرة لأن مصيرهم إليه، أو عذاب الدنيا بسبب مكابرتهم للحق، ومحاولة إطفاء نور الله وهو يتم<sup>(١)</sup>.

وكذلك بسبب ما يعانون من حيرة وقلق لبعدهم عن الحق، وتخبطهم في الضلال البعيد، فالذي يعيش بلا عقيدة بالآخرة، يعيش في عذاب نفسي، لا أمل له ولا رجاء في نصفه ولا عدل ولا جزاء ولا عوض عما يلقاه في الحياة، وفي الحياة مواقف وابتلاءات لا يقوى الإنسان على مواجهتها إلا وفي نفسه رجاء الآخرة<sup>(٢)</sup>.

وهذا يبين ضرورة الرسالة وشدة حاجة الناس إلى الشعور بالمسؤولية والجزاء في يوم الحساب.

ثم ذكرتهم الآيات بأسلوب الاستفهام الإنكاري ببعض ما يحيط بهم من الظواهر الكونية الدالة على كمال قدرة الله تعالى لكي يشعروا أمامها بضآلتهم وحقارتهم وهوانهم:

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١٢/١٢٨.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/٢٨٩٥.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَسْأَ نُخَسِّفُ بِهِمُ الْأَرْضَ  
أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ .

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَسْأَ نُخَسِّفُ بِهِمُ الْأَرْضَ  
أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: أعموا فلم ينظروا إلى ما يحيط بهم من كل  
جانب، ولم يبق من أسباب وقوعه إلا تعلّق مشيئته تعالى به، فالله قادر على أن  
يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم قطعاً هائلة من السماء.

ويدل هذا التهديد الشديد على تهويل ما اجترؤوا عليه من تكذيب آيات الله  
تعالى، واستعظام ما قالوا في حقّه عليه الصلاة والسلام، وأنه من العظام  
الموجبة لنزول أشد أنواع العذاب بهم<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: إن في ذلك دلالة قاطعة على كمال قدرته تعالى،  
وأن البعث بعد الموت لا يعجزه.

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ لكل عبد راجع إليه تعالى متأمل في آيات قدرته.

\*\*\*

### صانع الدروع

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَنْجِيهِ أُوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْعَدِيدُ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِنِ  
وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ .

ثم عرضت الآيات نماذج إنسانية أظهرت من خلالها المواقف الطيبة التي  
ينبغي أن يتصف بها الناس، عندما يتفضل عليهم الحق جل وعلا بنعمه وفواضل  
إحسانه وجوده.

واختارت الآيات نبين كريمين تفضّل عليهما سبحانه بنعم دنيوية كثيرة،

(١) روح المعاني: ١٦١/٢٢.

مكنت لهما في الأرض، ووضعت أيديهما على بعض أنواع القوة المادية فيها؛ هذان النبيان الكريمان هما داود وسليمان ﷺ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ الْحَدِيدُ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: آتينا داود بسبب حسن إنابته إلى ربه نعمة وإحساناً زيادة على ما أعطي غيره من الأنبياء، والخصوصية لا تقتضي الأفضلية، وقد يكون في المفضل ما ليس في غيره.

ثم بينت الآيات ما أعطي داود ﷺ:

﴿يَجِبَالٌ أَوْبِي مَعَهُ﴾ أي: وقلنا: يا جبال سبّحي معه، فكان ﷺ إذا سبّح سبّحت الجبال مثل تسبيحه بصوت يُسمع منها، والله قادر على ذلك، وهو القائل: ﴿وَلَنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا إِسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا فَفَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والجدير بالذكر أن الحصى سبّح في كف نبينا عليه الصلاة والسلام، قال ابن جرير رحمته الله: وقد اشتهر تسبيح الحصى في يده، ففي حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع حصيات فسبّحن في يده حتى سمعتُ لهنّ حيناً، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبّحن، ثم وضعهن في يد عمر فسبّحن، ثم وضعهن في يد عثمان فسبّحن. [أخرجه البزار والطبراني في «الأوسط»].

وروى البخاري [٣٥٧٩]: من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ولقد كُنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

﴿وَالطَّيْرُ﴾ أي: وسخرنا له الطير تسبّح معه، وفي قراءة: (والطير) بالرفع على أنه معطوف على الجبال باعتبار لفظه وحركته.

والأصل: ولقد آتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال والطير، فبدل به هذا النظم لما فيه من الفخامة والدلالة على عظمة شأنه تعالى وكبرياء سلطانه، ونفاذ مشيئته في كل المخلوقات، فما من حيوان وجمادٍ إلا وهو متقاد لمشيئته جل وعلا.

ومن المعلوم أن داود صلى الله عليه وسلم كان حسن الصوت حتى إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه لما سمعه يقرأ القرآن: «يا أبا موسى، لقد أُوتيت

مزماراً من مزامير آل داود» [رواه البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣)].

قال الخطابي: أراد داود نفسه، لأنه لم ينقل أن أحداً من أولاد داود أو أقاربه أعطي من حُسن الصوت ما أعطي<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ أي: جعلنا الحديد في يده ﷺ ليناً كالشمع أو العجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة، وكان ﷺ يعمل من الحديد دروعاً يبيعها، وينفق على نفسه منها.

وفي الحديث الشريف: قال ﷺ: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطَّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيَّ الله داودَ ﷺ كان يأكل من عمل يده» [رواه البخاري (٢٠٧٢)].

وفي الحديث فضل العمل باليد وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره غيره، والحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصراره في أكله على ما يعمل به يده لم يكن من الحاجة، لأنه كان خليفة في الأرض ابتغى الأكل من طريق الأفضل<sup>(٢)</sup>.  
ويبين له سبحانه وجه الاستفادة من إلاتة الحديد، فعلمه صناعة الدروع:

﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١).

﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ﴾ أي: اعمل دروعاً واسعة، وضيق في نسجها، لتكون لينة ناعمة، فداود ﷺ أول من صنع الدروع المنسوجة من خيوط الحديد، وكانت قبله تُصنع من صفائح الحديد، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ويبدو أن أهل داود ﷺ اقتبسوا منه صناعة الدروع، فاتجهت الآية تأمرهم بالإخلاص في العمل وإتقانه وإحسانه:

﴿وَأَعْمَلُوا صَلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: اجعلوا عملكم كله صالحاً خالصاً لله تعالى، فإني بصير به ومجازيكم عليه.

\* \* \*

(١) فتح الباري: ٩٢/٩.

(٢) المرجع السابق: ٣٠٦/٤.

## النعمة والشكر

﴿وَلَسَلِمْنَآ لِّلرِّيحِ غُدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِ ابْنَ رَبِّهِ وَمَن يَبِغُ مِنْهُمْ عَنَ أَمْرِنَا نَذِقُهُ مِّنَ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرَبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَصَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِن سَائِغِهِ فَلَمَّا خَرَ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

وانتقلت الآيات من الحديث عن فضل الله تعالى على نبيه داود إلى الحديث عن فضله تعالى على نبيه سليمان:

﴿وَلَسَلِمْنَآ لِّلرِّيحِ غُدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِ ابْنَ رَبِّهِ وَمَن يَبِغُ مِنْهُمْ عَنَ أَمْرِنَا نَذِقُهُ مِّنَ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿وَلَسَلِمْنَآ لِّلرِّيحِ غُدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح تجري في أول النهار إلى منتصفه مسيرة شهر، وتجري من منتصفه إلى آخره مسيرة شهر، كما مر معنا في سورة النمل (١٥ - ٤٤).

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي: وأذبنا له معدن النحاس، وسماه عين القطر باسم ما آل إليه، وهذا يدل على أنه تعالى جعل معدن النحاس يسيل في الأرض كما يسيل الماء، فكما ألان سبحانه لداود الحديد أذاب لسليمان النحاس.

﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِ ابْنَ رَبِّهِ﴾ أي: وسخرنا لسليمان من الجن من يعملون أمامه وتحت مراقبته بأمره تعالى.

﴿وَمَن يَبِغُ مِنْهُمْ عَنَ أَمْرِنَا نَذِقُهُ مِّنَ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: ومن يعدل منهم عن أمرنا الذي أمرناه به، وهو طاعة سليمان، نذقه من عذاب النار يوم القيامة. وقرئ (يُبِغُ) أي: يصرف نفسه أو غيره.

ثم ذكرت الآيات الأبنية الكبيرة والإنشاءات العظيمة التي كان سليمان يكلفهم بإقامتها:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي: يعملون لسليمان ما يشاء من مساجد، أو الأبنية الكبيرة المرتفعة، وتمثيل لبعض المخلوقات غير الحية، أو للمخلوقات الحية، فلعله كان جائزاً في شريعتهم، أما في شريعتنا الإسلامية فهو حرام، كما يعملون له أيضاً الحفان، وهي صحاف الطعام الكبيرة، جمع جفنة، وهي تشبه الجوابي، وهي الحياض العظام التي يُجبي فيها الماء ويجمع، وإذا كانت الحفان هكذا فكيف تكون قدورها التي يطبخ فيها؟!:

﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ أي: ويعملون له قدوراً ثابتات لضخامتها، وهذا يدل على كرمه ﷺ وكثرة إطعامه الطعام.

﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي: اعملوا يا آل داود لأجل شكر الله تعالى، أو اعملوا شاكرين الله تعالى، وذلك بأن تجعلوا عملكم خالصاً لله، وأنتم منقادون له مقررّون بفضلته.

وروي: أن داود ﷺ قال: كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم عليّ ثم ترزقني على النعمة الشكر، فالنعمة منك والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟! فقال جل وعلا: يا داود الآن عرفتنى حق معرفتي<sup>(١)</sup>.

ومر معنا قول سليمان ﷺ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وظاهر الآية أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان، ولهذا كان نبينا ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع

هذا يا رسول الله وقد غفرَ اللهُ لك ما تقدمَ من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحبُّ أن أكونَ عبداً شكوراً» [رواه البخاري (٤٨٣٧)].

قال ابن حجر: وفي الحديث أن الشكر يكون بالعمل كما يكون باللسان، كما قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ أي: قليلٌ من عبادي المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته، ومع ذلك لا يؤدي حقه، لأنَّ التوفيق للشكر يستدعي شكراً آخر، ولذلك قيل: الشكورُ من يرى عجزه عن الشكر<sup>(١)</sup>.

وتوالت نعم الله على نبيه سليمان ﷺ لأنه كان عبداً شكوراً، حتى انتهاء أجله، وبعضها استمر إلى ما بعد وفاته، فبقي الجنُّ يعملون بين يديه وهم لا يعلمون بموته:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ أي: لما أوقعنا على سليمان الموت - ويبدو أنه كان معتكفاً للعبادة، فلا يدخل عليه أحد ما دام في محرابه - ما دلَّ الجن على موته إلا دابة الأرض، وهي الأرضة التي تأكل الخشب، آكلة عصاه التي كان يتوكأ عليها.

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي: فلما سقط على الأرض علمت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا موته حين وقوعه، ولم يلبثوا بعد موته يعانون مشقة العمل المهين.

\* \* \*

## سِيلِ الْعَرَمِ

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ  
 بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ  
 أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشِقَءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْرَىٰ إِلَّا الْكَفُورُ  
 ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّبِيحَ سِيرُوا فِيهَا  
 لِيَالِي وَيَأْمَأْمَئِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ  
 وَمَرَقْنَاهُمْ كُلَّ مِرْقَةٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِنَّلَيْسَ ظَنُّهُ  
 فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ  
 مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ .

وانتقلت الآيات من بيان حال الشاكرين لنعمه تعالى إلى الحديث عن حال الكافرين المعرضين عن شكره والاعتراف بفضله وإحسانه :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ  
 بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ وسبأ: اسم رجل تنتمي إليه أكثر قبائل اليمن، ففي الحديث: عن فروة بن مسيك المرادي رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله؛ ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم؟ فأذن لي في قتالهم وأمروني، فلما خرجت من عنده سألت عني: «ما فعل الغطيفي؟» فأخبرني أني قد سرت، فأرسل في أثري، فردني، فأتيته وهو في نفر من أصحابه، فقال: «ادع القوم، فمن أسلم منهم فاقبل منه، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحييت إليك» قال: وأنزل في سبأ ما أنزل، فقال رجل: يا رسول الله وما سبأ؟ أرض أم امرأة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب،

فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا فلخمٌ وجذامٌ وغسان وعامله، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحميرٌ وكندةٌ ومذحج وأنمار» فقال رجل: يا رسول الله وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خثعمٌ وبجيلةٌ» [رواه أحمد (٢٤٣٠٧) والترمذي (٣٢٢٢) وحسنه].

وَقُرئ ممنوعاً من الصرف باعتباره اسماً للقبيلة فيه العلمية والتأنيث. والمسكن محلُّ السكنى، وهو كالدار يطلق على المأوى للجميع وإن كان قطراً واسعاً. وقرأ الجمهور: (مساكنهم) جمعاً أي: مواضع سكنائهم. وقوله: (آية) أي علامة دالة على كمال قدرته تعالى، وعظيم فضله وإحسانه وإنعامه ووجوب شكره.

﴿جَنَّاتٍ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: مجموعتان من البساتين تحيط ببلادهم عن يمينها وشمالها، وكل مجموعة لكثرة ظلالها وتقارب أشجارها كأنها جنة واحدة، وقرئ بالنصب: (جنتين) على المدح.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: قيل لهم إما على لسان أنبيائهم أو بلسان حال الواقع الذي كانوا عليه: كلوا من رزق ربكم الذي أنعم به عليكم. ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ بالإقرار بفضله وطاعته وعبادته وحده.

﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ أي: هذه البلدة التي يسر الله لكم فيها السكنى والرزق بلدة طيبة لطيب أرضها وهوائها وكثرة أرزاقها، وربكم الذي أنعم عليكم بها ربٌّ غفورٌ يغفر للمقصرين في شكر نعمه سبحانه.

﴿فَاعْرَضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ حَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

﴿فَاعْرَضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: أعرضوا عن شكر الله تعالى، والتصرف المحمود فيما أنعم به عليهم، فسلبهم الله تعالى الرخاء الجميل الطيب الذي عاشوا فيه، وأرسل عليهم السيل الجارف، الذي سُمي سَيْلَ الْعَرِمِ، لأنه يحمل العرم في طريقه، وهي الحجارة لشدة تدفقه، فحطَّم السدَّ، وانساحت

مياهه على البساتين والجنان فدمرتها وأغرقتها، كما مر معنا، ثم قال تعالى يصف بعض ما ترتب على ذلك:

﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَمَشَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ أي: بدلناهم بجنتيهم اللتين كانتا لهم جنتين خاليتين من الخيرات، وقد وصفهما الله تعالى بأنهما ذواتا أكلِ خَمْطٍ، أي: شجر ذي شوكٍ مُرٍّ، ورائحة كريهة، وأمَّا الأثلُ فهو نوعٌ من الشجر ذو شوكٍ كثيرٍ أيضاً، وقليل من السدرِ ذي الثمر. ثم أكد سبحانه كفرهم بنعمه الكثيرة عليهم فقال:

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْرَىٰ إِلَّا الْكَفُورُ﴾ (٧).

أي: لا نجازي إلا شديد الكفر بنعم الله تعالى عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكَ لِمَنِ شَكَرْتُمْ لِأَرِيدَنَّكُمْ وَلِمَنِ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]. ويُشبهه موقفهم هذا موقف كثير من الأمم في عصرنا الحاضر، التي جحدت فضل الله تعالى عليها، وكفرت بنعمه. وقد يتساءل بعضهم: لكننا نرى بعض الأمم رغم كفرها وفجورها يمدُّها الله تعالى!

فأقول: هذا استدراجٌ منه سبحانه لهذه الأمم ليزدادوا إثماً، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٨) وَأُمِّي لَهُمْ إِيَّتِي كِيدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف]. ومر معنا في مناسبات كثيرة أن أعمار الأمم والشعوب ليست كأعمار الأفراد. ثم ذكر الله تعالى صورةً من نعمه العظيمة عليهم، وما قابلوها من الجحود والكفران فقال:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرُ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا مِّنِينٍ﴾ (٨٨).

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَهْرَةَ﴾ أي: بينة واضحة، فقد كانوا يسرون من اليمن إلى الشام في قرى واضحة متواصلة.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: جعلناه بحسب ما يحتاج المسافرون إليه .  
 ﴿سَيَرُوا فِيهَا لِيَالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي: ومع تقارب مراحل سفرهم، فإنَّ الأمن حاصلٌ لهم في هذا السفر، سواء كان في الليل أو النهار .  
 ولكن القوم سئموا النعمة، ولم يصبروا على العافية، وسألوا البلاء، وتمنَّوا طول الأسفار، والتباعد بين الديار:

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١٩)

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ وهذه قراءة العامة، وقرأ ابن عامر: (ربنا بعد) ومعناها واحدٌ، وقرأ يعقوب: (ربنا باعد) بفتح العين والdal على الخبر، كأنه تعالى قال: قربنا لهم أسفارهم فقالوا أشراً وبطراً: لقد بوعدت علينا أسفارنا<sup>(١)</sup>، فالقوم جحدوا فضله تعالى عليهم .

﴿وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: وجعلناهم يُتحدَّث بأخبارهم، وفرقناهم في البلاد كل تفریق، قال الشعبي: لحق الأنصار بيثرب، وغسان بالشام، وأزد بعمان، وخزاعة بتهامة، وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول: تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ، أي: مذاهب سبأ وطرقها<sup>(٢)</sup> .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: لكل من هو كثير الصبر والشكر، فهو صبار عن المعاصي، شكور للنعم، فهو المتمتع بالآيات والمواعظ .

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠)

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي: حقق إبليس عليهم ظنه، أو وجده صادقاً، وقرئ بالتخفيف: (صدق) أي: صدق في ظنه .

(١) تفسير القرطبي: ٢٩١/١٤ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

﴿فَاتَّبِعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: اتبعه أهل سبأ.

ويمكن أن يكون المراد بني آدم، إلا فريقاً هم المؤمنون لم يتبعوه، فالإيمان عصمهم من اتباع الشيطان والوقوع في شرك إضلاله وإغوائه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: وما كان لإبليس على الذين صدق ظنه فيهم تسلط وقهر وإجبار.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ﴾ ولكن ابتليناهم بوسوسته لتمييز بين المؤمن بالآخرة ومن لا يؤمن بها.

فالشؤون كلها منكشفة لعلم الله تعالى أزلاً وأبدأً، فالعلم هنا محمول على التمييز والإظهار.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: رقيبٌ أو حافظ، لا يعزب شيء عن علمه جل وعلا كما سبق في صدر السورة.

\* \* \*

### المخلق والأمر والتدبير

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِّنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أِذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

وأمرت الآيات النبي ﷺ تأكيداً لهذه الحقيقة أن يقول للمشركين بأسلوب التحدي والتوبيخ:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ .

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: زعتموهم آلهة من دون الله، ادعوهم لما ينزل بكم من نوازل لكي يجلبوا لكم نفعاً، أو يدفعوا عنكم ضرراً.

ثم أجاب عنهم الجواب المتعين الظاهر الذي لا يقبل المكابرة والمجادلة فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فهم لا يملكون شيئاً مهما كان صغيراً في السماوات ولا في الأرض.

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ﴾ أي: وليس لهم أيضاً شركة مع الله تعالى في تدبير أمرهما، فهو ﷻ وحده المتفرد في الخلق والتدبير.

﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي: وما له سبحانه من معين يعينه على تدبير أمر مخلوقاته كما قال جل وعلا: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخِذًا مَصْطَلِحِينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

فالخلق والأمر والتدبير لله وحده في الدنيا، وله أيضاً في الآخرة، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدَبَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدَبَ لَهُ﴾ أي: إلا لمن أذن الله له أن يشفع. وقرئ: (أذن له) بضم الهمزة.

ثم وصفت الآية هول الموقف وشدة ما يعترى الشافعين والمشفوع لهم:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كشف الفرع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَضَىٰ وَهُمْ مِنْ حَسْبِيِّهِمْ﴾ .

ودلت كلمة (حتى) على أن ثمة انتظاراً للإذن وتوقفاً وفرعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء، هل يؤذن لهم أم لا يؤذن لهم<sup>(١)</sup>.

وقرأ ابن عامر ويعقوب: (فزع) على البناء للفاعل.

سأل بعضهم بعضاً:

﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: في الشفاعة.

﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ قالوا: قال القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى.

وقرئ بالرفع؛ أي: مقولة الحق<sup>(٢)</sup>.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: وهو ذو العلو والكبرياء فلا يتكلم أحداً إلا بأذنه.

واستمرت الآيات تقرر كمال الحق سبحانه واستحقاقه وحده للعبادة، وأن شؤون التدبير كلها منوطة بمشيئته وقدرته.

\* \* \*

### الجدل المنصف

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَحْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو تأكيد لما سبق تقريره من كون

(١) تفسير النسفي: ١٦٠/٤.

(٢) تفسير البيضاوي: ١٦٠/٤.

آلتهم لا تملك مثقال ذرة من السموات والأرض، أمر رسول الله ﷺ أن يوجهه إليهم متحدياً وموبخاً؛ أي: من يخلق لكم هذه الأرزاق النازلة من جهة السماء والخارجة من الأرض؟.

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وهو الجواب المتعين لهذا السؤال، والقوم مقرّون به في قرارة نفوسهم.

﴿وَأَيُّهَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهو كلام في غاية الإنصاف جاء بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال دلالة ظاهرة على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، وهو أبلغ من التصريح، لأنه في صورة الإنصاف المسكت للخصم.

وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى والضلال، لأن صاحب الهدى كأنه مستعلٍ على فرس جواد، يركضه حيث يشاء، والضال كأنه ينغمس في ظلام، لا يرى أين يتوجه<sup>(١)</sup>.

والجدل على هذا النحو المهذب أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين بالجاه والمقام، المستكبرين عن الإذعان والاستسلام، وهو في غاية الإنصاف والاعتدال والأدب في الجدل القرآني، يوجه الرسول ﷺ ليقول للمشركين: إن أحدنا لا بد أن يكون على هدًى، والآخر لا بد أن يكون على ضلال، ثم يترك تحديد المهتدي منهم والضال إلى التدبر والتفكر من غير أن تغشى عليه العزة بالإثم والعصية العمياء، فالنبي عليه الصلاة والسلام هادٍ ومعلم يبتغي هداهم وإرشادهم لا إذلالهم وإفحامهم<sup>(٢)</sup>.

وتابعت الآيات تبين للنبي عليه الصلاة والسلام أفضل أساليب الجدل المنصف والمفحم للخصم:

(١) تفسير النسفي: ١٦١/٥.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٢٩٠/٥.

﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥)

وهذا أيضاً أدخل في الإنصاف من الأول، وأبلغ حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم، وهو مزجور عنه محذور، وأسند العمل إلى المخاطبين، وهو مأمور به مشكور. ولا بد بعد هذا أن يستبين الحق ويظهر:

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٦)

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يجمع ربنا بيننا يوم القيامة، ثم يحكم بيننا بلا جور ولا ظلم. ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي: وهو الحاكم العليم بالحكم والحق.

﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَحَقُّهُ بِهِ شُرَكَاءُ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧)

﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَحَقُّهُ بِهِ شُرَكَاءُ﴾ بأي صفة أحقتموهم بالله في استحقاق العبادة. ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر وتنبية، فالقياس باطل وفساد، ولا يشاركه أحد في استحقاق العبادة. ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ بل هو الله المتصف وحده باستحقاق العبادة وكمال القدرة وتمام الحكمة.

\*\*\*

## الرسول البشير النذير

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَفِيدُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَىٰ فِيهِ إِلَّا الظَّلْمُونَ مَوْفُوتٍ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا أَخَذُوا صَدَدَكُمْ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَٰمِيزَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وبعد أن قررت الآيات عقيدة التوحيد بكل هذا الوضوح والإلزام، وهي أساس رسالة الرسول ﷺ، التفتت إلى النبي ﷺ تؤكد صدق رسالته، وتبين ما امتازت به عن غيرها من رسائل الأنبياء والمرسلين.

وكان الآيات أرادت إظهار المنزلة الرفيعة للنبي ﷺ، ورد الأقوال القبيحة التي صدرت عن المشركين في حقه عليه الصلاة والسلام، والتي حكمتها السورة عنهم في صدرها؛ وهي قولهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَئِكُمُ إِذَا مَرَّكُمْ كُلٌّ مِّمَّزٍ إِنَّكُمْ لِنَفِي حَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَرَأَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴿سَبَأٌ﴾.

فهذا الرجل الذي قال الكافرون فيه هذا القول هو صفوة الله تعالى من خلقه، المرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وجهل الجاهلين لا يغير هذه الحقيقة ولو كانوا أكثر الناس:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنك الرسول البشير النذير الذي أرسل إلى الناس كافة عربهم وعجمهم، وأبيضهم وأحمرهم، وهذه من خصائصه التي

خصه الله بها عليه الصلاة والسلام.

ففي الحديث الشريف: قال الرسول ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيْبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيَّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ بَيْنَ يَدَيِ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةَ» [رواه مسلم (٥٢١)].

وبعد أن بينت الآيات صدق الرسول ﷺ، وما خصَّه الله تعالى من خصائص، عادت إلى بيان صورٍ من عناد المشركين وجحودهم، ومنها إنكار يوم الحساب والجزاء وتساؤلهم قائلين:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ويأتي الجواب على هذا التساؤل متلبساً بالتهديد والوعيد، مطابقاً لما قصده من التعنت والإنكار:

﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أي: لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال، ولا التقدم إليه بالاستعجال. وأظهرت الآيات هنا الارتباط الوثيق بين دعوة الأنبياء والرسول وتقدير المسؤولية والحساب، وهي أساس دعوة جميع المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وهو ما دفع المشركين الذين عارضوا دعوة النبي عليه الصلاة والسلام إلى إنكار جميع الرسالات:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَىٰ فِيهِ رَازِقًا إِذْ ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا كُنَّا لَمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وما إن فرغت

الآية من حكاية قولهم الذي يدل على شدة عنادهم وجحودهم، حتى انتقلت مباشرة إلى وصف أحوالهم يوم القيامة، وهي تخاطب النبي عليه الصلاة والسلام وتثبته في مواجهة عنادهم وجحودهم، فيوم القيامة أمرٌ ضروري لا يجحده إلا المعاندون:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوتُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: محبوسون عند ربهم.

﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي: يردُّ بعضهم على بعض، ويجيب

بعضهم بعضاً، بعد أن كانوا في الدنيا متحابين متعاونين.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: يقول الأتباع

للزعماء والرؤساء: لولا إضلالكم وصدُّكم إيانا عن الإيمان لكانا مؤمنين.

ويردُّ عليهم الزعماء والرؤساء بأسلوب الإنكار والتفريع:

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ  
مُجْرِمِينَ﴾ (٣٢).

أي: بل دخلتم الكفر باختياركم وأجرتم بنظر منكم.

ولكن الأتباع يصرون على تحميل رؤسائهم تبعة ضلالهم بتذكيرهم بمكرهم

الشديد المستمر في الليل والنهار:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ  
وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ  
يُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٣).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ

بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي: بل كفرنا بسبب مكركم الدؤوب المستمر في الليل

والنهار، فما كان الإجرام من جهتنا، بل من جهة مكركم وكيدكم في الليل والنهار.

ولما رأوا العذاب الذي ينتظرهم أخفى كل فريق ما اعتراه من مشاعر

الأسف والندم عن الفريق الآخر، فهي - كما قال سيد قطب رحمته - حالة الكمد الذي يذفن الكلمات في الصدور، فلا تتفوه بها الألسنة، ولا تتحرك بها الشفاه: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ ويمكن أن يكون المعنى: أظهروا الندامة لما رأوا العذاب بسبب شدتها، فلم يستطيعوا إخفاءها، فإن كلمة (أسروا) من الأضداد تصلح للإثبات وللإسلب<sup>(١)</sup>.

﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْمَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: وجعلنا قيود الحديد في أعناق الكافرين من أتباع ومتبوعين.  
وهذا تقرير لمسؤوليتهم سواء كانوا أتباعاً أو متبوعين.

\* \* \*

### تصحيح القيم وتعديل الموازين

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّنْ نَّذِيْرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٤٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ (٤٥) قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ حِرَاءٌ أَلْضَعْفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعُرْفَتِ ءَامِنُونَ﴾ (٤٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (٤٨) قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِيْنَ﴾ (٤٩) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعَاتِهِمْ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْتُولَاءِ إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٥٠) قَالُوا سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَإِثْنَا مِّنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْتَدُونَ آجِنٌ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ (٥١) قَالِیَوْمَ لَا يَمٰكُ نَعَصْرُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفَعًا وَلَا ضَرًّا وَقَوْلٌ لِّلَّذِيْنَ ظَلَمُوا دُؤُفُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ (٥٢)

ولا شك أن مسؤولية رؤساء الضلال وقادة الكفر أكبر، بسبب ما كانوا عليه من ترفٍ وفجورٍ، ومسارعتهن إلى معارضة دعوة الأنبياء والمرسلين، وهو

ما قررته الآيات الكريمة في معرض مواساتها للنبي ﷺ عما يلقاه من عناد رؤوس الشرك والكفر في قومه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

فسبب مسارعتهم إلى الكفر اغترارهم بما هم فيه من ثراء وقوة، فإن انغماسهم في حياة الترف والفجور طمس بصائرهم، فعكس القيم والموازن في نظرهم، حتى ظنوا أن غناهم وترفهم ينجيهم من المسؤولية والجزاء:

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ .

أي: وما نحن بمعذبين يوم القيامة إن كان هذا اليوم حقاً. هكذا أدخل الترف والفجور الخلل على تفكيرهم، وهذا يبين لنا ضرورة إرسال الرسل لإعادة الموازين المختلة إلى وضعها الصحيح، فالناس لا يتفاضلون بأرزاقهم إنما يتفاضلون بأعمالهم:

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق، وهو ضد (يسبط). وفي قراءة: (يقدر) بالتشديد. فلا يدل بسط الرزق على رضا الله تعالى، ولا يدل التضيق على سخطه أيضاً. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون هذه الحقائق، فهم محتاجون إلى رسالة الرسل ليضعوا لهم الأمور في مواضعها الصحيحة، ويواجهوهم بالحقائق الواضحة بلا لبس ولا غموض:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الصَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ .

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾ فهي قيم زائلة وزائفة لا تقربكم

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: فأولئك الذين يلتزمون طريق الإيمان والعمل الصالح لهم المكانة الرفيعة عند الله ولهم جزاء الضعف يوم القيامة، وهو اسم جنس؛ أي: لهم التضعيف، بعضهم يُجازى إلى عشرة، وبعضهم يصل جزاؤه بفضل الله إلى سبعمئة، كما قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ولهم مع هذا الثواب الكبير أيضاً الأمن والطمأنينة في الدرجات العاليات في الجنة:

﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾.

وأما المسرفون المترفون الذين يسارعون إلى معارضة دعوة المرسلين:

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي: يسعون في إبطال آياتنا ظانين أنهم يفوتونا.

﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وهم الذين سبق ذكرهم في صدر السورة في

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ﴾.

إن موضوع اختلاف الناس في الأرزاق قد أحدث في المجتمعات البشرية خللاً كبيراً في المعاملات والأخلاق، ولهذا اهتمت الآيات ببيان حقيقته، وأنه منوط بمشيئة الله وحكمته:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي بِبَسْطِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي بِبَسْطِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ فكما يحدث التفاوت في

الرزق بين الأشخاص، يقع أحياناً للشخص الواحد باختلاف الأحوال والأوقات، والله تعالى كما يوسع الرزق ويضيقه على الأشخاص، يوسعه أحياناً

بالنسبة للشخص الواحد، ويضيقه عليه، فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين، وما سبق في شخصين أو أكثر فلا تكرير<sup>(١)</sup>.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: ما أنفقتم من شيء في سبيل الله فهو يعوّضه عاجلاً أو آجلاً.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ أي: وهو سبحانه خير من يُعطي ويرزق، فكل من يرزق غيره من سلطان أو رب أسرة فإنما يرزقه من رزق الله تعالى.

هكذا أظهرت الآيات ضرورة الرسالات الإلهية للمجتمعات البشرية، فمن دونها تختل القيم، وتنعكس الموازين، ويسري الخلل والاضطراب إلى حياة الناس، وكل هذه القيم تدور في فلك العقيدة الصحيحة، وتتفرع عنها، ولهذا كانت قضية التوحيد أهم القضايا التي نادى بها المرسلون عليهم الصلاة والسلام، وكل خلل واضطراب في حياة الناس مردّه إلى انحراف الناس عن هذه العقيدة.

ومن مظاهر الشرك التي أحدثت الخلل والفساد في حياة المجتمعات البشرية قبل الإسلام، تقديس الملائكة، والتوجّه إليهم بالعبادة، إذ عبد بعض مشركي العرب الملائكة طمعاً في شفاعتهم، وهو ما اهتمت الآيات الكريمة في السورة ببيان بطلانه:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

وهو استفهام تقرير وتبكي لمن عبدوا الملائكة.

وفي قراءة: ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ﴾ بالنون فيهما.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي: نحن نتولاك ولا نتولاهم، فبينوا

بهذه الموالاته براءتهم من الرضا بعبادة المشركين لهم، فمن كان موالياً لله تعالى وحده فهو بريء من كل مظاهر الشرك وأنواعه .

﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: بل كانوا يعبدون الشياطين؛ حيث أطاعوهم وتأثروا بوساوسهم وإغوائهم .

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ (٤٢) .

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: ففي هذا اليوم لا يملك أحدٌ منفعة ولا مضرة لأحد، إذ الأمر يوم القيامة لله تعالى وحده .

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ أي: ونقول للذين وضعوا عبادتهم وطاعتهم في غير موضعها: ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون .

\* \* \*

### حيرة واضطراب

﴿وَإِذَا نُتِلَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَبِهُوا قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانْتُمْ يَعْبُدُونَ وَإِنَّا لَنَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَرَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٥) .

فلا سبيل لتصحيح مسيرة البشر على هذه الأرض إلا بعودتهم إلى الرسالات الإلهية، التي ختمها تعالى برسالة النبي عليه الصلاة والسلام، فمن دونها يقع الاضطراب، ويعم الشقاء، ولقد اهتمت آيات السورة بإبراز هذا المعنى من خلال حديثها عن مواقف المعارضين لدعوته عليه الصلاة والسلام، فعندما كان يتلو عليهم آيات التنزيل الحكيم، كانوا يشيرون إليه قائلين:

﴿وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا نَيَّتَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانْتُمْ يَعْبُدُونَ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا نَيَّتَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانْتُمْ يَعْبُدُونَ ءَابَاؤَكُمْ﴾  
أي: يريد أن يصرفكم عما كان يعبد آباؤكم .

﴿وَقَالُوا﴾ أي: عن القرآن الكريم .

﴿مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ﴾ أي: ما هذا إلا كذب مختلق .

ثم أنكروا أمر النبوة كله ووصفوه بأنه سحر:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: قالوا ذلك من غير

تدبر ولا تأمل .

وأظهرت الآية ما في أقوالهم من تناقضٍ وتهافتٍ من خلال تكرير فعل

القول، مما يدل على حيرتهم واضطراب مواقفهم، فليس لهم أي دليل سمعي أو

عقلي يؤيدهم:

﴿وَمَا ءَايَاتُنْهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿وَمَا ءَايَاتُنْهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: ما أعطيناهم كتباً يحتاجون بها على

صحة شركهم وكفرهم .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي: وما أرسلنا إليهم قبلك نذيراً يدعوهم

إلى الشرك، ويتوعددهم على تركه .

ثم توعددهم سبحانه بسنة من سننه في إهلاك الأمم المكذبة قبلهم:

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَايَاتُنْهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَايَاتُنْهُمْ﴾ أي: ما بلغ مشركو مكة

معشار ما آتينا المكذبين قبلهم من طول الأعمار، وقوة الأجسام، وكثرة الأموال، ولقد أهلكهم الله لما كذبوا الرسل، وهي سُنَّةٌ من سننه الماضية في الأمم قبلهم.

﴿فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم بتدميرهم وإهلاكهم، فليحذر هؤلاء المعارضون لدعوة الرسول ﷺ أن يكون مصيرهم مثل هذا المصير.

وأفاد جعل التدمير إنكاراً، وتنزيل الفعل منزلة القول، تشديداً في الوعيد ومبالغة فيه.

ويمكن أن يكون المراد من قوله: ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعَشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ﴾ أي: ما بلغ الذين من قبلهم معشار ما آتينا قوم محمد ﷺ من البيان والبرهان، وذلك لأن الكتاب الذي أنزل عليه أكمل من سائر الكتب وأوضح، ومحمد عليه الصلاة والسلام أفضل من جميع الرسل وأنصح، وبرهانه أوفى، وبيانه أشفى، ثم إن المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل، أنكر عليهم، فكيف لا ينكر على من كذبوا بأفصح الرسل وأوضح السبل<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### دعوة إلى التفكير الهادئ

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشَىٰ وَفَرَدَىٰ ثُمَّ تَنَفَّكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ حِجَّةٍ ۚ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَحَرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنَّ أَحَرَىٰ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

ومرة ثانية دعوتهم الآيات إلى التفكير بإنصاف وروية وموضوعية في أمر النبي عليه الصلاة والسلام، لكي يعرفوا حقيقته، و يتبينوا صدقه:

(١) تفسير الرازي «مفاتيح الغيب»: ٢٦٨/٢٦.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشَىٰ وَفَرَدَىٰ ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْدِهِ﴾ أي: إنما أَدْعُوكم لخصلة واحدة، إن فعلتموها أصبتم الحق، وتخلصتم من الباطل، وهي:

﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشَىٰ وَفَرَدَىٰ﴾ أي: أن تقوموا لوجه الله خالصاً لا لحمية ولا لعصبية، بل لطلب الحق، متفرقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً، فإن الاجتماع والازدحام يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من رؤية الحقيقة، إذ يقل معه الإنصاف، ويثير دواعي التعصب، أما التفكير الهادئ المتزن بانفراد أو بحضور شخص واحد فقط، فإنه يساعد على معرفة الحقيقة، والإذعان لها، فإن الإنسان شديد التأثير بما يحيط به، وكثيراً ما يقع في شرك ما حوله من أضاليل وأباطيل.

﴿ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ﴾ أي: ثم تنفكروا بإخلاص وتجرد، فتعلموا حقيقة محمد عليه الصلاة والسلام، وأنه نبي نذير صادق، لا جنون فيه كما زعموا.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ما هو إلا نذير صادق يحذركم من عذاب شديد إن لم تؤمنوا به و تصدقوا برسالته.

وأنه أيضاً منزه عن أي نفع دنيوي وكسب مادي، فدعوته خالصة لله تعالى، ولا شك أن هذا من أدلة صدقه، ولهذا أمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ .

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي مسألة الأجر من الأساس، كما تقول: ما لي في هذا فهو لك، أي ليس لي فيه شيء.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: وهو رقيبٌ وحافظٌ على كل

شيء ويعلم أنني لا أطلب الأجر منكم، بل أطلبه من الله الذي أرسلني، ومن طلب أجره من الله زهد بما عند الناس.

\*\*\*

### جاء الحق وزهق الباطل

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَصِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرِجِي إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يلقي الحق على من يشاء من عباده ليزهق به الباطل فيبطله ويدمغه، فمن يقف للحق الذي يقذف به الله تعالى؟!.

وهذا وعدٌ بإظهار الإسلام وتمكينه وتأييده ونصره، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿عَلَمَ الْغُيُوبِ﴾ أي: المحيط علمه بجميع الغيوب، وهو جمع غيب، وهو الذي غاب وخفي خفاء كبيراً، فالله سبحانه لا يخفى عليه شيء، وهو يقذف عن علم، ولا يخفى عليه هدف، أو هو تعالى يعلم عواقب الأمور، ومراتب الاستحقاق، فيعطي على حسب ذلك.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: قل جاء الحق، وزهق الباطل بمجيئه واضمحله، فلا قدرة له على مواجهة الحق.

ولنتذكر أنّ النبي عليه الصلاة والسلام لما أمر أن يقول لهم هذا، كان في أوج مواجهته للشرك والمشركين، فكم في هذه الآية من تثبيت له عليه الصلاة

والسلام وتأييد وتشير، ولقد تحقق ذلك لما دخل عليه الصلاة والسلام المسجد الحرام يوم فتح مكة، وكانت الأصنام منصوبة حول الكعبة، وجعل يطعن الصنم منها ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُهُ﴾ [سبأ: ٤٩] فتتنكس الأصنام وتتحطم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة<sup>(١)</sup>.

وصدق ابن مسعود رضي الله عنه، فمنذ جاء القرآن الكريم استقر منهج الحق واتضح، ومهما يقع من غلبة مادية للباطل في بعض الأحوال والظروف، فهي ليست غلبة على الحق، إنما هي غلبة على المتممين إلى الحق، وهي موقوتة زائلة<sup>(٢)</sup>.

فالحق واضح أبلج، ولا عذر لمن ضل عنه، وضلاله نابع من نفسه:

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٥٠).

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ أي: إن وبال ضلالي على نفسي، لأن أسباب الضلال نابعة منها.

﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي: وإن وفقت إلى معرفة الحق واتباعه، فبتسديد من الله تعالى وتوفيقه.

وهذا يدل على كثرة أسباب الضلال وقوتها، وشدة تأثيرها على الإنسان، كما تدل على شدة حاجة الإنسان إلى وحي الله تعالى وإرسال الرسل، فلا يستغني الإنسان بحال من الأحوال عن رسالة المرسلين.

﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يسمع أقوال المهتدين والضالين، ويعلم أحوالهم وشدة حاجتهم إلى وحيه ورسالة رسله.

## إيمان البأس

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

وفي ختام السورة توجهت الآيات بهذا الخطاب، ذي الأسلوب المتميز إلى

النبي ﷺ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ﴾ أي: ولو ترى يا حامل الرسالة فزعهم عند خروجهم من قبورهم لرأيت أمراً عظيماً وهولاً فظيماً، فلا مهرب لهم منه ولا نجاة. وحذف جواب (لو) تعظيماً له.

وقد أكدت الآية مضمون ما سبق في أول السورة: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ فحيث ما كانوا فإنهم من الله قريب، فلا نجاة لهم من قبضة قدرته جل وعلا.

﴿وَقَالُوا ءَأَمَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَقَالُوا ءَأَمَّا بِهِ﴾ أي: آمنة بالحق الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، وهو إيمان اليأس أو البأس الذي جاء في غير أوانه، فلا يقبله الله منهم.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: وكيف يتناولون الإيمان وهم بعيدون عنه؟! فقد كان الإيمان في الدنيا قريباً منهم فأعرضوا عنه وكفروا به.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ .

فحالهم كحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد، فلا شك أن رميته غير موفقة ولا مسددة، ولن تصيب هدفها .

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ .

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ أي: حيل بينهم وبين ما يشتهون من الرجوع إلى الدنيا، كما فعل بأفعالهم ونظرائهم من كفار الأمم السالفة .  
 ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي: كانوا في شك قوي من أمر الرسول ﷺ ومن يوم الحساب والجزاء، وهامهم اليوم في يقين بعد هذا الشك المرعب .

وكان الآيه أشارت إلى ما صدر منهم من أقوال سبقت في أول السورة:  
 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ...﴾ [سبأ: ٣]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبئُكُمْ إِذَا مُرِّفَةٌ كُلُّ مَرِّفَةٍ إِنَّكُمْ لَعَىٰ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧] .



تفسير سورة فاطر  
الاختلاف في المخلوقات، ووحدۃ الخالق  
في سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَدِّمِ  
وَمَوْضُوعِ السُّورَةِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فإنه من الأدلة الدالة على كمال قدرته تعالى؛ وطلاقة مشيئته، الاختلاف في أشكال المخلوقات وأجناسها وأنواعها وألوانها وخصائصها . . . إلخ، مع ما بينها من تعاون واتصال، وما يحكمها من سنن كونية، ويستوي في ذلك الاختلاف في المخلوقات الخفية كالملائكة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].  
والمخلوقات الظاهرة كالأحياء الذين يعيشون على الأرض: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ الآية [فاطر: ١١].

وكالبحار العذبة والمالحة: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ الآية [فاطر: ١٢].

وكالاختلاف في الليل والنهار: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ الآية [فاطر: ١٣].

وكالاختلاف في الثمار والجبال والدواب: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر].

ومهما تنوعت أشكال المخلوقات، واختلفت أجناسها وألوانها، فكُلُّها فقيرة إلى الله تعالى في إيجادها وإمدادها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

فسبحان الذي خلق الخلق على ما أراد للدلالة على كمال قدرته، وطلاقة مشيئته، وباهر حكمته.

وتظهر ظاهرة الاختلاف أيضاً عند المكلفين لتدل على أن لهم اختياراً وكسباً، وهو أساسُ مسؤوليتهم يوم الحساب والجزاء: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقدّر سبحانه بحكمته ورحمته تأخيرهم إلى أجل مسمى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا دَابَّةٌ وَلَئِنْ يُوَخَّرُهُمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

تلك هي الأفكار الأساس لموضوع السورة الذي يؤكد وحدة الخالق وكمال قدرته وطلاقة مشيئته وباهر حكمته.

أسأله تعالى أن ينور قلوبنا بنور معرفته وأن يغفر لنا ذنوبنا، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



## تفسير سورة فاطر الاختلاف في المخلوقات، ووحد الخالق في سورة فاطر

### الاختلاف في أجنحة الملائكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

بدأت سورة فاطر (وتسمى أيضاً سورة الملائكة) كما بدأت سورة سبأ بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ وهي السورة الخامسة التي لها البداية نفسها.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: موجد السماوات والأرض على غير مثال سبق.

فالفطر: الإبداع، أخرج عبد بن حميد والبيهقي في «شعب الإيمان» وغيرهما: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض،

حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يعني ابتدأتها<sup>(١)</sup>.

﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ أي: جاعل الملائكة وسائط يبلغون الرسالة إلى أنبيائه. أو: جاعلهم وسائط يوصلون إلى خلقه آثار قدرته.

﴿أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مِّثْنَىٰ وَتُلَاقَ وَرَبِّعًا﴾ أي: ذوي أجنحة اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، بالمعنى المعروف للجنح عند العرب، بيد أننا لا نعرف حقيقته وكيفيته، فما ذكر في الآية يدل على الكثرة والتفاوت.

وقد أخرج البخاري [٤٨٥٦] ومسلم [١٧٤] والترمذي [٣٢٧٧]: عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم]: رأى جبريل له ستمئة جناح.

﴿بِزِيدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يزيد سبحانه في أي خلق كان كل ما يشاء أن يزيده، فاختلاف الملائكة في عدد الأجنحة منوط بمشيئته تعالى.

ولهذا قرر في ختام الآية شمول قدرته لجميع الأشياء فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم بين سبحانه كمال قدرته، وطلاقة مشيئته، في جميع المخلوقات الظاهرة والخفية، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، واختلاف جميع المخلوقات في الخصائص والصفات منوط بمشيئته وحده وحكمته:

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: ما يُطلق ويُرسل من رحمته فلا أحد يقدر على منعها وإمساكها.

(١) روح المعاني: ١٦١/٢٢.

والفتح: كناية عن العطاء، يدل على أن الرحمة من أنفس الخزائن وأعزها، وأفاد تنكير (رحمة) العموم، أي: أيُّ رحمة كانت من صحَّة ورزق وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لا يحاط به، حتى إن عروة بن الزبير كان يقول في ركوب المحمل: هي والله رحمة فتحت للناس. وماذا يقول ﷺ لو أدرك زماننا ورأى السيارات والطائرات وغيرها من وسائل النقل الحديثة، فما أعظم رحمة الله تعالى بنا!

وذكر بعضهم أن المطر والتوبة من الرحمة، والمراد التمثيل، فإن رحمته تعالى لا تُعد ولا تُحصى، ونعمه من آثار رحمته، وهي كما قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: وأي شيء يمسكه تعالى فلا أحد يقدر على إرساله من بعد منعه وإمساكه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: وهو الغالب على كل ما يشاء من الأمور، والذي يفعل كل ما يفعل حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

وفي الآية دعوة إلى الانقطاع التام إلى الله تعالى، والإعراض عمَّا سواه ﷻ، وإراحة البال عن التخيُّلات الموجبة للتهوُّش وسهر الليالي.

وقد أخرج ابن المنذر: عن ابن عبد قيس، قال: أربع آيات من كتاب الله تعالى إذا قرأتهنَّ، فما أبالي ما أصبح عليه وأمسي:

- ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

- ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾

[يونس: ١٠٧].

- ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

- ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] (١).

\* \* \*

### تحذير وتثبيت

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ ﴿٦﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧﴾ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٨﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٩﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٠﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنْثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿١٢﴾﴾.

ثم توجهت الآيات تنادي كل الناس، مذكرة لهم بنعمه تعالى التي لا تحصى، داعية لهم إلى توحيدهِ وإفراده بالعبادة، فكما أنه تعالى المستقل بالإيجاد والإمداد والخلق والتدبير، فهو وحده المستحق للعبادة والطاعة:

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: راعوها و احفظوها بمعرفة حقها، وحقها تخصيص العبادة والطاعة بمولاها وخالقها.

﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟! أي: لا خالق إلا الله تعالى

يرزقكم بما ينزل عليكم من جهة السماء كالمطر، وما يخرج لكم من الأرض كالنبات.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذَنُ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو جل وعلا، فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك بعد هذا البيان ووضوح هذا البرهان. والقوم لم ينصرفوا عن عبادة الله إلا عناداً وجحوداً، ولهذا التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تواسيه عما يلقي من عنادهم وجحودهم:

﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

أي: لك أسوة فيمن سلف قبلك من الرسل، فقد جاؤوا أقوامهم بالبينات، ودعوهم إلى التوحيد، فكذبوهم، وأعرضوا عنهم، وسيجزئهم الله على تكذيبهم أوفر الجزاء وأعدله، لأن مرجع الأمور كلها إلى حكمه ومشيئته. وتنكير ﴿رَسُولٌ﴾ للتعظيم والتكثير الموجبين لمزيد التسلية والحث على التأسى والصبر على ما أصابه عليه الصلاة والسلام من قومه. ثم حذرت الآيات الناس من الاغترار بالدنيا، والتأثر بوساوس الشيطان:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَنُّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرُرُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَنُّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي: إن وعد الله في الحساب والجزاء حق، فلا تخدعنكم الدنيا بلدتها وما فيها عن عمل الآخرة والسعي لها. ﴿وَلَا يَغْرُرُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي: ولا يخدعنكم الشيطان بعفو الله تعالى ومغفرته، فيصرفكم عن طاعته وعبادته، فإنه يمنيكم الأمانى الكاذبة فاحذروه على دينكم.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: عاملوه معاملة العدو، وكونوا على حذر منه في جميع أحوالكم وأعمالكم.

﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : إنما يدعو أشياعه وأولياءه ليكونوا من المعدنين معه في جهنم .

ثم بيّنت الآيات أن الأمر كله مبني على الإيمان وتركه ، وليس مبنياً على وساوس الشيطان ونزغاته ، فليس للشيطان تسلط إكراه على أحد :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٧) .

وتساءلت الآيات تقريراً لهذا المعنى وتأكيذاً له :

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٨) .

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا ﴾ أي : أفمن زين له سوء عمله بتغلب هواه على عقله ، فرأى الباطل حقاً ، والقيح حسناً ، كمن لم يُزَيَّنْ له ، بل وفق إلى معرفة الحق واتباعه؟ وحذف الجواب لدلالة سياق الكلام عليه .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : فإن الله يضل من يشاء ممن علم استحقيقه للإضلال ، ويهدي من يشاء ممن علم أنه أهل للهداية ، وقد أكد تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة ، منها قوله سبحانه : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦] .

ومنها أيضاً : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧] .

فالله عليم بأحوال خلقه ، وشأن الإضلال والهداية منوط بمشيئته تعالى .

﴿ فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ﴾ أي : لا تغتم ولا تحزن بسبب إصرارهم على الكفر ، فإن أمر الهداية والإضلال لله تعالى وحده ، وهو القائل : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦] .

والآية تشير إلى حالة يعاني منها الدعاة كلما أخلصوا في دعوتهم ، وأدركوا قيمتها وجمالها وما فيها من الخير ، ورأوا الناس في الوقت ذاته يصدون عنها

ويعرضون، ولا يرون ما فيها من الخير والجمال، ولا يستمتعون بما فيها من الحق والكمال، فعلى الدعاة أن يدركوا هذه الحقيقة التي واسى بها الله سبحانه رسوله ﷺ، فيبلغوا دعوتهم باذلين فيها أقصى الجهد، ثم لا يأسوا بعد ذلك على من لم يقدر له الله الصلاح والفلاح.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم على سوء عملهم وكسبهم.

ثم وصفت الآيات صورة من الصور البديعة الدالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وتديبر أمر مخلوقاته:

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا﴾

الشُّورُ ﴿٩﴾

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا﴾ أي: الله هو الذي يرسل الرياح، فتحمل السحاب، وتسوقه وتجيء به، ودل اختلاف الأفعال على استمرار حدوث الظاهرة. ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: أحيينا بالمطر النازل الأرض التي كانت يابسة هامة، وعدل بالأفعال عن لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم للدلالة على اختصاص هذه الأفعال بقدرته تعالى.

﴿كَذَلِكَ الشُّورُ﴾ أي: مثل إحياء الأرض الموات نشور الأموات وبعثهم من قبورهم ليوم الحساب والجزاء.

\*\*\*

### العزة لله تعالى

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُهُ﴾

وبعد أن عرضت الآيات هذه الصور البديعة الدالة على كمال قدرته تعالى

وباهر حكمته، رسمت لذوي الأقدار الرفيعة والهمم العالية الذين تتطلع نفوسهم إلى القوة والمنعة، طريق الوصول إلى ذلك:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: من كان يريد الشرف والمنعة فإن العزة كلها مختصة بالله سبحانه، فليطلبها منه، فمن طلبها من الله بصدق وافتقار وخضوع وجدها عنده غير ممنوعة ولا محجوبة، كما قال النبي ﷺ: «ما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله» [رواه مسلم (٢٥٨٨)].

ومن طلبها من غيره وكله إلى من طلبها عنده، وقد ذكر سبحانه قوماً طلبوا العزة من سواه فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْجُدُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنَبُغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

فأنبأك نبأً صريحاً لا إشكال فيه أن العزلة له، يعزُّبها من يشاء، ويذل من يشاء<sup>(١)</sup>. ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فمن اعترز بالله أعزَّه الله، ومن اعترز بغيره أذله، ففي الآية دعوة إلى طاعته تعالى وعبادته وحده، فمن كان يريد العزلة فليطلبها من الله بطاعته، وهو ما بيَّنه بعد ذلك بقوله:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فالكلم الطيب: التوحيد، والعمل الصالح هو العمل الموافق لشريعته تعالى، وصعودهما إليه مجازٌ عن قبوله إياهما، والضمير المقدر في (يرفعه) يعود على الكلم الطيب، فإن العمل لا يقبل إلا بالتوحيد<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير القرطبي: ٣٢٨/١٤.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي: ١٧٨/٥.

فالتوحيد هو الأصل، والعمل فرع عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوَفَّقَ أُكْلُهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم].

وأما العمل السيئ المخالف لدين الله فلا يؤدي بصاحبه إلا إلى الذل والهوان:

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ﴾ أي: وعملهم ضائع هالك.

\* \* \*

### الحياة أنفاس

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

ثم أكدت الآيات أن العزة لله تعالى ببيان كمال قدرته وعلمه وطلاقة مشيئته في داخل النفس البشرية وفي كيفية خلقها والأطوار المقدره لها في حياتها، والاختلاف في الأصناف والهيئات والأعمال:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي: والله خلقكم ابتداءً من تراب في ضمن خلق آدم منه. أو: خلق أجسادكم من تراب، فالمني يستخلص من الدم، وهو مستمد من الأغذية التي يتناولها الإنسان وهو من التراب.

ولعل المعنى الثاني هو الأظهر كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلقناكم من نطفة، وهو الماء القليل كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيِّ بَيْنَتَيْنِ﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: ثم جعلكم أصنافاً ذكراً وإناثاً.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ فأحوال الأجنة في بطون أمهاتها معلومة لله تعالى من بداية تكوينها إلى ولادتها كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

والنص مطلق يتجاوز إناث الإنسان إلى إناث الحيوان والطيور والأسماك والزواحف والحشرات وسواها مما نعلمه ولا نعلمه... وتصوير علم الله المطلق على هذا النحو العجيب ليس من طبيعة الذهن البشري أن يتجه إليه لا في التصوير ولا في التعبير، فهو بذاته دليل على أن الله هو منزل هذا القرآن<sup>(١)</sup>.

﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: وما يمد في عمر أحد، وسمي معمراً باعتبار ما يؤول إليه، ولا يذهب من عمره بما يمر منه وينقضي إلا في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، أو الصحيفة التي تكتبها الملائكة، والتي ذكرت في الحديث الشريف الذي قال فيه النبي ﷺ: «يدخل الملكُ على النطفة بعدما تستقرُّ في الرحمِ بأربعين أو خمس وأربعين ليلةً، فيقول: يا ربِّ أشقي أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي ربِّي أذكر أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تُطوى الصحف، فلا يزداد فيها ولا يُنقص» [رواه مسلم (٢٦٤٤)].

فحياة كل مخلوق محدودة ومقدرة وهي في نقص كما قال القائل:

حياتك أنفاسٌ تُعدُّ فكلما مَضَى نَفْسٌ مِنْهَا نَقَصَتْ بِهِ جُزْءاً

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن كل ما سبق ذكره في الآية من خلق وتدبير

يسيرٌ على الله جل شأنه.

\* \* \*

## البحران عذب ومالح

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ يُنْبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَكَلِمَتُهُمْ كَلِمَةُ الْفَيْتِنَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

ثم أضافت الآيات بيان بعض الظواهر الكونية الآفاقية الدالة أيضاً على كمال قدرته تعالى وحكمته وطلاقة مشيئته، مع ما فيها من اختلاف:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ يُنْبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: وما يستوي البحرين المالح و العذب في الخصائص والصفات؛ أحدهما شديد العذوبة، يكسر العطش، ويسهل شرابه، فيجري في حلوق الشاربين بيسر وسهولة. والثاني شديد الملوحة، ومع ذلك ففيهما منافع كثيرة للناس.

﴿وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤ والمرجان، ومن المعروف أن اللؤلؤ يستخرج من البحار قرب مصبات الأنهار، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

ومن المعلوم أن المياه العذبة تنصب في البحار المالحة فيكون الإخراج منهما جميعاً.

ومن منافعهما أيضاً الملاحة البحرية :

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَبَنُغًا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: وترى السفن تشق الماء بسيرها فيه طلباً للرزق كالتجارة والصيد.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على هذه النعم بطاعته وعبادته والاعتراف بفضله.

﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل الليل في النهار ويدخل النهار في الليل حسب نظام دقيق بديع يدل على كمال قدرته وحكمته.

فالاختلاف في الليل والنهار والشمس والقمر من الظواهر الكونية المشاهدة.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وسخّر لفائدتكم الشمس والقمر يجريان حسب نظام دقيق محكم إلى وقت معلوم، يدل على وحدة الخالق المبدع وكمال حكمته وسلطانه.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي: خالق ومدبر هذه المكونات هو الله، له وحده الملك.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أي: والآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله ما يملكون شيئاً ولو كان مقدار قطمير: وهو الغشاء

الرقيق الذي يحيط بنواة التمر.

وهي أيضاً عاجزة لا تجلب نفعاً ولا ضرراً:

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾ لكونهم حجارة جامدة.

أو: لا يسمعه سماع إجابة لعجزهم، ولهذا قال بعد ذلك:  
﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لعدم قدرتهم وعجزهم.

أو: لو سمعوا لم ينفعوكم، وقيل: لو جعلنا لهم عقولاً وحياءً فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولَمَا استجابوا لكم على الكفر<sup>(١)</sup>.  
﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يتبرؤون منه ويقرؤون ببطلانه.  
﴿وَلَا يَنْتَظِرُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ أي: الخبير هو الذي يخبر بحقيقة الأمر، والله هو العليم الخبير.

\* \* \*

### الفقراء إلى الله تعالى

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

وبعد أن قررت الآيات هذه الحقيقة، وهي أن الخلق والتدبير لله تعالى وحده، وجهت مرة ثانية نداءها إلى الناس جميعاً:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

أي: أنتم محتاجون إلى الله في كل شيء والله هو الغني على الإطلاق، فلا تضره معصيتكم، ولا تنفعه طاعتكم، وهو المنعم المتفضل المحمود على إحسانه ونعمه.

وتعريف ﴿الْفُقَرَاءُ﴾ للمبالغة في فقرهم، فإنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء، أو إن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير القرطبي: ٣٣٦/١٤.

(٢) تفسير البيضاوي: ١٨١/٥.

فالإنسان أشد المخلوقات افتقاراً إلى الله ﷻ، ألا ترى إلى طول طفولته وكثرة احتياجاته وتشابكها وتعقدها.

ومما يؤكد كمال غناه ﷻ أنه غني أيضاً عن وجودهم:

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

فوجودهم غير لازم، بل هو منوط بمشيئته، فوجودكم لا ينفعه، وعدمكم لا يضره، كما قال هود عليه السلام لقومه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَى الْكَافِرِينَ وَيَسْخُلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: ٥٧].

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

أي: ممتنع، فلا يصعب عليه سبحانه، فإن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن؛ فيكون.

إن الناس بحاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة في معرض دعوتهم إلى الإيمان بالله، ليعرفوا فضله عليهم، وهم أيضاً بحاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة، حتى لا يغتروا بأنفسهم وحياتهم، فالغرور من أكبر أسباب الضلال الذي حذرتهم الآيات الكريمة منه في صدر السورة بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥٨﴾﴾.

وبهذا يظهر لنا التناسق والاحتباك بين هذين النداءين الموجهين للناس في السورة.

\*\*\*

## المسؤولية الشخصية والاختلاف فيها

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۗ وَمَن تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

وهم أيضاً محتاجون - دفعاً للغرور عن أنفسهم - إلى تذكيرهم بمسؤوليتهم الشخصية يوم القيامة عن أعمالهم وكسبهم، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۗ وَمَن تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ .

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، فالنفوس الوازرات لا ترى واحدة منهن إلا حاملة وزرها، لا وزر غيرها، فكل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها، متحيرة في أمرها.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ويوم القيامة إن تدع نفسٌ مثقلة بذنوبها غيرها ليحمل عنها شيئاً من ذنوبها، لا يستجيب لدعوتها أحدٌ، ولو كان المدعو أقرب الناس إليها، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَخِيْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ﴾ [عبس].

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَخِيْبِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيْلَتِهِ الَّتِي تُؤْتِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا ۗ إِنَّمَا لَطْفٌ﴾ [المعارج].

وهذا لا يتنافى مع ما مر معنا في سورة العنكبوت [١٣]: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، فإنه في رؤوس الضلال وقادته الضالين المضلين، فإنهم يحملون آثام ضلالهم وإضلالهم.

وأشارت الآية إلى أن أحداً لا يحمل عن أحد شيئاً ابتداءً، ولا بعد السؤال يوم القيامة، وفي هذا تأكيد لثقل المسؤولية وأنها شخصية فردية، وأنهم مختلفون في مقدارها حسب اختلافهم في أعمالهم وسلوكهم.

ومع ذلك أعرض المعاندون عن دعوة القرآن الكريم، ولم تقشعر منه جلودهم، وترق له قلوبهم، فما أشد قسوتها! وما أعظم الفرق بين هؤلاء المعاندين المعرضين، وبين المؤمنين الخاشعين الذين اتجهت الآية إلى الثناء عليهم وهي تخاطب النبي ﷺ وكأنها تواسيه بهم عن إعراض المعاندين الجاحدين! فقد كان النبي ﷺ يتأثر من جحودهم وإعراضهم حتى قال الله له كما مرَّ معنا في السورة: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: ٨].

فإن أعرض هؤلاء عنك فثمة من يستجيب لك من المؤمنين الخاشعين:

﴿إِنَّمَا نُذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: إنما يتعظ بهذه المواعظ والزواجر وينتفع بها الذين يخشون ربهم في خلوتهم، حيث لا يراهم أحد إلا الله تعالى، وهذا يدل على صدق إيمانهم وإخلاصهم، أو يخشون ربهم ولم يروه، لعلمهم أنه تعالى يراهم، وهذا يدل على وصولهم إلى مقام الإحسان، كما قال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)].

وقد أثنى سبحانه عليهم في آيات كثيرة منها قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّمَا نُذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ ذكر هذين المعنيين في صنفين من أصناف المؤمنين الذين يكونون يوم القيامة آمنين من أهواله في قوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله... ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» [رواه مسلم (١٠٣١)].

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوا الصلاة على الوجه المستقيم كما ينبغي، وجعلوها مناراً منصوباً، وعلماً مرفوعاً، لأنها عمود الدين.

وأشار اختلاف صيغة الفعلين (يخشون) و(أقاموا) إلى استمرارهم وبقائهم في كل أوقاتهم على خشية الله تعالى وتعظيمه ومراقبته، وإقامة الصلاة في أوقاتها، وأما خشيته تعالى ومراقبته ففي جميع الأوقات والأحوال.

وعادت الآيات تؤكد كمال غنى الله تعالى وأنه لا تنفعه طاعتهم فقالت:

﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ أي: ومن تطهّر بفعل الطاعات وترك المعاصي فإنما يتزكى لنفع نفسه، فهو المنتفع بعبادة ربه وطاعته، والله غني عن طاعته وعبادته، لا تضره معصية، ولا تنفعه طاعة، كما جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» [رواه مسلم (٢٥٧٧)].

﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: إلى الله المرجع يوم القيامة فيثيبهم على تزكية نفوسهم، فنفعها عائد عليهم في الدنيا والآخرة.

ودلت الآية على أن خشية الله تعالى في السر والعلن، وإقام الصلاة، من أعظم أسباب تزكية النفس وتطهيرها من دنس المعاصي والآثام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

## الاختلاف في السلوك والمصير

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالرُّبُوبِ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ .

وعادت الآيات مرة ثانية إلى مواسة النبي ﷺ عما يلقي من عناد المشركين وجحودهم، فذكرت مثالين يشيران أيضاً إلى التفاوت والاختلاف بين الناس في السلوك والمصير:

- المثال الأول:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: وما يستوي الأعمى عن رؤية بصائر الحق وأدلته الواضحة، والمؤمن الذي أبصر الحق، ورأى أدلته وبراهينه.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ .

أي: ولا تستوي أيضاً ظلمات الكفر وما فيه من شهوات وأهواء، ونور الإيمان ببراهينه الساطعة وحججه الواضحة.

﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾﴾ .

أي: ولا يستوي الثواب ولا العقاب.  
و(الظل) الثواب في ظلال الجنة، و(الحرور): العقاب في النار.

فإذا اختلفت البدايات اختلفت النهايات، والتسوية بين المتفاضلات مصادم للحق، وهي ظلم وجور.

ويلاحظ الترتيب والاتفاق في الآيات بين الألفاظ والمعاني، فالكافر يعرض عن دعوة الرسول ﷺ كأنه أعمى لا يراها، بينما المؤمن يُقبل عليها لرؤيته لها، ويكون حال الكافر كحال من يتخبط في الظلمات، ويسير على غير هدى، بينما يكون حال المؤمن حال من يرى النور، فلا يضل عن الطريق، ومصير كل منهما إما الثواب وإما العقاب؛ وهما الظل و الحرور.

- والمثال الثاني:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ أي: وما يستوي المؤمنون والكافرون، فالأحياء هم المؤمنون الذين أحيا الله قلوبهم بنور الإيمان، والأموات هم الكافرون الذين لم تسر في قلوبهم حياة الإيمان، ولم تتذوق حلاوته، فالإيمان حياة للقلوب، والكفر موت لها كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: إن الله يسمع دعوتك من يشاء سماع إجابة، فينتفع بما يسمع، ويستجيب لها، وما أنت بسماع سماع إجابة الأموات في القبور كما قال تعالى: ﴿فَأَنْتَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الضُّمَمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْرِينًا ﴿٥١﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ﴾ [الروم].

فالمراد سماع الإجابة، فلا يتعارض ما في هذه الآية الكريمة مع ما ثبت عن النبي ﷺ أن الأموات يسمعون.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم،

فقام عليهم، فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبوا<sup>(١)</sup> وقد جُيِّفُوا؟ قال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ما أنتم أسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرُونَ أن يجيبوا» [رواه مسلم (٢٨٧٤)].

فالله سبحانه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه، فيهدي من يشاء هدايته، ويخذل من يشاء إضلاله، وأما أنت فخفي عليك أمرهم، فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾

أي: ما أنت إلا نذير، فلا تحزن بسبب إعراضهم وعنادهم، فامض في تبليغ الرسالة مبشراً للمؤمنين، ومنذراً للمعرضين، فإنك على الحق الذي سار عليه جميع المرسلين.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

أي: وما من أمة إلا مضى فيها نذير، ومع أن هؤلاء المرسلين قد أيدهم الله تعالى بالمعجزات الدالة على صدقهم، فقد كذبتهم أممهم، وأعرضوا عن دعوتهم، كما كذبك قومك، وعاندوا دعوتك، لا بسبب تقصير الرسل، ولا نقص في الدليل، فلا تبال بهم وبتكذيبهم.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾

أي: جاءتهم رسلهم بالبينات الواضحة الدالة على صدقهم وبالصحف المنزلة

(١) وقوله: (يسمعوا، يجيبوا) من غير نون، هكذا وجدت في عامة النسخ المعتمدة؛ وهي لغة صحيحة وإن كانت قليلة الاستعمال.

عليهم كصحف إبراهيم، وبالكتاب المبين للشرائع والأحكام كالتوراة والإنجيل.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

أي: ثم عاقبت الذين كفروا فكيف كان إنكاري عليهم وتعذيبي لهم؟! وفي قراءة: (فكيف كان نكيري) في الوصل دون الوقوف عند ورش، وأثبتها يعقوب في الحالين<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### الاختلاف في ألوان المكونات وجمالها

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

ومن دلائل الحق التي أبصرها المؤمنون، وعميت عنها أبصار الكافرين، صور الجمال والانسجام والاتساق المبتوثة في المكونات مع ما بينها من اختلاف في الألوان:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ وهي مع اختلاف ألوانها في غاية الانسجام والجمال.

﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ ومن الجبال طرائق وشعاب بيض وحمرة مختلف ألوانها .

والجدد: جمع جدة بالضم وهي الطريقة، وقيل: الجدد: القطع، مأخوذة من جددت الشيء إذا قطعته، فيكون المعنى: ومن الجبال قطع مختلف ألوانها .  
﴿وَعَرَيبٌ سُوْدٌ﴾ أي: ومن الجبال أيضاً غرايب سود .

والغريب: هو الذي أبعد في السواد، وأغرب فيه، وهو تأكيد للأسود، وكان من حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع، إلا أنه أضمر المؤكد قبله، والذي بعده تفسير للمضمر، وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد؛ حيث يدل على المعنى الواحد من طريقي الإظهار والإضمار جميعاً<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن جمال المخلوقات يدل على وجود خالقها، وكمال حكمته ومشيتته لما فيه من دلالة على الإبداع والإحكام، وكثيراً ما نرى الآيات الكريمة تنبهنا إلى ظاهرة الجمال الماثورة في المكونات كدليل على وجوده سبحانه ونعمته وفضله، كقوله سبحانه: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴿[النحل].

ولهذا قال أيضاً:

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي: كاختلاف الشمار والجبال، فقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ من تمام الكلام والوقوف عليه حسن بإجماع أهل الأداء<sup>(٢)</sup>.

وبعضهم رأى أن كلمة (كذلك) تشير إلى اختلاف أحوال العباد في

(١) تفسير النسفي: ١١٥/٥ .

(٢) روح المعاني: ١٩١/٢٢ .

الخشية، فقد أخرج ابن المنذر عن ابن جرير: أنه قال في الآية: كما اختلفت هذه الأنعام يختلف الناس في خشية الله تعالى كذلك. لكن الألوسي في «روح المعاني» قال بعد ذلك: هذا عندي ضعيف، والأظهر ما عليه الجمهور<sup>(١)</sup>.

ولكنني أرى أن هذا الرأي يتفق مع الحقيقة والواقع أكثر؛ فالناس في خشية الله تعالى متفاوتون كما سيأتي.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: إنما يخشاه تعالى بالغيب العالمون به ﷺ، وبما يليق بصفاته الجليلة وأفعاله الجميلة لما أن مدار الخشية معرفة المخشي والعلم بشؤونه، فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى له ﷺ، فكأن الآية تكملة لقوله تعالى السابق: ﴿إِنَّمَا نُذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨] تبين من يخشاه ﷺ من الناس<sup>(٢)</sup>.

و﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، فأفادت انتفاء العلم عن لا يخشى الله.

وفي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ كان يقول: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا» [رواه البخاري (٢٠)].

وأفاد تقديم المفعول بيان الخاشعين، والإخبار بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم، ولو أحرر لكان المقصود بيان المخشي والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره كما في قوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

والمقام لا يقتضيه، بل يقتضي الأول، لكونه تعريضاً بالمنذرين المصرين على الكفر، وأنهم جهلاء بالله تعالى وبصفاته، ولذلك لا يخشون الله تعالى، ولا يخافون عقابه<sup>(٣)</sup>.

ويمكن أن تنسحب الآية أيضاً على العلماء ببعض ما في الكون من نظم ونواميس، فإن التفكير فيها بتجرد وإخلاص يملأ القلب خشية من الله تعالى

(١) المرجع السابق: ١٩٦/٢٢.

(٢) تفسير أبي مسعود: ١٥١/٤.

(٣) روح المعاني: ١٩١/٢٢.

الذي أبدعها وأحكمها، وقد حثتنا آيات كثيرة على التفكير والنظر في أسرار المكونات لكي نعرف قدرته وعظمته ﷻ، ويكفي أن نذكر منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۗ﴾ [آل عمران].

ورحم الله سيد قطب الذي شبه المخلوقات بكتاب كوني جميل، كلما قرأ الإنسان فيه ازداد خشية الله تعالى وتعظيماً فقال: «وهذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات، العجيب التكوين والتلوين، يفتحه القرآن، ويقلب صفحاته ويقول: إن العلماء الذين يتلونه ويدرسونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله.. يعرفونه بأثار صنعته، ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه»<sup>(١)</sup>.

ويُقَرَّبُ من هذا المعنى قولُ ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني<sup>(٢)</sup>.

ولا شك أن رؤية أسرار الملكوت تملأ القلب خشية لله تعالى الذي أبدعها وأحكمها، وهو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «عَرَضْتُ عَلَيَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً» [رواه مسلم (٢٣٥٩)].

وفي الحديث الشريف أيضاً: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ أَنْ تَهْتَطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلِكٌ وَاضِعٌ جِبْهَتُهُ لِلَّهِ سَاجِداً، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصَّعِدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تَعْبُدُ» [رواه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠)]. وقال الترمذي واللفظ له: هذا حديث حسن غريب. وأصله في الصحيحين مختصراً]. وقوله: «أطت»: صوتت من ثقل ما تحمل.

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٢٩٤٣/٥.

(٢) تفسير الخازن: ١٥٨/٥.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي: إنه عَزِيزٌ أَحَقُّ أَنْ يُخْشَى، لأنه عزيز، وأحقُّ أَنْ يُرْجَى، لأنه غفور.

\*\*\*

### التجارة الرابحة

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْتِيَهُمُ آخُورَهُمْ وَيُرِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

ولا بد أن تظهر آثار خشيته تعالى في سلوك أصحابها، ومن أهم آثارها العملية ما ذكره سبحانه في معرض الثناء عليهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: يداومون على قراءة القرآن الكريم، ويتبعون آياته علماً وعملاً.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: وتقرَّبوا إلى الله بالعبادات البدنية كإقامة الصلاة، والعبادات المالية بإنفاق المال في الوجوه المشروعة سراً وعلانية، فهم ينفقون كيف ما اتفق، سراً وعلانية من غير قصد إليهما.

وفي كون الإنفاق مما رزقوا إشارة إلى أنهم لم يسرفوا في الإنفاق، وكونه جاء في معرض المدح مشعر بأنهم تحروا الحلال الطيب<sup>(١)</sup>.

(١) روح المعاني: ١٩٢/٢٢.

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: يرجون تجارة لن تكسد ولن تخسر فهي تجارة رابحة مع الله. والرجاء: توقع حصول الثواب.

وفي إخباره تعالى عنهم بذلك إشارة إلى أنهم يتقربون إليه تعالى بأنواع الطاعات، وهم خائفون ألا تقبل منهم، وهي من صفات الصالحين الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٦﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَافِقُونَ ﴿٦٧﴾ [المؤمنون].

ثم بين سبحانه مدى ربح تجارتهم بما يتفضل عليهم من الأجر الكامل والفضل العظيم فقال:

﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٦٧﴾﴾

أي: ليعطيهم سبحانه أجورهم كاملة، ويزيدهم من فضله، فيغفر تقصيرهم في طاعته، ويتقبل عملهم القليل، ويجازيهم عليه الثواب الجزيل.

\*\*\*

## العباد المضطفون

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عِندَنَا ذُكُورًا ذَمِيمًا وَمِنْهُمْ مَّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُادِنُ اللَّهَ ذَلِكَ هُوَ الْفَصْلُ الْكَبِيرُ ﴿٦٩﴾﴾

والاختلاف في خشيته تعالى يؤدي إلى الاختلاف في طاعته وعبادته، وهو ما أبرزته آيات السورة، بعد أن مهدت له ببيان ما تفضل الله به على الأمة المسلمة بنعمة الاضطفاء والتكريم، لتحمل رسالة القرآن الكريم المنزلة على خاتم المرسلين:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١)

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فالقرآن الكريم الذي نزل به الوحي على الرسول الكريم ﷺ هو الحق المصدق لما تقدمه من الكتب الإلهية وكل ما يخالفه باطل.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: إن الله تعالى عالم بالبواطن والظواهر، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح إليك مثل هذا الكتاب المعجز الشاهد والحاكم على جميع ما تقدمه من كتب، فهو كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولا يخفى ما في الآية من إشادة بالرسول ﷺ وتكريمه، فهو العَلَمُ الفرد المصطفى من بين سائر الخلق، لحمل رسالة الحق إلى جميع المكلفين من الخلق. وكما اصطفى الله الرسول ﷺ لتلقي رسالة القرآن الكريم وحملها إلى الناس، اصطفى سبحانه أيضاً أمته لتحمل رسالة القرآن من بعده فقال:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢)

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: ثم أورثنا القرآن الكريم الأمة المسلمة التي اختارها الله تعالى من بين سائر الأمم، فجعلها أمة سيد الرسل ﷺ، وخصّها بحمل أكرم الرسالات وأكملها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

يَبِّينُ سبحانه أنه قَدَّرَ وحكم أن تحمل الأمة المسلمة رسالة القرآن الكريم

عن نبينا ﷺ لأنه خاتم النبيين والمرسلين، فتورث الكتاب لم يكن إلا لأمة محمد ﷺ، والأوائل لم يورثوه. و﴿أَصْطَفَيْنَا﴾ اخترنا وفضلنا<sup>(١)</sup>.

• التفاضل في حمل رسالة الإسلام:

يَبين سبحانه أنهم في حمل هذه الرسالة والقيام بتكاليدها متفاضلون ومختلفون: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي: منهم ظالم لنفسه بتقصيره في حمل رسالة القرآن والعمل بها، فقد ظلم نفسه، وحرمها من شرف حمل رسالة القرآن الكريم والعمل بتكاليدها.

﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: ومنهم متوسط، يعمل تارة لدينه وطاعة ربه، وينشغل تارة أخرى في العمل لشهواته ودينياه.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ومنهم متقدم على غيره في طريق الخيرات والأعمال الصالحات بتوفيق الله تعالى و تيسيره، فيصرف كل ما أوتي من وقت وجهد في طاعة ربه، وخدمة دينه، ونشر رسالته.

فالأقسام الثلاثة - كما قال ابن كثير - في هذه الأمة، والعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة؛ فإنهم كما روى كثير بن قيس قال: «قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو بدمشق فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديثٌ بلغني أنك تحدثت به عن رسول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم، قال رضي الله عنه: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتَها رِضًا لَطالِبِ العِلْمِ، وإِنَّه لِيستغفرُ للعالمِ مَنْ في السماواتِ والأرضِ، حتى الحيتانِ في الماءِ، وفضلُ العالمِ على العابدِ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإِنَّ العلماءَ هم ورثةُ الأنبياءِ، وإِنَّ الأنبياءَ

(١) المحرر الوجيز: ٢٤٧/١٢.

لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافٍ»  
[رواه أبو داود (٣٦٤١ و ٣٦٤٢) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) وابن حبان (٨٨)].

وتشير كلمة (سابق) إلى صدق مشاعره وإخلاصه، وبذله أقصى ما يستطيع  
في تحصيل الخيرات والفوز بالدرجات كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ  
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وفي قوله: ﴿يَا ذِينَ اللَّهِ﴾ تنبيه على عزة الرتبة، وصعوبة التحقق بها، إلا لمن  
وفقه الله تعالى ويسرها عليه، فلا يستغني أرباب السلوك السائرون على طريق  
الحق عن معونته تعالى وتيسيره، وعليهم دائماً أن يتوجهوا إليه خاشعين ضارعين،  
يطلبون منه التوفيق والتسديد والثبات على الطريق كما في قوله الذي نرده في كل  
صلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة].

ومن الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ بعد كل صلاة: «اللهم أعني على ذكرك  
وشكرك وحسن عبادتك» [رواه أبو داود (١٥٢٢) والنسائي (٥٣/٣) وابن حبان (٢٣٤٥)].

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الاصطفاء لتوريث الكتاب وحمل  
رسالة الإسلام فضل كبير من الله تعالى عليهم من غير سابقة استحقاق.

\*\*\*

### دار المقامة

﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا  
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ  
فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٥﴾

وكما تفضل سبحانه عليهم في الدنيا بالهداية والاصطفاء ليكونوا من حملة  
الرسالة الإسلامية، يتفضل عليهم أيضاً يوم القيامة بالمغفرة ودخول الجنة:

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿٣٣﴾ .

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ وقرئ: ﴿جَنَّتٍ﴾ بالنصب على الاشتغال، وفي تقديم جنات عدن وبناء الكلام عليها إيذان للاهتمام بها أكثر، فإن نظر السامع على المدخول فيه لا على نفس الدخول<sup>(١)</sup>.

بينما قال في سورة الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿٤﴾ .

ثم فصلت الآيات بعض أنواع النعيم في الجنة إظهاراً لفضله تعالى عليهم: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: يزيّنون في الجنة بأساور الذهب واللؤلؤ، أو من ذهب مرصع باللؤلؤ، ونُصب عطفاً على محل (من أساور)، وقرئ (لؤلؤ) عطف على ذهب.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: ولباسهم من حرير الجنة كما في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمٌ أَلْوَابٌ وَحَسَنَاتٌ مَرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ﴿٣٤﴾ .

أي: الحمد لله الذي أذهب عنا وأراحنا مما كنا نخاف ونحذر من هموم الدنيا والآخرة، إن ربنا يغفر الكثير، ويُعطي الجزيل على العمل اليسير، وهو اعتراف منهم بتقصيرهم، وإقرار بفضله تعالى عليهم.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: الذي أنزلنا الجنة دار الإقامة الدائمة بفضله لا بأعمالنا، كما جاء في الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال:

(١) تفسير النيسابوري: ٩٤/٢٢.

«ما مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» فقل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني ربي برحمة» وفي رواية: «وفضل» [رواه مسلم (١٨١٦)].

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا يصيبنا فيها تعب ولا عناء، ولا يصيبنا فيها ما يتبعه من إعياء وفتور.

فالمراد نفي التعب الجسماني والنفساني، فلا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، بل صاروا في راحة دائمة مستمرة.

\* \* \*

### الإعذار في الأعمار

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُورًا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَرِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

وكما عودنا الله في القرآن الكريم انتقلت الآيات من وصف حال المنعمين في الجنة إلى وصف حال المعذبين في النار، فهو أسلوب رفيع من أساليب التربية والتهذيب في التنزيل الحكيم:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُورًا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُورًا﴾ أي: لا يحكم عليهم بموت فيستريحوا من عذاب جهنم، فهم من شدة العذاب يتمنون الموت

ويطلبونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكِكَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿وَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل هم في زيادة مستمرة من العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: مثل هذا الجزاء نجزي كل مبالغ في الكفر مصرّ عليه حتى الموت، أو نجزي كل مبالغ بكفران النعم لا جزاء أخف وأدنى منه.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (٣٧).

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: وهم يصرخون مستغيثين بجهد ومشقة، وهذا يدل على كثرة صراخهم حتى تعبوا فصاروا يعانون ويتألمون منه ويقولون: ربنا أخرجنا من النار لتتلافى ما فاتنا من العمل الصالح. ويأتي الجواب باستفهام فيه توبيخ وتقرير وإفحام:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: أولم نمهلكم حتى عشتم في الدنيا أعماراً يمكنكم فيها التفكير والتذكر والإيمان والعمل الصالح.

فالعمر حجة على صاحبه، وهو مسؤول عنه، وهو يتناول كل عمر يتمكن فيه المكلف من التفكير والتذكر مهما كان قصيراً، إلا أنّ الحجة عليه أعظم، والتوبيخ في حقه أشد في العمر المتناول.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أعذر الله إلى امرئٍ آخرٍ أجله حتى بلغه ستين سنة» [رواه البخاري (٦٤١٩)].

المعنى: أنه لم يبق له اعتذار، كأن يقول: لو مُدَّ لي في الأجل لفعلت ما أمرت به، يقال: أعذَرَ إليه: إذا بلغه أقصى الغاية في العذر، ومكَّنه منه<sup>(١)</sup>.

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي: وجاءكم الرسول صلى الله عليه وسلم فأقام عليكم الحجة، وبين

لكم طريق الهدى، وحذركم من الضلال، وقد يكون المراد جنس النذير، وهم الأنبياء ﷺ فكل نبي نذير أمته، ويؤيده أنه قُرئ ﴿النُّذُرُ﴾ جمعاً.

﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير يمنعهم من العذاب. والمراد بالظلم: الضلال والكفر والشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

فلا يخفى عليه سبحانه شيء في السماوات والأرض، ويعلم ما تخفي الصدور، وما تنطوي عليه الضمائر، فهو سبحانه يعلم إصرار الكفار على كفرهم أبداً مهما عاشوا، ولهذا قدر خلودهم في العذاب، ويعلم سبحانه أيضاً أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر والعناد كما في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

ثم بينت الآيات في مقابل هذا العذاب الشديد شناعة الكفر وشدة قبحه، وأن الناس مسؤولون عنه في جميع أجيالهم:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: الله جعلكم أجيالاً، يخلف بعضكم بعضاً في الأرض، وملَّكم خيراتها، فمن جحد فضله تعالى فعليه وبال كفره لا على غيره، كما مرَّ معنا عند قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨].

فلا يتحمل أحد أوزار أسلافه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: بُغضاً أو أشد البُغض والاحتقار، ومع زيادة البغض تزيد خسارتهم.

﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: إلا خسراناً وهلاكاً. وأفاد التكرير في الآية بيان شدة قبح الكفر، ووجوب الحذر منه واجتنابه، فكل واحد من الأمرين - المقت والخسارة - يكفي للحذر منه، فكيف إذا ترتب عليه كلا الأمرين؟! وفي الآية إشارة لما سبق تقريره من كمال غنى الله تعالى، وأن كفر الكافرين لا يضره جل وعلا، فلا يعود وبال كفرهم إلا على أنفسهم.

\* \* \*

### الإيجاد والإمداد من الله وحده

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْوِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ بَعْدَ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤٥﴾

ثم شنت الآيات حملة ثانية على المشركين وشركائهم بعد أن بينت قبح الكفر وعواقبه الوخيمة، وأمرت النبي ﷺ أن يقوم بها:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْوِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ بَعْدَ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْوِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أخبروني عن شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله تعالى، أروني أي جزء خلقوا من الأرض؟ الأرض الممتلئة بالأجناس والأنواع والألوان التي سبق عرضها في الآيات! . ولا يخفى ما في السؤال من تحدٍ لهم ولآلهتهم، وتقرير لعجزها وضعفها.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: أم لهم شركة مع الله سبحانه في خلق السماوات، وهذا أعظم استحالة من الأول، فمن عجز عن خلق جزء من الأرض فهو عن خلق جزء من السماوات أعجز.

﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: أم آتيناهم كتاباً ينطق بأنا جعلناهم شركاء، فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب، وفي قراءة: (على بينات) فيكون إيماء إلى أن الشرك خطير لا بد فيه من تعاضد الدلائل<sup>(١)</sup>.

فالشرك لا يستند إلى أي دليل عقلي أو نقلي، ثم كشفت الآية بأسلوب الإضراب سبب ضلالهم وشركهم.

﴿بَلْ إِنْ يَدْعُوا الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: ما حملهم على الشرك إلا تغرير الشيطان ورؤساء الضلال الذي سبق التحذير منه في صدر السورة عند قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرِفُكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرُقُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

وكما أنه سبحانه وحده الخالق والمدبر لأمر المكونات كلها، فهو وحده الذي يُمِدُّها بالوجود والبقاء، فهو قيوم السماوات والأرض ﷻ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي: إن الله يمنع السماوات والأرض من أن تزولا، بقاء المخلوقات كلها، واستمرار وجودها منوط بمشيئته وقدرته ﷻ، فهو وحده قيوم السماوات والأرض كما قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۗ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذْ أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أي: ولئن قدر زوالهما ما أمسكهما أحد غيره.

وفي كلمة ﴿يُمْسِكُ﴾ إشارة إلى أثر الشرك الكبير الخطير على بقاء

المكونات واستمرار وجودها كما في قوله سبحانه: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم].

فإنه تعالى ما أبدع هذه المخلوقات إلا ليعمرها المكلفون بطاعته وعبادته، وعندما لا يبقى أحد في الأرض يعبده ويذكره يقيم الله الساعة، كما في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله» [رواه مسلم (١٤٨)].

فالإيجاد والإمداد من الله تعالى، ويتوالى عطاء الله على مخلوقاته ببركة من يعبده ويذكره.

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فلولا حلمه وغفرانه لزلت السماوات والأرض.

\*\*\*

### اختلاف المواقف

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِدْحَى الْأُمِّمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُوَاحِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فِإِذَا جَاءَ أَجْلَهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

ومن المفارقات العجيبة أن مشركي العرب كانوا قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ينتقدون أهل الكتاب بسبب تكذيبهم لرسولهم، واختلافهم فيما بينهم، ويقولون: لو أتانا رسول كما أتاهم ل نكونن أهدى منهم، فلما أرسل الله إليهم خاتم رسله صلى الله عليه وسلم كفروا به، وكذبوه، وقد ذكّرهم الله تعالى بتغيير مواقفهم فقال:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ .

أي: حلفوا بالله واجتهدوا في تأكيد أيمانهم لئن جاءهم نذير كما جاء الأمم قبلهم ليكونن أهدى منهم، فلما جاءهم محمد ﷺ ما زادهم إنذاره إلا تباعدًا عن الحق ونفوراً منه .

والجدير بالذكر أن الله سجّل عليهم هذا التغير والتناقض في المواقف في سورة الصافات وهو قوله: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ .

ثم بين تعالى سبب ضلالهم وتغير مواقفهم فقال:

﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَن نَحْدِ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام لأجل الاستكبار في الأرض والمكر السيئ به عليه الصلاة والسلام، فالكبر والحسد أبرز أسباب ضلالهم وعنادهم .

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي: لا يحل ولا يحيط العمل القبيح إلا بأهله، كما ورد في المثل: من حفر لأخيه جُبًّا وقع فيها منكبًّا .

فالأمر بعواقبها، والله تعالى يمهل ولا يهمل، ووراء الدنيا الآخرة: ﴿وَسِعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] .

ومن مكر في غيره، ونفذ فيه المكر عاجلاً؛ ففي الظاهر هو الفائز، وفي الحقيقة الماكر هو الهالك .

وفي قوله: ﴿بِأَهْلِهِ﴾ دون أن يقول: إلا بالماكر؛ إشارة إلى أن من رضي

بالمكر وأعان عليه يندرج في زمرة أهل المكر<sup>(١)</sup>. أسأله تعالى أن يدفع عنا مكر الماكرين.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾  
أي: ما ينتظرون إلا سنته تعالى بإهلاك المكذبين لرسولهم، وهي سنة ثابتة، لا يغيرها ولا يحولها عن أوقاتها.

فالأمر لا تمضي في الناس جُزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً، فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول، والقرآن يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس، كي لا ينظروا إلى الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصلية، محصورة بين فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان<sup>(٢)</sup>.

وحتى يتأكدوا من هذه الحقيقة بأنفسهم دعتهم الآيات إلى الاعتبار بمصائر الأجيال قبلهم:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾<sup>(٤٤)</sup>

فقد كان في الأمم قبل أهل مكة أكثر منهم قوة في العدد، فلم يمتنعوا من عذاب الله تعالى عندما نزل بهم، فلا يعجزه شيء في السماوات والأرض، إنه <sup>عَلِيمٌ</sup> كان ولا يزال عليمًا بجميع المكونات وقادراً عليها.

وتأخير عقاب المكذبين لا يعني تغييراً في سنته تعالى أو تحويلاً، فهو سبحانه حلیم غفور، والخلق والتدبير منوطان أبداً بمشيئته جل وعلا، ولهذا ختم السورة بتقرير هذه الحقيقة فقال:

(١) تفسير النيسابوري: ١١٠/٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٩٥٠/٥.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: ولو يؤاخذ الله الناس بما يقترفون من المعاصي والآثام ما ترك على ظهر الأرض أحداً يذبُّ عليها، فشؤم الكفر والفجور يعمُّ وينتشر، كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

وقال هنا أيضاً:

﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ أي: ولكن يؤخرهم ليوم الحساب أو إلى الأجل المقدر لإهلاكهم، فإذا جاء يوم الحساب فإن الله يجازي كل مكلف عن عمله كما سبق معنا عند قوله: ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وبهذا البيان الذي بين الله فيه أن الخلق وتدبير أمر المخلوقات من أصغرها إلى أكبرها يتم بمشيئته تعالى وحده، فجميعهم في قبضة قدرته جل وعلا، وتحت قهر مشيئته، سواء في ذلك المخلوقات الظاهرة والخفية؛ حَتَمَ اللهُ تَعَالَى آيَاتِ السُّورَةِ.





## تفسير سورة يس

### مَرَقَاةُ الْوُضُولِ فِي سُورَةِ يَسْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَرَّمَةُ  
وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: أقسم الله تعالى في صدر سورة يس بالقرآن الحكيم تأكيداً لصحة وصدق رسالة النبي ﷺ وحاجة الناس الشديدة إليها، فهي مرقاة الوصول إلى الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة، ومهما أعرض عنها المعرضون المعاندون فثمة من يستجيب لها: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَشَرَهُ بِمَغْفِرَةِ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

إن خطوات المستجيبين على طريق الوصول مكتوبة مأجورة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

لقد أرسل الله تعالى ثلاثة مرسلين إلى مدينة واحدة فأعرض أهلها عنهم، ولم يستجب لهم إلا رجل واحد، وأرسل خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة في جميع الأقطار والأجيال، فاستجاب لدعوته المؤيدة بالأدلة

والآيات الواصلون الفائزون من أصحاب الجنة الذين يقال لهم يوم القيامة:  
﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وأعرض عنه المعاندون من أتباع الشيطان وعُبداه الذين يُقال لهم يوم  
القيامة: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

أولئك الذين لم ينتفعوا بالدلائل والآيات البينات، فكانت قلوبهم ميتة  
لا حياة فيها: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

أسأله سبحانه أن يثبتنا على صراط رسوله المستقيم، وأن يجعلنا من  
الواصلين الفائزين: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

اللهم آمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين.



## تفسير سورة يس

### تَرْقَاءُ الْوُضُولِ فِي سُورَةِ يَسِّ

#### الرسول والساعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 ﴿يَسَّ﴾ (١) وَالْقُرْآنِ الْعَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلِ الْعَزِيزِ  
 الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِشِدْرٍ قَوْمًا مَا أَنْذَرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غٰفِلُونَ ﴿٦﴾ .

﴿يَسَّ﴾ (١) .

حرفان من الحروف المقطعة النورانية، وقد تقدّم القول في هذه الحروف فيما سلف، ويشير ما بعدها إلى أنّ فيها خطاباً للنبي ﷺ، وقد ذكر القرطبي عند تفسيره ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ إِيَّالَ يَاسِينَ﴾ [الصفات: ١٣٠] أنّ بعضهم قال في تفسيره ﴿يَسَّ﴾: يا محمد، ثم قال: وهذا القول يبطل من وجوه كثيرة، أحدها: أنّ سياق الكلام في آل ياسين كما هي في قصّة إبراهيم ونوح وموسى وهارون، وأنّ التسليم راجع عليهم، ولا معنى للخروج عن مقصود الكلام...

فإنّ ﴿يَسَّ﴾ و﴿حَمَّ﴾ و﴿الْمَ﴾ ونحو ذلك، القول فيها واحد، إنّما هي حروف مقطعة... وأيضاً فإنّ ﴿يَسَّ﴾ جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف، ولو كان اسماً للنبي ﷺ لقال: (يسن) بالضم، كما قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

ويوحى ما للحرفين من جرسٍ ناعم خفيف رقة الخطاب ولطفه وأنسه.

## ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾

وهو قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ الْمَتَضَمِّنِ لِلْحِكْمَةِ، وَالْمَتَضَفِّفِ بِهَا، وَالنَّاطِقِ أَيْضاً لَهَا.

أَوْ: قَسَمٌ بِالْقُرْآنِ الْمَحْكَمِ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، كَمَا مَرَّ مَعْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقِسْمَ بِالْقُرْآنِ؛ وَوَصَفَهُ بِالْحَكِيمِ؛ فِيهِ تَنْوِيهِ بِشَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ الْمَقْسَمِ مِنْ أَجْلِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ الْقِسْمِ:

## ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

أَي: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ، وَقَدْ أَكَّدَ تَعَالَى فِي هَذَا الْقِسْمِ صِدْقَ رِسَالَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَرَدَّ عَلَى مَنْكِرِيهَا الَّذِينَ سَبَقَ فِي سُورَةِ فَاطِرٍ بَيَانَ نَفُورِهِمْ وَعِنَادِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٤١﴾، وَلَمْ يَقْسَمِ اللَّهُ تَعَالَى لِأَحَدٍ مِنْ أَنْبِيَائِهِ بِالرِّسَالَةِ فِي كِتَابِهِ إِلَّا لَهُ (١).

وَفِي تَخْصِيصِ الْقُرْآنِ بِالِاقْسَامِ بِهِ أَوَّلًا؛ وَبِوَصْفِهِ بِالْحَكِيمِ ثَانِيًا؛ تَنْوِيهِ بِشَأْنِهِ؛ وَتَنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ كَمَا يَشْهَدُ بِرِسَالَتِهِ ﷺ مِنْ حَيْثُ نَظَّمَهُ الْمَعْجَزُ الْمَنْطَوِيُّ عَلَى بَدَائِعِ الْحُكْمِ، يَشْهَدُ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ أَيْضاً (٢).

وَالجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ اللَّهَ نَصَّ عَلَى اتِّصَافِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِصِفَةِ الرَّسَالَةِ مَعَ التَّصْرِيحِ بِاسْمِهِ فِي عِدَدٍ مِنَ الْآيَاتِ؛ مِنْهَا: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. وَمِنْهَا أَيْضاً قَوْلُهُ: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

(١) تفسير القرطبي: ٥/١٥.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٥٨/٤.

## ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾

أي: إنك لمن المرسلين على منهج قويم ودين مستقيم؛ وهو دين الإسلام الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، كما أنه مرعاة الوصول إلى جنة الله تعالى ورضوانه، فهو الصراط المستقيم الذي عَلَّمْنَا رَبَّنَا أَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يَثْبِتَنَا عَلَيْهِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

## ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾

أي: هذا القرآن تنزيل العزيز في ملكه، الرحيم في خلقه. وقرئ: (تنزيل) بالنصب على المدح، أو على المصدرية للفعل المحذوف، وأياً كان فهو مصدرٌ بمعنى المفعول، عبَّرَ به عن القرآن بياناً لكمال عراقتِه في كونه منزلاً من عند الله ﷻ، وفي تخصيص الاسمين الكريمين المُعْرَبَيْنِ عن الغلبة التامة والرأفة العامة حَثُّ على الإيمان به ترهيباً وترغيباً، وإشعاراً بأنه تنزيل ناشئ عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] (١).

## ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ أي: لتنذر قوماً - وهم العرب كما قال ابن كثير ﷺ - ما أنذر آبائهم الأذنون، وإلا فالأبعدون قد أنذرهم إسماعيل ﷺ، وبلغهم شريعة إبراهيم ﷺ.

وليس في الآية أن النذارة للعرب خاصة، فالبشارة والنذارة عامة في رسالته عليه الصلاة والسلام كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

(١) تفسير أبي السعود: ١٥٩/٤.

ويمكن أن تنسحب الآية على اليهود والنصارى أيضاً لأن آباءهم القريين من زمن بعثته عليه الصلاة والسلام لم يندروا بعدما ضلوا، فجميع الأمم كانوا في أمس الحاجة لبعثته عليه الصلاة والسلام.

﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ أي: فهم غافلون عن يوم القيامة وما فيه من مسؤولية وجزاء، وغافلون أيضاً عن دعوة التوحيد والصراط المستقيم.

وهذه الغفلة تفسد القلوب وتعطلها، فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته، معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة، ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم، الذين مضت الأجيال دون أن يندرهم منذر أو ينبههم منه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### عناد وجحود

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا فَهِىَ إِلَىٰ الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْيَنَتْهُمْ فُهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: والله لقد ثبت وتحقق عليهم قوله تعالى الذي قال للشيطان: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] لا بطريق الإكراه والإكراه، بل بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار، وإعراضهم عن التذكير والإنذار.

(١) في ظلال القرآن: ٥/٢٩٥٩.

فثبوت القول عليهم بسبب إصرارهم على الكفر، وتماديهم في اتباع خطوات الشيطان، ولهذا ختم الآية بقوله:

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بسبب إصرارهم على الكفر، وتماديهم في اتباع خطوات الشيطان، وجحودهم وعنادهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس].

ثم مثلت الآيات لإصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه بما يلي:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٩٢﴾﴾

أي: إننا جعلنا في أعناقهم أغللاً ثقلاً غلاظاً بحيث تبلغ إلى الأذقان، فلا يتمكنون معها من طأطأة رؤوسهم أو تحريكها، فهم مرفوعو الرؤوس لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يبطأطون رؤوسهم له.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَهُمُ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أي: وجعلناهم محصورين بين سدين هائلين، فغطينا بهما أبصارهم فأصبحوا لا يبصرون شيئاً.

وفي قراءة: (سُدًّا) بضم السين وهو لغة فيه.

وهذا تمثيلٌ لحال من استبدت بهم شهواتهم، وغلبت عليهم أهواؤهم، فحُجِّبوا بها عن رؤية الحق ودلائله، والاستضاءة بأنواره، والانتفاع ببراهينه، فأدَّى بهم هذا إلى الإصرار على الكفر، والتمادي فيه، حتى وصلوا إلى قمة هرم الجحود والعناد.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٤﴾﴾

فإنذارك وعدمه متساويان عندهم بسبب عنادهم وجحودهم، كما في قوله

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿البقرة﴾ .  
ويتضمن توجيه الخطاب للنبي ﷺ تسليته ومواساته عن عنادهم وجحودهم .

\*\*\*

## التمسك بالقرآن وخشية الرحمن

﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءِثْرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

وفي مقابل المعاندين الجاحدين ذكرت الآيات المتأثرين بإنذاره عليه الصلاة والسلام، والمستجيبين لدعوته، فالباطل مهما أُرعدَ وأزبدَ لا يطمس معالم الخير، فالخيرُ باقٍ في الناس، لا ينقطع ولا ينتهي، ورسالة الإسلام تقويّه، وتمده بأسباب البقاء والنماء، واستمرت الآيات الكريمة توجه الخطاب للنبي ﷺ:

﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك من تمسك بالقرآن الكريم، والتزم بأحكامه، وخاف الرحمن، وعظّمه في السر والعلن، ممّا يدلُّ على صدقه وإخلاصه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

وفي ذكر الخشية مع تعقيبه باسم الرحمن إشارة إلى أنّ قهره تعالى مقرون بلطفه، فإنه رحيم غفار، كما أنه منتقم قهار.

فالتمسك بالقرآن، وخشية الرحمن في السر والعلن، هما مرقاة الوصول للفوز بالجنة والرضوان، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: فكما أنذرت المعاندين يا محمد، فبشِّر المؤمنين بعفوه تعالى عن تقصيرهم، وبأجر كريم على خشيتهم الرحمن، وخوفهم منه، وتعظيمهم له في السر والعلن، بشرهم بالوصول إلى الجنة والرضوان، وما أجملها من بشارة حملها الرسول الكريم إلى المؤمنين من ربهم الغفور الرحيم، تثبيتاً لهم على الطريق، ليكونوا بفضلته تعالى من الواصلين. ويحقق تعالى مضمون هذه البشارة لهم يوم إحياء الموتى، وبعثهم من القبور، وهو ما أكدته الآيات بأسلوب الخبر المؤكد المعظم:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي: إنا نحن القادرون على إحياء الموتى يوم القيامة.

وفي ضمير العظمة إشارة إلى جلاله إحياء الموتى، فأحياء الموتى عمل عظيم، لا يقدر عليه غيرنا، وقد احتجَّ به إبراهيم عليه السلام على الطاغية الذي حاجه في ربه، كما قال تعالى: ﴿الَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٨].

وفيها إشارة إلى أنه تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين ماتت قلوبهم بالضلال، بهدايتهم إلى الحق، فالإيمان حياة القلوب، والكفر موت لها، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ أي: ونكتب ما عملوا في حياتهم من خير، وما تركوا بعد موتهم من أثر حسن.

ففي الحديث الشريف: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعَمَلٌ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمَلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ...» [رواه مسلم (١٠١٧)].

فيدخل فيه كل علم علّموه، أو كتاب ألفوه، أو حبيس وقفوه... إلخ، وغير ذلك من وجوه الخير والبر.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وأحصينا كل شيء من خير أو شر في أصل عظيم الشأن، يؤتم به ويتبع ولا يخالف، وهو اللوح المحفوظ، وقد يراؤ به كتاب أعمالهم الذي قال تعالى فيه: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وفي الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد» قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم» [رواه مسلم (٦٦٥)].

ومعناه: الزموا دياركم فإنكم إذا لزمتموها كتبت آثاركم وخطاكم الكثيرة إلى المسجد.

\* \* \*

### أصحاب القرية

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا نَسْرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكِيدُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

أي: اضرب يا محمد مثلاً للمشركين المعاندين في إصرارهم وإعراضهم عن الصراط المستقيم أصحاب القرية عندما جاءها المرسلون.

أو: اجعل أصحاب القرية مثلاً للمشركين في عنادهم وإصرارهم على الكفر، وتكون القصة بهذا المعنى مسوقةً لمواساة النبي ﷺ عمّا يلقي من عناد قومه وإصرارهم على الشرك.

والعجيبُ أنّ كثيراً من المفسرين ذكر أنّ هذه القرية هي أنطاكية في شمال بلاد الشام، وأنّ الرسولين هما من الحواريين أرسلهم عيسى ﷺ وهما شمعون ويوحنا، وأنّ الثالث الذي انضمَّ إليهما بعد ذلك هو بولس والذي كان اسمه شاول. وقد تأثروا بالمصادر النصرانية التي تذكر أنّ مرقص صاحب الإنجيل اسمه يوحنا، وأنه لازم خاله برنابا وبولس في رحلتها إلى أنطاكية، وتبشيرهما بالمسيحية فيها<sup>(١)</sup>.

وقد رد ذلك ابنُ كثير في «تفسيره» وقال: وفي ذلك نظرٌ من وجوه: أولها: أنّ ظاهر القصة يدلُّ على أنّ هؤلاء كانوا رسلَ الله ﷻ لا من جهة المسيح ﷺ.

ثانياً: أنّ أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانت أولَ مدينةٍ آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربع اللاتي فيهن بطاركة. ثالثاً: أنّ قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر غير واحدٍ من السلف أنّ الله تبارك وتعالى بعد إنزال التوراة لم يهلك أمةً من الأمم عن آخرهم بعذابٍ يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين. فعلى هذا يتبيّن أنّ هذه القرية المذكورة في القرآن غير أنطاكية، فإنّ هذه لم يُعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك.

#### • تكذيب المرسلين:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾

أي: إذ أرسلنا إلى القرية رسولين فكذبوهما فقومناهما برسول ثالث. وفي قراءة: (فعزّزنا) بالتحفيف. فقالوا لأهل القرية: إنا إليكم مرسلون.

(١) انظر كتاب: محاضرات في النصرانية.

واستمرَّ أصحابُ القرية على عنادهم وإصرارهم على الكفر، وكذبوا المرسلين الثلاثة، كما فعل مشركو مكة، الذين استمروا على عنادهم وجحودهم للبينات الواضحات، التي أيدَّ اللهُ تعالى بها النبيَّ ﷺ، وهي آيات التنزيل الحكيم التي كانت تنزل على النبي ﷺ تعززه وتسلييه، وتشهدُ بصحة رسالته وصدق نبوته.

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي: قال أصحاب القرية للمرسلين الثلاثة: ما أنتم إلا بشر مثلنا، فلا مزية لكم علينا توجب اختصاصكم بما تدعونه. فالحسدُ هو الذي حمل أصحاب القرية على تكذيب المرسلين، ووجد رسالتهم قائلين:

﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي: وما أنزل الرحمن من شيء، وما أنتم بدعواكم الرسالة إلا كاذبون.

ويدل ظاهرُ كلامهم على إقرارهم بالربوبية، لكنهم ينكرون الرسالة كما كان مشركو مكة، الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

فما كان من المرسلين إلا أن أكدوا صدق رسالتهم:

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾

استشهد المرسلون على صدقهم بعلم الله، وهو يجري مجرى القسم في التأكيد، فزادوا اللام المؤكدة، فكأنهم قالوا: إن تكذيبكم لا يؤثر على صدق رسالتنا، فربنا يعلمُ صدقنا، ولن يمنعنا تكذيبكم من التبليغ الواجب علينا للرسالة الواضحة.

## المتشائمون من دعوة المرسلين

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وعندما رأى أصحاب القرية المعاندون ثقة المرسلين بصدق رسالتهم وتصميمهم على تبليغها؛ لجؤوا إلى التهديد والوعيد، ومهدوا له باتهام الرسل بتهمة باطلة:

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: إننا تشاءمنا بكم، ولم نرَ خيراً على وجوهكم.

وهو ديدن المعاندين الجاحدين في كل زمان ومكان، يتفائلون بما يوافق أهواءهم وشهواتهم، ويتشاءمون بما لا يوافقها، حكاة الله تعالى عن المعارضين لدعوة المرسلين كفرعون وقومه: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَّا إِنَّمَا طَّيَّرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وحكاة تعالى أيضاً من أقوال أعداء نبينا عليه الصلاة والسلام من اليهود والمنافقين: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لئن لم تتركوا دعوتكم هذه لنرجمنكم بالحجارة حتى الموت، وليصيبنكم منا عذاب أليم.

لكنَّ الرسل ﷺ لم يتأثروا بوعيدهم وتهديدهم، وردوا عليهم بثقة وثبات وشجاعة:

﴿قَالُوا طَٰغِيٰتِكُمْ مَّعَكُمْ أَيَّنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿قَالُوا طَٰغِيٰتِكُمْ مَّعَكُمْ﴾ أي: شؤمكم منكم، بسبب كفركم وتكذيبكم .

وأضافوا مستنكرين تهديدهم ووعيدهم :

﴿أَيَّنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ أي: إن ذكرتم ودعيتم إلى ما فيه سعادتكم تطيرون أو

تتوعدون؟! وقرئت بهمزتين: الأولى همزة استفهام، والثانية همزة إن الشرطية، حققها الكوفيون وابن عامر، وسهّلها باقي السبعة<sup>(١)</sup> .

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم، متمادون في

غيكم، حيث تشاءمون بما هو سبب سعادتكم .

واستعمل الرسل أسلوب الإضراب والانتقال ليبيّنوا لأصحاب القرية أنّهم

على عكس ما يقتضيه النظر الصحيح .

\* \* \*

### الناصح في الحياة وبعد الممات

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَشْتَكُوا أَجْرًا

وَهُمْ مُّهِتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ

يُرِيدِنَا الرَّحْمَنُ بِصِرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُقِدُّونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّهُ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

إِنِّي ءَأَمْتُ رَبِّي كَمَا فُتِنْتُ فَأَسْمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي

رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ويبدو أنّ أصحاب القرية همّوا بقتل الرسل، وتنفيذ وعيدهم، فجاءهم رجلٌ

من أطراف المدينة يسعى لنصرة المرسلين والدفاع عنهم :

(١) روح المعاني: ٢٢٤/٢٢ .

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ أي: يعدو ويسرع في مشيه، حرصاً على نصح قومه، ونصر الرسل، والدفاع عنهم.

ويلاحظ تقديم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقدم إظهاراً لفضله، فقد هداه الله تعالى مع بعده عنهم، ولهذا عبر بالمدينة هنا إشارة إلى سعتها، وأن الرجل بذل جهداً كبيراً في سعيه، ولا شك أن الله تعالى كتب آثاره الكثيرة هذه، وهو يسعى إلى الوصول للفوز بالرضوان والجنان، ودل هذا على أن الرسل ما قصروا في التبليغ والإنذار حتى وصل خبرهم إلى القريب والبعيد، والظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه أو سلطان، ولم يكن في عزّة من قومه، أو منعة في عشيرته، ولكنها العقيدة الحية في ضميره دفعته وجاءت به من أقصى المدينة إلى أقصاها لكي ينصح قومه ويقول لهم بلغة الناصح المشفق:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: اتبعوا المرسلين بتصديقهم، والإيمان بالله تعالى وحده وعبادته.

ثم كرر نصيحته فبيّن صدق المرسلين وإخلاصهم، وكيف أنهم نزهوا دعوتهم عن أي غرض دنيوي مادي، فلم يسألوا عليها أجراً:

﴿اتَّبِعُوا مِنْ لَّا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

أي: وهم على هدى من الله تعالى.

ثم تلطّف في إرشاد قومه ودعوتهم، وأراهم أنه اختار لهم مثل ما اختار لنفسه، وذكّرهم في الوقت نفسه بأسلوب التعريض بمسؤوليتهم عن أعمالهم أمام الله تعالى يوم القيامة فقال:

﴿وَمَا لِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

أي: وما لي لا أعبد الذي خلقتني من العدم، وإلى حكمه المرجع يوم القيامة.

واستمرَّ على التلطف في دعوتهم وإرشادهم مع شيءٍ من الإنكار والتفريع لتركهم عبادة خالقهم، وعبادة آلهة لا تضر ولا تنفع:

﴿ءَاتَاكَ مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَهَةً ۚ إِنَّ يُرِيدُ الْرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْفَعُونَ﴾ (٢٣)

أي: لا تدفع عني شفاعتهم شيئاً من المكروه، ولا يستطيعون إنقاذي منه.

﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤)

أي: إني إذا عبدتُ غيرَ الله الخالق القادر لفي ضلال واضح ظاهر، لا يخفى على أحد.

ثم نزه نفسه عن مثل هذا الضلال، وأعلن إيمانه، وصدع بالحق في وجوه قومه بأسلوب المتحدي لهم:

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (٢٥)

أي: إني آمنتُ بربكم الذي هو خالقكم ومالك أمركم شئتم أم أبيتم، فاسمعوا قولي، فإنني لا أبالي بما يكون منكم.

ولم يستجب لدعوة الرسل الثلاثة سوى رجل واحد من هذه المدينة هو هذا، فما أشدَّ جحودهم! ويظهر أنَّ قومه هددوه، وتوعدوه بالقتل، كما فعلوا بالرسل، فأخبرهم أنه لا يبالي بوعيدهم وتهديدهم، فنقدوا تهديدهم، وقتلوه، وكتموا أنفاسه، وحبسوا كلمة الحق التي كان يصرخ بها في وجوههم، ولم تصف الآيات كيفية قتله، ويبدو أنهم قتلوه رمياً بالحجارة، وهي الوسيلة التي توعدوا فيها المرسلين عندما قالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨] دل على قتله قوله تعالى بعد ذلك مباشرة:

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي: ادخلها دخول الشهداء الأبرار، وصل الرجل ورب الكعبة، ودخل الجنة، وفاز بالرضوان.

وحكت لنا الآيات أقواله عندما أكرمه الله بنعيم الجنة، فظهر لنا من خلالها صفاء نفسه ونبيل أخلاقه:

﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ تمنى الرجل وهو في الجنة أن يعلم قومه بحاله، وأنه تعالى غفر له، وأكرمه بالجنة والفوز بالرضوان لكي يؤمنوا ويفوزوا بمثل ما فاز من المغفرة والكرامة.

نصح الرجل قومه حياً وميتاً كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، نصح قومه في حياته عندما قال لهم: ﴿يَنْقُورِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يسر: ٢٠]، وبعد مماته في قوله: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ .

هكذا أصبح الرجل من الواصلين، وفاز بما سبق ذكره في البشارة: ﴿بَشِيرُهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يسر: ١١].

\* \* \*

### حسرة على العباد

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْسَرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا حَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وانتقم الله من قومه الذين كذبوا رسله، وقتلوا ولياً من أوليائه:

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ .

أي: ما أنزلنا لإهلاكهم ملائكةً من السماء، وما صحَّ في حكمتنا ذلك. فأمرو هلاكهم يسيراً، لا يحتاج لإنزال ملائكة من السماء، من هنا يظهر فضلُ نبينا ﷺ على غيره، فقد أنزل الله لأجله جنوداً من السماء يوم بدر والخندق وحين، وما أنزلها لغيره<sup>(١)</sup>.

قال القرطبي رحمه الله: «وكانه أشار بقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾ و﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ إلى أنَّ إنزال الجنود من عظام الأمور، التي لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعل لغيرك، فقد فضلَ الله محمداً ﷺ بكل شيء على سائر الأنبياء وأولي العزم من الرسل، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً، فمن ذلك أنه أنزل له الجنود من السماء»<sup>(٢)</sup>.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ .

أي: ما كانت عقوبتهم إلا صيحةً واحدةً فإذا هم ميتون لا حراك بهم. وكان أول تعقيب على القصة بقوله تعالى:

﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ .

أي: يا حسرةً تعالي فهذا وقتُ حضورك، وهي شدة الغم والندم. والفائدة من نداءها تنبيه القارئ أو المستمع إلى أنَّ هذه الحالة تقتضي الحسرة، فالقومُ جديرون بأن يتحسَّر عليهم كل من عرف خبرهم، وقرأ قصَّتهم، لتعظيم ما جنَّوه على أنفسهم حين كذبوا الرسل واستهزؤوا بهم. أو يا حسرة العبادِ على أنفسهم كيف كذبوا رسل الله واستهزؤوا بهم! .

(١) تفسير النيسابوري: ١٣/٢٣ .

(٢) تفسير القرطبي: ٢١/١٥ .

ووجهت الآياتُ في التعقيب الثاني على القصة سؤالاً للمشركين المكذابين للرسول ﷺ:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾

أي: ألم يعلموا كثرة إهلاكنا لأجيال قبلهم، وأن هؤلاء الهالكين غير راجعين إليهم.

فالآية تدعوهم إلى الاتعاظ بالأمم الهالكة قبلهم، المكذبين للرسول، الذين أهلكوا إهلاكاً لا رجعة بعده إلى الدنيا، وإنما رجوعهم كلهم إلى المحشر يوم القيامة.

﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: ما كلهم إلا مجموعون لدينا، محضرون للحساب والجزاء. ف (إن) نافية، وتنوين (كل) عوض عن المضاف إليه، و(لما) بمعنى إلا، و(جميع) فاعيل بمعنى مفعول<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### دلائل ونعم

﴿وَأَيُّ لَمَّا هُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ثم ذكّرتهم الآياتُ ببعض البراهين الدالة على وحدانيته تعالى وكمال قدرته

(١) تفسير أبي السعود: ١٦٦/٤.

على بعثهم للجزاء والحساب، وهي في الوقت نفسه نِعْمٌ تَفْضَّلَ سُبْحَانَهُ بِهَا عَلَيْهِمْ، كما أنها علامات يهتدي بها السائرون على طريق الوصول إلى رحمته ورضوانه:

﴿وَأَيُّهُ لَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْأَرْضِ الْمَيْتَةَ أَحْيَيْنَهَا وَخَرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

أي: آيةٌ تدلُّهم على قدرته تعالى وفضله، الأرض اليابسة أحيها الله بالمطر، وأخرج منها حَبًّا كالحنطة والشعير والأرز فمنه يأكلون، وأفاد تقديم الجار والمجرور (منه) أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾

أي: وجعلنا في الأرض بساتين من نخيل وأعناب، وفجرنا فيها أيضاً عيون الماء.

فما أعظم هذه النعم التي تدلُّ على وجوده تعالى وجوده، فالأرضُ نعمةٌ، لأنها ممهدة لحياتهم، وإحيائها بالمطر نعمة ثانية، وإخراج الحب منها نعمة ثالثة، وجعل الجنات فيها نعمة رابعة، ثم تفجير العيون فيها نعمة خامسة، ولهذا قال سبحانه ممتنّاً عليهم بنعمه ومطالباً لهم بشكر هذه النعم:

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: ليأكلوا مما خلق الله من الثمر، ومما يتخذون منه بأيديهم كالعصير والدبس، أفلا يشكرون الله على نعمه بعبادته وحده، واتباع رسوله ﷺ، ففيه استبطاء لشكرهم وحث لهم عليه.

وقد تكون (ما) نافيةً، فيكون المعنى المراد أن الثمر بخلق الله لا بفعلهم، ويؤيد المعنى الثاني قراءة: (وما عملتُ أيديهم) بلا هاء<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٠٨/٥.

ثم نَزَّهَ ۞ ذاته عن كلِّ ما لا يليقُ به من صفات النقص، وذكر بعد ذلك مع التنزيه أدلة أخرى تدل على كمال قدرته وباهر حكمته:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦).

أي: سبحان الله خالق الأصناف كلها من النبات والإنسان والحيوان ومما لا يعلمون.

والزوج: الصنف، سمَّاه الله زوجاً، لأنَّ له زوجاً آخر يقابله من جنسه، فالزوجية ماثوثة في الإنسان والحيوان والنبات، ومثلها أيضاً زوجية السالب والموجب الموجدة في أعماق الذرة، فهي حقيقة علمية مشاهدة في أصناف جميع المخلوقات، أكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

و(سبحان) علمٌ على التسييح، الذي هو التباعد عن السوء اعتقاداً وقولاً، أي: تنزَّهَ جلَّ وعلا عن كلِّ ما لا يليقُ بكماله وجلاله ووحدانيته، فالجملة على هذا إخبارٌ منه تعالى بتنزُّهه وبرأته عن كلِّ ما لا يليقُ به من صفات النقص، أو هو حكمٌ منه ﷻ بذلك، وتلقينٌ للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوه ولا يخلُّوا به، ولا يغفلوا عنه، فإنَّه من أسباب وصولهم إلى رحمته تعالى ورضوانه.

وهذه التسييحة تنطلق في أوانها وفي موضعها، وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا الوجود، حقيقة وحدة الخلق، ووحدة القاعدة والتكوين، فقد خلق الله الأحياء أزواجاً، النبات فيها كالإنسان، ومثل ذلك غيرهما، وإنَّ هذه الوحدة لتشي بوحدة اليد المبدعة لهذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا الله (١).

### المستقر الزماني والمكاني للشمس

﴿وَأَيَّاهُمْ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

ولما فرغت الآيات من الاستدلال بالمكان شرعت في الاستدلال بالزمان، وبيان الأحكام الدقيق في نواميسه ونظمه:

﴿وَأَيَّاهُمْ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

أي: ننزع منه النهار ونزيله، فإذا هم داخلون في الظلام، فالأصل الظلمة، ونور النهار طارئٌ عليها، فإذا غربت الشمسُ عادتِ الظلمةُ، فالمسلوخُ منه يكون قبل المسلوخ، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في موضع آخر: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] أي: يغطي الليل بالنهار.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي: الشمس تسيرُ إلى منتهى سيرها المقدر لها وهو يوم القيامة، عندما تتغير النظم الكونية والنواميس الفلكية، فيبطل سيرها، وتسكن حركتها، وتكور كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]. وهذا هو مستقرُّها الزماني - كما قال ابن كثير رحمته الله - فالشمس لا تزال تطلع وتغيب بقدرته تعالى ومشيئته حتى يوم القيامة.

وأما ما وردَ في الحديث الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنتُ مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المسجدِ عندَ غروبِ الشمسِ فقال: «يا أبا ذر أتدري أينَ تغربُ الشمسُ؟» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنَّها تذهبُ حتَّى تسجدَ تحتَ

العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [رواه البخاري (٤٨٠٢)].

فلعل المراد منه فلکها الذي تسير فيه، وهو مستقرها المكاني، وهي أينما كانت تحت العرش هي وجميع المخلوقات، إذ العرش أعظم منها، فلا غرابة فيما جاء في الحديث الشريف من سجود الشمس تحت العرش، واستئذانها، وسجودها تحت العرش لا يقتضي خروجها عن فلکها.

ورأى بعضهم أن في الحديث الشريف إشارة إلى استمرارها مسخرةً بأمره تعالى لما خلقت له، المعبر عنه بالسجود والاستئذان كل يوم<sup>(١)</sup>.

ويستأنس لهذا الرأي بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَأَتْ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] فقد فسّر بعضهم سجود هذه المخلوقات بخضوعها لما أراد الله منها.

ومهما قيل في معنى الآية فهي تدلُّ دلالة واضحة على أن للشمس حركة، فهي غير ثابتة، وأن حركتها محكمة دقيقة حسب نظام كوني محكم يدل على كمال قدرته تعالى وعلمه وحكمته، ولهذا ختم الآية بقوله:

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: ذلك النظام المحكم تقدير الإله الغالب بقدرته على كل شيء، والعليم بكل شيء جَلِيلٌ، كما قال في سورة الأنعام: ﴿فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [٩٦].

وكان علماء الفلك إلى عهد قريب يظنون أن الشمس ثابتة لا تتحرك، لكن عرف أخيراً - كما جاء في الظلال - أنها ليست مستقرة في مكانها، إنما هي تجري فعلاً، تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة، حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) قرة العينين على تفسير الجلالين.

(٢) الظلال: ٢٩٦٨/٥.

## منازل القمر

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا  
الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ .

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ .

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَهُ مَنَازِلَ﴾ أي: قدرنا له المنازل .

ومعنى قدر: صير، فالمراد صيرنا سيره منازل، وهي جمع منزل، وهي المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة<sup>(١)</sup>، ويستدل بهذه المنازل على مضي الشهور القمرية، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥] .

يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليلاً النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية، ويرتفع منزلةً، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً، وإن كان مقتبساً من الشمس، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم<sup>(٢)</sup> .

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أي: حتى يصير في آخر منازلها مثل عود عنقود النخيل القديم الذي عليه الثمر، فإنه إذا تقادم عهده يرق ويتقوس ويصغر، وهي أوجه التشبيه .

وفي كلمة (قدرناه) إشارة إلى دقة النظام وإحكامه، وهو ما صرحت به الآية بعد ذلك بقوله سبحانه:

(١) روح المعاني: ١٦/٢٣ .

(٢) تفسير ابن كثير للآية .

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٤١﴾

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي: لا يصحُّ ولا يستقيمُّ للشمس أن تؤثر على سير القمر في منازلها، أو تجتمع به، فلكل من الشمس والقمر نظام دقيق محكم لا يلحقه أي خلل أو اضطراب، وهذا النظام مستمر بتقدير العزيز العليم إلى قيام الساعة، عندما يختل النظام ويتغير، ويجمع الله بين الشمس والقمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ﴾ [القيامة: ٩].

ولعله تعالى لم يقل: ولا القمر سابق الشمس، لأن القمر جرمٌ صغير تابع للأرض، ويستمدُّ نوره من الشمس.

﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فهما يتعاقبان بحساب معلوم، فلا يجيء أحدهما قبل وقته المحدد له.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: وكلهم في فلكٍ يسيرون.

فالتنوين في (كلُّ) عوض عن المضاف إليه، والضمير للشمس والقمر. أي: وكل واحد من الشمس والقمر، إذ هما المذكوران صريحاً. وبعضهم أرجع الضمير إلى النجوم والكواكب، فكلها لها أفلاك تسير عليها، والله أعلم.

\* \* \*

### السابحات في البحر والبر

﴿وَأَيُّهُ لَمْ يَأْتِ حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

وكما تسبحُ النجومُ في جو السماء بقدرته تسبح السفن في البحار بقدرته تعالى أيضاً، فهي من الآيات الدالة على فضله وإحسانه وكمال قدرته:

﴿وَأَبَاهُ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ .

أي: المملوء، والذرية: الأولاد، وفي قراءة: (ذرياتهم) وتخصيصهم بالذكر لضعفهم، فالنعمة فيهم أظهر.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ .

أي: وخلقنا لهم من مثله ما يركبون عليه في البر كالإبل، فإنها صفات البر. وقد قرن تعالى بينهما في عدد من الآيات منها: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تُحْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون]. ومنها أيضاً: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الزخرف: ١١٢].

﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

أي: وإن نشأ إغراقهم في الماء نغرقهم والسفن التي تحملهم، فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق، ولا هم ينقذون من الموت والهلاك، فالأمر منوط بمشيئته تعالى، والسفن أسباب السلامة، والله سبحانه خالق الأسباب والمسببات، وما أكثر السفن التي أغرقها تعالى بمن فيها، مع أنها مزودة بكل ما توصل إليه الإنسان من أسباب السلامة والوقاية، قال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾﴾ إن بشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآياتٍ لكل صبارٍ شكورٍ ﴿٣٣﴾﴾ أو يؤيقهن بما كسبوا ويعف عن كثيرٍ ﴿الشورى﴾.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ .

أي: ولا نجاه لهم إلا أن يرحمهم الله ويمتعمهم بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم.

## عناد وإعراض

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ومع كل هذه الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وصدق النبي عليه الصلاة والسلام في دعوته، عاندوا وأعرضوا، دل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ .

أي: اتقوا ما تقدم من ذنوبكم بتركها والتوبة عنها، وما تأخر مما أنتم تعملون، لعلَّ الله تعالى يرحمكم؛ أعرضوا وأصروا على ذنوبهم، وحذف الجواب لدلالة ما بعده عليه:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ .

فدأبُ القوم العنادُ والإعراضُ عن كل آية وموعظة. ومن صور عنادهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: أنفقوا على الفقراء.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

مُؤْمِنِينَ ﴿ أَي: أنزق من لو يشاء الله رزقه؟! ما أنتم باتباعكم محمداً إلا في ضلال بين واضح .

ويتمسك بقولهم هذا البخلاء، يقولون: لا نعطي من حرمه الله، وهو قول باطل فاسد، لأنه تعالى أغنى بعض خلقه، وأفقر بعضهم ابتلاءً، كما في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقوله: (أنطعم) دون قوله: أنفق، إظهار لغاية خستهم، فإن الإطعام أدون من الإنفاق .

ومن صور عنادهم أيضاً إصرارهم على إنكار يوم القيامة الذي سبق تأكيده في عدة مواضع من آيات السورة:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨)

أي: إن كنتم صادقين فيما تقولون عن يوم القيامة، والخطاب موجه للرسول ﷺ والمؤمنين . ويأتي الرد على إنكارهم قوياً عنيفاً:

﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ (٤٩)

أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة تصعقهم وهم يتخاصمون ويتحاورون في أسواقهم ومتاجرهم، لا يخطر أمرها ببالهم .

والمراد من الصيحة نفخة الصعق الأولى، التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

فالساعة تأتيهم وهم أغفل ما كانوا عنها مستغرقين في شؤون الدنيا، كما في الحديث الشريف الذي قال فيه النبي ﷺ: «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يبتاعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل

بلبنٍ لفتحته، فلا يَطْعَمُهُ، ولتقومَنَّ الساعةُ وهو يليطُ حوضَهُ، فلا يسقي فيه، ولتقومَنَّ الساعةُ، وقد رفعَ أكلتُهُ إلى فيه، فلا يطعمُها» [رواه البخاري (٧١٢١)].

وأصل (يخصِّمون): يختصمون، سكنت التاء، وأدغمت في الصاد، وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين، وفي قراءة بفتح الخاء: (يخصِّمون) بإدغام التاء في الصاد ونقل حركتها وهي الفتحة إلى الخاء.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٠)

أي: لا يقدرُونَ على الإيصال ولا الرجوع إلى أهلهم وبيوتهم، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

وفي قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ - دون أن يقول: فلا يوصون - مبالغة، لأنَّ مَنْ لا يوصي قد يستطيعها، وكذلك في تنكير (توصية) الدالّ على التقليل، وكذا في نفس (التوصية) لأنها بالقول، والقولُ يوجدُ أسرع من الفعل، وقد تحصل التوصية بالإشارة، فالعاجزُ عنها عاجز عن غيرها<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### النفخ في الصور والبعث من القبور

﴿وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١) قَالُوا يَا نَبِيَّانَا مَنْ بِعَشْنَا مِنْ مَرَدِنَا ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٣﴾

﴿وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١)

ونفخ في الصور نفخة البعث، أو صيحة البعث كما سيأتي، فإذا هم من

القبور يُسرعون إلى أرض المحشر، تنفيذاً لأمر ربهم، كما قال تعالى في سورة الماعز: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفُسُونَ﴾ (٤٢).

ويدل تأثير النفختين في أمرين متضادين: الإماتة والإحياء، على كمال قدرته تعالى، ونفاذ مشيئته، فهو الخالق الحقيقي، ولا تأثير للأسباب إلا إذا وافقت مشيئته سبحانه، كما مرَّ معنا في موضوع سورة الرعد.

والصُّورُ في اللغة: الآلة المعروفة على هيئة القرن، ينفخ فيه، وأما حقيقته وكيفيته فلا يعلمها إلا الله تعالى.

﴿قَالُوا يٰوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٦).

﴿قَالُوا يٰوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ أي قالوا: يا هلاكنا من أخرجنا من قبورنا، فهم يدعون على أنفسهم بالهلاك عندما يرون هول الخروج من القبور.

ويزدادُ دعاؤهم على أنفسهم بالهلاك إذا ألقوا في جهنم، وذاقوا ألوان العذاب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (١٢) لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان].

والمرقد: المضجع، مكان النوم.

وقد أشكل على بعض المفسرين قولهم هذا مع أنهم كانوا معذبين في قبورهم، وأجاب بعضهم بأنَّ عذاب القبر يرفع عنهم بين النفختين؛ الصعق والبعث. وبعضهم رأى أنَّ قولهم هذا يدل على اختلاطٍ في عقولهم عند خروجهم من بطن الأرض، حتى ظنوا أنهم كانوا نياماً في بطنها. وبعضهم قال: إِنَّ الكفَّار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب، صار ما عُدُّوا به في قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم.

وإني أرى أنه لا وجه لهذا الإشكال، لأنَّ قولهم: ﴿يٰوَيْلَنَا﴾ يدل على أنهم شعروا أنَّ ما يستقبلون من أهوال يوم القيامة أشد من عذاب البرزخ في القبور، فهو يوم الفرع الأكبر كما وصفه سبحانه في قوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ﴾

[الأنبياء: ١٠٣]، وهم يدركون شدته وعسره عند خروجهم من قبورهم، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

فهم يواجهون الحقيقة التي كذبوا بها عندما أخبرهم الرسل عنها في الدنيا، فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار، وأتاهم الجواب من داخل نفوسهم الممتلئة بالحسرة والندم:

﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ وتدل كلماتهم هذه على أَنَّ الحسرة تملأ قلوبهم حزناً وأسفاً، وهي التي سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠] فهذا أو أن الحسرة قد حضر، حسرتهم على أنفسهم لا حسرة العباد عليهم.

وصدق المرسلون، وصدق إمامهم وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ الذي أقسم الله في أول السورة بالقرآن الحكيم إنه لمن المرسلين.

ولا شكَّ أَنَّ المرسلين إلى القرية التي سبق ذكرها قد صدقوا أيضاً، ولا بدَّ أن يعترف أصحاب القرية يوم القيامة بصدقهم، ويتحسرون على ما فاتهم من تصديقهم، ويندمون أشد الندم على تكذيبهم.

والجدير بالذكر أَنَّ أقوالَ المفسرين تعددت في قائل هذا القول، فأسنده بعضهم إلى الله ﷻ، وبعضهم أسنده إلى الملائكة، وآخرون أسندوه إلى المؤمنين، ورأى بعضهم أَنَّ الكفار هم الذين قالوا هذا القول، وهو في رأيي أنسبُ الأقوال، وآثروا اسمَ الرحمن طمعاً في أن يرحمهم، وهيهات؛ ليس لكافرٍ يومئذٍ نصيبٌ في رحمته تعالى.

\*\*\*

## الوصول إلى دار السلام

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ ﴿٥٦﴾ هُمْ فِيهَا فَكَاهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أي: محضرون في أرض المحشر للحساب والجزاء.

وهذا يدل على كمال قدرته تعالى، فكما أهلكتهم بصيحة واحدة - كما مرَّ معنا - فإنه يجمعهم بصيحة واحدة أيضاً، وهي صيحة البعث من القبور، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات].

ثم بين سبحانه ما يكون في هذا اليوم:

﴿فَأَلْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

فلا يكون في هذا اليوم ظلم أبداً، ولا تجزى كل نفس إلا بحسب عملها بعدله تعالى.

ووصفت الآيات أحوال المنعمين الواصلين إلى مستقر رحمته ورضوانه:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ﴿٥٥﴾﴾

أي: إنهم مشغولون بما أكرمهم الله تعالى به من أنواع النعيم في الجنة. وفي قراءة: (في شُغْلٍ) بضمه وسكون، وتنكير شغل وإبهامه تنبيه أنه أعلى ما تحيظ به الأفهام، ويعرب عن كنهه الكلام.

والفَكْهَةُ: المتنعّم المتلذّذ، ومنه الفاكهة لأنها مما يُتَلذذ به، وكذا الفاكهة<sup>(١)</sup>.

﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَكُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: هم وأزواجهم في ظلال أشجار الجنة على السرر متكئون.

﴿هُمْ فِيهَا فَكَّهُةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ولهم ما يتمنون أو ما يطلبون، فالله سبحانه يكرمهم بكل ما تشتهيهم أنفسهم من أنواع النعيم. ويكرمهم ويتفضّل عليهم أيضاً بالسلام:

﴿سَلِّمٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: لهم سلام يقال لهم من رب رحيم.

لقد وصل القوم إلى دار السلام، وأكرمهم ربهم الرحيم بالسلام: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

هكذا بيّنت الآيات حال الواصلين الفائزين بالجنة والرضوان والسلام.

\* \* \*

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٢١٤/٥.

### المعرضون عن الصراط المستقيم

﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْدُوْنِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلُّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

ثم بيّنت الآيات في المقابل حال المجرمين المحرومين:

﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أي: اعتزلوا عن كل خير وانفردوا عن المؤمنين.  
ثم حكمت الآيات ما يقال لهم توبيخاً وتقريعاً لتزيد في حسرتهم وندمهم:

﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾

أي: ألم أمركم وأوصيكم يا بني آدم ألا تطيعوا الشيطان، فإنَّ عداوته لكم ظاهرة، فلا يدعوكم إلا لما فيه شقاؤكم وتعاستكم.

فطاعة الشيطان عبادة له من دون الله، فمن أطاع غير الله فكأنما اتخذه معبوداً من دونه، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَعْْبَادَهُمْ وَرُءُسًا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

أي: وأمرتكم بعبادتي وطاعتي وحدي، وهو الصراط المستقيم الموصل

إلى رحمتي ورضواني، والذي دعا إليه المرسلون جميعاً، أقسم تعالى في صدر السورة أن سيدنا محمداً ﷺ سار عليه ودعا إليه.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

أي: والله لقد أضل منكم خلقاً كثيراً، فلم تنتفعوا بعقولكم، وتدرکوا ما يريد الشيطان منكم.

والجِبِلُّ: الخلق والجماعة العظيمة، أُطلق عليهم تشبيهاً بالجبل في العظم. وقرئ: (جِبَلًا) بضم الجيم وإسكان الباء، كما قرئ بضميتين (جُبَلًا) مع تخفيف اللام<sup>(١)</sup>.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٧﴾﴾

أي: هذه التي ترونها جهنم التي وعدتم بدخولها على ألسنة المرسلين.

﴿أَضَلَّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: قاسوا حرها، وصيروا وقوداً لها بسبب إصراركم على الكفر وعنادكم، ولا يخفى ما في الأمر من تحقير وإهانة.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: نمنعهم عن الكلام.

﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يُنطِقُهَا اللهُ تَعَالَى الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، لَتَشْهَدَ عَلَىٰ أَصْحَابِهَا بِمَا عَمَلُوا مِنَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ فِي الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا لِحُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أُولَ مَرٍقٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٧﴾ [فصلت].

فيومُ القيامة يومٌ طويل، يُنطق الله تعالى فيه ألسنتهم، وتارة يمنعون عن الكلام، وتنطق أيديهم وأرجلهم وجوارحهم.

وفي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ: «هل تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «مَنْ مَخَاطَبَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ! أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ يَقُولُ: بلى، فيقول: فَإِنِّي لَا أَجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي. فيقول: كفى بنفسيك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتِبِينَ شهوداً، فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فعنكنَّ كنت أناضل» [رواه مسلم (٢٩٦٩)].



### التنكيس في الخلق

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتِبِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُصِيًا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ تُعْمِرْهُ نُحْسِنُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

ثم ذكرتهم الآيات بشدة ضعفهم، وأنهم مفتقرون إلى الله تعالى في جميع أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: ولو نشاء أن نطمس على أعينهم، فأعيننا لفاعلنا، فإننا قادرون على ذلك.

والطمسُ في اللغة: تغطيةُ شق العين فتصبحُ ممسوحةً، ومفعول المشيئة محذوف للدلالة على أنه مضمون الوقوع.

﴿فَأَسْتَبْقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أي: فبادروا إلى الطريق، فكيف يبصرون وقد أعمينا أعينهم.

ونصب (الصراط) بنزع الخافض، وفيه إشارة إلى أن شأن الهداية والضلال منوطٌ بمشيئته تعالى، فكأنه تعالى يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، وتركانهم عمياً يترددون، فكيف يبصرون الطريق حينئذ؟! (١).

وقد سبق التمثيل لمثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس].

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتِبِهِمْ فَمَا اسْتَظْلَعُوا مِصْبًا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتِبِهِمْ﴾ أي: ولو نشاء لأبطلنا قواهم بحيث يجمدون في مكانهم، ويصبحون كالحجارة. وفي قراءة: (مكاناتهم).

﴿فَمَا اسْتَظْلَعُوا مِصْبًا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: فلا يستطيعون الحركة ذهاباً وإياباً. فهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم أحقاء أن يفعلَ بهم ذلك، ولكننا لم نفعل لشمول الرحمة لهم، واقتضاء الحكمة إمهالهم (٢).

وأقرب مثال واقعي ملموس على قدرته تعالى على طمس أعينهم وإبطال قواهم، ما يحدثه الله من تغير في بُنيَتهم:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾﴾

أي: ومن نمد في عمره نرده على عكس ما كان من القوة إلى الضعف،

(١) تفسير الخازن: ٢١٨/٥.

(٢) تفسير الفيضوي: ٢١٨/٥.

أفلا يعقلون هذه الحقيقة، ويعلمون أن الله قادر على ذلك؟! قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

\* \* \*

### القرآن والشعر

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُذَكِّرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

وعادت الآيات إلى القرآن الحكيم الذي أقسم الله به في صدر السورة، عادت تنوّه به، وتذكّر المعاندين بدلائل الإعجاز في نظمه البديع المتميز:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي: ما علّمنا رسولنا الشعر، وما هو من طبعه، ولا يسهل له إن أراد نظمه، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا نُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١].

وما جرى على لسانه عليه الصلاة والسلام أحياناً من كلمات موزونة شبيهة بالشعر لا يعدُّ شعراً، بل صدر منه عليه الصلاة والسلام على السليقة من غير تكلف ولا التفات إلى أنه جاء موزوناً، فمثله يجري في كلام الناس كثيراً، ولا يسمّيه أحدُّ شعراً، كقوله عليه الصلاة والسلام يوم حنين [البخاري (٤٣٣٦)]:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»  
وقوله ﷺ أيضاً عندما كان يمشي فأصابه حجرٌ فعثر، فدميت إصبعه فقال [البخاري (٦١٤٦)]:

«هل أنت إلا إصبعٌ دُميت وفي سبيل الله ما لقيت»

فسجّيته عليه الصلاة والسلام تأبى الشعرَ، وهي من صفات كماله، لأنّها دليلٌ صدقِ رسالته، وصحة نبوته كأُمّيته، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فالقرآن الكريم ليس شعراً ولا يشبه الشعر، ولا يشبه كلاماً قبله ولا كلاماً بعده: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما هو إلا عظة تُذَكَّرُ بالله ﷻ، وقرآن بيّن واضح، يبين الله فيه طريق الوصول إلى جنته ورضوانه.

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧٠﴾.

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي: لينذر الرسول عليه الصلاة والسلام مَنْ كان حياً بالإيمان، وفي قراءة: (لتنذر)، فإنما ينتفع بنذارته مَنْ هو حي القلب مستنير البصيرة.

وقد مر معنا في مواضع كثيرة تقرير هذه الحقيقة قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِحَوْلِ رَبِّكَ ءَلَمَّ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

وسبق معنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [يس: ١٢]: أنها تشير إلى هذا المعنى، وأنّها تؤكد ما قرره تعالى في صدر السورة بقوله: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١] فالتمسك بالقرآن الكريم وخشية الرحمن بالسر والعلن مرقاة الوصول إلى مستقر رحمته والفوز برضوانه.

﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: ولتقوم الحجة على الكافرين مستحقي العذاب، أو ليثبت عليهم قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

ولقد سبق أيضاً هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ أَكْثَرِهِمْ فَهَمَّ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].



### تسخير الأنعام

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

ثم ذكّرت الآيات المعاندين الجاحدين بخلق الأنعام وتسخيرها لهم، ولا شك أنّ نعم الله كثيرة، ولكنها اختارت التذكير بنعمة الأنعام تفصيلاً لما سبق ذكره إجمالاً في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ ﴿٧١﴾﴾

أي: ألم يعلموا أنّا تولينا خلق الأنعام لهم من غير إعانة أحد، وجعلناها مالكين لها، يتصرفون بها تصرف المالك.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي: وجعلناها مسخرةً مذللةً لهم، فلولا أنه تعالى جعلها مسخرة لهم ما تمكّنوا من الانتفاع بها كما في قوله سبحانه: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]، فلو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه، وسار معه منقاداً ذليلاً:

﴿فَمِنهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وهو بيان لبعض أوجه الانتفاع منها، فضّله تعالى في مواضع كقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾

لَكُمْ فِيهَا رِزْقٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ [النحل].

وفي قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ حث لهم على الشكر، واستبطاء له، فعليهم المسارعة إلى الشكر بطاعته تعالى قبل أن يفوتهم، ويتحسروا عليه.

\* \* \*

### إحياء العظام البالية

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُبْصَرُونَ ﴿٧٥﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَخْزِنَكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ بِحَبِيبِهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

ومع ذلك أعرض المعاندون عن الشكر، ووضعوا الشرك مكان الشكر فما أظلمهم!

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُبْصَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

أي: عبدوا آلهة من دون الله تعالى رجاء أن ينصروهم في أوقات الأزمات والشدائد!

والأمر على الضد مما يرجون، لأن هذه الآلهة المزعومة عاجزة ضعيفة، لا تستطيع حماية نفسها، فضلاً عن حماية غيرها:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

أي: لا تقدر الأصنام على نصر المشركين، بل المشركون جندٌ حاضرُونَ

حولها، يحفظونها وينصرونها، فهي عاجزة عن حفظ نفسها بله غيرها، ففاقد الشيء لا يعطيه.

ثم التفتت الآيات التفاتة رائعة، لها نظائر كثيرة في التنزيل الحكيم، إلى رسول الله ﷺ تواسيه عما يلقي من شدة عنادهم وجحودهم وإعراضهم عن الأدلة القاطعة الدالة على صحة نبوته وصدق رسالته:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٦)

أي: إنا نعلم كل ما يصدر عنهم من كيد خفي، وفجور جلي، فنحبط كيدهم، ونرد مكرهم.

ووقعت هذه الالتفاتة في موقعها المحكم من آيات السورة، إذ جاءت تعقيباً على ما سبقها، وتمهيداً لسياقها، ثبتت به النبي ﷺ في وجه وقاحة بعض المشركين، وجراتهم عليه:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧)

أي: أما علم الإنسان أننا خلقناه من ماء قليل ضعيف مهين، فإذا هو بين الخصومة، يتصدى لمخاصمة ربه، ويتجرأ على رسوله ﷺ، وينكر قدرتنا على إحياء الأموات بعد تفرق عظامهم.

فالآية تذكر الإنسان المخاصم المجادل المعاند، الذي أنكر قدرة الله تعالى على بعث الأموات من قبورهم يوم القيامة، تذكره بأصله الضعيف المهين كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق].

والأعجب من ذلك أن يكون خصامه في أزم وصف له، وألصقه به، وهو كونه منشأ من موات، وهو ينكر إعادة إنشائه من موات، وهو غاية المكابرة. نزلت هذه الآية في أبي بن خلف الجُمحي من رؤوس المشركين في مكة،

خاصم النبي ﷺ في إنكار البعث، وأتاه بعظم قد رمَّ وبلي، ففتته بيده، وقال: أترى يحيي الله هذا بعد ما رمَّ؟ فقال النبي ﷺ: «نعم، وبيعتك ويدخلك النار». فأنزل الله تعالى هذه الآيات. [رواه الطبري (٣٠/٢٣) والحاكم (٤٢٩/٢) وصححه ووافقه الذهبي] (١).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي: وضرب لنا مثلاً في إنكار قدرتنا على بعث الأموات بالعظم البالي، ونسي أننا خلقناه من العدم إلى الوجود، ففي نفسه من دلائل القدرة ما هو أعظم مما استبعده وجحده.

﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: قال مستنكراً مستبعداً: مَنْ يحيي العظام وهي بالية؟!.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فمن قدر على الخلق أول مرة قادر على إعادته مرة ثانية، وهو أمرٌ منطقي وبدهي، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وسع علمه كل شيء، فهو يعلم العظام المتفرقة في باطن الأرض أين ذهبت أجزاؤها، وأين استقرت ذراتها، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ [ق: ٤].

ويعلم الله أيضاً أجزاء الأصلية من الأجزاء الدخيلة، ويجمع الأجزاء المتفرقة في البقاع وبطون السباع، وفي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ الْمَوْتُ لَمَّا أَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَىٰ أَهْلَهُ: إِذَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطْبًا

كثيراً، فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في يوم عاصفٍ، ففعلوا، فجمعه الله  
فقال: ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته» [رواه البخاري (٣٤٧٨)].



### خلق الضد من الضد

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ  
شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أي: الذي أنبت الشجر الأخضر بالماء، ثم جعله حطباً يابساً توقدون منه  
النار، كذلك هو قادرٌ على إعادة الغضاضة والطراوة إلى ما كان غضاً طرياً في  
الحياة، فيبس وبلي بعد الممات، فالله قادر على إخراج الضد من الضد.  
ثم ذكر تعالى ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال:

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ  
الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ أي: قل:  
بلى هو قادر على ذلك.

وهو جوابٌ آخرٌ بدهي ومنطقي أيضاً ولازم وملزم، فإن خالق هذا الكون  
العظيم قادرٌ على خلق أمثالهم من المخلوقات الصغيرة الضعيفة أو الكبيرة القوية  
مهما كانت: سماءً أو أرضاً، ذرة أو نملة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقِهِنَّ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨٢﴾  
[الأحقاف: ٣٣].

﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي: وهو الذي يخلق خلقاً بعد خلق، العليم بجميع ما خلق، فمن اتصف بكمال القدرة والعلم لا يعجزه شيء من الممكنات. ومما يدلُّ على كمال قدرته جل وعلا أنه لا يحتاجُ إلى أسباب ووسائل ومقدمات لما يريد إحداثه وتكوينه:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾.

أي: فيحدث ويوجد من غير امتناع أو توقف، فجميع المكونات بتخليقه وتكوينه مهما كانت صغيرة أو كبيرة، ووجودها متوقَّفٌ على تعلق إرادته سبحانه بإيجادها، وقدرته هي المؤثرة في مراده جل وعلا.

وتدلُّ الآيةُ أيضاً على سرعة الإيجاد وحدوث المراد، فهو يأمر أمراً واحداً لا يحتاجُ إلى تكرار أو تأكيد كما مرَّ معنا في آيات الصيحات، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وكما انطلقت التسيبحة الأولى في أوانها وفي موضعها، تنطلق التسيبحة الثانية أيضاً في أوانها وفي موضعها تتوجُّ خاتمة السورة:

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تنزيه له عما ضربوا له من الأمثال، وهو مالك كلِّ شيء، والمتصرِّف فيه، فكلُّ شيءٍ منوطٌ بمشيئته، وفي قبضة قدرته جلَّ وعلا، ومع التنزيه تعجبٌ مما قالوا في شأنه ﷻ.

والفاء في قوله: ﴿فَسُبْحَانَ﴾ جزائيةٌ، أي: إذا علم ذلك الذي سبق تقريره في الآية السابقة فسبحان، أو سببية، لأنَّ ما قيل سببٌ لتنزيهه سبحانه.

والملكوت: مبالغة في الملك، كالرحموت والرهبوت، فهو الملك التام<sup>(١)</sup>.  
﴿وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وإليه تُرجعون بعد الموت لا إلى غيره.  
وهو وعدٌ للمتمسكين بالصراط المستقيم، المتبعين آثار الرسول الكريم عليه  
أفضل الصلاة وأتم التسليم، ووعيد للمعرضين الجاحدين.  
نسأله تعالى أن يثبتنا على الطريق المستقيم، ويجعلنا من الواصلين إلى  
مستقرِّ رحمته، والفائزين برضوانه.



(١) روح المعاني: ٥٧/٢٣.

## تفسير سورة الصافات

### مَقَامُ الْعُبُودِيَّةِ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَدِّمُ  
وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ مقام العبودية لله تعالى من أعلى المقامات وأشرفها، يستدعي غاية الخضوع والتذلل لله وحده، مع غاية المحبة له ﷺ، اتصف به، وحققته الصفة الممتازة من الأنبياء والمرسلين، ومن صدقهم واستجاب لدعوتهم من المؤمنين.

وقد أبرزت الآيات في سورة الصافات هذا المعنى، وأكدته سبحانه في صدر السورة، فأقسم بجماعات من عباده أنه وحده المستحق للعبادة: ﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا ۝١﴾ فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا ۝٢﴾ فَالتَّالِيَتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾.

ثم قارنت الآيات بين مصير المعرضين عن عبادته يوم القيامة، ومصير المتقادين لطاعته.

ثم عرضت نماذج لبعض مواقف عباد الله المخلصين، بدأت بنوح ﷺ، وتوقفت عند إبراهيم وولده إسماعيل ﷺ، وأبرزت المستوى الرفيع لمقام العبودية الذي حققه هذان النبيان الكريمان في قصة الذبح والفداء. ثم ذكرت

الآياتُ موسى وهارون وإلياس ولوطاً ويونس ﷺ، وأُثنت على تحقيقهم عبوديتهم لله تعالى .

وختمت ذلك بالتنويه بالملائكة وإخلاصهم في عبادتهم لله، وبراءتهم ممن عبدوهم من دونه تعالى .

وختمت السورة بالبشارة بتأييدِ الله تعالى ونصره لرسوله ﷺ والمؤمنين، وتنزيهه سبحانه عن كل ما لا يليقُ بجلاله وكماله، مع السلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين .



## الْفُضْلُ الْأَوَّلُ

## مَقَامُ الْعِبَادِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّغَفَاتِ صَفَا ۝١ ﴾ فَالْتَجَرَّتْ ذَخْرًا ۝٢﴿ قَالَتِ لَيْتَ ذَكَرًا ۝٣ ﴾ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوْ هُوَ ۝٤﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥ ﴾ إِنَّا زَيْنَا أَلْدُنْيَا بَرِينَةَ الْكُوكَبِ ۝٦﴿ وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ  
مَّارِدٍ ۝٧﴿ لَا يَسْتَمِعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴿ دُخُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصْبُ ۝٩﴿ إِلَّا  
مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ، سَهَابٌ ثَائِبٌ ۝١٠﴿ فَاسْتَفْنِيهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ  
طِينٍ لَازِبٍ ۝١١﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢﴿ وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ۝١٤﴿  
وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝١٥﴿ أَوَإِذَا مِثْنَا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦﴿ أَوْ ءَأَتَانَا الْأَوْلُونَ ۝١٧﴿  
قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ ۝١٨﴿ فَأَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۝١٩﴿ وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا يَوْمَ الَّذِينَ  
هَذَا يَوْمَ الْفُضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴿ ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢١﴿  
مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝٢٢﴿ وَقَفُوهُمْ إِلَيْهِمْ مَسْئُولُونَ ۝٢٣﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ۝٢٤﴿ بَلْ هُمْ  
الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٥﴿ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٦﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۝٢٧﴿ قَالُوا  
بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٢٨﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَالِعِينَ ۝٢٩﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا  
إِنَّا لَلدَّاقِقُونَ ۝٣٠﴿ فَأَعْوَبْتُمْ كُنْتُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ ۝٣١﴿ فَأَتَيْتُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٢﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ  
بِالْمُجْرِمِينَ ۝٣٣﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٤﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَتِنَا  
لِشَاعِرٍ تَجَنُّونَ ۝٣٥﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣٦﴿ إِنَّكُمْ لَدَّاهِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۝٣٧﴿ وَمَا تَجَزُونَ  
إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٨﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٣٩﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ۝٤٠﴿ فَوَكَهَهُمْ مُمْكِرُونَ  
۝٤١﴿ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ۝٤٢﴿ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝٤٣﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ مِيعَةٍ مِنْ مَعِينٍ ۝٤٤﴿ بِيضَاءَ لَدَوٍ  
لِلشَّرِيبِينَ ۝٤٥﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ۝٤٦﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مِّنَ الْأَعْرَافِ عَيْنٌ ۝٤٧﴿ كَأَنَّهُنَّ

بِضُّ مَكُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِيبٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ  
 آءِتَكَ لِيَنِ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَوْدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِيَّاكَ لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أُشْرِكُ مُظْلِمُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطَّلَعَ  
 فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا بِعَمَّةٍ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴿٥٧﴾  
 أَفَمَا تَحِى بِمِثَابِنِ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْفَوْزُ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ  
 هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّرَآءُ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾  
 إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٥﴾ فَاتَّهَمَ لَأَكُونَ مِنْهَا  
 فَمَالَتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾  
 لِإِنَّهُمْ أَلْفَوْا آيَاتِ هُمْ صَالِينَ ﴿٦٩﴾ وَهُمْ عَلَىٰ نَارِهِمْ مُّهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ ﴿٧١﴾  
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّبْدِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ  
 الْمُتَّصِفِينَ ﴿٧٤﴾

### ● المصطفون للعبادة:

أكد الله تعالى في صدر سورة الصافات أنه وحده المستحق للعبادة، فأقسم  
 بجماعات من عباده الذين اصطفاهم لعبادته، وشرفهم بطاعته، أنه وحده  
 المعبود، فقال:

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾﴾

والمراد من الصافات: الجماعات التي اصطفاهما سبحانه لعبادته من  
 الملائكة ومن غيرهم، فهو قسم بالذين حققوا عبوديتهم لله تعالى بطاعته وحده  
 وعبادته، والمراد من القسم التنويه بالمقسم به وتعظيمه.

والزاجرات: الجماعات الزاجرون عن ارتكاب المعاصي بأقوالهم  
 وأفعالهم، فإن ارتكاب المعاصي خروج على معنى العبودية.

والتاليات ذكراً: الجماعات التالية لآيات الله تعالى تعبدًا وتعليمًا.

وقد تجتمع هذه الصفات في بعض الأشخاص، وقد تفرقت، ولعل الترتيب

على سبيل الترقى، فالاصطفافُ للعبادة كمالاً، والزجر عن ارتكاب المعاصي أكمل، وتلاوة آياتِ الله تعالى للعبادة والتعليم أكمل وأكمل. وقد يكونُ المرادُ جماعات الملائكة على وجه الخصوص، ويقوِّيه قوله تعالى حكاية عنهم في آخر السورة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾

جواب القسم، وفائدته تعظيمُ المقسم به، وهم المتصفون بعبادته تعالى، وتأكيد المقسم عليه، وهو استحقاقه العبادة وحده جل وعلا. ونبّه سبحانه بهذا القسم على أنَّ هذه المخلوقات شَرُفَتْ بعبادته، وكملت بطاعته، وله تعالى أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته، تعظيماً لها وتشريفاً، وليس لنا أن نقسم بغيره جَلَّالاً.

ثم بيّن سبحانه وجه استحقاقه العبادة وحده فقال:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾﴾

فهو وحده خالق ومالك ومدبر أمر السماوات والأرض وما بينهما. وإعادة ذكر (رب) مع المشارق لغاية ظهور آثار الربوبية فيها، وتجدها كل يوم، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدالتها عليه كقوله: ﴿سَرَّيْلَ نَقِيكُمْ أَلْحَرَ﴾ [النحل: ٨١].

وصرح بها في قوله: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]. وأراد بقوله في سورة الرحمن: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ مغرب ومشرق الشمس والقمر في الشتاء والصيف.

• زينة وحرس:

﴿إِنَّا زِينَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا زِينَةً الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾

أي: إننا زينا أقرب السماوات من الأرض بزينةٍ بديعةٍ عجيبةٍ هي الكواكب،

وهي زينة للسماء، تبدو كأنها على سطحها، فالكواكبُ بدل من الزينة، ويجوزُ أن تكونَ عطفَ بيانٍ، وقرأ الأكثرون (بزينة الكواكب) بالإضافة على أنها بيانية، فالزينةُ مبهمَةٌ صادقةٌ على كل ما يزين به، فتقع الكواكب بياناً لها.

والزينة في الكواكب نفسها ومواقعها من بعضها، وفي أنوارها أيضاً، فإنَّها تبدو لأهل الأرض كجواهر مشرقة متألئة بأشكال مختلفة على سطح أزرق، فضلاً عن ذلك فهي بمثابة مصابيح مضيئة لأهل الأرض.

والسماءُ وتناثرُ الكواكب فيها أجملُ مشهدٍ تقعُ عليه العين ولا تملُّ طولَ النظر إليها، وكل نجمةٌ توصف بضوئها، وكل كوكبٍ يوصف بنوره، وكأنَّه عينٌ مُحبَّبةٌ تخالسُك النظرَ، فإذا أنتَ حدَّقتَ فيها أغمضتَ وتوارثتَ، وإذا أنتَ التفتتَ عنها أبرقتَ ولمعت<sup>(١)</sup>.

ولهذه الكواكب وظيفة أخرى تؤديها:

﴿وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾

فهو معطوف على زينة باعتبار المعنى، كأنه قال: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً لها من كل شيطان مارد، وهو المتمرد الخارج عن الطاعة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الحجر].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك].

ودلت الآية دلالة قاطعة على أن حقيقة السماء مغايرة لحقيقة النجوم والكواكب، كما دلت آيات كثيرة على هذه المغايرة؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكُوكُوبُ أُنثُرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار].

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٩٨٤.

ولا شك أن الزينة غير المزين.

﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾﴾ .

أي: لثلاث يسمعون إلى الملائكة الأعلى، ويُرمون من كل ناحية يصعدون إليها.  
والملائكة الأعلى: هم الملائكة ﴿٨﴾ سكان السماوات. وقرئ: (لا يسمعون)  
بالتخفيف.

فكما جعل سبحانه الكواكب زينة السماء الدنيا جعلها أيضاً مراكز لحراسة  
السماء وحفظها من الشياطين، حكى سبحانه ذلك صراحة على لسان الجن في  
قوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا  
مَقْعِدَ اللَّسَمِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن].

ودلت هذه الآيات على أن السماء ما كانت محروسة قبل بعثة النبي ﷺ  
ونزول القرآن الكريم، فقد كان بعض الجن والشياطين يصعدون إلى السماء،  
ويسترقون السمع من الملائكة، ويبدو أنهم كانوا يصعدون في جو السماء  
وجهتها؛ لقوله ﷺ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ - فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ  
قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرْقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ، فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُفَّانِ،  
فَيَكْذِبُونَ مَعَ الْكَلِمَةِ مِثَّةً كَذِبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» [رواه البخاري (٢٢١٠)].

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ ﴿٩﴾﴾ .

أي: ويقذفون للدحور، وهو الطرد والإبعاد، ولهم في الآخرة عذاب دائم  
لا ينقطع.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: إلا من اختلس وأخذ بخفة وسرعة شيئاً من كلام الملائكة، فتبعه

ولحقه شهاب ثاقب مضيء، كأنه يثقب الظلام بضوئه، كما في قوله تعالى: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣].

وهو في الأصل الشعلة الساطعة من النار؛ قال تعالى: ﴿إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بَحِيرٍ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

ويطلق أيضاً على الكوكب المضيء اللامع، وعلى بعض الأجزاء الصغيرة الملتهبة المنفصلة عن بعض الكواكب.

ومن الثابت علمياً: أن بعض النجوم القريبة من الشمس ذات حرارة عالية ملتهبة، وما ينفصل عنها من أجزاء ملتهب مثلها، وتزداد التهاباً وحرارة عندما تصل إلى جو الأرض وتحتك بهوائها.

• الطين اللازب:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ أي: فاستخبرهم وأسألهم سؤال التوبيخ والتبكيت: أهما أقوى خلقة، وأمتن بنية أم من خلقنا من السماوات والأرض وما بينهما؟! وقد يكون المراد: أهما أصعب خلقاً وأشق إيجاداً...؟!.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ أي: إنا خلقناهم بخلق أبيهم آدم من طين لاصق أو لازم، يلتصق بعضه ببعض.

وهو شهادة عليهم بالضعف، لأن ما يُصنع من الطين لا يتصف بالصلابة والقوة، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ينكرون البعث وهم يشاهدون من الظواهر في الخلق ما هو أعظم مما ينكرون، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

فلماذا يعبدون غيره تعالى، ويجعلون عبادتهم وخضوعهم لآلهة مزعومة عاجزة لا تستحق العبادة...؟!.

## ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: بل عجبْتَ يا محمَّد من تكذيب المشركين وعنادهم، وهم يسخرون من تعجبك وتفريك للبعث، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وَقُرِئَ بِالضَّمِّ: (عَجِبْتُ) على إسناد التعجب لله تعالى، على الوجه اللائق بكماله وجلاله، وليس هو كالتعجب من الآدميين، إذ هو بهذا المعنى لا يجوز على الله تعالى.

## ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾

أي: وإذا وعظوا بشيء لا يتعظون، وهذا يدل على قسوة قلوبهم، وتحجر عقولهم، وقلة تفكيرهم.

## ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٤﴾﴾

أي: وإذا رأوا معجزة يستدعي بعضهم بعضاً ليسخروا منها، أو: يبالغون في السخرية.

## ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

أي: ما هذا الذي نراه إلا سحر بيِّن واضح.

فالحاصل أنهم لا تفيد معهم البراهين الضرورية، ولا المقدمات الوعظية، ولا المعجزات الدالة على صدق ما تخبرهم به من أمر بعثهم من قبورهم للحساب والجزاء، ويصرُّون على قولهم:

﴿أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا وَعَظْمًا أَهَذَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

أي: الأقدمون، فبعثهم كما يتصورون أبعد وأبطل لبعد زمانهم. وقرئ بتسكين الواو: (أو أبأؤنا) على معنى التردد.

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

قل: نعم تُبعثون وأنتم صاغرون أذلاء. واكتفى بهذا الجواب الحاسم لما سبق من الأدلة الدالة على وقوعه. ثم بين تعالى سهولة بعثهم، وأنه ليس أمراً صعباً عليه فقال:

﴿فَأَنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

والزجرة: الصيحة، من زجر الراعي غنمه إذا صاح بها، والمراد بها نفخة البعث الثانية في الصور، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

فصيحة واحدة تكفي لبعثهم وإخراجهم من قبورهم أحياء ينظرون.

● السوق إلى أرض المحشر:

﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

أي: وقال المبعوثون المنكرون ليوم القيامة: يا ويلنا هذا يوم الحساب والجزاء. ثم أضافوا إلى إقرارهم واعترافهم كلمات يوبخ فيها بعضهم بعضاً:

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكَذُّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

ويأتي الأمر الإلهي بعد بعثهم من قبورهم بسوقهم إلى أرض المحشر:

﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: وأشباههم وأمثالهم فكل طائفة مع مثلها.

أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة والحاكم وصححه: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه قال: أزواجهم: أمثالهم الذين هم مثلهم، يُحْشَرُ أصحابُ الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحابُ الزنى مع أصحاب الزنى، وأصحابُ الخمرِ مع أصحاب الخمر.

وأصلُ الزوج: المقارن، كزوجي النعل، فأطلق على لازمه، وهو المماثل.

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: واحشروا معهم الشياطين التي زينت لهم عبادة غير الله تعالى كما في قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَسَّ الْقَرْيُنَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف].

أو احشروا معهم أصنامهم وأوثانهم زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء].

﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي: فعرفوهم طريق النار وأروهم إياه، والتعبير بالصراط والهداية للتهكم بهم.

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أي: مسؤولون عن عقائدهم وأعمالهم كما قال تعالى: ﴿فَوَرِّكَ لَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر].

وهو سؤال توبيخ وتقريع، لا سؤال استعلام، فلا يسألهم هل عملتم كذا وكذا، لأنَّه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟ فلا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

أو نقول: يوم القيامة يوم طويل فهذا في حال، وثمَّ في حال آخر، كما قال ابن كثير رحمته الله، وقد يكون المراد من السؤال قوله تعالى المذكور بعد ذلك:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ﴾ (٢٥).

أي: لماذا لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم تقولون في الدنيا: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤].

﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسِمُونَ﴾ (٢٦).

أي: بل أسلم بعضهم بعضاً وخذله، وطلب كل واحد منهم سلامة نفسه.  
أو: بل هم اليوم مذعنون منقادون لعجزهم، وانسداد الحيل عليهم.  
وأصل الاستسلام طلب السلامة، والانقياد من لوازمه عرفاً، ولهذا استعمل فيه.

• لوم وعتاب:

﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧).

أي: يسأل بعضهم بعضاً سؤال لوم وتقريع وخصام.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا نَتُونَنَّا عَنِ الْيَمِينِ﴾ (٢٨).

أي: قال الأتباع لرؤسائهم في الكفر والضلال: إنكم كنتم تصدوننا وتمنعوننا عن الخير، وهو الإيمان بما يجب الإيمان به.  
ويمكن أن يكون المراد من اليمين القوة والقهر، فإنها موصوفة بالقوة، وبها يقع البطش، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿فَرَأَعْتَلَيْهِمْ صُرُبًا يُلَيِّمِينَ﴾ [الصافات: ٩٣].  
والمعنى: إنكم كنتم تحملوننا على الكفر والضلال وتكرهوننا عليه، ويؤيد هذا المعنى قول الرؤساء لهم:

﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٩).

أي: بل أيتم الإيمان باختياركم غير مكرهين ولا ملجئين.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ (٣٠).

أي: وما كان لنا عليكم من تسلط نجبركم به على الكفر والضلال، بل كنتم قوماً ضالين باختياركم وكسبكم، وهو كقول إبليس لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ﴾ (٣١).

أي: وجب علينا جميعاً قول ربنا إنا لمعذبون بالنار لعلمه بحالنا وإصرارنا على الكفر والطغيان، وغاية ما فعلنا بكم أن دعوناكم إلى الضلال لتكونوا أمثالنا فيه.

﴿فَأَعْوَبْتُمْ كَمَا كُنَّا غُلُوبًا﴾ (٣٢).

أي: فأضللناكم إنا كنا ضالين.

﴿فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٣).

أي: فإنَّ الأتباع والمتبوعين في العذاب مشتركون كما كانوا في الضلال مشتركين.

● المنسلخون عن العبودية:

وهو أمر عام قدره تعالى على جميع المجرمين الذين سلخوا أنفسهم عن العبودية لله تعالى:

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٤)

سواء كانوا رؤساء أو مرؤوسين .

ثم بيّنت الآيات أن أعظم جرائمهم استكبارهم عن عبادة الله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣٥)

أي: يستكبرون عن الإذعان لها والإقرار بعبوديتهم لله ﷻ .

﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُونَ آلِهَتَنَا لِيَشَاعِرَ تَجْنُونَ ﴾ (٣٦)

وأرادوا به النبي ﷺ . وقد جمعوا بقولهم هذا بين إنكار الوجدانية وإنكار الرسالة، وردّ تعالى عليهم بقوله :

﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٧)

فالتوحيد الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام هو الحق الثابت المؤيد بالبراهين والذي دعا إليه جميع المرسلين .

وبعد أن ردّت عليهم الآيات التفتت تخاطبهم بقوله تعالى الدال على شدة غضبه عليهم :

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ (٣٨)

بسبب الشرك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٩)

أي: وما تجزون إلا بمثل ما عملتم .

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤١)

أي: الذين أخلصهم الله لعبادته، فلا يذوقون العذاب الأليم، بل يغفر الله سيئاتهم، ويعفو عنهم، ويدخلهم بفضل الجنة.

وقرئت بالكسر: (المخلصين) أي: الذين حققوا معنى عبوديتهم لله، فأطاعوه وحده، وأخلصوا في عبادته.

• الرزق المعلوم:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ (٤٢)

أي: معلوم الصفة من طيب طعم، ولذة، ورائحة، وحسن منظر.

أو: معلوم أنه من رزق الجنة فلا يوجد في غيرها.

﴿فَوَرَكَةٌ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ (٤٣)

أي: ورزقهم فواكة يتلذذ بها ولا يتقوت، لأنهم مستغنون عن القوت، وهم مكرمون في تناوله، يصل إليهم من غير تعب وسؤال.

ثم وصفت الآيات مجالسهم ومشاربهم بعد وصف طعامهم:

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٤٤)

أي: في جنات ليس فيها إلا النعيم.

﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٤)

فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ .

أي: خارج من العيون، وهو صفة خمر الجنة، لأنه يجري في أنهار، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿بِضَاءٍ صَافِيَةٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ .

أي: بيضاء صافية نقية يلتذ بها الشاربون، أو يشتهيها الشاربون.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: ليس فيها غائلة تغتال عقولهم، وتؤذي أبدانهم، كما في خمر الدنيا، ولا هم منها يسكرون، فلا يوجد في خمر الجنة ما يوجد من الفساد في خمر الدنيا كالسُّكَّر وذهاب العقل وصداع الرأس والأسقام التي تسببها للأبدان. ثم وصفت الآيات أزواجهم في الجنة:

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرَاتُ الْأَطْرَفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ .

أي: وعندهم نساءً عفيفاتٌ حياءً، لا ينظرن إلى غير أزواجهن حياءً، حسان الأعين مع رقة ولطف وعفة ونعومة.

﴿كَأَنَّهُنَّ بِيضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ .

أي: في صفاء البيض المصون المستور، فلم تمسه الأيدي، ولم يصبه الغبار.

#### • ذكريات ومسامرات:

ثم وصفت الآيات أحاديث أهل الجنة ومسامراتهم في مقابل ما سبق من حكاية تخاصم أهل النار:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠)﴾ .

أي: يتساءلون عما جرى لهم في الدنيا، وما أحلى الذكريات عند رفاهية الحال وفراغ البال.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١)﴾ .

أي: كان لي في الدنيا مقارن أو مصاحب أو مجالس، ينكر البعث والحساب والجزاء.

﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢)﴾ .

أي: يقول موبخاً لي على الإيمان بيوم القيامة والتصديق بالبعث:

﴿أءَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أءِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣)﴾ .

أي: لمجزيون ومحاسبون، وهو استفهام إنكاري.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ (٥٤)﴾ .

قال المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة: هل أنتم مشرفون على النار؟! .

﴿فَأُطِّلَعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥)﴾ .

أي: فأشرف على أهل النار فرأى قرينه في وسطها.

﴿قَالَ تَأَلَّهْ إِنَّ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦)﴾ .

أي: قال المؤمن المنعم لقرينه المعدب: والله لكدت أن تهلكني، (إن)

مخففة من الثقيلة، وهي تدخلُ على (كاد)، كما تدخل على (كان)، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

أي: ولولا نعمة ربي علي بالهداية والتشيت لكنت من المحضرين معك في العذاب.

ويتابع المؤمنُ كلامه يتحدثُ بنعمة الله عليه على مسمع من قرينه ليكون توبيخاً له:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْنَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾

أي: نحن مخلّدون منعمون، فما نحن بمبتلين إلا الموتة الأولى التي كانت في الدنيا، وما نحن أيضاً بمعذّبين.

وبعد أن فرغت الآيات من وصف نعيم أهل الجنة ومسامراتهم وذكرياتهم عَقَّبَ عليه بقوله تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

وهو النجاة من النار، والفوز بالجنة والرضوان.

﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

أي: للوصول إلى هذا الفوز يجب أن يعمل العاملون، لا من أجل حطام الدنيا الزائلة.

فالتنافس والتسابق على طريق الجنة أمرٌ محمودٌ، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

أما التنافسُ من أجل حطام الدنيا الزائلة فأمراً مذموم، لأنه يؤدي إلى الحرمان من هذا النعيم، وإلى مقاساة أنواع العذاب في الجحيم.

### • شجرة الزقوم:

ومن هذا العذاب الأكل من شجرة الزقوم:

﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ .

أي: أذلك الرزق المعلوم في الجنة خيرٌ رزقاً أم شجرة الزقوم.

والنزل: ما يقدم للنازل بالمكان من الرزق. وشجرة الزقوم: مشتقة من التزقّم، وهو البلعُ على جهدٍ لكراحتها ونتنها، يأكلُ منها أهل النار، وهي طعامهم كما سيأتي.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ .

أي: إنا جعلناها محنة وعذاباً للظالمين في الدنيا والآخرة، وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار ولا تحترق؟! وبهذا كانت اختباراً وامتحاناً للناس لإظهار مَنْ يصدّق منهم ومن يكذب، وهي عذابٌ لهم في الآخرة، لأنها طعامهم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّئَآءَ الَّتِي آرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحِفُّهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ .

أي: تنبت في قعر جهنم.

﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ .

أي: ثمرها الذي يطلع منها كأنه في القبح رؤوسُ الشياطين، وهو تشبيهه

تخييلي، شبه ثمرها بالشياطين لقبحهم عند الناس، والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت: كأنه رأس شيطان.

﴿فَأَنَّهُمْ لَأَكْلُونَ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٦٦).

أي: إن الظالمين لآكلون من شجرة الزقوم حتى تمتلئ بطونهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَابًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (٦٧).

أي: ثم إنهم يشربون الحميم على الزقوم كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِبُونَ﴾ (٥١) ﴿لَأَكْلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ﴾ (٥٢) ﴿فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٥٣) ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنْ الْحَمِيمِ﴾ [الواقعة].

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (٦٨).

أي: ثم إن مرجعهم بعد هذا العذاب إلى نارٍ تتأججُ، وجحيمٍ تتوقد، وسعيرٍ تتوهجُ.

ويبدو أنهم يساقون إلى الحميم كما تساقُ الإبل إلى الماء، ثم يردُّون إلى وسط الجحيم، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آٰنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤].

فإنَّ في جهنم مواضع كثيرة أعدَّ الله لهم في كلِّ موضع لوناً من العذاب. ثم بيَّن تعالى سبب استحقاقهم لهذا العذاب الأليم فقال:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ (٦٩) ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آٰثَرِهِمْ مُّرْعُونَ﴾ (٧٠).

أي: وجدوا آباءهم ضالين، فساروا على طرقهم من غير تدبُّر ونظر.

والإهراع: الإسراع الشديد، وفي بناء الفعل للمفعول إشارة إلى مزيد رغبتهم في الإسراع على آثار آبائهم من غير توقُّف وتفكير، فالقوم قلَّدوا آباءهم، وعطلوا عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، ولو لم يكن في ذم التقليد الأعمى إلا هذه الآية لكفى.

والتقليد الأعمى من أعظم أسباب الضلال، وأكثرها شيوعاً وذيوعاً بين الأمم:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: بسبب التقليد الأعمى، وتعطيل وسائل النظر والتفكير.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

يبيّنون لهم عاقبة الضلال، ويحذرونهم من سطوة الله وانتقامه.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: انظر كيف أهلكناهم، فكانت عاقبتهم في غاية الشدة والفظاعة.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

أي: إلا الذين آمنوا وأخلصهم الله لعبادته وطاعته.

أو: إلا الذين آمنوا وأخلصوا في تحقيق عبوديتهم لله (على القراءة بكسر اللام)، نجوا من العذاب، الذي أنزله الله بالمكذبين كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ لكن المقصود به قومه، فلا بد أن يكونوا قد سمعوا أخبار الأمم السابقة ورأوا آثارهم.





## الفصل الثاني

### بَعْضُ مَوَاقِفِ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَمِيعَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُرًّا الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّا مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَبِكُمْ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تَرْيَدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا نَلَكَمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي التُّجُورِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِنَّهْمُ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُوا مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّئِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَسَوَّرْنَاهُ بَعْلَمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ إِنِّي أَدْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴿١٠٢﴾ قَالَ يَتَأْتِي أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٤﴾ وَتَلَيْنَاهُ أَنْ يَتَّيْرَهُمْ ﴿١٠٥﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّكَ هَذَا هُوَ الْبَلْتُوَا الْمُئِينُ ﴿١٠٧﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٠﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ وَسَوَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ دُرِّيَّتَيْهِمَا يُحْسِنُ وَطَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُمِيتٌ ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٥﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٦﴾ وَصَوَّرْنَاهُمَا فَكَانُوا هُمُ الْغَالِيَيْنِ ﴿١١٧﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٨﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٩﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٠﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢١﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٢﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِنَّ إِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٤﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا نَنْفَعُونَ ﴿١٢٥﴾

أَنْدَعُونَ بَعْلًا وَّنَذْرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٧٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ رَبَّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَاتَمَّتْ لَهُمْ  
لَمُحْصَرُونَ ﴿١٧٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُحْلَصِينَ ﴿١٧٨﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَحْرِينَ ﴿١٧٩﴾ سَلَّمَ عَلَيَّ إِلَى يَأْسِينَ ﴿١٨٠﴾ إِنَّا  
كَذَلِكَ نَحْرَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٢﴾ وَإِنَّ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ  
وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٤﴾ إِلَّا جُورًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٨٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَحْرِينَ ﴿١٨٦﴾ وَإِنَّا لَنُرَوِّنُهُمْ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٨٧﴾  
وَيَأْتِيهِمْ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿١٨٨﴾ وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٩﴾ إِذْ أَنْبَأَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٩٠﴾  
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٩١﴾ فَالْتَمَسَهُ الْأُخْرَىٰ ﴿١٩٢﴾ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٩٣﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٩٤﴾  
لَلَبِثَ فِي سُبْحَةٍ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٩٥﴾ فَبَدَّلْنَاهُ بِالْأَعْرَابِ وَهُوَ سَوِيءٌ ﴿١٩٦﴾ وَأَنْبَأْنَا عَلَيْهِ سَجْرَةَ مِنَ  
يَقِطِينَ ﴿١٩٧﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَبَدْرُونَ ﴿١٩٨﴾ فَاتَمَّتْ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٩٩﴾

### • الإيمان والعبودية:

ثم شرعت الآيات تفضّل ما أجملت في سياقها، وتعرض بعض أخبار الكمّل من الأنبياء والمرسلين، الذين حققوا عبوديتهم لله جلّ وعلا في أسمى صورها، فكانوا الأسوة الطيبة الصالحة في جميع ميادين الخير.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿١٧٥﴾﴾

أي: ولقد دعانا نوح فأجبناه أحسن الإجابة، ونصرناه على أعدائه. والتقدير: فوالله لنعم المجيبون نحن، فحُذِفَ منه ما حُذِفَ لقيام ما يدل عليه، والجمع دليل العظمة والكبرياء.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١٧٦﴾﴾

أي: ونجّيناه وأهله من الغم الشديد، وهو التكذيب والأذى الذي استمر ألف سنة إلا خمسين عاماً كما مرّ معنا عند قوله: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

والمراد بـ (أهله): المؤمنون، أما امرأته وولده الكافر فكانوا من المغرّقين،

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠].

وقال أيضاً: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْمَعَنَّ مَا يُنْسَى لَكَ بِهِ عَلِمْتُ إِنَّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود].

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ﴾ (٧٧)

فهو الوالد الثاني للبشرية بعد آدم ﷺ .

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨)

أي: أبقينا له ثناءً حسناً، وذكراً طيباً، فيمن أتى بعده من الأمم، فلا يذكر إلا بخير.

﴿سَلَّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩)

أي: سلامٌ على نوح في كل العالمين كعالم الملائكة وعالم الإنس وعالم الجن. (وسلام) نكرة جاز الابتداء به لما فيه من معنى الدعاء.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠)

أي: هذا الذي أكرمناه به مجازاة على إحسانه في تحقيق عبوديته لربه، وتبليغ رسالته، وصبره على أذى قومه كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨١)

أي: إنه من الذين حققوا عبوديتهم لله تعالى حتى استحقوا أن يشرفوا

بالإضافة إلى ذاته بهذه الصفة، صفة العبودية.

وهي شهادة من الله تعالى في معرض الثناء على نوح ﷺ، دلت على علو مرتبتي الإيمان والعبودية، وأنها من أعظم صفات المدح والتكريم.

﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ﴾ (٨٢)

أي: أعرفنا المعاندين المكذبين الذين سلخوا أنفسهم عن مقام عبوديتهم لله تعالى.

ثم انتقلت الآيات إلى الحديث عن إبراهيم ﷺ:

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣)

أي: إن إبراهيم من شيعة نوح ﷺ، ونجّاه الله تعالى من الحرق، كما نجّاه نوحاً من الغرق، وجعله والد جميع الأنبياء والمرسلين الذين بعثوا بعده.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٤)

أي: أخلص لله قلبه، وأقبل على عبادته وحده، فلم يكن في قلبه شيء من العلائق الدنيوية، كما سيأتي بيان ذلك في قصة الذبح والفداء [الآيات: ١٠٢-١١١].

#### • تكسير الأصنام:

﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ (٨٥)

وهو استفهام إنكارٍ وتوبيخ، أتبعه باستفهام توبيخي آخر:

﴿أَيُّكُمْ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ (٨٦)

أي: تأفكون إفكاً، وتعبدون آلهة سوى الله تعالى. والإفك: أسوأ الكذب، وأفاد تقديمه تقرير أنهم على باطل، وأن أمرهم مبني على الإفك.

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٧)

أي: ما ظنُّكم أنَّه فاعل بكم وقد عبدتم غيره.

﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨)

أي: نظرَ في النجوم نظرَ المتفكِّر في قدرة الله الذي خلقها وأبدعها.

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (٨٩)

أي: إني مريض القلب من عبادتكم غير الله تعالى.  
فظنَّ قومه أنه مريض حقاً:

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (٩٠)

أي: فتركوه، وانصرفوا عنه إلى عيدٍ لهم خارج البلد.  
وبهذا تمكَّن ﴿٩١﴾ من الانفراد بأصنامهم لكي يحطمها، ويحقق قسمة الذي صدر منه عندما قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٩١)

أي: ذهبَ إليها سرّاً وقال مستهزئاً: ألا تأكلون؟! ويبدو أن قومه تركوا عندها طعاماً يرجون بركتها فيه.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ (٩٢)

وهو سؤال المتعجب من عبادة قومه لهذه الأصنام العاجزة عن الكلام.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (٩٣)

أي: مال عليهم ضارباً شديداً بيمينه حتى كسرهما، وجعلها قطعاً كما

قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾ (٩٤).

أي: أقبلَ قومه إليه يسرعون بعد أن رجعوا إلى أصنامهم ورأوها مكسرةً محطمةً. وفي قراءة: (يُزفون) أي يدفع بعضهم بعضاً.

﴿قَالَ اتَّعَبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (٩٥).

أي: أتعبدون ما تنحتون من الأصنام بأيديكم؟! وهو سؤال إنكار وتوبيخ.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦).

أي: وتعرضون عن خالقكم وخالق أعمالكم.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (٩٧).

أي: ابنوا له بيانا مشرفاً على النار التي أوقدوها فألقوه فيها.

ولم يتزعزع ﷺ، ولم يضطرب، بل بقي رابط الجأش، ثابت القلب، ولم تؤثر فيه ألسنة النيران المتصاعدة في جو السماء، ولا صرخات الجماهير المزدحمة حوله، وكان ﷺ يردُّ بقلبه ولسانه: حسبي الله ونعم الوكيل.

ففي «صحيح البخاري» [٤٥٦٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد عليه السلام حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٩٨).

أي: أرادوا به شراً فأبطله الله، وجعلهم المقهورين، وسلّمه الله من شرهم

وكيدهم، فجعل النار برداً وسلاماً عليه كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ومع وضوح المعجزة الدالة على صدق إبراهيم؛ وصحة دعوته؛ أصراً قومهُ على عنادهم وكفرهم، فأهلكهم الله بعد أن أمر إبراهيم بالهجرة إلى بلاد الشام.

• الهجرة إلى بلاد الشام:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩).

أي: إنني ذاهبٌ إلى حيث أمرني ربِّي سيرشدني إلى مقصدي، ويوفِّقني في مذهبي.

وهذا يدل على ثقته ﷺ بربه، وتوكله عليه، وتوجَّه ﷺ إلى الأرض المباركة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ وُلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وسأل الله تعالى في طريق الهجرة أن يرزقه الولد الصالح، لكي يكون معيناً له في الدعوة، ويؤنسه في الغربة:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٠) ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (١٠١).

أي: فاستجاب الله دعاءه، وبشَّره بـغلام حليم.

ولنا أن تصوّر فرحة إبراهيم المهاجر الغريب بهذا الغلام الذي وصفه ربُّه بأنه غلام حليم، وسرى آثار حلمه في قصة الذبح والفداء، وسيكشف لنا سرَّ وصفِ الله تعالى له بهذه الصفة، وقيل: ما نعتَ الله نبيّاً بالحلم لعزّة وجوده غير إبراهيم وابنه ﷺ، وحالهما المذكورة بعدُ تشهد له.

وهذا الغلام الحليم هو إسماعيل ﷺ، فهو الذبيح. أما إسحاق فقد بشَّر به بعد ذلك، قال الله بعد قصة الذبح: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

قال الأصمعي رحمه الله: سألتُ أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أم

إسماعيل؟ فقال: يا أصمعي أين ذهب عقلك؟! متى كان إسحاق بمكة؟! وإنما كان إسماعيل، وهو الذي بنى البيت مع أبيه.

وأيضاً فإن الله تعالى قال في سورة هود: ﴿بَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بأن يرى ولد وولده؟! (١).

### • رؤيا الأنبياء:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ يَتَأْتَبِعُ أَعْمَلٌ مَا تَوَمَّرْتُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠١﴾

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ﴾ أي: لما كبر وترعرع، وصار يقدر على المشي مع أبيه في حوائجه، وبهذا السن يزداد تعلق الوالد بولده.

﴿قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ وفي قراءة: (يا بني) بكسر الياء، يحتمل أنه رأى ذلك أو رأى ما هو تعبيره، ولم يقل: (رأيت) لأنه رأى مرة بعد مرة.

ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة، فإن الأنبياء ﷺ تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، كما في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم... والنبوي صلى الله عليه وسلم نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء، تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم» [رواه البخاري (٣٥٧٠)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربع ركعات، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم أربعاً، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً، فقلت: يا رسول الله تنام قبل أن توتر؟ قال: «تنام عيني ولا ينام قلبي» [رواه البخاري (٣٥٦٩)].

ولا شك أن التكليف بالذبح بواسطة الوحي في أثناء النوم أكمل في

الابتلاء من التكليف به في اليقظة، أظهرَ الله تعالى به المزيدَ من فضل إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام في قصة الذبح والفداء، واستسلامهما وإذعانهما للتكليف الإلهي.

قال البيضاوي رحمته الله: «ولعلَّ الأمرَ به في المنام دون اليقظة، لتكون مبادرتهما إلى الامتثالِ أدلَّ على كمالِ الانقياد والإخلاص»<sup>(١)</sup>.

فهذا التكليفُ وحيٌّ، ولا يصحُّ أن نقولَ عنه: إنَّه إشارةٌ ومجرد إشارة فقط، كما قال سيد قطب رحمته الله في «الظلال»: نعم إنَّها إشارةٌ مجرد إشارة، وليست وحيًّا صريحاً، ولا أمراً مباشراً، ولكنها إشارةٌ من ربه، وهذا يكفي ليلبِّي ويستجيبَ دون أن يعترضَ ودونَ أن يسألَ ربه: لماذا يا ربي أذبحُ ابني الوحيد. ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ أي: ما تُريك نفسك من الرأي.

وفي قراءة: (ماذا ترى) بضم التاء وكسر الراء، أي: ماذا تبدي من رأيك. وواضحٌ أنَّ إبراهيم عليه السلام لم يشاور إسماعيلَ ليرجعَ إلى رأيه، وإنَّما شاوره ليعلمَ ما عنده فيما نزل من بلاء الله تعالى، وليعلمَ صبره على أمر الله، وعزمه على طاعته، أو لتقرَّ عينُه بما يرى من طاعة ابنه واستسلامه لأمر الله. ودلَّت هذه المشورةُ أيضاً على ثقته عليه السلام بولده، وحُسن ظنه به، وأنَّه سيكون عوناً له على تنفيذ أمر الله تعالى، وتَحَقُّق ما كان يرجوه إبراهيم من ولده عليهما الصلاة والسلام.

﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: افعل ما أمرت به.

ودلَّ قوله هذا على علوِّ مداركه عليه الصلاة والسلام، وهو لا يزال في بواكير عمره، فقد أدرك أنَّ رؤيا الأنبياء وحيٌّ، وأنَّ رؤيا والده أمرٌ إلهيٌّ، فحثه على تنفيذه مع أنَّ والده أعلمه بالأمرِ بأسلوب الاستشارة.

ولمَّا كان خطابُ الوالدِ ﴿يَبْنِي﴾ بأسلوبِ الترحُّمِ كان خطابُ الولدِ ﴿يَتَابَتِ﴾ بأسلوبِ التوقيرِ والتعظيم. وفي قوله:

(١) تفسير البيضاوي: ٥/٢٤٣.

﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ما فيه من التواضع والاستسلام لأمر الله تعالى، وفيه أيضاً عزاءً لأبيه على الصبر، لما يعلم من شفقتة عليه مع عظم البلاء، حيث أشار إلى أن الله تعالى عبداً صابرين<sup>(١)</sup>.

### • الاستسلام وتصديق الرؤيا:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾

أي: فلما استسلما لأمر الله تعالى وانقادا وخضعا له، وذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسلم ابنه، وإسماعيل سلم نفسه، فحققا بذلك كمال العبودية لله عز وجل، وأضجعه على جبينه على الأرض.

وأصل التل: الرمي على التراب، وهو التراب المجتمع. والجبين: جانب الجبهة.

﴿وَنَدَبْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعِهِمُ﴾ قَدْ صَدَّقَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾

﴿وَنَدَبْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعِهِمُ﴾ قَدْ صَدَّقَ الرَّؤْيَا ﴿١٠٥﴾ أي: قد حققت ما أمرناك به في الرؤيا، وحصل المقصود منها، وأظهرت كمال الاستسلام والانقياد لأمر الله تعالى.

فإن قيل: كيف صدق الرؤيا وكان قد رأى الذبح ولم يذبح، وإنما كان تصديقها لو حصل الذبح؟.

قلت: جعله مصدقاً، لأنه بذل وسعه ومجهوده، وأتى بما أمكنه، وفعل ما يفعله الذابح، فقد حصل المطلوب، وهو إسلامهما لأمر الله تعالى، وانقيادهما لذلك، فلذلك قال له: ﴿قَدْ صَدَّقَ الرَّؤْيَا﴾.

وجواب ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ محذوف تعظيماً له، ليذهب الخيال في تقديره كل مذهب، إذ صدق إبراهيم الرؤيا، وكان ما كان مما ينطق به العيان، ولا يحيط

به البيان من استئثارهما بما أنعم الله عليهما من دفع البلاء، وبما اكتسبا في تضاعيف ذلك من الثواب والثناء، وقد أشير إلى جميع ذلك بقوله:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نَصْرِفُ عَمَّنْ أَحْسَنَ طَاعَتَنَا وَعِبَادَتَنَا المكاراة والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً كما قال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ [الطلاق: ٢].

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ أَلْبَتَأُ الْمُبِينُ﴾

أي: إنَّ هذا لهو الاختبار البين الواضح، الذي يتميز فيه المخلصون عن غيرهم، أو المحنة الشديدة الظاهرة الشدة التي اجتازها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام بنجاح.

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾

أي: وفديناه بحيوان عظيم القدر، يُذْبَحُ بدله، وهو - كما ذكر المفسرون - كبش أبيض أقرن.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾

أي: وتركنا لإبراهيم ثناءً حسناً فيمن يأتي بعده، فما من أمة إلا تصلي عليه وتحبه قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

والجدير بالذكر أنَّ مناسك الحج التي تؤدَّى في منى قد شرعت بعد حادثة الذبح والفداء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لَمَّا أَمَرَ إِبْرَاهِيمُ بِذَبْحِ ابْنِهِ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقْبَةِ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ حَتَّى ذَهَبَ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ

الوسطى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى<sup>(١)</sup>.

وشرعت أيضاً الأضحى في أيام النحر والتشريق، وهي أيام منى، وأنزل الله فيها قوله الكريم: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَنَكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾

وهذا السلام نعمة أخرى من نعم الله التي تفضل بها على إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

وهو إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل والسلام عليه، بينما قوله السابق: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥] أي: نصرف المكاره عن من أحسن طاعتنا وتحقق بالعبودية لنا، فلا تكرر، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿إِنَّهُ مِنَّ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

أي: إنه من الذين حققوا صفة العبودية لنا بأسمى صورها.

#### ● النبي العبد:

والجدير بالذكر أن نبينا محمداً ﷺ قد تحقق بكمال العبودية لله، فوصفه ربه سبحانه بصفة العبودية في عدد من الآيات الكريمة، وهو في أعلى المقامات، ففي مقام الإسراء قال تعالى فيه: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ

(١) تفسير القرطبي: ١٠٦/١٥.

الْحَرَكَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١١﴾ [الإسراء: ٤١].

وفي يوم بدر أنزل الله تعالى فيه أيضاً: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ. وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَاقُحِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وفي مقام تبتهل وعبادته قال تعالى فيه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾ [الجن: ١٩].

فهو عليه الصلاة والسلام المتفردُ بكمال العبودية لله تعالى، الذي اختار أن يكون نبياً عبداً على أن يكون نبياً ملكاً، ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لو شئت لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملك، وإن حجزته لتساوي الكعبة (أي: وسطه) فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً ملكاً، فنظرتُ إلى جبريل عليه السلام، فأشار إليَّ أن صَعَّ نفسك فقلت: نبياً عبداً» [قال في «كنز العمال» (٣٢٠٢٨): رواه ابن سعد والطبراني في الكبير وابن عساکر].

وفي رواية ابن عباس: فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير له، فأشار جبريلُ بيده أن تواضع، فقلت: «نبياً عبداً» [رواه ابن عساکر].

قالت عائشة: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكلُ متكئاً يقول: «أَكُلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ» [أخرجه أحمد في الزهد، والبيهقي في الشَّعْب، وأبو يعلى والبغوي وابن سعد وأبو الشيخ].

قال القاضي عياض رحمته الله: «وأما تواضعه ﷺ على علو منصبه ورفعة تبتهل فهو أشدُّ الناس تواضعاً وأقلهم كبراً، وحسبك أنه خَيْرٌ بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، فاختر أن يكون نبياً عبداً، فقال له إسرافيل عند ذلك: فإنَّ الله قد أعطاك بما تواضعت له أنك سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول شافع»<sup>(١)</sup>.

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص ١٧٣.

وعلق القاري في الشرح على قوله: (وأقلهم كبراً): كذا في الأصول المصححة، ولعله أراد بأنه كان يتكبر أحياناً لظهور كبرياء الله ﷻ فيه بالنسبة إلى بعض المتكبرين، لما ورد من أن التكبر على المتكبر صدقة، وفي أصل الدلجي: وأعدمهم كبراً.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١١٢﴾

أي: وبشرنا إبراهيم بإسحاق، وأنه سيكون نبياً من الصالحين.

ولا شك أن وقع البشارة على قلب إبراهيم أعظم عندما يعلم أن ولده سيكون نبياً من الصالحين، وهذا يؤكد أن الذبيح إسماعيل، فإنه وُصف بقصة الذبح بأنه غلام حليم، وقال تعالى بعد ذلك تعقيباً على القصة: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ولما حملت الملائكة البشارة إلى إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

فإسماعيل وصف بالحلم، وهو مناسب للمقام، كما وصف أيضاً بالصبر وصدق الوعد في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

وقوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

وهذه الصفات توافقت ما أتصف به في قصة الفداء والذبح وقوله لأبيه: ﴿يَتَابَتِ أَعْيُنُ مَا تُوَمَّرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ﴿١١٣﴾

أي: أفضنا عليهما خيرات الدين والدنيا، وجعلنا من ذريتهما من يحسن تحقيق عبوديته لله تعالى، ومنهم من يظلم نفسه بالكفر والمعاصي ظلاماً ظاهراً

كما قال الله لإبراهيم عندما سأل الإمامة لذريته: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وفي ذلك دليلٌ على أنَّ النسبَ لا أثرَ له في الهدى والضلال، وأنَّ الظلم في الأعقاب لا يعودُ على الأصل بنقيصة وعيب<sup>(١)</sup>.

ولهذا قال النبي ﷺ حين أنزل الله عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: «يا معشرَ قريشٍ! اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفيئاً عمّة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد! سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً» [رواه البخاري (٤٧٧١)].

• المِنَّةُ على موسى وهارون:

وتحولت الآيات بعد أن فرغت من قصة الذبح والفداء إلى ذكر نبين كريمين تحقّقاً بكمال العبودية لله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾

أي: أنعمنا عليهما بنعم كثيرة، منها:

﴿وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَّا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾

وهو ظلم فرعون وطغيانه.

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْفَأُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾

أي: كانوا هم الغالبين لفرعون وجنوده.

(١) روح المعاني: ١٣٣/٢٣.

﴿وَأَيْنَهُمَا الْكُتُبَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ .

أي: المستنير أو البليغ في بيانه، وهو التوراة.

﴿وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ .

أي: بيّنا لهما طريق الوصول إلى الحق والفوز برضوان الله تعالى.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ ﴿١١٩﴾﴾ .

أي: جعلنا لهما ثناءً حسناً فيمن يأتي بعدهما.

﴿سَلِّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ .

أي: الذين أحسنوا في تحقيق عبوديتهم لله تعالى وطاعته، ولهذا شهد الله لهما بأنهما من عباده المؤمنين فقال:

﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ .

• سلام على إيل ياسين:

ثم أضافت الآيات ذكر إيل ياس عليه السلام:

﴿وَإِنَّ إِيْلَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ .

وقد تعددت أقوال المفسرين في قومه الذين أرسل إليهم وفي زمن إرساله، والأولى الاكتفاء بما ذكر القرآن الكريم، فهو من المرسلين، ذكره تعالى هنا، وذكره أيضاً في قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

وستأتي معنا الإشارة إلى البلد الذي أرسل إليه، والأرجح أن يكون النبي المعروف في العهد القديم باسم إيلياء، وقد أرسل إلى قوم في سورية من بلاد

الشام، كانوا يعبدون صنماً يسمونه بعلاً، ولا تزال آثار هذه العبادة قائمة في مدينة بعلبك.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا نُنْفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

أي: ألا تخافون الله فتطيعوه وتعبدوه وحده.

﴿أَلَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

أي: أتعبدون بعلاً، وتعرضون عن عبادة الله أعظم الخالقين؟!.

﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَى ﴿١٢٦﴾﴾

قريء بالنصب على البدل من (أحسن) وبالرفع على الابتداء. (وبعل) اسم صنمهم، ويبدو أن مدينة بعلبك سُميت به، وهي مدينة عامرة تقع في سهل البقاع من لبنان في بلاد الشام، فيها قلعة مشهورة بأثارها القديمة الرومانية، وفيها أيضاً آثار إسلامية كثيرة، واسم بعلبك مركب تركيباً مزجياً من (بعل) اسم الصنم و(بك) اسم رجل كان ملكاً فيها<sup>(١)</sup>.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأْتَهُمْ مُمْحَضْرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

أي: إنهم لمُحَضْرُونَ في العذاب، وأطلقت لأنها مخصوصة بالعذاب كما سبق معنا في قوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧].

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾

أي: الذين أخلصهم الله لعبادته وطاعته.

(١) الصحيح أن (بك) تعني بيت العبادة، ومنه سُميت مكة أو بكة، أي: بيت العبادة، أي مسجد، فبعلبك بيت عبادة الإله بعل (ن).

وقرئت بالكسر (المخلصين) أي: الذين أخلصوا في عبادة الله وحده، وتحققوا بمقام العبودية له. والاستثناء من الواو في (لمحضرون).

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ .

أي: تركنا له ذكراً حسناً في الآخرين كما ترك للأنبياء السابق ذكرهم.

﴿سَلَّمَ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ .

أي: سلام على إيلياس وقومه المؤمنين.

ومع السلام ثناء وشهادة من الله تعالى بأنه من المحسنين الذين حققوا مرتبة الإحسان في عبادة الله تعالى، التي ذكرها النبي ﷺ في قوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)]:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ .

### • المنة على لوط:

ثم مرّت الآيات سريعاً على ذكر نبي الله لوط، وما أنزل الله بقومه من العذاب:

﴿وَلِإِن لُّوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ بَجَّيْنَتْهُ وَاهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ .

وهي امرأته، التي بقيت مع المعذبين بسبب كفرها.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ .

أي: ثم أهلكنا الآخرين.

ثم توجهت الآيات تخاطب قوم النبي ﷺ داعية لهم إلى الاتعاظ والاعتبار بآثار الهالكين التي يمرّون عليها في أسفارهم:

﴿وَإِنَّكُمْ لَسَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ .

### • صاحب الحوت:

وتوقفت الآيات عند ذكر نبي الله يونس عليه السلام لتبرز قصته الفريدة العجيبة:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِكَ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ .

أي: إذ هرب وترك قومه قبل أن يأذن له ربُّه، وركب سفينة مملوءة.

ويطلق الإباق في الأصل على الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه؛ حَسُنَ إطلاقه عليه.

ومرَّ معنا ذكره في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ الْتَمَّ يُونُسَ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

وهذا القول أولى ممَّا نقله القرطبي عن الحكيم الترمذي: أسماه أبقاً، لأنه أبق عن العبودية، وإنَّما العبودية ترك الهوى، وبذل النفس عند أمور الله.

فيونس رسول كريم لا يليق أن نقول عنه: (أبق عن العبودية) وكل ما فعله أنه ترك قومه مغاضباً منهم، لأنهم لم يستجيبوا لدعوته قبل أن يأذن له ربُّه، وهو الأنسب بحال الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْشُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: ٤٨].

وحتى لا يسيء أحد الظنَّ بيونس عليه السلام، ويصفه بما لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يقولنَّ أحدكم: إني خيرٌ من يونس» [رواه البخاري (٣٤١٢)].

قال ابن حجر رحمته الله: «إنَّما قال صلى الله عليه وآله وسلم ذلك تواضعاً إنَّ كانَ قاله بعد أن أُعلمَ أنه أفضلُ الخلقِ، وإنَّ كانَ قاله قبلَ علمه بذلك فلا إشكالَ، وقيل: خصَّ يونسَ

بالذكر لِمَا يُخْشَى عَلَى مَنْ سَمِعَ قِصَّتَهُ أَنْ يَقَعَ فِي نَفْسِهِ تَنْقِيسٌ لَهُ، فَبَالَغَ فِي ذِكْرِ فَضْلِهِ لِسُدِّ هَذِهِ الذَّرِيعَةِ»<sup>(١)</sup>.

ويبدو أَنَّ السَّفِينَةَ أَوْشَكَتْ عَلَى الْغَرَقِ لِكَثْرَةِ مَنْ فِيهَا كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ فَأَرَادُوا تَخْفِيفَ حَمُولَتِهَا، فَاقْتَرَعُوا عَلَى مَنْ يَرْمُونَهُ فِي الْبَحْرِ، فَخَرَجَتِ الْقَرَعَةُ عَلَى يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾<sup>(١٤)</sup>.

أي: فكان من المغلوبين في القرعة.

#### • القرعة في الإسلام:

والاقتراعُ على إلقاء آدمي في البحر لا يجوزُ، إنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته، وعليهم أن يصبروا على قضاء الله ﷻ، وهي مشروعة في الإسلام لقطع التنازع بين أصحاب الحقوق المتساوية، كالسفر بإحدى الزوجات، وتعيين أصحاب الحصص في القسمة بين الشركاء، أو بين المستحقين في قسمة الميراث.

وقد بَوَّبَ الإمام البخاري في «صحيحه» في [٥٢] كتاب الشهادات فقال: [٣٠] بَابُ الْقَرَعَةِ فِي الْمَشْكَالَاتِ، ثُمَّ أَخْرَجَ عِدَّةً مِنَ الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ:

منها قوله عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ الْمُذْهِبِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً، فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا، وَبَعْضُهُمْ فِي أَعْلَاهَا...» الحديث [٢٦٨٦].

ومنها قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفْرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيْتَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ... الحديث [٢٦٨٨].

ومنها أيضاً قوله ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النَّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ

يجدوا إلا أن يَسْتَهْمُوا عليه، لاسْتَهْمُوا» [٢٦٨٩]. انظر أحاديث الباب في البخاري.

﴿فَالنَّمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (١٤٢).

أي: فابتلعه الحوت وهو آتٍ بما يُلام عليه، فلَمَّا أتى بما يستحق اللوم عليه صار ذا لوم.

والذي أتاه - كما مر معنا - أنه ترك قومَه مغاضباً لهم، قبل أن يأذن له ربُّه بتركهم، ونظراً لعلوِّ مقامه تعرَّضَ للوم والمؤاخذه من الله تعالى، وحسنات الأبرار سيئات المقرِّبين.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣).

أي: لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، ومنه ما حكاه الله عنه وهو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] كما مرَّ معنا من قبل.

﴿لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤٤).

أي: لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، فيكون بطنُ الحوت قبراً له. وفيه حثٌّ على الإكثار من ذكر الله تعالى، وتعظيم شأنه، ومنَّ أقبَلَ عليه في السَّراء أخذ بيده عند الضراء كما في الحديث الشريف: «تعرفَّ على الله في الرخاء يعرفك في الشدة» [رواه أحمد (٢٩٣/١) والترمذي (٢٥١٦)].

﴿فَبَدَّنَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (١٤٥).

أي: فطرحناه في أرض لا نبات فيها ولا شجر، على ساحل البحر، وهو عليل ضعيف مما أصابه في بطن الحوت.

وفي هذا إشارة إلى أن مدة لبثه في بطن الحوت كانت مديدةً. وأضاف سبحانه النبذ إلى نفسه، وإن كان الحوت هو النابذ، لأنه نبذه بأمره تعالى وقدرته ومشيتته، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧]. وقال تعالى أيضاً: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩]. ففيها أن الله ﷻ أخبر أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم، ولولا رحمته به لنبذ بالعراء وهو مذموم<sup>(١)</sup>.

### • شجرة اليقطين:

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقِطِينَ﴾ (١٤٦).

وهو القرع المعروف، ويسمى الدُّبَاءَ، وكان النبي ﷺ يحبه. ففي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ، فرأيتُهُ يتتبعُ الدُّبَاءَ مِنْ حِوَالِي الْقِصْعَةِ، فلم أزلُ أُحِبُّ الدُّبَاءَ مِنْ يَوْمِئِذٍ. [رواه البخاري (٢٠٩٢)]. وأخرجه مسلم من هذا الوجه [٢٠٤١] بلفظ: كان يعجبه القرع. وللنسائي في الكبرى [٦٦٣٠]: كان يحب القرع ويقول: «إنها شجرة أخي يونس».

ولا بد أن يكون للقرع فوائد كثيرة، وذكروا من فوائده سرعة نباته، وتظليل ورقه ونعومته، وأنه لا يقربها الدُّبَابُ، وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً، كما ذكروا أن ورق القرع نافع لمن انسلخ جلده. واستشكل بعضهم أن الشجر ما كان على ساق، بينما الدُّبَاءُ لا ساق له، والجواب أنه يحتمل أن الله سبحانه أنبتها على ساق لتظله خرقاً للعادة، أو

يقال: هذا تخصيصُ العامة، وعند العرب كل شيء له جذر فهو شجر، ويشهد له قول أفصح الفصحاء عليه السلام: «شجرة الثوم» والحديث المشار إليه أخرجه البخاري [٨٥٣] عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في غزوة خيبر: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - يَعْنِي: الثُّومَ - فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا».

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٤٧)

أي: بل يزيدون.

والمراد وصفهم بالكثرة، وأنهم ليسوا أنقص من ذلك، بل أزيد، ومثله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿فَأَمَّنُوا وَكَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٤٨)

أي: صدقوا برسالة يونس عليه السلام، فكشف الله عنهم العذاب، وتمتعهم بالحياة إلى أن تحين آجالهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].



## الْفَصْلُ الثَّلَاثُ

## المَلَائِكَةُ وَعِبَادَتُهُمْ وَإِخْلَاصُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى

﴿فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ السُّوَبُ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾  
 أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ أَفْكَهَمَ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَلِيَّهُمْ لَكَدِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَسِينِ ﴿١٥٣﴾  
 مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِنْيَتِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾  
 وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجًّا وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سَخَّرَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا  
 عِبَادَ اللَّهِ الْمُحْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَاتَّكِرْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفِتْنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾  
 وَمَا مِمَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّٰفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ  
 أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُحْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكُفِّرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

## ● القسمة الباطلة:

وبعد هذه الوقفة عند نبي الله يونس عليه السلام عادت الآيات للمرة الثانية تأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل المشركين سؤال التوبيخ والتبكيث:

﴿فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ السُّوَبُ ﴿١٤٩﴾﴾

وهو سؤال إنكار لما كان بعض مشركي العرب يقولونه عن الملائكة بأنهم بنات الله، حتى إنهم أطلقوا على بعض أصنامهم أسماء الإناث؛ قال تعالى في سورة النجم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٦٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿١٧٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿١٧١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿١٧٢﴾﴾.

فهي قسمةٌ باطلةٌ بَيَّنَّ سبحانه بطلانها في عدد من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَ، وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

فكيف جعلوا لله تعالى البنات وقالوا: الملائكةُ بناتُ الله، مع أنهم كانوا يكرهون البنات كرهاً شديداً، بينما جعلوا لأنفسهم الذكور؟! وبهذا زادوا على الشرك ضلالات كثيرة وكبيرة، فقد وصفوا الله بصفاتٍ لا تليقُ بكماله وجلاله، فإنَّ الولد والولادة من صفات المخلوقات الفانية، وفضلوا أنفسهم عليه تعالى فجعلوا أضعفَ الصنفين له، وأقواهما لهم، واستهانوا أيضاً بالملائكة، ووصفوهم بالأنوثة، وهي صفات الضعفاء، ولهذا شدَّد تعالى الإنكار عليهم فقال:

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (١٥١)

أي: وهم حاضرون عندما خلق الله الملائكة إناثاً، فالأنوثة لا تُعلمُ إلا بالمشاهدة.

ولا يخفى ما في الآية من استهزاء بهم لفرط جهلهم وغبائهم، ثم حكمت الآياتُ عليهم بالكذب، وبيَّنت أنه صادرٌ عن صفة عريقة فيهم؛ وهي الإفك الذي هو أشد الكذب:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

وقرئ: (ولدُ الله) بالإضافة، ورفع (ولد) على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: ليقولون: الملائكةُ ولدُ الله!.

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٥٣)

وهو استفهام إنكاري، المراد منه إثباتُ إفكهم، وتأكيدهُ كذبهم. والاصطفاء: أخذ صفوة الشيء، وفي قراءة: (اصطفى) بكسر الهمزة على تقدير حذف أداة الاستفهام.

ثم التفتت الآياتُ تخاطبهم وتوبخهم:

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٥٤).

أي: كيف تحكمون بهذا الحكم الباطل الذي تقضي ببطلانه بدهاة العقول؟!.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٥).

أي: أفلا تتذكرون أنه تعالى منزّهٌ عن اتخاذ الولد، فإنه أمرٌ في غاية الوضوح يتذكره كل ذكي وغبي.

وبعد أن وبّختهم الآياتُ هذا التوبيخ الشديد، وجرّدتهم من أي دليل عقلي انتقلت بأسلوب الإضراب والتحدي لتبيّن أنّ قولهم الباطل هذا لا يستند إلى أي دليل سمعي أيضاً:

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥٦) ﴿فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٥٧).

أي: هل لكم برهان واضح منزل عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله سبحانه، فأتوا بكتابٍ يشهد لكم إنّ كنتم صادقين.

وواضح أنّ الأمر للتعجيز، وأنّ إضافة الكتاب إليهم للتهكم بهم. ودلّت الآياتُ على السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم، والاستبعاد الشديد لأباطيلهم، وتسفيه أحلامهم وتجهيلهم.

#### • من نزغات الشياطين:

ثم كشفت الآيات مصدر هذه الضلالات والأباطيل، فبيّنت أنها من نزغات الشياطين ووساوسهم:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ (١٥٨) ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ (١٥٨).

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ أي: وجعلوا بينه تعالى وبين الشياطين مناسبة،

فأشركوهم مع الله تعالى في استحقاق العبادة، وأطاعوهم فيما وسوسوا في صدورهم من أمثال هذه الأباطيل والضلالات، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لَآئِكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَإِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿سبأ﴾.

وطاعتهم للشياطين لعبادة لهم، كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٦﴾ وَإِنْ أَعْبُدْتُمْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿يس﴾.

والمراد من الجن: الشياطين، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿٩٥﴾ أَي: لمحضرون في العذاب يوم القيامة، ولو كانوا يستحقون العبادة ما عذبهم ربهم، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودَ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ دُسِّيَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْأَمْرُؤُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

أي: يتنزه الله عن كل وصف لا يليق بكماله وجلاله ووحدانيته.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

أي: إلا عباد الله المخلصين من الجن لا يحضرون العذاب.

فالجنُّ المؤمنون الذين أخلصوا في تحقيق عبوديتهم لله تعالى ناجون من العذاب، وكما أنَّ في عالم الجن الكفرة والمردة والشياطين، ففيهم أيضاً المؤمنون الصالحون، قال تعالى: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿٩٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿الجن﴾.

• براءة الملائكة ومقامهم في العبادة:

ثم وجهت الآيات خطابها إلى الكفار من الإنس والجن، تبين لهم كمال قدرته تعالى ومشيئته وعلمه:

﴿فَاتَّكُرُ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَتَنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ .

أي: إنكم أيها الكفار من الجن والإنس لا تستطيعون أن تضلوا أحداً إلا أصحاب النار، الذين سبق في علمه تعالى أنهم بسوء أعمالهم يستوجبون العذاب فيها، يقال: فتن فلانٌ على فلانٍ امرأته؛ أي: أفسدها عليه.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: لو أراد الله ألا يُعصى ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة، وإن في ذلك لعلماً في كتاب الله ﷻ عرفه من عرفه، وجهله من جهله، ثم قرأ: ﴿فَاتَّكُرُ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَتَنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ إلا من كتب الله ﷻ عليه أن يصلى الجحيم، وقال: فصلت هذه الآية بين الناس. وفيها من المعاني: أن الشياطين لا يصلون إلى إضلال أحدٍ إلا من كتب الله عليه أنه لا يهتدي، ولو علم الله ﷻ أنه يهتدي لحال بينه وبينهم <sup>(١)</sup>.

ثم أعلنت الآيات براءة الملائكة مما وصفهم به الضالون المضلون، وإعلانهم عبوديتهم لله ﷻ، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بكماله ووحدانيته:

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ .

أي: وما منا مَلَكٌ إلا له مكان معلوم في العبادة لا يتجاوزه.

وفي الحديث الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَكٌ واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرش، ولخرجتم إلى الصُّعَدَاتِ تجأرون إلى الله تعالى» [رواه الترمذي (٢٣١٢)] وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه ابن ماجه (٤١٩٠) وهو في الصحيحين مختصراً.

وكانهم يقولون: وكيف نكون مناسبين لرب العزة وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه، لكل منا مقام معلوم من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفراً، خشوعاً لعظمته<sup>(١)</sup>.

﴿وإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾

أي: نحن الصافون للعبادة والطاعة.

وفي الحديث الشريف: عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟» فقلنا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأولى، ويتراصون في الصف» [رواه مسلم (٤٣٠)].

﴿وإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

أي: وإنا نحن المصلون، أو المنزهون الله عما وصفه به المشركون.

والمراد أنهم يخبرون بأنهم يعبدون الله بالتسبيح والصلاة، وليسوا معبودين، ولا بنات الله، كما زعم المشركون وشياطينهم.

وفي (إننا) واللام وتوسط ضمير الفصل (نحن)، تأكيد وتخصيص بأنهم المواظبون على العبادة والتسبيح من غير فترة دون غيرهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٦٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء].

ثم أبرزت الآيات بعض المفارقات والتناقضات في مواقف المشركين:

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾

أي: كان المشركون يقولون قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام: لو أن عندنا كتاباً مثل كتب الأولين لأخلصنا العبادة لله، وما خالفنا كما خالف الأولون.

(١) تفسير النسفي: ٢٥٧/٥.

﴿ فَكْفُرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٧٠).

أي: فلما بعث النبي ﷺ، ودعاهم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده كفروا به، وأعرضوا عن دعوته، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وإعراضهم.

وهذا التناقض في مواقف المشركين سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِحْدَىٰ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر: ٤٢].





### الفصل الرابع

## بَشَائِرُ النَّصْرِ وَالتَّائِيْدِ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ

#### • وجاءت البشائر:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْئَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَلِيُّونَ ﴿١٧٣﴾ فَنُوَلِّهِمْ هَيْئًا وَنُؤَيِّدُهُمْ بِقُوَّةٍ وَأُنصِرُهُم بِسُوفٍ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَنصِرْهُمْ فَسُوفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَنصِرْ فَسُوفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

ثم حملت الآيات البشائر لعباد الله المخلصين بالنصر والتأييد على الذين سلخوا أنفسهم عن مقام العبودية لله رب العالمين:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْئَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾

أي: سبق وعدنا لهم بالنصر والتأييد، كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبِ بِنَا وَأَنَا وَرَسُولِي إِنْ كُنَّا اللَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقوله أيضاً: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ورأى بعض المفسرين أنَّ المراد بقوله سبحانه: (كلمتنا) هو المذكور في قوله بعد ذلك:

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَلِيُّونَ ﴿١٧٣﴾﴾

فهو تفسير أو بدل من (كلمتنا) والمراد بالجند أتباع المرسلين، وأضافهم

تعالى إليه تشريفاً لهم وتكريماً، فطاعتهم للمرسلين طاعة لله تعالى القائل: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وما أعزَّ إنسانٌ نفسه بمثل تحقُّقه بالعبودية لله تعالى واستسلامه لأمره، والتزامه بشرعه، وما أذلَّ إنسانٌ نفسه إلا بمعصية الله، والانسلاخ عن تحقيق عبوديته له، وصدق الله تعالى القائل: ﴿وَمَنْ يُؤْنِسْ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

والقائل أيضاً: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].  
ثم خصَّت الآياتُ النبيَّ ﷺ بالبشارات تثبته بها وتوعد أعداءه:

﴿فَنُؤَلِّهِمْ هَوَاجِرًا يَبْعُدُونَ﴾ (١٧٤)

أي: أعرض عنهم واصبر حتى يحين وقت قتالهم، فإن الله ناصرك عليهم.

﴿وَأَبْصُرُهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٥)

أي: وأبصر ما يصيبهم يومئذ من الهزيمة والقتل فسوف يبصرون ذلك. والمراد بالأمر (أبصرهم) الدلالة على أن ذلك قريب كأنه قدامه، (سوف) للوعيد لا للتبديد<sup>(١)</sup>.

ولمَّا سمعَ المشركون هذا الوعيدَ الشديدَ المؤكَّد تساءلوا عنه منكرين ومستعجلين له! فنزلت:

﴿أَفِعْدَابَيْنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦)

وهو استفهامٌ توبيخ وتجهيل.

وإضافة العذاب إلى الله ﷻ بضمير العظمة يفيد هول هذا العذاب وشدته .

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذِرِينَ﴾ (١٧٧)

أي: فإذا نزل العذاب بفنائهم بغتة فبئس صباح الكافرين الذين أنذروا به .  
والصباحُ: مستعارٌ من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب، وكانت عادتهم أن يُغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً؛ وإن وقعت في وقت آخر .  
وفي الحديث: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ أتى خيبرَ ليلاً، وكان إذا أتى قوماً بليلاً لم يَقْرَبْهُمْ حَتَّى يَصْبَحَ، فلَمَّا أَصْبَحَ، خرجت اليهودُ بمساحيهم ومكاتيلهم، فلَمَّا رَأَوْه قالوا: مُحَمَّدٌ وَاللهِ، مُحَمَّدٌ والخميس . فقال النبي ﷺ: «خربتُ خيبرُ، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ، فسَاءَ صباحُ المُنذِرِينَ» .  
وفي رواية ثانية: قال: «اللهُ أكبرُ خربتُ خيبرُ» [رواه البخاري (٤١٩٧)].  
ثم أضافت الآيات تأكيداً جديداً زيادة في تشبته عليه الصلاة والسلام ومواساته عما يلقي منهم :

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (١٧٨) **وَأَبْصَرَ** ﴿سَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٩)

ويلاحظ الإطلاق في: ﴿وَأَبْصَرَ﴾ بعد التقييد ﴿وَأَبْصَرْتُمْ﴾ [الصفات: ١٧٥]؛ للإشعار بأنه يبصر ما لا يحيط به الوصف من أصناف المسرة، وأنهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من أنواع المساءة . أو: الأول لعذاب الدنيا، والثاني لعذاب الآخرة .

• تسبيح وسلام وحمد:

وفي الختام تَوَجَّحَ اللهُ السورةَ بآياتِ التسبيحِ والسلامِ والحمدِ:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠)

وسبحان - كما مرَّ معنا - عَلِمَ للتسبيح الذي هو التباعدُ عن كل نقص اعتقاداً

وعملاً، وهو إخبارٌ بتنزُّهه تعالى عن كلِّ ما لا يليقُ به، وهو أيضاً حُكْمٌ فيه تكليفٌ؛ أي: قولوا: سبحان ربك.

وأضيفَ التسبيحُ هنا إلى اسم من أسمائه الحسنَى، وهو (الرب) المضاف إلى ضمير المخاطب، وهو سيدنا رسول الله ﷺ، وفي هذا تشریفٌ له عليه الصلاة والسلام، وتنويه بمكانته الرفيعة، فالله هو الرب، وأنت يا محمد المربوب.

وأضيفَ الربُّ مرةً ثانيةً إلى العزة، لأنَّ العزةَ منوطةٌ بمشيئته تعالى وقدرته، يعزُّ بها من يشاء، ويذل من يشاء، كما سبق معنا عند قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

فكأنه سبحانه قال: سبحان مَنْ هو مريبك ومكملك ومعزُّك عمَّا قاله المشركون فيه مما سبق ذكره في السورة.

والعزَّةُ يحتمل أن تكون صفةً ذاتٍ، بمعنى القدرة والعظمة، وأن تكون صفةً فعلٍ، بمعنى القهر لمخلوقاته والغلبة لهم، ولذلك صحت إضافة اسمه إليها.

﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨١)

أي: سلامٌ على جميع المرسلين، وهو تعميم بعد تخصيص السلام ببعض المرسلين، كما سبق في قوله:

﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩].

﴿سَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩].

﴿سَلِّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠].

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٢)

على كماله وجلاله وإحسانه، وإرسال رسله، وإظهار دينه، وإعزاز عباده. نسأل الله سبحانه أن يجعلنا منهم.





## تفسير سورة ص القُرْآنَ وَالْمُغَيَّبَاتُ فِي سُورَةِ ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَدِّمَاتُ  
وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد اهتمت سورة ص بإبراز وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم الدالة على أنه كلام الله تعالى:

• إذ لفت الأنظار إلى أخبار الغيب المذكورة فيه، فهو من هذه الناحية ذكر، ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] ومع ذلك أعرض المعاندون عنه، وكذبوا الرسل، كما كذبت قبلهم الأمم الكافرة المعاندة.

• ثم عرضت الآيات بعض الوقائع المغيبة من أخبار بعض الأنبياء الخاصة بهم:

- داود عليه السلام، وهو في معتكفه مع الخصم الذين تسوروا محرابه.
- وسليمان عليه السلام وحبّه للخيل والنساء، وتسخير الشياطين له.
- وأيوب عليه السلام وصبره على البلاء، وكفارة يمينه التي صدرت منه بشأن من شؤون زوجه.

- ثم عرضت بعض أخبار الملائ الأعلى ، وما حدث بينهم من حوار عند خلق آدم ﷺ ، لتقرر أنّ القرآن الكريم نبأ عظيم ، ومع ذلك فهم عنه معرضون .

• ثم لتشير في آخر السورة إلى المغيبات المستقبلية التي قدر الله حدوثها ، والتي أشارت إليها آيات كثيرة في مواضع متعددة : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلاَّ ذَكَرُ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٧) و﴿ وَتَعْلَمَنَ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص].





## الْفُضَيْلُ الْأَوَّلُ

### الإِخْبَارُ بِالْغَيْبِ

### وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ الإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ﴿٢﴾ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَآدُوا  
وَلَاتَ حِينَ مَأْصِي ﴿٣﴾ وَعَحْوًا أَنْ حَمَّاهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفُورُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَحْعَلَ الْأَلْهَةَ  
إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَطْلَقَ النَّارُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبُرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ  
يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةٍ الْأَخْرَىٰ إِنْ هَذَا إِلَّا أَحْلَاقٌ ﴿٧﴾ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِئِنَّ بَلَّ هُمْ فِي  
سَكِّتٍ مِّنْ دِكْرِي بَلَّ لَمَّا يَدُفُّوْا عَذَابِ ﴿٨﴾ .

#### • تبليغ واستكبار:

افتتح الله ﷻ السورة بقوله الكريم:

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ .

﴿صَّ﴾ حرف من الحروف النورانية المقطعة، التي افتتح الله تعالى بها عدداً من السور القرآنية سبق الحديث عنها، وهذه السورة أول السور القرآنية المبدوءة بحرف واحد، وثانيها سورة ق، وثالثها سورة القلم، والجدير بالذكر أن السورة سُميت باسم الحرف الذي افتتحت به ﴿صَّ﴾ كما سُميت ﴿يس﴾ و﴿طه﴾ باسم ما افتتحت به من الحروف.

﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ الواو للقسم لا للعطف كما هو ظاهر، والذِّكر: الشرف كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].  
وقوله أيضاً: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].  
أو لأنه يذكر بالله تعالى كما في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

أو لما ذكر فيه من تشريع وأحكام ومواعظ وزواجر تنبه الغافلين، وتردُّ الشاردين إلى الصراط المستقيم، مع أخبار مستقبله ومغيبات ماضية.  
وانتقلت الآيات بأسلوب الإضراب من القَسَم والمقسم به إلى الحديث عن جحود المشركين وإعراضهم عن رسالة النبي ﷺ:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾.

أي: بل الذين كفروا في تكبر عن الإذعان للحق ومخالفة له، فما كفروا به إلا استكباراً، والمراد بالعزة ما يظهره من استكبار، لا العزة الحقيقية التي ذكرها تعالى في قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠].  
وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وأصل معنى الشقاق: المخالفة، وكونك في شق غير صاحبك، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وكأن الآيات في صدر السورة تتجه إلى مواساة النبي عليه الصلاة والسلام عمَّا يلقي من عناد قومه وإعراضهم، وتقول له: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١).  
ما أنت يا محمد مقصراً في تبليغ الذين كفروا وتذكيرهم، بل هم مقصرون لعدم اتباعك، والاعتراف بصدق رسالتك.

وفي ذلك ما فيه من تعظيم النبي ﷺ، وتنويه بجهوده التي يبذلها في تبليغ الرسالة وإقامة الحجة.

فكفرهم كفر جحود وعناد، ولهذا اتجهت الآيات بعد هذا الاستفتاح تتوعدهم بسبب استكبارهم وشقاقهم.

### • الذنب الكبير:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادُوا وَاَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ﴿٢﴾

أي: كم أهلكنا من الأمم الخالية قبلهم، فاستغاثوا حين نزول العذاب وحلول الانتقام، والحال أن ليس الحين حين مناص، أي: نجاة، من ناصه: أي فاته، ف (لا) هي المشبهة بـ (ليس) زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد، والأكثر حذف اسمها. ثم ذكرت الآيات بعض أباطيلهم وأضاليلهم المتفرعة عن استكبارهم وشقاقهم:

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ﴾ ﴿٤﴾

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: وعجبوا أن جاءهم رسول من جنسهم، فعُدُّوا ذلك أمراً عجيباً أنكروه أشد الإنكار، كما في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

﴿وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ﴾ أي: قال الكافرون العريقون في الكفر: هذا ساحر كذاب، ووضع الاسم الظاهر: (الكافرون) موضع الضمير غضباً عليهم، وذمّاً لهم، وإشعاراً بأن كفرهم جرأهم على هذا القول، فهو ذنب كبير، لا يقدم عليه إلا الكافرون المتوَعَّلون في الكفر، المنهمكون في الضلال، إذ لا كفر أبلغ من أن يسموا من صدقه الله كاذباً ساحراً، وتعجبوا من التوحيد، وهو الحقُّ الأبلج، ولم يتعجبوا من الكفر وهو باطل لجلج (١).

(١) تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٢٦٢/٥.

﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾

أي: إن هذا الذي يدعو إليه محمد في غاية العجب، وهو عبادة إله واحد، وفي قراءة (عُجَاب).

ودلت الآية على شدة تمسكهم بالشرك، الذي تلقوه عن آبائهم، وتشربته قلوبهم، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلعه من قلوبهم، أعظموا ذلك وتعجّبوا. أخرج أحمد [٢٠٠٨]، وابن أبي شيبة، والترمذي [٣٢٣٢] وصححه، والنسائي [٤٥٦] وغيرهم: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش منهم أبو جهل فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته.

فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس، فحشي أبو جهل إن جلس إلى أبي طالب أن يكون أرق عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، فلم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟! قال: وأكثر عليه من القول.

وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عمّ إنني أريدكم على كلمة واحدة يقولونها، يدين لهم بها العرب، وتؤذي إليهم بها العجم الجزية».

ففرحوا لكلمته، ولقوله. فقال القوم: ما هي وأبيك؟ لنعطينها وعشراً. قال: «لا إله إلا الله». فقاموا فزعين، ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

وفي رواية: أنهم قالوا: سلنا غير هذا. فقال عليه الصلاة والسلام: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها». فغضبوا وقاموا غضاباً وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذي يأمرك بهذا<sup>(١)</sup>.

(١) روح المعاني: ١٦٦/٢٣، وقال الشيخ أحمد محمد شاكر مصحح المسند: إسناده صحيح.

وفي رواية: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا عَمَّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أتركَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَظْهَرَ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ؛ مَا تَرَكْتُهُ»<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَنْطَلَقَ أَلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

أي: خرجوا من مجلس أبي طالب يقول بعضهم لبعض: استمروا على دينكم، ولا تستجيبوا لدعوة محمد، فهو أمرٌ يرادُ بنا، لا ينفعُ فيه إلا الصبر والثبات.

أو: إنَّ هذا لشيءٌ عظيمٌ يريدُ محمد إمضاءه وتنفيذه من غير صارف يلويه، ولا عاطف يُثنيه، فلا أمل في صرفه عنه، وهذا المعنى أوجه لما اشتهر من ثباته عليه الصلاة والسلام.

#### • حسد وتكذيب:

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الأَلَمَةِ الأُخْرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْلَاقٌ﴾.

أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعو إليه محمد في الملة الآخرة، وهي النصرانية فما هو إلا كذب.

وهذا يدلُّ على أنَّ البشرية كانت عند بعثة النبي عليه الصلاة والسلام في أمسِّ الحاجة إليها، فقد اندرست معالم التوحيد تماماً وانطمست، وعمت ظلمات الجاهلية وانتشرت، بسبب انقطاع الوحي الإلهي لفترة امتدت من عهد عيسى عليه السلام إلى بعثة نبينا الخاتم ﷺ، ودامت زهاء ستة قرون، وهي الفترة التي قال الله فيها: ﴿يَتَأَهَّلَ الأَكْثَبُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

(١) سيرة ابن هشام: ١/٢٤٠، صرح ابن إسحاق بالسمع، وسنده منقطع، فالحديث ضعيف.

ثم بيّنت الآيات حقيقة البواعث التي دفعتهم إلى اتهام النبي ﷺ بالكذب والسحر:

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ .

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: كيف أنزل عليه الذكر، وهو دوننا في الوجاهة والغنى؟! .

وهذا يدل على أنّ الحسدَ هو الذي جعلهم يُعرضون عن دعوته عليه الصلاة والسلام، ويتقوّلون عليه الكذب والبهتان، كما حكى الله عنهم في سورة الزخرف حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي: بل هم في شك من القرآن المنزل على رسولي، والمؤيد بالحجج والبراهين، ولم يذوقوا عذابي بعد، فإذا ذاقوه زال عنهم الشك والحسد.

فالقوة هي أنسب وسيلة لدرء حسد الحاسدين، وردّ عناد المعاندين، وقمع جحود الجاحدين، لأن أمثال هؤلاء لا ينقادون إلى الحق بالدليل والبرهان.





## البصيرة الثانية

### بَعْضُ الْوَقَائِعِ الْغَيْبِيَّةِ مِنْ أَحْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ

﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَرِيْرُ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُدُّ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْرَابِ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْرَابُ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرَّسُلُ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَطًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَسَدَدْنَا مُلْكَهُ. وَءَايَتُهُ الْحِكْمَةُ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَنْتَكَ سَوْأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا بِالْحَرَابِ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَ خَصْمَانِ بَعِيْ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكَمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَرِّبِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ. وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِبَعِيْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكَمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ طَسُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ آيَاتِنَا إِلَيْكَ مُزَكَّ لِيَدْتَرُوا ءَايَتِنَا وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ وَعَمَّ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَّصَ عَلَيْهِ بِالْعُشِيِّ الصَّافِيَتِ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي

أَحَبَّتْ حُبَّ الْخَيْرِ عَنِ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ ﴿٣٦﴾ رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْيَاقِ  
 ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ آعِزِّي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي  
 لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٩﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٤٠﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ  
 بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٤١﴾ وَآخَرِينَ مَقْرِبِينَ فِي الْأَصْحَادِ ﴿٤٢﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنِ أَوْ أَمْسِكْ بِعَمْرِ حِسَابٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّا  
 لَهُمُ عِنْدَنَا لَكَلْفِي وَحَسَنَ مَنَاقِبٍ ﴿٤٤﴾ وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيْ مَسَى الشَّيْطَانُ بِضَبِّ وَعَدَابٍ ﴿٤٥﴾  
 أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَعْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمَثَلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ  
 ﴿٤٧﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ صِغَةً فَأَضْرِبْ بِهِنَّ وَلَا تَحْسَبْ إِنَّا جَعَلْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٨﴾ وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا  
 إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٩﴾ إِنَّا أَحْلَصْنَاهُمْ بِخَالصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٥٠﴾ وَلِيْلَهُمْ  
 عِنْدَنَا لِيَمَّ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٥١﴾ وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَدَا الْكَلْبِ وَالْكَافِرَ كُلًّا مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٥٢﴾

### • تأنيس وتشبیت:

ثم رَدَّت الآيات اعتراضهم على اصطفاء النبي عليه الصلاة والسلام لمقام  
 الرسالة دونهم بقوله تعالى:

﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾

أي: ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتى يتصرفوا بها، وإنما مالکها العزيز  
 الذي لا يُعْلَبُ، والوَهَّابُ كثيرُ المواهبِ، المصیبُ بها مواقعها.  
 وفي إضافة الربِّ إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دلالةٌ على شرفه ورفعته.

﴿أَمْرٌ لَهُمْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾﴾

فكما أنهم لا يملكون شيئاً من خزائن رحمته تعالى، لا يملكون أيضاً شيئاً من  
 مخلوقاته السماوية والأرضية، فإن ادَّعوا شيئاً من ذلك فليصعدوا إلى السماوات،  
 وليمنعوا الملائكة من النزول بالوحي على محمد عليه الصلاة والسلام.

ولا يخفى ما في الآيات من تهكم مُرَّ بهم بسبب اعتراضهم على اصطفاء النبي ﷺ لمقام النبوة والرسالة.

ثم بعد هذا التهكم المرينت الآيات حكمه تعالى بهم:

﴿جُنْدُ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١)﴾.

أي: هم جند ما مقموع ذليل من الكفار المتحزبين على الرسل، فلا تبال بتكذيبهم وشقاقهم.

ففي الآية تأنيسٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، وتثبيتٌ له في مواجهتهم، وفيها أيضاً وعد من الله تعالى بأنه سينصره عليهم.

وجيء بـ (ما) للتقليل والتحقير، فهم قلة حقيرة عند الله تعالى كذبوا رسله، مع أنهم أمم كثيرة أجملت الآيات الإشارة إليهم بقوله تعالى:

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ (١٢)﴾.

أي: وفرعون ذو الجموع الكثيرة من الجنود الذين كانوا يثبتون ملكه.

﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣)﴾.

﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾ أي: وأصحاب الشجرة الكبيرة، وهم قوم شعيب، الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧)﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُ ﴿ [الشعراء].

﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي: أولئك الذين تحزبوا على الأنبياء، المكذبون المهزومون.

﴿إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)﴾.

أي: فوجب عقابهم بسبب تكذيب الرسل.

﴿وَمَا يَنْظُرُ هُلُولًا إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾

أي: وما ينتظر قومك الذين كذبوك إلا صيحة واحدة تهلكهم، ما لها من توقف مقدار فواق، وهو ما بين حلبي الحالب، وتُقرأ بالفتح والضم.  
والمعنى: أن تلك الصيحة إذا جاءت لم تُردِّ ولم تُصَرَّف، وهي ممتدة لا تقطع فيها.

ومع هذا الوعيد الشديد قالوا استهزاء واستبعاداً:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

أي: عجل لنا قسطنا من العذاب الذي تتوعدنا به قبل يوم الحساب.  
وأصل القط: القسط من الشيء، لأنه قطعة منه، وهذا يدل أنهم بلغوا الغاية القصوى في العناد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لِمَنْ فِي يَدَيْكَ فَامِطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْ عَلَيْنَا آيَاتٍ مِّن سَمَاءٍ آخَرَةٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].  
وقد أظهرت الآية عنادهم من ثلاث نقاط:

أولها: أنكروا التوحيد بقولهم: ﴿أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥].  
ثانيها: حسدوا النبي ﷺ، وأنكروا رسالته بقولهم: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

والثالثة: أنكروا المعاد، وقالوا مستهزئين: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.  
وهذه النقاط الثلاث هي المحاور الأساس في دعوته عليه الصلاة والسلام، ولهذا التفتت الآيات تصبّره وتثبتته وتعهده بالظفر والنصر، وتقصص عليه أخباراً غائبة لا يعلمها إلا الله.

• داؤد ﷺ وتسبيح الجبال والطيور:

﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: ذا القوة في العبادة والعمل،

ومنه رجل أيد: أي قوي، فالأنبياء هم رواد الأمم والشعوب، وقادتها إلى كل خير وبر.

وقد أثنى النبي عليه الصلاة والسلام على داود بقوله: «أحبُّ الصيامِ إلى الله صيامُ داود، كان يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً، وأحبُّ الصلاةِ إلى الله صلاةُ داود، كان ينامُ نصفَ الليلِ، ويقومُ ثلثه، وينام سدسه» [رواه البخاري (٣٤٢٠)].

ومرَّ معنا أنه كان يأكل مِنْ عمل يده عند قوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَاعَتٍ وَقَدِرًا فِي السَّرِّ وَعَمَلُوا صَالِحًا إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١].

وذكرنا ثمة قول النبي ﷺ: «ما أكلَ أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وإنَّ نبيَّ الله داودَ كان يأكلُ مِنْ عملِ يَدِهِ» [رواه البخاري (٢٠٧٢)].

وقوله: ﴿عَبَدْنَا﴾ فيه إظهار لشرفه ﷺ؛ فهذه الإضافة دلت على أنه حقَّق معنى العبودية لله تعالى.

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: إنه رجَّاع إلى الحق وإلى مرضاة الله، وهذا تعليل لقوته ﷺ في الدين، فكان رجَّاعاً إلى طاعة الله ورضاه في كل أمر، فهو أهلٌ لأن يقتدى به.

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾.

أي: إنَّا سخرنَا الجبال تسبَّحُ معه إذا سبَّح في طرفي النهار، كما سبق معنا عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَنجِيهِ أَجْمَلُ الْوَيْبِ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾.

أي: وسخرنَا الطير مجموعة إليه من كل جانب، وكل واحد من الجبال والطير لأجل تسييح داود يسبح. وقرئ: (والطيرُ محشورةٌ) بالابتداء والخبر.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ (٢)

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي: قوينا ملكه بالعدل، فجعلناه أساس ملكه، والدليل على ذلك قوله تعالى بعده مباشرة:

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ أي: وأعطيناه الإصابة في القول والعمل، والفصل في القضاء بين المتخاصمين، أو البيان الفاصل بين الحق والباطل. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «هو البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر»<sup>(١)</sup>.

وقول علي هو حديث شريف، ولفظه في البخاري [٢٦٦٨]: عن ابن مئينة قال: كتب ابن عباس رضي الله عنهما إلي: «أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى باليمين على المدعي عليه. وقد أخرجه الطبراني: من رواية سفيان، عن نافع، عن ابن عمر بلفظ: «البيّنة على المدّعي، واليمين على المدّعي عليه» وهذه الزيادة ليست في «الصحيحين» وإسنادها حسن<sup>(٢)</sup>.

● قصة ابتلاء داود عليه السلام:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا الْمِحْرَابَ﴾ (٦)

أي: وهل أتاك خبرُ الخصم إذ صعدوا وعلّوا سور المحراب. فهو من الأمور الغيبية الخاصة بـداود عليه السلام، لا علم لنا بها، وأفاد الاستفهام التشويق والتعجب. والخصم والخصماء: يقع على الواحد والجمع، لأنه مصدر. والسور: الحائِط المرتفع. والمحراب: مكان العبادة.

(١) تفسير القرطبي: ١٥/١٦٢.

(٢) فتح الباري: ٥/٢٨٣.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحَكُمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾ .

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهم دخلوا عليه في محرابه بغير إذنه .  
 ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: نحن خصمان تعدى وظلم بعضنا بعضاً جثناك لتقضي بيننا .  
 ﴿فَأَحَكُمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُ﴾ أي: ولا تجر في حكمك، من الشطط: وهو مجاوزة الحد وتخطي الحق .  
 ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي: وأرشدنا إلى وسط طريق الحق، بزجر الباغي عن الجور، وإرشاده إلى منهج الحق .

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: إن هذا أخي في النسب له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، وهي أنثى الضأن، وقد يكتنن بها عن المرأة .  
 ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: اجعلني كافلها وملكنيها، وغلبني في مخاطبته إياي، فإنه كان أقدر على الاحتجاج مني .

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْيِكَ إِلَيْنَا إِجَابَةٌ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْيِكَ إِلَيْنَا إِجَابَةٌ﴾ أي: قال داود عليه السلام: لقد ظلمك بضمّ نعتك إلى نعاجه .

ويقال: إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام، لأنه قال ذلك من غير تثبت بينة،

ولا إقرارٍ مِنَ الخصمِ، ويقوِّي هذا الرأيَ قوله تعالى بعد ذلك: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

وقد جاءت أخبارٌ وقصصٌ في أمر داود ﷺ، أكثرها لا يصح، ولا يتصل إسناده، ولا ينبغي أن يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها، وأصح ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما زاد داود رضي الله عنه على أن قال: (أكفلتنيها) أي: انزل لي عنها، والمعنى: أن داود سأل أوربا (زوج المرأة التي زعموا أن قلب داود مال إليها) أن يطلق امرأته، فنبهه الله تعالى على ذلك وعاتبه، وأمّا غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الظَّالِمِينَ لَيُبَغُّونَ عَلَىٰ بَعْضِ مَا كَسَبُوا فَكَرِهُوا لَهَا﴾ [ص: ٢٦].

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٦]. وهم قليل، و(ما) للإبهام والتعجيب من قلتهم، فهم الذين يتحامون عن البغي والعدوان.

﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ [ص: ٢٦]. أي: علم داود أنما ابتليناه بالحكومة هل يتنبه لها؟ وتنبه تعالى، وعلم أن الله أراد أن يبين له أنه لا يليق بمقام النبوة أن يصدر منه ما صدر مما سبق ذكره.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٦]. أي: سأل ربه المغفرة، وسقط على وجهه ساجداً لله تعالى، ورجع إليه تائباً، ودل ذلك على شدة خشيته لله تعالى وتعظيمه له جل جلاله.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ [ص: ٢٦].

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ [ص: ٢٦]. أي: فغفرنا له ما استغفر منه.

وحتى لا يسيء أحد الظنَّ بنبيِّ كريمٍ قال تعالى:

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: إِنَّ له عندنا مكانة عالية وحسن مرجع ومصير؛ وهو الجنة.

وليس في هذه الألفاظ: (فاستغفر ربه، وأنا ب، فغفرنا له ذلك) ما يدلُّ على صدور الذنب منه، وذلك لأنَّ مقام النبوة أشرفُ المقامات وأعلاها، فيطالبُ الأنبياءُ بأكمل الأخلاق والأوصاف وأسناها، فإذا نزلوا من ذلك إلى طبع البشرية عاتبهم الله تعالى على ذلك وغفر لهم، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين<sup>(١)</sup>.

وأقصى ما في هذه القصة الإشعارُ بأنه ﷺ ودَّ أن يكون له ما لغيره، وكان له أمثاله، فنَّهه الله بهذه القصة فاستغفرَ وأنا ب<sup>(٢)</sup>.

ورأى بعضهم أنها خصومةٌ حقيقيةٌ كما أشرتُ إلى ذلك سابقاً.

واختلف العلماءُ في سجدة صَ هل هي من عزائم السجود؟ فمذهب الشافعي أنها ليست من عزائم سجود التلاوة؛ قال: لأنها توبةٌ نبيِّ، فلا توجبُ سجدة التلاوة. وقال أبو حنيفة: هي من عزائم سجود التلاوة. وعن أحمد روايتان، وقد ثبتَ أن النبيَّ ﷺ سجدَ فيها<sup>(٣)</sup>.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: ليس صَ من عزائم السجود، ورأيتُ النبيَّ ﷺ يسجدُ فيها. [رواه البخاري (٣٤٢٢)].

### ● الخلافة والحكم بالحق:

ثم أخبرت الآياتُ في تعقيبها الأول على قصة ابتلاء داود ﷺ بالنداء الذي أوحاه الله إليه وخاطبه به:

(١) تفسير الخازن: ٥/٢٧٣.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥/٢٧٥.

(٣) تفسير الخازن: ٥/٢٧٤.

﴿بَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿بَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: آتيناك فيها الحكم بين أهلها كما في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] فجمع الله له النبوة والملك .

وحقيقة الخلافة عن الله سبحانه ممتنعة، لأنها في حقِّ مَنْ يَصْحُ عليه الغيبة، والله منزّه عن ذلك جلّ وعلا، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فالمراد منها بيان مكانة الإنسان وتشريفه وتكريمه .

ولا يقال: (خليفة الله) إلا لرسوله ﷺ، وأمّا الخلفاء فكلُّ واحدٍ منهم خليفةٌ للذي قبله، وما يجيء بالشعر من تسمية أحدهم خليفة الله فذلك تجوُّزٌ وغلو... ألا ترى أنّ الصحابة رضي الله عنهم حرّروا هذا المعنى، فقالوا لأبي بكر الصديق: خليفة رسول الله، فبهذا كان يُدعى مدته، فلمّا ولي عمرُ بن الخطاب قالوا: يا خليفة خليفة رسول الله، فطال الأمر، ورأوا أنه في المستقبل سيطول أكثر، فدعوه: أمير المؤمنين، وقصر هذا الاسم على الخلفاء<sup>(١)</sup> .

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ وهو الذي شرعه تعالى، وحكمه لا يكون إلا بالحق، وهو خلاف الباطل، قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] .

ودلّت الآية على ضرورة إقامة حاكم للناس يحكم بينهم بالحق، كما دلّت على أن سبب الظلم والجور اتباع الحكّام لأهوائهم، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ولا تتبع ما تهوى النفس في قضائك، أو لا تمل مع ما تشتهي إذا خالف أمر الله فيبعدك عن دينه وصراطه المستقيم .

(١) المحرر الوجيز: ٤٥١/١٢ .

وأيد هذا النهي ما قيل: إِنَّ ذَنْبَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ المبادرة إلى تصديق المدّعي وتظلميم الآخر قبل مساءلته، لا الميل إلى امرأة أوريا، فكأنه قيل: ولا تتبع الهوى في الحكم كما اتبعته أولاً، وفيه أن اتباع الهوى وحكمه بغير ما شرع الله تعالى له غير مناسب لمقامه، لا سيما وقد أخبر الله تعالى قبل الإخبار بمسألة المتحاكمين أنه آتاه الحُكْمَ وفصل الخطاب، فليس هذا إلا إرشاداً لما يقتضيه منصبُ الخلافة، وتنبهاً لمن هو دونه عَلَيْهِ السَّلَامُ (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سَأَوْا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ وهذا الوعيد الشديد يدل على خطورة الضلال واتباع الهوى، وأنه يؤدي إلى الغفلة عن يوم الحساب والجزاء.

#### • ضرورة الحساب والجزاء:

فشعور الإنسان بمسؤوليته عن أعماله يوم القيامة يحمله على الالتزام بالعدل، ويزجره عن الظلم، فهو إذن أمرٌ ضروري لتنظيم الحياة الاجتماعية بين الناس، وجعلها تقوم على التعاون والعدل ممّا يدل على حكمة الخالق سبحانه، فالله ما خلق الحياة الدنيا عبثاً وباطلاً، وهو ما أكدته الآيات بقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ أي: خلقاً باطلاً لا حكمة فيه.

أو: ما خلقناها للباطل الذي هو اتباع الهوى والميل إلى اللعب والشهوات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان].

﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ذلك ظن الذين ينكرون يوم القيامة، فإن إنكارهم إنكارٌ لحكمة الخالق جل وعلا.

أما المؤمنون المتفكرون في قدرة الله تعالى وباهر حكمته في خلقه فإنهم

يُؤْمِنُونَ بِهَا، قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي: فهلاك لهم من النار بسبب إنكارهم يوم الحساب والجزاء.

(ويل) كلمة للتقبيح على المخاطب فعله، وأما ما ورد (ويل) وإِ في جهنم، فلم يُرَوَّ أَنَّهُ معناه في اللغة، وإنما أرادَ مَنْ قال الله ذلك فيه فقد استحقَّ مقرأً من النار<sup>(١)</sup>.

وأكد الحديث الشريف أَنَّها لتقبيح فعل المخاطب، فعن أنس رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يسوقُ بَدَنَةً، فقال: «اركبها» قال: إنها بَدَنَةٌ، قال: «اركبها» قال: إنها بَدَنَةٌ، قال: «اركبها ويُلَكْ» [رواه البخاري (٦١٥٩)].

ثم بيّنت الآيات أن يوم الحساب ضروري أيضاً للتمييز بين المصلحين والمفسدين في المصير والجزاء:

﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾.

﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: إن عدم البعث للحساب والجزاء يقتضي التسوية بين الفريقين المتفاضلين، بين المؤمنين والكفرة المفسدين، وهو محال، والاستفهام للإنكار يقتضي نفي التسوية بين الفريقين لتقرير البعث والجزاء وتأكيده.

﴿أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ وهو انتقالٌ وإضرابٌ إلى إثبات يوم البعث لإنكار محال آخر أظهر من الأول، وهو استحالة التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة، فلا يُعقلُ أبداً أن يكون مصيرهما واحداً، وهو الموت، لا بد إذن من بعث بعد الموت، وحساب وجزاء، يُثاب فيه المطيع، ويُعاقب الفاجر.

(١) فتح الباري: ١٠/٥٥٣.

وقد أكد ﷺ هذا المعنى في مواضع كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿أَفَجَعَلَ الْمَسِيئِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[القلم].

ومنها أيضاً قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَبْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

### • التدبر في آيات القرآن الكريم:

ولا شك أن إخبار الآيات بالخطاب الذي وجهه الحق إلى داود ﷺ، وأمره فيه أمراً لازماً صريحاً بأن يحكم بين الناس بالحق، وحذره فيه من اتباع الهوى المؤدي إلى الجور والظلم، لا شك أنه موجه في الحقيقة إلى جميع القضاة والحكام، وما أخبر الله به إلا ليعتبر به أمثالهم، فهم محتاجون إليه أكثر من نبي الله داود، الذي أكرمه الله بعصمة النبوة من الزلل والخطأ، ولا ضمانة للقضاة والحكام من الجور والظلم، إلا إذا التزموا بأحكام دين الله وشريعته المستمدة من الكتاب المنزّل على خاتم أنبيائه ورسله، مع الشعور برقابة الله عليهم، ومسؤوليتهم عن أعمالهم يوم الحساب والجزاء، فهذا خير ضمانة لإقامة العدل، وعدم الجور والظلم، ولهذا قال تعالى في تعقيبه الثاني على قصة ابتلاء داود ﷺ يقرر هذه الحقيقة ويؤكدها:

﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢٩).

﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ أي: هو كتابٌ أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن الكريم، الذي أقسم به تعالى في أول السورة: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) وهو كتاب مبارك كثير المنافع والفوائد في الدين والدنيا.

﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: ليتفكر الناس في آياته، فيعرفوا ما يدبر ويتبع ظاهرها من حكم وأحكام وشرائع ومواعظ وعبر وأخبار ينتفع بها أصحاب الألباب، وهي العقول الزاكية الطيبة المريدة للحق، وما زيادة الظلم

والجور والإجرام في المجتمعات البشرية المعاصرة إلا نتيجة ابتعادها عن شريعة الله، وانسلاخها عن الشعور برقابته والمسؤولية أمامه يوم الحساب والجزاء.

فالتفكر في آيات التنزيل الحكيم أمرٌ مطلوب، أكده سبحانه في قوله في

سورة محمد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤).

وما أكده سبحانه وحثَّ عليه إلا ليتبين الناس صدقه، وأنه كلام الله يدل

على صحة نبوة رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

فالتدبر في آيات الكتاب يدل على أنه كلام الله، وما فيه من أخبار عن

مغيبات ما كان ﷺ يعلمها، دليل على أنه وحى من الله، ليس للنبي ﷺ فيه إلا التلقي والتبليغ، وأكد سبحانه أيضاً وحثَّ على تدبر آياته، والتفكير بها لمعرفة ما فيها من تكاليف وأحكام وشرائع وتطبيقاتها، قال الحسن البصري رحمته الله: والله ما تدبره بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلقٍ ولا عمل<sup>(١)</sup>.

#### • خيل سليمان رحمته الله:

ثم ذكرت الآيات بعد ما ذكرت من أخبار داود رحمته الله بعض أخبار ابنه سليمان

رحمته الله، وهو أيضاً نبيٌّ كريم، جمع الله له النبوة والمُلك، وأثنى عليه بقوله:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٢٠).

أي: نعم العبد سليمان تحقق بوصف العبودية لله تعالى، فهو أوابٌ رجَّاع

إلى الحق، وإلى مرضاة ربه.

ومرَّ معنا أنه تعالى أثنى على أبيه داود بمثل هذا الشناء، فسليمان سار على

طريقة أبيه، وتمسك بطاعة الله تعالى، وأقام الحق والعدل بين الناس.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٠٢/٣.

﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ (٣١)

أي: إذ عرض على سليمان بعد الظهر الخيل الصافنات الجياد. والصفاننات: القائمان على ثلاث قوائم، بينما تجعل الرابعة على طرف حافرها. والجياد: جمع جواد الذي يجرود بالركض، وصفها سبحانه بوصفين محمودين في الخيل واقفة وجارية.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ﴾ (٣٢)

أي: إني ألزمت قلبي حبب الخير عن أمر ربي، فكان يقول هذه الكلمات حتى غابت الخيل عنه، واحتجبت عن عينه، وأراد أن هذه المحبة الشديدة للخيل إنما حصلت عن ذكر الله وأمره، لا عن الشهوة والهوى، لأن الخيل عدة الجهاد في سبيل الله.

والخير في الأصل: المال الكثير، والمراد به الخيل هنا لتعلق الخير بها، وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيْلُ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة» [رواه البخاري (٢٨٤٩)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البركةُ في نواصي الخيل» [رواه البخاري (٢٨٥١)].

﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ (٣٣)

أي: قال سليمان: ردوا علي الخيل، فجعل يمسح بيده أعناقها وسوقها تكريماً لها وتشريفاً، لأنها عدة الجهاد.

وهذا المعنى ذكره الإمام البخاري في «صحيحه» كتاب التفسير (٣٨) سورة ص، فقد قال عند ذكر الآية: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ يمسح أعراف الخيل

وعراقبيها، قال ابن حجر: هو قولُ ابن عباس، أخرجهُ ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وزاد في آخره: حَبًّا لها<sup>(١)(٢)</sup>.

وإلى هذا المعنى ذهب الرازي في تفسير الآية، ورجَّحه على ما ذهب إليه جمهور المفسرين، أنه ﷺ قطع سوقها وأعناقها بالسيف لما فاتته صلاة العصر بسبب انشغاله بها، وفسروا: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ بغياب الشمس.

ونقل القرطبي في تفسيره عن الزهري وابن كيسان: كان يمسحُ سوقها وأعناقها، ويكشفُ الغبارَ عنها حَبًّا لها. وقاله الحسن وقتادة وابن عباس.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ رَوَى وهو يمسحُ فرسه بردائه، وقال: «إني عوتبتُ الليلةَ في الخيلِ» [أخرجه في «الموطأ» عن يحيى بن سعيد مرسلًا، وهو في غير «الموطأ» مسندٌ متصل عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس]<sup>(٣)</sup>.

وهذا المعنى أولى من المعنى الذي ذهب إليه جمهور المفسرين، فهو ينسجم مع سياق الآية التي أثنت على نبيِّ الله سليمان ﷺ، وأما ابتلاؤه ﷺ فقد أخبر الله عنه بعد ذلك في قوله الكريم:

● قصة ابتلاء سليمان ﷺ:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾<sup>(٤)</sup>.

أي: ولقد ابتلينا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا، ثم رجع سليمان إلى الله تعالى تائبًا.

وسبب فتنته كما ذكر المحققون هو ما ورد في الحديث الصحيح: فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفنَّ الليلةَ على سبعينَ امرأةٍ تحمِلُ كلُّ امرأةٍ فارساً يجاهدُ في سبيلِ الله، فقال له صاحبه: إن

(١) فتح الباري: ٤٥٩/٦.

(٢) تفسير القرطبي: ١٩٦/١٥.

(٣) المرجع السابق نفسه.

شاء الله، فلم يقل، ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه». فقال النبي ﷺ: «لو قالها لجاهدوا في سبيل الله» [رواه البخاري (٣٤٢٤)].

### • تنبيه وتحذير:

وأما ما يُروى من حديث الخاتم والشیطان وعبادة الوثن في بيت سليمان ﷺ، فمن أباطيل اليهود.

وفسر رواة هذه الأباطيل قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ شيطاناً يقال له: آصف، قال له سليمان: كيف تفتن الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك، فأعطاه فنبذه في البحر، فذهب ملك سليمان، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان، فلم يقربهن، فأنكرته أم سليمان، وكان سليمان يستطعم، ويعرفهم بنفسه فيكذبونه، حتى أعطته امرأة حوتاً فطيب بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فرد الله إليه ملكه، وفر آصف فدخل البحر، وذكرت روايات أخرى متعددة اسم هذا الشيطان!

قال القاضي عياض وغيره من المحققين: لا يصح ما نقله الإخباريون من تشبه الشيطان به، وتسليطه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه، وإن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الله الأنبياء من مثل هذا<sup>(١)</sup>. وقال أبو حيان وغيره: إن هذه المقالة من وضع اليهود والزنادقة، ولا ينبغي لعاقل أن يعتقد صحة ما فيها، وكيف يجوز تمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره بين الناس؟!<sup>(٢)</sup>.

### • ملك سليمان ﷺ:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾

أي: هب لي ملكاً لا يكون لأحد من بعدي مثله، إنك أنت المعطي ما تشاء لمن تشاء.

(١) تفسير الخازن: ٥/٢٨٣.

(٢) روح المعاني: ٢٣/١٩٩.

وجاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد، حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ربّ هب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي، فرددته خاسئاً» [رواه البخاري (٣٤٢٣)].

والجدير بالذكر أنّ سليمان عليه السلام ما سأل هذا الملك للتفاخر به في الدنيا، وإنما سألَه ليكون معجزةً له في نبوته ورسالته، ويسخره في الدعوة إلى الله تعالى، وقد مرّ معنا أنه فعل ذلك في دعوة بلقيس ملكة سبأ وقومها للإسلام لله رب العالمين.

واستجاب الله دعوته، وأخبرتنا الآيات أنه تعالى سخر له طاقات كبيرة هائلة، وسلّطه على مخلوقات خفية غائبة عنا، لم يسلّط عليها أحدٌ غيره:

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾

أي: ذللنا له الريح تجري بأمره لينه طيبة حيث أراد.

ويبدو من خلال الآيات الكريمة التي أخبرت عن هذا أنّ تسخير الريح لسليمان بتحويلها من ريح عاصفة مدمرة إلى ريح طيبة لينه، فقد قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾

وسخرنا له الشياطين أيضاً، يبنون له ما يشاء، ويستخرجون له اللآلئ من أعماق البحار، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأَخْرَيْنَ مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ .

أي: وسخرنا له آخرين من الجن، وهم مردة الشياطين، مشدودين في القيود، ويبدو أنه ﷺ سلط عليهم، حتى كان يقرن المتمردين منهم بعضهم مع بعض بالسلاسل والقيود تأديباً لهم، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَسُلَيْمَنَّ الرَّيْحَ عُدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَنْزِعْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].  
وقوله أيضاً: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَفْضُوقُ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَنَفِيطِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ .

أي: قلنا له: هذا عطاؤنا، فأعط من شئت، وامنع من شئت، فلا حرج عليك ولا حساب فيما أعطيت أو منعت.  
وحقق سليمان ﷺ عبوديته لله في كل ما أنعم عليه وأعطاه، فكان شاكرًا له ﷻ، وسخر نعمه عليه في طاعته وعبادته، وقد ذكر ﷻ في سورة النمل أنه ﷻ كان يقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ .  
ولهذا عقبَت الآيات بالإخبار بأنه تعالى أثنى عليه كما أثنى على والده داود فقال:

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ﴿٤٠﴾﴾ .

أي: وإن له عندنا مكانة رفيعة، وحسن مصير ومرجع يوم القيامة، فسليمان ﷻ نبي كريم، ما سأل الله هذا الملك حرصاً على الدنيا، وافتخاراً بها، بل كان ذلك بإذنٍ له من الله، وكان أيضاً معجزةً له، خصَّه الله بها للدلالة على صدق نبوته، كما خصَّ غيره من الأنبياء بالمعجزات الحسية التي أجزاها على

أيديهم، ولا شك أن هذا الثناء فيه شهادة من الله تعالى، بأن سليمان عليه السلام تحقق بصفة العبودية لله تعالى في حال الرخاء والسراء.

• قصة ابتلاء أيوب عليه السلام :

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾

أي: واذكريا محمد - ﷺ - نبي الله أيوب عليه السلام الذي حقق عبوديته لنا في الضراء، فنادى ربه متضرعاً داعياً: أني مسني الشيطان بضر في جسدي وألم في نفسي. وقد ابتلي عليه السلام بمرض في جسده، كما ابتلي بفقد ماله وأولاده. وينبغي التنبيه هنا إلى أن المرض الذي ابتلي به لم يكن منقراً ومستقذراً، بحيث يجعل الناس ينفرون عنه، كما ذكر في بعض كتب التفسير. قال أهل التحقيق: إنه لا يجوز أن يكون بصفة يستقذره الناس عليها، لأن في ذلك تنفيراً، فأما الفقر والمرض وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله بذلك، فيجوز على الأنبياء كل عرض بشري ليس محرماً ولا مكروهاً ولا مباحاً مزيئاً ولا مزماً ولا مما تعافه الأنفس ولا مما يؤدي إلى النفرة والاستقذار<sup>(١)</sup>.

وفي قراءة: (بَنَصْب) بفتح النون، وبفتحتين: (بَنَصْب) وبضميتين: (بَنُصْب) وكلها بمعنى المشقة، وهو الضر الذي ذكره سبحانه في قوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ يدل على أدبه مع الله تعالى، فلم ينسب إلى الله تعالى ما أصابه من ضر، مع أنه يعلم أن الأفعال كلها خيرها وشرها خالقها هو الله، لا شريك له في خلقه، فهو سبحانه خالق كل شيء، كما ذكر في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

لكن الشر لا ينسب إليه سبحانه ذكراً، وإن كان موجوداً منه خلقاً، أدباً

(١) روح المعاني: ٢٠٨/٢٣.

أَدَّبْنَا بِهِ، وَتَحْمِيداً عَلَّمْنَاهُ، وَكَانَ مِنْ ذِكْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِرَبِّهِ قَوْلُهُ: «وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» [رواه مسلم (٧٧١)].

ومنه قول إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينُ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وقال الفتى لموسى الكليم: ﴿وَمَا أَسْنِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣]<sup>(١)</sup>.

وفي كتب التفسير روايات متعددة لسبب ابتلاء أيوب ﷺ، منها أنه أُعْجِبَ بكثرة ماله، أو استغائه مظلوم فلم يغثه، أو كانت مواشيه في ناحية ملك كافر، فداهه من أجلها، أو ذبح شاةً وأكلها وجارُه جائع، أو رأى منكراً فسكت عنه.

ولا شك أن تعدد مثل هذه الروايات واختلافها يدل على عدم صحتها، كما أنها لا تليق بما عُرفَ من أخلاق الأنبياء، فهم معصومون بعصمة النبوة، ولا سلطان للشيطان عليهم، وقد سبق تقرير هذا في قصة ابتلاء سليمان ﷺ.

وقول أيوب: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ﴾ يدل على أدبه مع الله، وهو سبحانه خالق كل شيء، والشر لا يدخل في شيء من صفاته تعالى، ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى، وكل أفعاله سبحانه خيرٌ ومحض العدل والحكمة، وإنما يكون شراً بالنسبة للمخلوقين، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبتته إلى من هو شر في حقه.

وإنَّ ابتلاء الله تعالى لنيه أيوب خيرٌ محضٌ، ليظهر سبحانه صبره، ويرفع درجاته، وقد ابتلى الله سبحانه إبراهيم وإسماعيل ﷺ في قصة الذبح والفداء، فأظهر فضلها واستسلامهما له ﷺ، ومرّ معنا قوله تعالى في التعقيب على قصة الذبح والفداء: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَتُّ الْيَمِينُ﴾ [الصفات: ١٠٦].

#### • الفرج من الله تعالى بعد الشدة والبلاء:

وأخبرتنا الآيات أن الله استجاب دعاء أيوب ﷺ وأوحى إليه يرشده ويدله على سبيل الشفاء:

﴿أَرْضُ بَرِّكَ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (٤٢)

أي: اضرب برجلك الأرض، فضربها، فنبعت عين ماء، فأمره سبحانه أن يغتسل به ويشرب منه، فبرأ بإذنه تعالى. وأخبرنا سبحانه أنه أيضاً رد له أهله وبارك له فيهم:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٤٣)

فجمعهم عليه بعد تفرقهم، أو أحياهم بعد موتهم، وبارك له فيهم، حتى صاروا ضِعْفَ ما كانوا قبل الابتلاء. وكل ذلك فعله سبحانه على سبيل التفضل والرحمة، لا على سبيل اللزوم والوجوب، وفعله أيضاً تذكيراً لأولي الألباب، لينتظروا الفرج من الله تعالى، بالصبر والرضا وباللجوء إليه وحده فيما ينزل بهم. ففي قصة أيوب عليه السلام موعظة كبيرة لذوي العقول والبصائر.

وردَّ ﷺ على أيوب ماله وزاده من فضله، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «بينما أيوب يغتسلُ عُرياناً خَرَّ عليه رجل جراد (أي: جماعة جراد) مِنْ ذهبٍ، فجعلَ يحثي في ثوبه، فنادى ربُّه: يا أيوبُ ألم أكنُ أغنيتُكَ عَمَّا ترى؟ قال: بلى يا ربِّ، ولكن لا غنى لي عن بركتِكَ» [رواه البخاري (٣٣٩١)].

قال ابن حجر رحمه الله: وأصحُّ ما ورد في قصته ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير [١٦٧/٢٣] وصححه ابن حبان [٢٨٩٨] والحاكم [٥٨١/٢]: من طريق نافع بن زيد، عن عقيل، عن الزهري، عن أنس رضي الله عنه: «أنَّ أيوب عليه السلام ابتلي، فلبث في البلاء ثلاث عشرة سنة، فرفضه القريبُ والبعيدُ إلا رجلين من إخوانه، فكانا يغدوانِ إليه ويروحانِ، فقال أحدهما للآخر: لقد أذنبَ أيوبُ ذنباً عظيماً، وإلا لكُشِفَ عنه هذا البلاء، فذكره الآخرُ لأيوب، فحزنَ، ودعا الله حينئذٍ فخرجَ لحاجته، وأمسكتِ امرأته بيده، فلما فرغَ أبطأت عليه، فأوحى الله إليه أن

اركض برجلك، فضرب برجله الأرض، فنبعت عين، فاغتسل منها، فرجع صحيحاً، فجاءت امرأته فلم تعرفه، فسألته عن أيوب، فقال: إني أنا هو، وكان له أندران: أحدهما للقمح، والآخر للشعير، فبعث الله سحابة فأفرغت في أندر القمح الذهب حتى فاض، وفي أندر الشعير الفضة حتى فاض<sup>(١)</sup>. قوله: «الأندر» هو مكان جمع القمح والشعير.

ويبدو أن أيوب عليه السلام أقسم في أثناء ابتلائه أن يضرب امرأته مئة ضربة لأمر ما بدر منها، ما كان عليه السلام راضياً عنه، فيسر الله عليه سبيل البر بيمينه، رحمة بزوجه التي صبرت معه:

﴿وَحَدَّ يَدَيْكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّآ وَجَدْنَهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿وَحَدَّ يَدَيْكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾ أي: خذ بيدك حزمة من الحشيش، فاضرب به، ولا تحنث في يمينك، فإن البر يتحقق به. يقال: حنث في اليمين يحنث؛ إذا لم يبر بها.

﴿إِنَّا وَجَدْنَهُ صَابِرًا﴾ أي: فيما أصابه من بلاء، وطلب الشفاء من الله تعالى، وتمي العافية لا يخل بالصبر، قال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمُوا مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ نعم العبد أيوب تحقق بصفة العبودية، وهو رجاع إلى الحق تواب.

وسئل سفيان عن عبيد بن ابتلي أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر، فقال: كلاهما سواء، لأن الله تعالى أثنى على عبيد أحدهما صابر، والآخر شاكراً، ثناءً واحداً فقال في وصف أيوب: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] وقال في وصف سليمان: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]<sup>(٢)</sup>.

(١) فتح الباري: ٤٢١/٦.

(٢) تفسير القرطبي: ٢١٥/١٥.

واختلف العلماء في هذا الحكم هل هو خاصٌّ بأيوب أو هو عام؟ ذهب الشافعيُّ وأبو حنيفة وزُفر إلى أنَّ مَنْ فعل ذلك فقد برَّ في يمينه، وخالف مالكٌ ورآه خاصاً بأيوب<sup>(١)</sup>.

• المصطفون الأخيار:

ثم أجملت الآيات خبرَ جماعتين من الأنبياء ﷺ، قالت في الأولى منهما:

﴿وَأَذْكُرُّ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: أولي القوة في طاعة الله وعبادته، وأولي البصيرة في الدين أو المعرفة بالله تعالى.

ومرَّ معنا أنه كلما ازداد العبدُ معرفةً بربه ازدادَ خشيةً له، وتحققاً بطاعته وعبادته، ولهذا قال بعضهم: للإنسان قوتان: علمية وعملية، وأشرفُ ما يصدرُ عن القوة العلمية معرفةُ الله تعالى، وأشرفُ ما يصدرُ عن القوة العملية طاعته وعبادته، فعبرَ سبحانه عن هاتين القوتين بالأيدي والأبصار<sup>(٢)</sup>. أكرمهم الله بالعمل الصالح والعلم النافع.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: إنا جعلناهم لنا خالصين بخصلة خالصة هي ذكرى الدار الآخرة، فليس لهم ذكرى غيرها، أو نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها؛ فهمهم ذكرى الدار الآخرة وحدها، وقيل: ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا، فلا يُذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يُذكرون به، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾ [مریم: ٥٠].

(١) روح المعاني: ٢٣/٢٠٩.

(٢) تفسير الخازن: ٥/٢٨٧.

وفي قراءة: (بخالصة ذكرى الدار) على الإضافة، من إضافة الشيء إلى ما بيّنه .

ففي الآية تعليلٌ لما وصفوا به من شرف العبودية، وعلو الرتبة في العلم والعمل، فمطمحٌ أنظارهم، ومحطُّ أفكارهم في كل ما يأتون ويذرون حب الله ﷻ، والفوز ببلقائه في الدار الآخرة، فقد نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها، ليس لهم همٌّ غيرها .  
وأشعرَ إطلاقُ الدار في الآية بأنَّ الدارَ الآخرةَ هي الدار الحقيقية، وإنما الدنيا معبر وممر .

﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لِمَنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِرِ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: إنَّهم من الذين اصطفيناهم، وصفيناهم من الأذناس والأقدار، واخترناهم لمقام النبوة والرسالة .  
ثم أُنثتِ الآياتُ على المجموعة الثانية من الأنبياء بمثل ما أُنثت على الأولى :

﴿وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٨﴾﴾ .

أي: وكل واحدٍ من هؤلاء أيضاً من الذين اختارهم الله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء].



## الْفُضَيْلُ الثَّلَاثُ

## مِنْ أَحْبَابِ غَيْبِ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ

﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْنَعَةٌ لَّهُمُ الْأَنْبُوبُ ﴿٥١﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَنَائِكِهِمْ كَثِيرَةً وَسَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَزْوَاجُ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَإِلَى الطَّاغِيَةِ لَنَسْرُ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَمَنْ سَلَ الْهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَاحٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُنْفَعٌ مَعَكُمْ لَا مَرَجًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ أَسْمَاءٌ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَمَنْ أَلْفَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَهُ عَلَيْنَا بَعْضًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ رَآعَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَجِدُ الْفَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَقِيرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ۞

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَثَابٍ ﴿٤٩﴾﴾

أي: هذا ذكر جميل في الدنيا، وإن للمتقين لحسن مرجع ومنقلب في الآخرة، فهم يذكرون في الدنيا بالجميل، ويرجعون في الآخرة إلى فضل رب جليل، وهو:

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْئَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾﴾ .

أي: جنات الإقامة الدائمة، وأبوابها فتحت تكريماً لهم. وقرئتا مرفوعتين على الابتداء والخبر.

﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَكِهِةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ .

أي: وشراب كثير، فحذف اكتفاءً بالأول.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ أَرْبَابٌ ﴿٥٢﴾﴾

أي: وعندهم نساء قاصرات الطرف على أزواجهن، مستويات الأسنان والشباب، وسمين: أتراب، لأن التراب مسهن في وقت واحد.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾

أي: لأجل يوم الحساب. وفي قراءة: (بوعدون).

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ .

أي: ما له انقطاع، بل هو دائم كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

وتأكيداً لما سبق تقريره في الحديث عن التفرقة بين الصالحين والفجار الذي سبق في قوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] أضافت الآيات الإخبار عن مصير الكفار الفجار.

• الإخبار عن تخاصم أهل النار:

﴿هَذَا وَإِلَى اللَّطَّاعِينَ لَشَرِّ مَثَابٍ (٥٥)﴾ .

أي: هذا الذي سبق ذكره للمؤمنين الصالحين، وإن للطاغين الذين طغوا على الله، وكذبوا رسله لشر مرجع يرجعون إليه:

﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنَسَّ الْمَهَادُ (٥٦)﴾ .

أي: جهنم يدخلونها ويقاسون حرَّها فبئس الفراش، شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم.

﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ (٥٧)﴾ .

أي: هذا حميمٌ وعساقٌ فليذوقوه.  
والحميم: الماء الحار. والعساق: الصديد الذي يسيل من جلود المعدَّيين في النار، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ، وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم].

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا (٥٨)﴾ .

أي: ولهم أصناف أخرى من العذاب مثل ما ذكر في الشدة والفظاعة. ويُسَاقُ المعدَّبون إلى جهنم أفواجاً وزمراً - كما مرَّ معنا - ويُلقَى فيها أولاً رؤساء الضلال والكفر، ثم يلحق بهم أتباعهم، ويقول خزنة النار لرؤساء الضلال والكفر عندما يُلقى فيها الأتباع:

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَضِحٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ .

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَضِحٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: داخل معكم .

والاقتحام: الدخول في الشيء بشدة، إذ تضيق عليهم زيادة في عذابهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] .

فيقول رؤساء الكفر والضلال:

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي: لا رحبت بهم الدار، بل ضاقت، لأنهم معذبون معنا فيها. فيردُّ عليهم الأتباع:

﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾

أي: أنتم قدَّمتم العذاب لنا، وأوقعتمونا فيه، عندما دعوتمونا إلى الضلال وزينتموه في أعيننا، فبئس المقر جهنم الذي أوصلتمونا إليه .

ثم أضافوا قائلين والحسرة تحرق قلوبهم:

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ .

أي: زدهم عذاب مضاعفاً في النار، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبْتُهُمْ لِأَوْلَيْتُهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَائِبُهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] .

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ .

أي: وقال الطاغون: ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدُّهم من الدنيا نعدُّهم من الأراذل؟! يعنون بذلك فقراء المؤمنين، الذي كانوا يسخرون منهم .

﴿اتَّخَذْتَهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ .

قالوا ذلك حيث لم يروهم معهم إنكاراً على أنفسهم، وتأنياً لها، لأنهم سخروا منهم، وحقروهم، حتى زاغت عنهم أبصارهم تحقيراً لهم. والهمزة للاستفهام، سقطت لأجلها همزة الوصل، وفي قراءة: (اتخذناهم) بغير همزة، و(أم) للإضراب، كأنهم أضربوا عن إنكار الاستسجار إلى ما هو أشد منه وهو الاحتقار، وميل الأنظار عنهم، وقرأ بعضهم: (سُخْرِيًّا) بضم السين، ومعناه من السخرة والاستخدام.

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ .

أي: إن الذي حُكي عنهم لحق لا بد من تحقق وقوعه في المستقبل. (تخاصم أهل النار) بدل من (حق)، أو خبر لمبتدأ محذوف، وقرئ بالنصب على البديل من (ذلك)، وسمي التقاؤل بين أهل النار تخاصماً لاشتماله على ذلك.

#### • القرآن والنبأ العظيم:

هذه الأخبار المغيبيّة تدلُّ على صدق النبي ﷺ، وصحة دعوته، ولهذا أمره الله تعالى أن يردَّ على المشركين الذين قالوا عنه ساحرٌ كذاب، وتعجبوا من دعوة التوحيد التي يدعو إليها، كما سبق في صدر السورة:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ﴾ .

أي: إنما أنا رسولٌ منذرٌ، لا ساحر كذاب، وما من إله يستحق العبادة إلا الله الذي لا يقبل الشركة والكثرة في ذلك، والقهَّار لكل شيء سواه. وفي هذا الجواب من الحُسْنِ ما فيه، فإنَّ كلَّ واحد من وصفي الرسالة والإنذار ينافي كل واحد من وصفي السحر والكذب.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (٦٦).

أي: هو خالق ومالك ومربي جميع المكونات السماوية والأرضية، العزيز الذي لا يُعْلَبُ، والغفَّار الذي يغفر ما يشاء لمن يشاء.  
ولا يخفى ما في هذه النعوت من تقرير لدعوة التوحيد مع الوعيد للمشركين ووعد بالمغفرة للموحدين.

﴿قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٍ﴾ (٦٧) ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (٦٨).

أي: قل: القرآن ذو الذكر الذي أقسم الله به في صدر السورة هو نبأ عظيم، لأنه منزَّلٌ من الواحد القهار، العزيز الغفار، أنتم عنه معرضون مع عظمتها الموجبة لحسن تلقيه وقبوله، فهو توبيخٌ على سوء صنيعهم وجهلهم بجلالة القرآن الكريم وعظمتها.

لقد جاء هذا النبأ العظيم ليتجاوز قريشاً في مكة، والعرب في الجزيرة، والجيل الذي عاصر الدعوة في الأرض، ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان، ويؤثر في مستقبل البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها<sup>(١)</sup>.

وما فيه من أخبار مغيبية عنَّا تدل على أنه منزل من الله ﷻ، ولهذا أضافت الآيات ذكر أخبار بعض ما حدث في الملائ الأعلى:

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٦٩).

أي: ما كان لي فيما سبق علم في حال الملائ الأعلى وقت اختصاصهم. والمراد بالملائ الأعلى الملائكة، وما جرى بينهم عندما خلق الله آدم، ولا شك أنه عليه الصلاة والسلام ما علم ذلك إلا بالوحي، فهو نذير مبين:

(١) في ظلال القرآن: ٣٠٢٦/٥.

﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧١﴾﴾ .

أي: ما يوحى إليّ من أخبار الغيب إلا لأنني نذير مبين، فإنّ كونه عليه الصلاة والسلام نذيراً مبيناً من دواعي الوحي إليه .

• من أخبار الملأ الأعلى:

وكما أخبره تعالى عمّا يحدث من تخاصم بين أهل النار يوم القيامة، أوحى إليه أيضاً ما كان من تقاؤل وتجاوز بين الملائكة عند خلق آدم ﷺ .  
ولهذا شرعت الآيات تفصّل ذلك تأكيداً لصحة نبوّته عليه الصلاة والسلام، وأنّ القرآن الكريم وحيّ أنزله سبحانه عليه :

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ .

والمراد به آدم ﷺ، وسُمّي بشراً، لأنه جسم كثيف مخلوق من طين يُباشر ويُلاقى، أو لأنّه بادي البشرة، ظاهرُ الجلد، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصفات: ١١] .

وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّن حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨] .

فالترابُ إذا بُلّ بالماء يصيرُ طيناً، فإذا أنتنَ يصيرُ حمأً مسنوناً، فإذا يبسَ يصيرُ صلصالاً كالفخّار، ومرّ معنا أنّ علمَ التحليل الكيميائي أثبتَ أنّ بُنية الإنسانِ المادية مكونةٌ من عناصر التراب .

﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ .

أي: فإذا أتممتُ خلقته، وأحييته بنفخ الروح فيه، فقعوا له ساجدين تحية وتكريماً .

فقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ إضافةٌ خلقٍ إلى خالق، فالروحُ خلقٌ من خلقه سبحانه،

أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، كقوله: (بيتُ الله) و(ناقة الله)، فهو - كما مرّ معنا - خالقُ كلِّ شيءٍ، وربُّ كلِّ شيءٍ.

﴿فَسَجِدْ أَلْمَلَكَةَ كُلَّهُمْ أَجْعُونَ ﴿٧٣﴾﴾

أي: سجدوا كلهم معاً بحيث لم يتأخر أحد منهم عن أحد.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

أي: أباي إبليس أن يسجد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي ۗ أَنْتَ أَكْبَرُ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰلِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾ أي: لما خلقتك بنفسي بلا واسطة أب وأم.

وهو سؤالٌ توبيخٍ وإنكارٍ، وترتيبُ الإنكارِ على خلقِ الله تعالى آدمَ بيديه أفادَ تأكيدَ الإنكارِ وتشديدَ التوبيخِ، كأنه قال: ما منعك أن تكبرمَّ بالسجودِ مَنْ هو أهلٌ للتكريمِ، لكونه المخلوقُ الذي خلقتَه بيدي.

وفي حديثٍ محاجة آدمَ وموسى عليه السلام ما يدل على أنَّ المخلوقيةَ بها وصفٌ تعظيمٌ؛ حيث قال موسى: «أنت آدمُ الذي خلقك اللهُ تعالى بيده» [رواه مسلم (٢٦٥٢)]. وكذلك في حديثِ الشفاعة: «أهلَ الموقفِ يأتونَ آدمَ ويقولون: «أنت آدمُ أبو الناسِ خلقك اللهُ تعالى بيده» [رواه البخاري (٦٥٦٥)].

وفي هذه الآية إثباتُ اليدين لله سبحانه على الوجه اللائقُ بجلاله وكماله، قال ابن بطّال: وهما صفتانِ من صفاتِ ذاته، وليستا بجارحتين، خلافاً للمشبهة من المثبتة، وللجهمية من المعطلة<sup>(١)</sup>.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ﴾ أي: أستكبرت عن السجود من غير استحقاق؟ أم كنت مستحقاً للعلو؟ وقد يكون المعنى: أحدث لك الاستكبار؟ أم لم تنزل منذ كنت من المستكبرين؟ ولا شك أنه تعالى يعلم حقيقة إبليس، وسؤاله له سؤال توبيخ وتقريع.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقَهُ مِن طِينٍ﴾ (٧٦)

وقول إبليس هذا يدل على أنه رأى لنفسه فضلاً على آدم بأصله، مع أن الفضل لا يكون بالأصل، وإنما بطاعته تعالى، وامثال أمره، فاستحقَّ بسبب تكبره طرده ولعنته:

﴿قَالَ فَأَخْرِجْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٧)

أي: فأخرج من الجنة، أو من زمرة الملائكة، فإنك مرجوم مطرود من كل خير وكرامة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٧٨)

فلعنة الله تلازمه إلى يوم الحساب والجزاء، والمراد دوامها من غير انقطاع، فجعل يوم الدين غاية لها، لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٧٩)

أي: أمهلني إلى يوم يبعثون من القبور، وهو يوم القيامة.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٨٠) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٨١)

وهو وقت النفخة الأولى، التي يُصعق فيها من في السموات والأرض.

﴿قَالَ فِعْرَانُكَ لَاغْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ .

أقسم بعزة الله تعالى أنه سيضلُّهم أجمعين إلا الذين يتحققون بحقيقة العبودية لله، ويخلصون قلوبهم له عز وجل، وهذا يدل على شدة ثقة الشيطان بنفسه، وقوة مكره.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لِأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ .

أي: أنا الحقُّ، ولا أقول إلا الحق: لأملأنَّ جهنم من التابعين للشيطان، والمتبوعين أجمعين.  
وفي قراءة: (قال فالحق) بنصبه على الإغراء، أي: فاتبعوا الحق.  
• الله أعلم:

وبهذا أثبتت الآيات صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وأنَّ القرآنَ الكريمَ كلامَ الله المنزَّلَ على رسوله عليه الصلاة والسلام، فأخباره كلُّها حق وصدق، لأنها تنزِيلُ عالم الغيب والشهادة، ولهذا توجَّهت آياتُ السورة في ختامها تخاطبُ النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيِّن لهم براءة دعوته من أي مطلب مادي ودنيوي أيضاً، كما بيَّنت الآياتُ صدقه في تلقي الوحي وتبليغه، فكل ذلك من أدلة صدقه وصحة رسالته:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ .

أي: وما أنا من المتصنِّعين، فما عرفتموني قط متصنِّعاً ولا مدَّعيماً ما ليس عندي حتى أنتحلَّ النبوة وأتقولَ القرآنَ.

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: يا أيها الناسُ مَنْ علم شيئاً فليقل به، ومَنْ لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنَّ مِنَ العلم أن يقولَ لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ . [رواه البخاري (٤٨٠٩)].

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧)

أي: ما القرآن إلا ذكرٌ للعالمين، فالضمير: (هو) عائد على القرآن الكريم، الذي صرّحت به السورة في أول آياتها: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ فالذكر الذي فيه ذكر للعالمين، فرسالة القرآن الكريم عامة شاملة للعالمين.

﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (٨٨)

أي: ولتعلمنَّ الآثار الطيبة والأحداث الخطيرة المترتبة على هذا النبأ العظيم بعد حين، وعندئذٍ تظهر لكم حقيقة صدقه.

فهو كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧] أي: لكلِّ خبر في القرآن الكريم حقيقة يؤول إليها، ومنتهى ينتهي إليه، إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وسوف تعلمون صحة هذا الخبر وتحققه.

وكقوله أيضاً: ﴿سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولم يمرَّ وقتٌ طويل على نزول هذه الآية الكريمة حتى شهدت البشرية أعظم وأعمق تحولٍ في تاريخها الفكري والسياسي والتشريعي، ولا يزال العلمُ يكتشف كلَّ يوم كثيراً من الحقائق العلمية، التي ورد الخبر فيها في بعض آيات الذكر الحكيم إشارةً أو تصريحاً، فيزيدنا تصديقاً بصدق رسول الله ﷺ؛ وعلماً بأن القرآن الكريم كلام الله، الذي يعلم السر وأخفى.

ورحم الله سيد قطب عندما قال: ولقد أنشأ من القيم والتصورات، وأرسى من القواعد والنُظم في هذه الأرض كلها، وفي أجيال البشرية جميعها، ما لم يكن العرب يتصوّرونه، ولو في الخيال، وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغيّر وجه الأرض، ويوجّه سير التاريخ، ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة، ويؤثر في ضمير البشرية وفي واقعها.

أسأله تعالى أن ينور قلوبنا بأنوار الذكر الحكيم.



## تفسير سورة الزمر

### الهُدَى وَالضَّلَالُ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَدِّمَاتُ  
وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

وبعد: فقد دارت آياتُ سورة الزُّمَرِ فلك الهدى والضلال، فأظهرت في صدرها أنّ الإخلاصَ في العبادة والطاعة يؤدي إلى الثبات على طريق الهدى، وأمّا الجحودُ والتكذيبُ فيؤديان إلى الخذلان والضلال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِيبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وبعد أن عرّفت الآياتُ بعض دلائل الهدى وبراهينه في الآفاق والأنفس، بيّنت كمالَ غنى الله تعالى، وقرّرت مسؤولية كل إنسان عن عمله، ثم حثت بأسلوبٍ غير مباشر على الاستكثار من العبادات ونوافل الطاعات لما لها من تأثير في الثبات على طريق الهداية: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ...﴾ [الزمر: ٩].

ثم أمرت بالتقوى، لما لها من تأثير أيضاً في الثبات على طريق الهداية،

ونوّهت بمكانة النبي ﷺ، وإخلاصه في طاعة ربه، واستسلامه لأمره، لكي يكونَ الأسوة الطيبة للمؤمنين، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

ثم توعدت المعرضين عن أسباب الهداية، أصحاب القلوب القاسية، الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله وآياته.

ووجهت المؤمنين إلى الثقة بالله ونصره وتأيدته، وبينت أنّ شأن الهدى والضلال منوطٌ بمشيئته ﷻ: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَالْكَرْمُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَالْهُدَى مِنْ مُضِلِّ اللَّهِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧].

ومع ذلك فإنّ للناس كسباً واختياراً في الهدى والضلال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ أَسْكَدَكَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١].

وتأكيداً لهذا المعنى دعتهم الآيات إلى التوبة والإنابة مهما أسرفوا في الفجور والمعاصي: ﴿قُلْ يَعْجَبَادِيَ الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

وخُتمت السورة ببيان مصير زمر الضالين وزمر المهتدين، أسأله سبحانه أن يثبتنا على طريق الهداية.



## تفسير سورة الزُّمَرِ الهُدَى وَالضَّلَالُ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ

### الإخلاص في العبادة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْتَدِ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة الزُّمَرِ بالتنويه بشأن القرآن الكريم، وأنه الكتاب المنزَّل على النبيِّ الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم فقال:

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾

أي: هذا الكتاب تنزيلٌ من الله لا من غيره، العزيز في سلطانه، الحكيم في تدبيره، فما أنزله إلا بمحض مشيئته، ومقتضى حكمته ﷻ.

وفي قوله: (تنزيل) إشارة إلى كيفية نزوله، فقد نزل منجماً على رسول الله ﷺ، وما نزل دفعة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْنٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وفي وصف الكتاب بأنه تنزيلٌ العزيز الحكيم تعظيمٌ لشأنه، وأنه واجبُ الاتباع، لأنه من الله العزيز الحكيم، والنبي عليه الصلاة والسلام أول المكلفين

باتباعه والتزام أحكامه، ولهذا توجَّهت الآيات تخاطبه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي : ملتبساً بالحق، أو لإثبات الحق كما في قوله تعالى : ﴿وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلٌ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]. فكل ما فيه حق وصدق ثابت بالبرهان العقلي والدليل الحسي، موجب للعمل به. فأول ما يترتب على تنزيله أن تعمل به :

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي : فاعبد الله عبادة خالصة له حسبما أنزل إليك فيه، فأنت أول المكلفين باتباع هذا الكتاب، وتطبيق أحكامه، وهذا يدل على أن النبي ﷺ ما كان له اختيار وكسب في نزول الوحي عليه، فهو ليس إلا متلقياً لما أنزل عليه ومكلفاً بما فيه .  
ثم قررت الآيات ما سبق وأكدته بقوله تعالى :

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ .

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي : الله وحده الذي يجب اختصاصه بالدين الخالص، والعبادة والطاعة يجب أن تكون لله وحده، لأنه المتفرد بصفات الألوهية، واستحقاق العبادة، فلا يقبل منها إلا ما كان خالصاً له وحده، كما سيأتي في قوله سبحانه : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]. وقوله أيضاً : ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤].

وكل عبادة لا تكون لله تعالى وحده مردودةً على أصحابها غير مقبولة، ولو قصدوا التقرب بها إليه تعالى .

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى وعبدوا غيره قائلين: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله تقريباً، فإن عبادتهم مردودة عليهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، فيقبل عبادة المخلصين الموحدين، ويرد عبادة الآخرين ويعاقبهم عليها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يوفق المصرين على الكذب والكفر، بل يخذلهم، ويذرهم منتكسين في حمأة الضلالة، محتجين عن أنوار الهداية، فالإخلاص في العبادة من أعظم أسباب الثبات على الحق والهداية.

\* \* \*

### كروية الأرض

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحٰنَهُ ۗ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوْرُ أَيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُوْرُ النَّهَارَ عَلَىٰ أَيْلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفْوَ ﴿٥﴾﴾

ثم نزهت الآيات الله تعالى عن الشريك والولد:

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحٰنَهُ ۗ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لو أراد الله أن يتخذ ولداً كما زعم المشركون لاختار ممَّا يخلق ما يشاء، فإنَّ اتخاذ الولد ممتنع في حقه سبحانه ومستحيل، لأن كل ما سواه مخلوق، والممكن هو الاصطفاء. وقد اصطفى سبحانه من مخلوقاته كالملائكة والأنبياء، وأمَّا اتخاذ الولد فمستحيل في حقه تعالى، ولهذا نزهه سبحانه نفسه عن ذلك بقوله:

﴿سُبْحٰنَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: ينزّه عن اتخاذ الولد، فهو أعظم وأجل من ذلك، ولا يليق اتخاذ الولد بجلاله وكماله ووحدانيته، فهو الله الواحد في ملكه وسلطانه، الغالب على خلقه، وجميعهم في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته ﷻ، كما سيأتي معنا في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَالسَّمٰوٰتُ مَطْوِيٰتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾ [الزمر: ٦٧].  
والدليل على أنه واحد قهار مبثوث في مكوناته ومخلوقاته:

﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ أَيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكُوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الْإَيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: خلقهما وما فيهما من المكوّنات ملتبسة بالحق والصواب، مشتملة على الحِكْمِ والمصالح، فما خلقهما عبثاً ولا باطلاً، وكما خلقهما سبحانه فهو يدبر أمرهما.

﴿يَكُوِّرُ أَيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكُوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الْإَيْلِ﴾ أي: يغشي كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفّه عليه لَفَّ اللباس على اللباس، كما في قوله سبحانه: ﴿يُغْشَى أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ بَا﴾ الآية [الأعراف: ٥٤].

وأشار سبحانه هنا إلى حقيقة علمية دقيقة وهي كروية الأرض، إذ هي محلُّ التكوير، فهو تعبيرٌ عجيبٌ - كما قال سيد قطب رحمته - يقسر الناظر قسراً على الالتفاتِ إلى ما كُشِفَ حديثاً عن كروية الأرض.

ودلّت صيغة المضارع (يكور) على التجدد والاستمرار، فاستمرار هذا النظام الكوني الدقيق منوط بمشيئته تعالى وقدرته.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة عندما تتغيّر بتقديره تعالى النُّظْم الكونية الدنيوية، كما مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي: تنبّهوا، فإن خالق السموات والأرض ومدبّر

ما فيهما من ظواهر كونية، هو العزيز الغالب على كل شيء، والغفار الساتر  
لذنوب عباده برحمته، فكما أنه تعالى واحد قهار؛ فهو عزيز غفار.

\* \* \*

### الأزواج الثمانية والظلمات الثلاث

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بَطْنٍ مِنْ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

وتابعت الآيات تبين جانباً آخر من الأدلة الدالة على أن الله واحد قهار  
وعزيز غفار:

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بَطْنٍ مِنْ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فخلقكم من نفس واحدة آية،  
وجعل زوجها منها آية أخرى.

وعطف الثانية على الأولى بـ (ثم) دلّ على مباينتها لها، وتراخيها عنها،  
قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

فالمراة تلتقي مع الرجل في عموم الخصائص البشرية، مما يدل على وحدة  
خالق هذا الكائن البشري، وهذه الظاهرة موجودة أيضاً في الأنعام، وهذا يدل  
أيضاً على وحدانية خالقها، فخالق الإنسان والأنعام خالق واحد، وهو خالق  
جميع الأحياء.

﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ نَمِينَةً أَزْوَاجًا﴾ ذكراً وأنثى، وهي الإبل والبقر والضأن والمعز، المصرح بها في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذَكَرْتُمْ حَرَّمَ أُمَّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نِعُونِي بِعِلْمِي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذَكَرْتُمْ حَرَّمَ أُمَّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾.

والمراد من الإنزال الإحداث والإنشاء، فإنها من أفضيته سبحانه وأقداره التي كتبها في اللوح المحفوظ، أو أحدثها لكم بأسباب نازلة من السماء كالأمطار وأشعة الشمس.

ثم لفت الآية أنظارهم إلى كيفية خلقهم في بطون أمهاتهم، ليستيقنوا بوحدانية الخالق وكمال قدرته، وأنهم في جميع أحوالهم وتقلباتهم في قبضة قدرته سبحانه:

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلْمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ أي: يخلقكم الله في بطون أمهاتكم خلقاً متدرجاً في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة.

ولا بد أن خلقهم في هذه الظلمات فيه حكمة تدل على رحمته تعالى ولطفه، ولعل منها حماية هذا المخلوق الضعيف من مؤثرات خارجية مضرّة ومشوهة، فالأشعة السينية مثلاً مضرّة ومشوهة، ولا يستبعد وجود أنواع أخرى من الأشعة حولنا تضرّ الجنين وتؤذيه، وهو في مراحل الخلق الأولى<sup>(١)</sup>.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي: ذلكم الإله العظيم الذي هذه أفعاله، له الملك المطلق في الدنيا والآخرة، فلا معبود بحق إلا هو، فكيف تُصْرَفُونَ عن عبادته وشكره، وتضلون عن توحيده، مع توفر موجبات الهداية، وانتفاء ما يصرفكم عنها؟!.

\* \* \*

(١) القرار المكين، ص ٢٧٣.

## الإرادة والرضا

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُبِيتًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوْلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾

ثم بينت الآيات كمال غنى الله تعالى، وأنه ما كلّفهم عبادته ليجرّ إلى نفسه نفعاً، أو يدفع ضرراً:

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ﴾ على الإطلاق.

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لاستضرارهم بالكفر، رحمة بهم، فالكفر سبب شقائهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأنه سبب فلاحكم وفوزكم.

وقرئ بإشباع ضمة الهاء (يرضه)، فكفر الكافر غير مرضي لله تعالى، وإن كان بإرادته، فالإرادة غير الرضا، قال سيدي الشيخ محمد الحامد رحمته الله: فالإرادة غير العلم، وغير الرضا، قال في «الجوهرة»:

وقدرة إرادة وغايرت أمراً وعِلماً والرّضا كما ثبت<sup>(١)</sup>

ونحن مكلّفون بأن تكون أعمالنا وأقوالنا موافقةً لأمره سبحانه وشرعه، لا لإرادته، فهي غيبٌ عنا، لا نعلمها حتى يقع مراده سبحانه، أما أمره فقد

أعلمنا به بواسطة أنبيائه وكتبه، ولهذا قال سبحانه في معرض الردّ على المحتجّين بالقدر: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَخُجِرُوا بِهِ لَنَا إِن تَنبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُخْرَصُونَ ﴿١٧٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٩﴾ [الأنعام].

وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أُمَّرَاتِي وَلَا تَعْلَمُوا شَيْئاً بِأَفْحَاشِهِمْ فَلَا أَعْلَمُ شَيْئاً﴾ [الأعراف: ٢٨].

وتأكيداً لهذا المعنى قرّر تعالى مسؤولية الإنسان الشخصية عن أعماله فقال:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٧٧﴾ أَي: فلا يسري كفر الكافر إلى غيره، وما فعله الآباء لا يتحمّله الأبناء، كما سبق في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَآ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْئاً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿١٧٨﴾ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٧٩﴾ [فاطر: ١٨].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧٩﴾ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٨٠﴾ أَي: إن مرجعكم إلى الله يوم الحساب فينبئ كل واحد منكم بما عمل في الدنيا لكي يجازيه عليها، إنه عليم بمضمّرات القلوب بله الأعمال الظاهرة.

وقدّر تعالى أن يمرّ الإنسان في أثناء حياته بأحوال مختلفة من الرخاء والشدة والعسر واليسر، لعله يهتدي ويعتبر، وينتبه من غفلته، ومع ذلك يبقى أكثر الناس مصريّن على كفرهم وضلالهم، معرضين عن طاعة ربهم:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴿١٨١﴾ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّبُضْلِهِ ﴿١٨٢﴾ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿١٨٣﴾ ﴿١٨٤﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴿١٨١﴾ أَي: دعا ربّه راجعاً إليه، مستشعراً ضعفه وافتقاره إليه، وهو يسأله كشف ما نزل به من ضر.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴿١٨٢﴾ أَي: ثم إذا أعطاه وملّكه

نعمة من فضله ورحمته نسي ربه الذي كان يدعو من قبل ليكشف عنه الضر، وانشغل بالنعمة عن شكر المنعم.

فهو في حال الشدة يلجأ إلى الله تعالى، ويستغيث به وحده، وفي حال الرخاء ينسى ربه، ويغفل عن عبادته وطاعته، وهذا حال أكثر الناس، وقد قرره تعالى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ. كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

ومنها أيضاً: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ دَعَا مِن دَعْوَنَ إِلَّا إِلَاهًا فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّبُضِلِّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: وجعل لله شركاء في العبادة ليزداد ضلالاً، ويثبت عليه، فالضلال مقارن للجعل المذكور، واللام العاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَيْتُهَا إِلَى الْفِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

وفي قراءة: (بِضِل) بفتح الياء.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: قل تهديداً لذلك المصّر على الضلال: تمتّع بكفرِكَ تمعاً قليلاً، إن مصيرك إلى النار.

\*\*\*

## الخوف والرجاء

﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُ مَنْ هُوَ قَلْبٌ أَمَّنْ هُوَ قَلْبٌ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٩)

وتؤثر العبادات ونوافل الطاعات بتثبيت صاحبها على طريق الهداية، ولهذا قال تعالى يبين فضل الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى في الأسحار:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ عِندَ آتَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ .

﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ عِندَ آتَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ فالمطيع لا يكون كالعاصي، وحال المؤمن ليس كحال الكافر الذي سبق ذكره .

وقرئ (أمن) بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على (من)، وبالتشديد على إدخال (أم) على (من). وهي مبتدأ خبره محذوف، وتقديره: أمن هو قانت كغيره، أي: أمن هو مطيع كمن هو عاص .

وآناء الليل: ساعاته وأوقاته . ودلت الآية على ترجيح قيام الليل على النهار، فالنوافل في الليل أفضل من نوافل النهار، لأن الليل أستر، فيكون أبعد عن الرياء، والقيام فيه أشق على النفس .

﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي: يقوم إلى الصلاة وهو يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه .

فالواجب أن يكون المؤمن بين الخوف والرجاء، يرجو رحمة ربه لا عمله، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله، وينبغي ألا يجاوز أحدهما حده، فالرجاء إذا جاوز حده يصير أمناً، وقد حذر الله تعالى منه بقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] .

والخوف إذا جاوز أيضاً حده يصيرُ يأساً، وهو مذموم لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] .

ويلاحظ أنه قال في مقام الخوف: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ فلم يضيف الحذر إليه تعالى، وقال في مقام الرجاء: ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأولى أن ينسب إلى الله تعالى<sup>(١)</sup> .

وورد مثل هذا في الحديث الشريف: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي

(١) تفسير الخازن: ٣٠٣/٥ .

ﷺ دخلَ على شابٍّ وهو في الموتِ، فقال: «كيفَ تجدُكَ؟» قال: واللهِ يا رسولَ اللهِ إنِّي أرجو اللهَ، وإنِّي أخافُ ذنوبي، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ولا يجتمعانِ في قلبِ عبدٍ في مثلِ هذا الموطنِ إلا أعطاهُ اللهُ ما يرجو، وأمنهُ ممَّا يخافُ» [أخرجه ابن ماجه (٤٢٦١) والترمذي (٩٨٣) وقال: حديث حسن غريب].

قال ابن حجر رحمته الله: «وهذا كله متفقٌ على استحبابه في حالة الصحة، وقيل: الأولى أن يكون الخوفُ في الصحَّة أكثر، وفي المرض عكسه، وأما عند الإشرافِ على الموتِ فاستحبَّ قومٌ الاقتصارَ على الرجاء، لما يتضمَّن من الافتقارِ إلى الله تعالى، ولأنَّ المحذورَ من تركِ الخوفِ قد تعدَّر، فيتعيَّن حسنُ الظنِّ باللهِ برجاءِ عفوه ومغفرته»<sup>(١)</sup>.

وفي الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معهُ إذا ذكرني» [رواه البخاري (٧٤٠٥)].

ويؤيده ما رواه مسلم [٢٨٧٧]: من حديث جابر رضي الله عنه: أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لا يموئنَّ أحدكم إلا وهو يُحسِنُ الظنَّ باللهِ».

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ فكما لا يستوي العالمون والجاهلون لا يستوي القانتون ولا العاصون، فالتسوية بين المتفاضلين تصادمُ الحقِّ والعدل كما سبق عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر].

فالذين يعلمون الحق، ويعملون به، ويقومون بالليل قانتين لله رُغماً وسجداً، لا يستون مع الذين لا يعلمون، ويعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يتعظ ويهتدي بهذه البيانات الواضحات أصحاب العقول الصافية. وفي قراءة: (يتذكر) بالإدغام.

وهو كلام مستقل غير داخل في الكلام المخاطب به النبي ﷺ، فيه إشارة

إلى أن التفاوت العظيم بين العالم والجاهل لا يعرفه إلا أصحاب العقول المستنيرة، كما قيل: إنَّما يعرفُ ذا الفضل من الناس ذووه.

\* \* \*

### التقوى والإحسان

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

ومن أسباب الهداية والثبات على الحق تقوى الله تعالى، باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، وهو ما تضمَّنه النداء الأول في السورة للمؤمنين:

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: قل لهم قولي هذا بعينه.

فإنَّ تبليغَ عينِ أمرِ الله تعالى أدعى إلى الامتثال له، كما أنه يدل على أهمية المأمور به وخطورته، وهو خطابٌ فيه تلطُّفٌ وتحبُّبٌ للمؤمنين، وإن كانت الإضافة في قوله: (يا عبادي) للتشريف، فقوله: (الذين آمنوا) صفة توضيح<sup>(١)</sup>، وإن كانت للتخصيص فهي صفة مميزة، وسيأتي ما يرجح التخصيص.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: للذين أحسنوا طاعة الله في الدنيا حسنة عظيمة في الآخرة، وقيل: حسنة في الدنيا وهي الصحة والعافية.

ولا يتحقق الإحسان إلا بالإخلاص الذي أمرت به الآياتُ في صدر

(١) تفسير النيسابوري: ١٠/٢٣.

السورة، وهو الذي وصفه الرسول ﷺ حين سُئِلَ عن الإحسان بقوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)].

وَدَلَّت الآية على التلازم بين الإحسان والتقوى، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً﴾ فلا عذر للمفترطين في الإحسان والتقوى، فمن تعسر عليه في وطنه فليهاجر إلى غيره، فإن أرض الله واسعة، كما قال تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وقد سبق تفصيل موضوع الهجرة وحكمها في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفُؤا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧).

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: إنما يوفى الصابرون الذين صبروا على الهجرة ومفارقة الأوطان أجرهم بغير حساب عليه.  
أو: بغير حد وعد، بل يُعرف لهم غرفاً، ويصب عليهم صباً.

\*\*\*

## أول المسلمين

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمَبِينُ (١٥)﴾.

إن تحقيق العبودية لله تعالى وحده روح الرسالات الإلهية وزبدتها، كُلف بها المرسلون أولاً ليكونوا الأسوة الصالحة، والقُدوة الحسنة، لمن أرسلوا إليهم، ولهذا أمر الرسول ﷺ أن يعلن ذلك وهو يدعو الناس إلى عبادته تعالى وحده:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (١١)

أي: مخلصاً له الدين عن كل ما ينافيه من شرك ورياء.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٢)

أي: وأمرت بذلك لأجل أن أكون سابقَ المسلمين وقدوتهم في الدنيا والآخرة. فكما أمر عليه الصلاة والسلام بالإخلاص في العبادة، أمر أيضاً أن يكون له السبق والتقدم فيها.

فعلى الداعية إلى الله أن يوافق فعله قوله، وأن يدعو نفسه أولاً إلى ما يدعو إليه غيره، حتى يكون قدوتهم قولاً وفِعْلاً، وعليه أن يعلن ذلك بقصد حثهم وتشجيعهم على الاقتداء به.

وأمر عليه الصلاة والسلام أيضاً أن يعلن خوفه من الله تعالى إن عصاه، تأكيداً لعبوديته لله ﷻ:

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣)

وهو يوم القيامة، وُصف بالعظمة لعظم ما فيه من حساب وجزاء.

وهو أسلوبٌ رفيع في الوعظ والزجر عن مقارفة المعاصي، والابتعاد عن طرق الضلال، فالنبي عليه الصلاة والسلام على جلالته ورفعة منصبه، على هذه الدرجة العالية من خشية الله ومحاسبته لنفسه، فكيف ينبغي أن يكون حالنا نحن مع الله تعالى؟!.

ومرة ثانية أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعلن إخلاص عبوديته لله وتحققه بها عملاً واستسلاماً وانقياداً على أبلغ وجه وأكمله، ففي المرة الأولى أخبر ﷺ بأنه مأمور بذلك، وفي هذه المرة أمر بالإخبار بمبادرته إلى تنفيذ الأمر وتحقيقه:

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ ﴿١٤﴾ .

فلا أعبد سواه، وهذا مقامي الذي شرفني الله به. أما أنتم :

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ فإنكم تحرمون أنفسكم من شرف عبادته وطاعته .  
وواضح أنه أمرٌ توبيخٍ ووعيدٍ، بين لهم بعد ذلك ما يترتب عليه من حرمان وخسران :

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي : إنَّ الكاملين في الخسران الذين خسروا أنفسهم بعبادة غيره تعالى، وخسروا أيضاً أهلهم يوم القيامة بإبعادهم عنهم وحرمانهم منهم، فالإنسان يستشعر ذاته، ويدرك هويته وحقيقته عندما يوجه نفسه إلى عبادة ربه ومالك أمره، بينما يستشعر الحيرة والقلق والضياح والضلال عندما يوجه نفسه إلى عبادة غيره جل وعلا .  
﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ فلا خسران أعظم من خسارة النفس والأهل معاً .

\*\*\*

### موعظة وبشارة

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُ فَاَتَقَوُوا﴾ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الشَّرْءُ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرفٌ مَّبِينَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴿٢٠﴾ .

ولهم مع الخسران أيضاً العذاب الأليم في أطباق النيران :

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُ فَاتَّقُونَ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي: النارُ محيطةٌ بهم من فوقهم ومن تحتهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿[الأعراف: ٤١]﴾ .

﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُ فَاتَّقُونَ﴾ أي: ذلك العذاب الفظيع هو الذي يخوِّفُ الله عباده به قائلاً لهم: يا عبادِ فاتقوني، ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي. وهي موعظةٌ بليغةٌ من الله تعالى تنطوي على غاية اللطف والرحمة، فمن اتعظوا بهذه الموعظة؛ وأقبلوا عليه مخلصين في عبادته وطاعته؛ معرضين عما سواه؛ لهم بشارة من الله عظيمة:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ .

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ أي: والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت، ورجعوا إلى الله فعبده وحده، لهم البشري في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فالثناء عليهم بصلاح أعمالهم، وعند نزول الموت، وعند الوقوف للحساب، وعند جواز الصراط، وعند دخول الجنة، وفي الجنة، ففي كل موقف من هذه المواقف تحصل لهم البشارة بنوع من الخير والراحة والروح والريحان<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن من هذه البشارة ما ذكره سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

والمراد من اجتناب الطاغوت اجتناب عبادته، فهو بدل اشتغال منه.

والطاغوت: المبالغ بالطغيان، حتى بلغ أقصى غاية فيه، وهو الداعي إلى عبادة غير الله تعالى كالشيطان ورؤوس الضلال.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي: احمل البشرى إلى عبادي، الذين يميزون بين الهدى والضلال، وبين الحق والباطل، فيتبعون الهدى، ويعرضون عن الضلال، ويتمسكون بالحق، ويرفضون الباطل.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: أولئك الذين هداهم الله لدينه، ووفّقهم للتمسك بشريعته، فهم المنتفعون بعقولهم على أحسن الوجوه وأكملها.

وفيه دلالة على أنّ الهداية تحصلُ بتوفيق الله تعالى، واستعداد النفس وقبولها لها.

وهداية التوفيق منوطة بالله تعالى وحده، لا يملكها أحدٌ سواه، ومهما اجتهد النبي عليه الصلاة والسلام في هدايتهم وإنقاذهم من النار، فلا يهدي إلا من تعلقت مشيئته تعالى بهدايته:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

فلست تملك أمر الناس، ولا تقدر على إنقاذ من استحق العذاب في النار. وهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يبذل جهداً كبيراً في دعوتهم، ويحرص حرصاً شديداً على هدايتهم وإنقاذهم من النار. ثم ذكرت الآيات في مقابل ما لأهل العذاب من ظلم من النار بعض ما أعد الله لأهل الجنة من النعيم، بأسلوب الاستدراك:

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْقَرُوا رِجْمَهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّيْنَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: لهم منازل رفيعة، وفوقها منازل أرفع منها تجري الأنهار من تحتها، وعداً لا يخلفه الله تعالى.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل العُرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرّي الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين» [رواه مسلم (٢٨٣١)].

\* \* \*

### التحذير من الاغترار بالدنيا

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

ولما كان الاغترار بالدنيا من أقوى أسباب الضلال، مع أنها قصيرة حقيرة سريعة الزوال، مثل لها سبحانه بالمثل الآتي تحذيراً من الاغترار بها:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أنزل من جهة السماء ماء هو ماء المطر، فجعل منه الينابيع في الأرض.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ من خضرة وحمرة وصفرة، أو مختلفاً أصنافه من بُرّ وشعير وعدس وغير ذلك.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا﴾ أي: ييبس فتراه بعد خضرته ونضرتيه مصفراً يابساً، ثم يجعله فتاتاً متكسراً.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: إن في ذلك المثل الذي ضربه الله تعالى للحياة الدنيا، لموعظةً بليغةً يهتدي بها أصحاب العقول المستنيرة.

والجدير بالذكر أن ضرب هذا المثل قد ذكر في مواضع متعددة من التنزيل الحكيم، منها: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].  
فالدنيا هكذا لا تدوم نضارتها، ولا يدوم حسنها، والعاقِلُ الذي لا يغتر بها، ولا يضل بسببها.

\* \* \*

### التحذير من قسوة القلب

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِٖٓ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٢)

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِٓ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٢).

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِٓ﴾ أي: أفمن وسَّعَ الله صدره، وجعله مستعداً لقبول الحق، فهو على بصيرة وهداية من ربه، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والجواب محذوف دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: من ترك ذكر الله والإعراض عنه، أو من أجل ذكره، فإن في الناس من يقسو قلبه عند ذكره سبحانه، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].  
وقوله أيضاً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَتْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقد قصَّ الله علينا في سورة البقرة كيف قست قلوبُ بني إسرائيل، ولم يتأثروا بالمعجزات الكبيرة التي أجراها سبحانه أمامهم على يد موسى ﷺ فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ .

فقسوة القلب تحجبه عن أنوار الهداية، كما في الحديث الشريف: عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عوداً عوداً، فأبي قلبٌ أُشْرِبَهَا نكتَ فيه نكتةٌ سوداء، وأي قلبٍ أنكرها نكتَ فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصيرُ على قلبين، على أبيضٍ مثل الصفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السماواتُ والأرضُ، والآخرُ أسودٌ مرابداً كالكوزِ مُجْحَبِياً، لا يعرفُ معروفاً، ولا ينكرُ منكراً، إلا ما أُشْرِبَ من هواه» [رواه مسلم (١٤٤)].

هكذا حال أصحاب القلوب القاسية المظلمة، يعرضون عن الهدى وينفرون من ذكر الله، ولهذا وصفهم الله بقوله:

﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .

\* \* \*

### قشعريرة وطمأنينة

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِنَانًا مُتَشَدِّبًا مَتَانِي نَقَشَعُرٌ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

أما الذين شرح الله صدورهم للإسلام واستنارت بأنوار هدايته، فحالهم مع آيات التنزيل الحكيم يختلفُ عن حال أولئك، ولهذا قال تعالى فيهم:

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِنْبًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَشِعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِنْبًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَشِعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾  
أي: نزل الله القرآن الكريم يشبه بعضه بعضاً في الحُسن، ويصدق بعضه بعضاً،  
يكرر فيه الوعد والوعيد، والحكم والأحكام، والأوامر والنواهي .

أو: يُثَنَّى في التلاوة فلا يُملُّ، تأخذ الذين يخشون ربهم قشعيرة عند  
سماعه، بسبب ما يعترهم من الوجَلِ والخَوْفِ، وما يصيبُ قلوبهم من أسباب  
الهداية واليقين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ  
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] .

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: ثم تلينُ جلودهم وقلوبهم لذكر  
الله، فإذا ذكرت آياتُ الوعيدِ والعذابِ اقشعرت جلودُ الخائفين من الله، وإذا  
ذكرت آياتُ الوعد والرحمة لانت جلودهم، وسكنت قلوبهم، فهم بينَ الخوفِ  
والرجاء، كما مرَّ معنا عند قوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا  
يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] .

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: ذلك القرآن الذي هو أحسنُ الحديثِ  
هدى الله، يهدي به الله مَنْ يَشَاءُ هدايته، فيشرح صدره لقبول الهداية، ولا شك أنه  
سبحانه أعلمُ أين يجعل هدايته، وهو القائل: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧] .  
ومرَّ معنا في أول السورة قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ  
كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] .

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: ومن يجعل قلبه قاسياً معرضاً عن الحق فما  
له مِنْ هَادٍ يهديه، فشأنُ الهدايةِ منوطٌ بمشيئته تعالى وحده وسابق علمه ورحمته .

### اتقاء العذاب بالوجوه

﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾  
 كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاْتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاَدَّأَهُمُ اللَّهُ الْخُرَىٰ فِي الْحَيٰوةِ  
 الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْرَهُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وكما أن أحوال المهتمدين تختلف عن أحوال الضالين في الحال، كذلك أحوالهم تختلف في المصير والمآل:

﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أفمن بقي نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه من العذاب السيئ الشديد، كمن هو آمن لا يصيبه مكروه. وحذف الجواب لدلالة ما بعده عليه، كما سبق معنا مثله.

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: ويقال يوم القيامة للظالمين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسبون في الدنيا من كفرٍ وفجورٍ.

فلقد أصرَّ القوم على كفرهم وفجورهم، ولم يعتبروا بما أصاب الأمم الهالكة قبلهم:

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاْتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

أي: أتاهم العذاب من حيث لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منه، أو أتاهم العذاب وهم غافلون آمنون.

﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْحِزْبَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

أي: أذاقهم الله الذل والهوان والقتل والسبي في الحياة الدنيا، وعذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا، لو كانوا يعلمون لأنموا واتعظوا به.

\* \* \*

### أمثال القرآن

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ .

وكما أعرضوا عن الاتعاظ بالأمم السالفة قبلهم، أعرضوا أيضاً عن الانتفاع بأمثال القرآن ومواعظه وحكمه وأحكامه.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

أي: ضربنا لهم في القرآن من كل مثل يحتاج إليه الناظر في أمور دينه لكي يتعظوا به ويهتدوا، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

أي: أنزله تعالى قرآناً عربياً مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف، لعلهم يتقون الكفر والتكذيب، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

[فصلت: ٤٢].

ومن أمثلة القرآن الكريم المحكمة قوله تعالى :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ للمشرك والموحد.

﴿رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: ضرب الله مثلاً للمشرك والموحد، رجلاً فيه شركاء متنازعون مختلفون، يدّعي كلُّ واحدٍ من معبوديه عبوديته، ورجلاً خالصاً لواحدٍ ليس لغيره عليه سبيل. وقرئ: (سالماً).

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستويان صفةً وحالاً، والمراد: هل تستوي صفتاهما وحالهما، واقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس، والمعنى: لا يستويان في الحال والصفة.

ومثّل الكافرَ ومعبوديه بعبدٍ اشترك فيه شركاء بينهم تنازع واختلاف، وكلُّ واحدٍ منهم يدّعي أنه عبده، فهم يتجادبون، ويتعاورونه في مهن شتى، وهو متحير، لا يدري أيهم يُرضي بخدمته! وعلى أيهم يعتمد في حاجاته! وممن يطلب رزقه! فَهَمُّهُ شِعَاعٌ، وقلبه أوزاعٌ. والمؤمنُ عبدٌ لسيدِّ واحد، فَهَمُّهُ واحدٌ، وقلبه مجتمع (١).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الحمد لله على كماله وجلاله ووحدانيته.

أو: الحمد لله على ظهور الدلائل والبيّنات الدالة على وحدانيته، بل أكثرهم لا يعلمون أنه وحده المستحقُّ للعبادة، فهم من فرط جهلهم يشركون به غيره.

وفيه تنبيه للموحدين على نعمة التوحيد، عليهم أن يحمدوا الله عليها.

ولما ظلّ المشركون مصرّين على ضلالهم، ولم ينتفعوا بضرب الأمثال، وإقامة الحجج والبراهين، سلكت الآيات أسلوباً جديداً تنوعدهم فيه بالموت،

وما سيلقون بعده من حساب وجزاء :

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِلَيْهِمْ مَبْتُونٌ ﴿٣٠﴾﴾

أي: إنكم جميعاً بصدد الموت وفي عداد الموتى .

وكان المشركون من قريش ينتظرون موت رسول الله ﷺ، ظانين أن دعوته إلى التوحيد تنتهي بموته، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَّأَ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

ولهذا توجهت الآيات تخاطبُ النبي ﷺ، وتخبرُهُ بأنه سيموت، وأن معارضي دعوته سيموتون أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿نَمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

فَتَقِيم حينئذِ الحجة عليهم بأنك بلغتهم رسالة التوحيد، وتلوت عليهم آيات التنزيل الحكيم العربي المبين، بكل ما فيه من حكم وأمثال وحجج وبراهين، والقوم قد لجوا في الضلال والعناد بسبب قسوة قلوبهم.

\* \* \*

### الحكم والكفاية

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَشُورَى  
لِلْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ  
عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٣﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَحْزِرَهُمْ أَجْرَهُمْ  
بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾

ويصدر عليهم أحكم الحاكمين حكمه العادل، ويمهّد له بيان ما يستوجبه:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٢).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥٓ﴾ أي: لا أظلم من هؤلاء الذين كذبوا على الله، فنسبوا إليه الشريك والولد، وكذبوا بدعوة التوحيد التي هي عينُ الحقِّ، ونفسُ الصدقِ، عندما جاءتهم من غير تدبُّرٍ ولا تأمُّلٍ، فجمعوا بين طرفي الضلال: كذبوا على الله، وكذبوا رسول الله ﷺ. ثم بيَّن سبحانه حكمه فيهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري المنفي مبالغة في الإثبات فقال:

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾؟ أي: أليست جهنم كافية للكافرين مأوى؟ ففيها عقوبة كافية لكفرهم وتكذيبهم، فالكفاية مفهومة من السياق لقوله تعالى بعدها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٦].

ويحكم الله بالمقابل على أهل الهدى والصدق بفضلِهِ ورحمته:

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٣٣).

وهو رسول الله ﷺ ومن تبعه من المؤمنين.

فالصدق هو دعوة التوحيد ودين الإسلام، والمتصفون بالصدق والتصديق هم المتقون الواصلون إلى مرتبة التقوى، وهي من أعظم المراتب وأرفع الرغائب، ولا شك أن مراتب التقوى متفاوتة، ورسول الله ﷺ في أعلاها، وقد ذكرنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٨٢] قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا».

﴿هُم مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٤).

أي: لهم كل ما يشاءون عند ربهم في الجنة، ومهما طلبوا وجدوا، تفضَّل

الله عليهم به بسبب إحسانهم في عبادته وطاعته، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ  
الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن].

ولما اشتهر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالمبادرة إلى تصديق النبي صلى الله عليه وسلم، ذهب بعض المفسرين إلى أنه هو الذي صدق به، ونقل عن بعضهم أنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والأولى حمل الآية على العموم، فهي تنسحب على جميع المؤمنين الذين يقولون الحق ويعملون به.

﴿يُكْفِرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٣٥].

﴿يُكْفِرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: ليغفره ويستره عليهم، وخصَّ  
الأسوأ للمبالغة، فإنه إذا كفر كان غيره أولى بذلك.

﴿وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ويعطيهم ثواب أعمالهم  
بما يعادل أحسنها، فضلاً منه تعالى بزيادة أجورهم، كما في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ  
نَنْقَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾  
[الأحقاف: ١٦].

\* \* \*

### أمان وضمآن

﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُمْ مُنْقَلَبُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٢]  
﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُصِلٍ﴾ [البقرة: ٢٠٢] ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُمْ مُنْقَلَبُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٢]

ومن صور إصرارهم على الضلال أنهم كانوا يخوفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوتهم  
وآلهتهم، عندما كان يسفه أحلامهم، ويعيب آلهتهم، فأنزل الله تثبيتاً للنبي صلى الله عليه وسلم  
ورداً عليهم:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٦)

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي : الله كافٍ عبده - وهو النبي ﷺ - وعيد المشركين وكيدهم .

وفي قراءة: (عباده) ويكون المعنى : إن الله يكفي المؤمنين شرَّ أعدائهم ، وبالأولى أن يكفي نبيه وخيرته من خلقه ﷺ شرَّ أعدائه ومكرهم ، وقد أكد سبحانه هذا المعنى في عدد من الآيات ، منها : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر : ٥١] .

وتخويفهم النبي ﷺ بالأوثان التي لا تضرُّ ولا تنفع ، يدل على شدة ضلالهم وجهلهم ، وأنه تعالى لا يهديهم إلى أي خير ورشاد .

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ وقد سبق معنا مثل هذا التعقيب في سياق ما أنزل الله في القرآن الكريم وإعراض المشركين عنه عند قوله : ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر : ٢٣] .

وهو أيضاً تأكيد لما ذكر في صدر السورة : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر : ٣] .

وهذا يظهر لنا الاتفاق والاتساق بين آيات السورة التي تدور في فلك الهدى والضلال .

وفي المقابل :

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ (٣٧)

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ أي : من يوفقه الله للهداية فلا يصرفه عنها أحد ، فلا غالب له جل وعلا ، ولا رادٌّ لإرادته ولا معقب لحكمه .

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ أي: الله عزيزٌ غالبٌ ينتقمُ من أعدائه لأنبيائه وأوليائه.

ويلاحظ إظهار الاسم الجليل (الله) في موضع الإضمار لتأكيد مضمون الكلام، وزيادة الشعور بالمهابة، كما يلاحظ دخول همزة الاستفهام على كلمة النفي (ليس) وهو الاستفهام الإنكاري المنفي الذي يفيد التأكيد، والذي سبق ذكره أيضاً في قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

فالذين هداهم الله لا مضل لهم، وكيف يضلُّون بعد أن شرح صدورهم للإسلام، ونور قلوبهم بأنوار تنزيله، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وهم الذين يخشون ربهم، فتتقشعر جلودهم من خشيته، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، وما دام حالهم مع التنزيل الحكيم هكذا، فهم في أمانٍ من الضلال، لأنهم متمسكون بهدى الله الذي يهدي به من يشاء.

\* \* \*

### حسبي الله

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُم مَّنْ حَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَنْقُورِمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُحْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٠﴾﴾

والعجيب أن المشركين ضلُّوا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق:

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ .

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فهي الفطرة التي فطرهم سبحانه عليها .

وأمر ﷺ أن يقابل إقرارهم هذا بتوبيخهم على عبادة غير الخالق :  
 ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ﴾ فهي آلهة ضعيفة عاجزة لا تكشف ضرراً ولا تمنع خيراً، فالضر والنفع منوط بمشيئة الخالق سبحانه وقدرته، فهو المستحق وحده للعبادة .

وتتضمن الآية رداً على تخويف المشركين للنبي عليه الصلاة والسلام من آلهتهم :  
 ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي : قل : كافيني الله كل أموري من جلب خير أو دفع شر، عليه وحده يتوكل المتوكلون .  
 ومن آثار توكله عليه الصلاة والسلام على الله، ثباته على طريق الدعوة، واستمراره في مواجهة المشركين وتحديدهم وتهديدهم :

﴿قُلْ يَلْقَوْرِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُحْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ .

﴿قُلْ يَلْقَوْرِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ﴾ أي : اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة والمكر، أو على طريقتكم، أو على حسب تمكنكم واستطاعتكم فإني لا أبالي، إني عامل فيما أمرت به، ولن أتوقف وأتردد .  
 وقرئ: (على مكاناتكم) .

ولا يخفى ما في كلامه عليه الصلاة والسلام من ثقة ورباطة جأش وشجاعة، أكد ذلك قوله :

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي : فسوف تعلمون وبال ذلك، وهو عذاب يذله في الدنيا، وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع في نار جهنم .

\* \* \*

### النوم والموت

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَفَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ صَلَّ فَإِنَّمَا يَصِلُ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمُمْسِكِ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

فطريق الحق واضح مؤيد بالأدلة والبراهين، ولا عذر لأحد في الإعراض عنه، وكلُّ مسؤول عن كسبه واختياره :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَفَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ صَلَّ فَإِنَّمَا يَصِلُ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي : إنا أنزلنا عليك الكتاب لخير الناس، وفلاحهم في الدنيا والآخرة .

﴿فَمَنِ اهْتَكَفَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ صَلَّ فَإِنَّمَا يَصِلُ عَلَيْهَا﴾ أي : فمن اختار الهدى فإنما ينفع نفسه، ومن اختار الضلال فإن وبال ضلاله يعود على نفسه .

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما وكلت عليهم فتجبرهم على الهدى، كما قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢٢) ﴿[الغاشية]. وهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يحرص حرصاً شديداً على هدايتهم.

والوكيل الحقيقي عليهم هو الله وحده، الذي يملك شؤونهم كلها في الحياة والموت، وفي اليقظة والنوم:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسِكُ إِلَيْ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٢).

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي: الله يقبض الأنفس عند انقضاء أجلها، وهو موت الأجساد، ويقبض الأنفس التي لم تمت حين النوم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

﴿فِيَمْسِكُ إِلَيْ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ويمنع التي قضى عليها الموت أن تعود إلى جسدها، ويرسل الأخرى النائمة إلى حين انتهاء حياتها في أجلها المعلوم المقدر لموتها، فذكر الوفاتين: الصغرى في النوم، والكبرى عند الموت.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في ذلك لدلائل وبراهين تدل على أن شؤون مخلوقاته كلها في قبضة قدرته تعالى ومشيتته.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلته إزاره، فلينفذ بها فراشه، وليسم الله، فإنه لا يعلم ما خلفه بعده على فراشه، فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقه الأيمن، وليقل: سبحانك ربّي، بك وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» [رواه مسلم (٢٧١٤)].

وكما كان المشركون يخوفون الرسول عليه الصلاة والسلام بألتهم، كانوا يعتقدون أيضاً أنها تشفع لهم عند الله :

﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

أي: بل اتخذوا من دون الله شفعاء، قل: كيف يشفعون وهم على هذه الصفة، لا يقدرون على شيء ولا يعقلون؟! .

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

أي: الله هو مالك الشفاعة، فلا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه، لأن له ملك السماوات والأرض، وإليه المرجع والمصير.

\* \* \*

### يا فاطر السماوات والأرض

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْرِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

ومن صور ضلالهم أيضاً شدة افتتانهم بالأصنام وسوء أدبهم مع الله تعالى :

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ .

أي: إذا ذكر الله وحده انقبضت ونفرت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة،

وإذا ذُكِرَتْ آلَهُتُهُمْ وَأَوْثَانُهُمْ ظَهَرَ فِي وُجُوهِهِمُ الْبِشْرُ وَالسَّرُورُ، فَهَمَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَتْ رِبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّهُ وَلَوْ عَلَيَّ أَذْبَرْتَهُمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

مما يدل على شدة ضلالهم وقسوة قلوبهم، كما سبق عند قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّفْسِيَّةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وما على الإنسان المؤمن وهو يواجه هذه المواقف القبيحة الصعبة إلا أن يتوجه إلى الله تعالى بضراعة وخشوع:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٦).

أي: أنت وحدك القادر على الحكم بيني وبينهم، فإني تحيرت في أمرهم وعنادهم وقسوة قلوبهم.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة أم المؤمنين: بأي شيء كان النبي ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» [رواه مسلم (٧٧٠)].

ولعل هذا سرُّ قراءة النبي عليه الصلاة والسلام هذه السورة عندما كان يأوي إلى مضجعه.

وجاء الجواب على هذا الدعاء الضارع الخاشع، يبين ما أعد الله لهم من العذاب الشديد يوم القيامة:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَّلَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

الْقِيَمَةَ ﴿٤٧﴾ أي: لو أن لهم جميع ما في الدنيا من الأموال والكنوز ومعه مثله، لجعلوه فدية لهم من عذاب يوم القيامة.

وهو وعيدٌ شديدٌ وإقنات لهم من النجاة من العذاب، فقد علّقه على شيء مستحيل الوقوع، ولو حدث هذا المستحيل ما تقبله سبحانه منهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا نُقِلَ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: وظهر لهم من أنواع العذاب ما لم يكن في حسابهم، وكل ذلك نتيجة كسبهم وضلالهم:

﴿وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٤٨﴾.

أي: وظهر لهم سيئات كسبهم عندما تُعرض صحائف أعمالهم عليهم.  
أو: بدا لهم عاقبة ما كسبوا، وأحاط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون.

\* \* \*

### الفتنة بالمال

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلْتُهُ نِعْمَةً مِمَّا قَالِ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أُعْطِيَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ومن صور ضلالهم العجيبة أن هؤلاء الذين يشتمنون عند ذكره تعالى، يلجؤون إليه عندما تحيط بهم الأخطار، ولا يذكرون أصنامهم وآلهتهم التي يستبشرون بذكرها:

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي : لجأ إلينا لنكشف عنه الضر، كما مر معنا عند قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر : ٨] وقد ذكره سبحانه ثمة ليبيِّن حال الإنسان، وكيف تتغيَّر أحواله ومواقفه، وذكره هنا في معرض الردِّ على نفورهم واشمئزازهم عند ذكره سبحانه .

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي : إذا أعطيناه نعمة منا تفضلاً وإحساناً قال : إنما أوتيته على علم مني بوجوه كسبه، ونسي فضله تعالى عليه .

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي : بل هو اختبار وامتحان له، أيشكر أم يكفر؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك .

﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَعْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

أي : قد قال مثل هذه الكلمة من قبلهم، مثل : قارون؛ فقد حكى الله عنه : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص : ٧٨] .

فما نفعهم ما كانوا يكسبون عندما أنزل الله بهم العذاب :

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَتُولَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ .

أي : فأصابهم جزاء ما كسبوا، والذين ظلموا من المشركين المعارضين لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام سيصيبهم أيضاً جزاء ما كسبوا، وما هم بناجين .

﴿أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: أولم يعلموا أن الرزق بيد الله تعالى يبسطه لمن يشاء ويضيِّقه على من يشاء؟! .  
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدِّقون بأن الحوادث كلها من الله، وأنه لا قابض ولا باسط إلا هو جل وعلا .

\* \* \*

### التوبة والمغفرة

﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٣﴾ .

وقبل أن تُختم السورة أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يبلغهم نداء ربهم الثاني، وقد مرَّ معنا أنَّ النداء الأول وَجَّهَ للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠]، أما النداء الثاني هذا فقد وَجَّهَ للمسرفين:  
﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي قل: يا عبادي الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم بالإسراف في المعاصي، والإصرار على الكفر، لا تيأسوا من رحمة الله، إِنَّ الله يغفرُ جميعَ ذنوب المؤمنين التائبين .

ولا يخفى ما في النداء من تلطف بالمخاطبين، وترغيب لهم بالاستجابة،

ففيه دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة - كما قال ابن كثير رحمته - وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها، ورجع عنها، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه المغفرة على غير توبة، لأنَّ الشرك لا يُغْفَرُ لمن لم يتب منه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ورأى بعضهم أنَّ الآية تنادي المؤمنين على وجه الخصوص، لأنَّ إضافة العباد مخصصة بالمؤمنين على ما هو عُرف القرآن الكريم، والمراد الإسراف بالمعاصي. لكنَّ سياق الآيات كما سيأتي يدل على العموم، ويؤكد ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول الآية: أنَّ ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنَّ الذي تقول وتدعو إليه لَحَسَنٌ، لو تخبرنا أنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَارَةً، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل: ﴿قُلْ يِعْبُدُوا الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. [رواه البخاري (٤٨١٠)].

ولم يشترط بعضهم لمغفرة الذنوب التوبة، أخذاً بإطلاق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ والتقيد بالتوبة خلاف الظاهر، لكنَّ هذا الإطلاق مقيد بعدد من الآيات؛ منها قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. وقوله أيضاً: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

والأولى أنَّ مَنْ تَابَ وَصَحَّتْ تَوْبَتُهُ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ. وَمَنْ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَتُوبَ فَهُوَ مُوَكَّلٌ إِلَىٰ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، إِنْ شَاءَ غُفِرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَبَهُ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ، ثُمَّ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَالتَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ، وَخَوْفُ الْعِقَابِ مُطْلَقٌ، فَلَعَلَّ اللَّهَ يَغْفِرُ مُطْلَقًا، وَلَعَلَّهُ يَعْذِبُ ثُمَّ يَغْفِرُ بَعْدَ ذَلِكَ<sup>(١)</sup>.

وقال ابن حجر رحمته: «وَأَسْتَدِلُّ بِعَمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ غَفْرَانِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ

كبيرها وصغيرها، سواءً تعلقت بحق الآدميين أم لا، والمشهور عند أهل السنة أن الذنوب كلها تُغْفَرُ بالتوبة، وأنها تغفر لمن شاء الله، ولو مات على غير توبة، لكنَّ حقوق الآدميين إذا تاب صاحبها من العود إلى شيء من ذلك، تنفعه التوبة من العود، وأما خصوص ما وقع منه فلا بدَّ من رده لصاحبه، أو محالته منه، نعم في سعة فضل الله ما يمكن أن يعوِّض صاحب الحق عن حقه، ولا يعذب العاصي بذلك»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يغفر ذنوب عباده ويرحمهم.

فلا يقنطنَ عبدٌ من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإنَّ باب الرحمة والتوبة واسع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيُغْفَرُ لهم» [رواه مسلم (٢٧٤٩)].

ويؤيده أيضاً حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتلَ تسعةً وتسعين نفساً، فسألَ عن أهل الأرض، فذُلَّ على راهبٍ، فأتاه، فقال: إنه قتلَ تسعةً وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله، فكمَّلَ به مئةً. ثم سألَ عن أهل الأرض، فذُلَّ على رجلٍ عالمٍ، فقال: إنه قتلَ مئةً نفسٍ، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحولُ بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرضٍ كذا وكذا، فإنَّ فيها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنَّها أرضٌ سوءٍ. فانطلق حتى إذا نصَّفَ الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب، فقالت ملائكةُ الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكةُ العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين

الأَرْضَيْنِ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. ففاسوه، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أَرَادَ، فقبضته ملائكة الرحمة» [رواه مسلم (٢٧٦٦)].

\* \* \*

### تذكير وتحذير

﴿وَأَيُّبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعْتَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّالِحِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ .

﴿وَأَيُّبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ .

﴿وَأَيُّبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: ارجعوا إلى ربكم بالإعراض عن الكفر والمعاصي والندم عليها.

فالإنابة: الرجوع إلى الله بالإخلاص، أو الانقطاع إليه وحده بالعبادة، وهو ما حُوطب به النبي ﷺ في أول السورة ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]. وما وصف به المؤمنون في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَىٰ اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ [الزمر: ١٧].

قال القشيري رحمه الله: «الإنابة: الرجوع بالكلية، والفرق بين الإنابة والتوبة: أن التائب يرجع من خوف العقوبة، والمنيب يرجع استحياء لكرمه تعالى»<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: وأطيعوه،

(١) روح المعاني: ١٦/٢٤.

واستسلموا لأحكامه الشرعية والقدرية، من قبل أن يأتيكم العذاب، ثم لا تمنعون منه إن لم ترجعوا إلى ربكم.

﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٥٥)

أي: اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم، وهو القرآن - وكله حسنٌ - بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي، من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة وأنتم غافلون عنه، وهو أشد أنواع العذاب، لأنه يأتي فجأة من غير توقع ولا انتظار. ومن دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك» [رواه مسلم (٢٧٣٩)].

وقد يكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هو نفس ما خوطب به موسى ﷺ عندما أنزلت عليه التوراة، بقوله: ﴿فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] أي: بعزائمها وواجباتها، ولا يتبعوا رخصها، فيعملوا بها فقط، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكون في شرائعه المنزلة رخص لبعض الحالات الضرورية، فلا ينبغي العمل بالرخص فقط وترك الواجبات والعزائم.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦)

أي: حتى لا تندموا وتقول كل نفس منكم: يا حسرتي احضري، فهذا أوانك على تفريطي وتقصيري في جانب الله وحقه وطاعته، أو قربه وذكره، وإن كنت لمن المستهزئين بدينه وأهله.

ونكرت (نفس) للتكثير، وأصل (يا حسرتي) يا حسرتا، فأبدل من الياء ألف الندبة، ومحل (وإن كنت) النصب على الحال، أي: فرطت وأنا ساخر، قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها.

وقال إبراهيم التيمي: مِنَ الحسراتِ يومَ القيامةِ أن يرى الرجلُ ماله الذي أتاه الله في الدنيا، يومَ القيامةِ في ميزانٍ غيره، قد ورثه، وعمل فيه بالحق، وكان له أجره، وعلى الآخر وزره، ومن الحسراتِ أن يرى الرجلُ عبده الذي حوَّله الله إياه في الدنيا أقربَ منزلةً من الله ﷻ، أو يرى رجلاً يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يومَ القيامةِ وعمي هو<sup>(١)</sup>.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧)

أي: أو تقول لو أن الله وفقني إلى الهداية لكنت من المتقين، مع أن أسباب الهداية كانت ميسرة له.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨)

أي: لو أن لي رجوعاً إلى الحياة الدنيا فأكون من المحسنين في عبادة الله وطاعته.

هكذا أخبر العليم الخبير ما العباد قائلون يومَ القيامة قبل أن يقولوه.

\* \* \*

### طريق الفوز والفلاح

﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِنَهُمْ لَا يَسْهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْرَنُونَ ﴿٦١﴾

ولما أنهى سبحانه حكاية أقوالهم ذكر جواب ما يقتضي الجواب منها، وهو قولهم: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧] فقال:

(١) تفسير القرطبي: ٢٧١/١٥.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ .

أي : بلى قد بين لك طريق الهدى ، وكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن ، عندما جاءتك آياتي ، فكذبت بها ، وتكبرت عن الإيمان ، وكنت من الكافرين ، فأنت الجاني على نفسك لإعراضك عن طريق الهدى واختيارك طرق الضلال .

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦١﴾﴾ .

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ لما ينالهم من شدة ، وما يغشاها من ظلمة ، كما قال سبحانه : ﴿وَوُجُوهُ يُؤْمِدُ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرَهَقَهَا فَذَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ﴾ [عبس] .

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي : مأوى للمتكبرين عن الإيمان ، وهو إشارة إلى قوله السابق : ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ [الزمر : ٥٩] .

وينجي الله الذين اختاروا طريق الهداية بفضله :

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي : وينجيهم الله بسبب سلوكهم طريق الفوز والفلاح ، يقال : فاز بكذا إذ أفلح به ، وظفر بمراده .

أو : وينجيهم متلبسين بفوزهم ومطلوبهم . وقرئ : (بمفازاتهم) .

وإذا قيل : وما مفازتهم؟ فيقال هي :

﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي : لا يصيبهم مكروه يسوءهم ، ولا يحزنهم

الفرع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فرع ، سالمون من كل سوء ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا

أَشْتَهتْ أَنْفُسُهُمْ خَلِيدُونَ ﴿١٦٦﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿[الأنبياء].

وقال أيضاً: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٦٤﴾ الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر].

\* \* \*

### الخسران المبين

﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٦٦﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦٧﴾ قُلْ أَفَعَبَرْتُمْ أَن مَّرَوْعِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٦٨﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦٩﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

ثم بين تعالى أنه هو الخالق المالك لكل شيء، ومدبر كل شيء من خير أو شر، وهدي أو ضلال، لكن لا بالجبر والإكراه، بل بالكسب والاختيار ومباشرة الأسباب، فقال:

﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٦٦﴾﴾

أي: الله خالق الأشياء كلها، وهو ربها المتصرف فيها وحافظها.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له مفاتيح السموات والأرض، أو: له خزائن السموات والأرض، والمعنى المراد على كلا القولين: أن أزمة الأمور بيده تعالى وحده، فهو خالق الأسباب والمسببات، والسنن الإلهية مظهر من مظاهر جوده الإلهي وفضله الصمداني، جعلها بمثابة مفاتيح خزائن كرمه في يد

المحتاجين إليها، فما استفتحوا فُتح لهم، ومن لم يفعل فلا يلومنَّ إلا نفسه، وفي هذا تمييز للعامل عن الخامل، وللمُجدِّ العالم عن الكسول الجاهل.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: والذين كفروا بآيات الله التكوينية المنصوبة في الآفاق والأنفس، وبآياته المنزلة في القرآن، هم الخاسرون خسراناً لا تلافي له، كما سبق معنا في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

ثم أمر النبي عليه الصلاة والسلام بعد هذا البيان الملزم القاطع في حججه أن يقول لهم موبخاً ومنكراً:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

أي: أغير الله تأمروني أن أعبد أيها الحمقى السفهاء الطائشون، أو أيها الأغبياء. وفي قراءة: (تأمروني)، (أعبد).

ويبدو أنَّ المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ليعبدوا معه إلهه، فنزلت هذه الآية، ونزل إقناطاً للمشركين، وإظهاراً لذلِّ العبودية أمام عزِّ الربوبية:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهو كلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، وتثبيتهم في مواجهة المشركين، وبيان قبح الشرك، وكونه ينهى عنه الرسل المعصومون عنه، فكيف بمن عداهم؟! (١).

ولا يخفى ما في الآية من تكريم للنبيِّ عليه الصلاة والسلام بإفراده بالخطاب، وتقديمه بالذكر على جميع المرسلين، مع أنه عليه الصلاة والسلام خاتمهم. والإحباط: الإبطال والإفساد، فمن ارتدَّ لم تنفعه طاعته السابقة.

(١) تفسير أبي السعود: ٢٦٢/٤.

ودلت الآية على أن الردة تحبط العمل السابق عليها مطلقاً، وعلى المرتد بعد الرجوع إلى الإسلام قضاء العبادات التي يدرِك أسبابها كالحج والصلاة التي ارتد في وقتها، وعليه أيضاً تجديد عقد نكاحه إذ تبين منه زوجته، وينفسخ عقد نكاحه بالردة، وهو مذهب الحنفية، وشرط بعضهم لبطلان العمل بالردة، الوفاة على الكفر، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧] حملاً للمطلق على المقيد، وهو مذهب الشافعي.

﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٦٦﴾

أي: كن من الشاكرين لله تعالى على ما تفضل به عليك .  
ولا شك أن فضله تعالى عظيم على النبي ﷺ كما في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ولهذا كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى ترم قدماه - كما مر معنا - .  
ودلت الآية على أن عبادة الله تعالى وحده بإخلاص؛ من شكره تعالى، وهو ما سبق تقريره في أول السورة بقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] فتأمل الانسجام والاحتباك بين آيات السورة.

\* \* \*

## وما قدروا الله حق قدره

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ .

ولو أن هؤلاء الضالين المشركين عرفوا عظمة الله حق المعرفة، ما جعلوا له شريكاً، وما وصفوه بصفات لا تليق بجلاله وكماله :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ .

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي: وما عظموا الله حق عظمته عندما دعوا إلى عبادة غيره، وهو العظيم القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء، وكل المكونات في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته جَلَّالَهُ.

قال ابن كثير رحمته: فَمَنْ آمَنَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَقَدْ قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِذَلِكَ فَلَمْ يَقْدِرِ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف .

منها: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلْكُ الْأَرْضِ؟» [رواه البخاري (٧٣٨٢)].

ومنها: أن يهودياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا محمد، إنَّ الله يمسِكُ السماواتِ على إصبعٍ، والأرضينِ على إصبعٍ، والجبالِ على إصبعٍ، والشجرِ

على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا المَلِكُ، فضحك رسولُ الله ﷺ ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ . [رواه البخاري (٧٤١٤)].

قال ابن بطال: وحاصل الخبر أنه ذكر المخلوقات، وأخبر عن قدرة الله على جميعها، فضحك النبي ﷺ تصديقاً له، وتعجباً من كونه يستعظم ذلك في قدرة الله تعالى، وأن ذلك ليس في جنب ما يقدر عليه بعظيم، ولذلك قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، ولا يحمل ذكر الأصابع على الجارحة، بل يحمل على أنه صفة من صفات الذات لا تكيف ولا تحد<sup>(١)</sup>.

﴿سُبْحٰنَهُ وَنَعٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾ أي: ما أعظم وما أجلّ من هذه قدرته عما يشركون! يتنزّه ويتقدّس عن كل مظاهر الشرك، فكل ما يشركونه معه ﷻ أرضياً كان أم سماوياً مهووراً تحت سلطان قدرته ومشيئته ﷻ.



### في عرصات القيامة

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتٰبُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَآءِ وَفُصِّلَ لِبَنِي إِسْرٰءِيلَ مَا لَهُمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ثم وصفت الآيات يوم القيامة، وبيّنت ما يحدث فيه، تمهيداً للحديث عن مصير كل من الضالين والمهتدين:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ .

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ونفخ

(١) فتح الباري: ٣٩٢/١٣.

في الصور نفخة الصعق، وهي النفخة الأولى، فمات مَنْ في السموات ومن في الأرض من الأحياء إلا من شاء الله.

والصور في الأصل: هو الآلة المعروفة على هيئة القرن، ونحن نؤمن بحقيقته المذكورة في الآيات، ونفوض كلفيته إلى علام الغيوب جل شأنه، والمشهور أن النافخ فيه ملكٌ واحدٌ، وأنه إسرافيل عليه السلام، بل حكى القرطبي الإجماع عليه<sup>(١)</sup>.

قال ابن حجر رحمته الله: والصور إنما هو قرنٌ كما جاء في الأحاديث المرفوعة، وقد وقع في قصة بدء الأذان بلفظ البوق والقرن في الآلة التي يستعملها اليهود للأذان...

وأخرج أبو داود [٤٧٤٢]، والترمذي [٢٤٣٠] وحسنه، والنسائي في الكبرى [١١٤٥٦]، وصححه ابن حبان [٧٢٦٨]، والحاكم [٥٠٥/٢]: من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما الصور؟ قال: «قرنٌ ينفخ فيه».

وأخرج الترمذي [٢٤٣١] أيضاً وحسنه: من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: «كيف أنعمٌ وصاحبُ الصورِ قد التقمَ القرنَ، واستمعَ الإذنَ متى يؤمرُ بالنفخِ؟!»<sup>(٢)</sup>.

واختلف في المستثنى: من هم؟ قيل: هم الشهداء، وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وقيل: رضوان خازن الجنان والحدور، ومالك خازن النار والزبانية، وقيل: يموت مَنْ في السموات والأرض إلا من سبق موته، لأنهم قد ماتوا، وهذا نظيرُ قوله سبحانه: ﴿لَا يَدُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦].

والأولى تفويض علم ذلك إلى الله تعالى، إذ لم يرد في التعيين خبرٌ صحيحٌ،

(١) روح المعاني: ٢٧/٢٤.

(٢) فتح الباري: ٣٦٨/١١.

وما ورد في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: استبَّ رجلٌ من المسلمينَ ورجلٌ من اليهودِ، فقال المُسلِمُ: والذي اصطفى محمداً صلَّى الله عليه وآله على العالمينَ، فقال اليهوديُّ: والذي اصطفى موسى على العالمينَ، فرجع المسلمُ عندَ ذلك يده فلطمَ اليهوديُّ، فذهبَ اليهوديُّ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله فأخبره، فقال: «لا تخيِّرُونِي على مُوسَى، فإنَّ الناسَ يُصعِقُونَ، فأكونُ أوَّلَ من يفيقُ، فإذا موسى باطشٌ بجانبِ العرشِ، فلا أدري أكانَ فيمَن صُعِقَ فأفاقَ قبلي، أو كانَ ممَّن استثنى اللهُ؟» [رواه البخاري (٣٤٠٨)؛ فحملها بعضُ العلماء على أنها صعقةُ فرع بعدَ البعثِ حين تنشقُّ السماءُ والأرضُ، فهي غشية تحصل للناس في الموقف<sup>(١)</sup>.

﴿ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ثم نفخ فيه نفخة أخرى، فإذا هم قيام من قبورهم ينظرون حولهم، وهذا يدلُّ على أنهم بُعثوا من قبورهم أحياءَ حياةً كاملةً كما كانوا في الدنيا.

ودلَّت كلمةُ (ثم) على التراخي الزمني بين النفختين، وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبيَّ صلَّى الله عليه وآله قال: «ما بيِّنَ النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون سنةً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ، «ويبلى كُلُّ شيءٍ من الإنسانِ إلاَّ عُجْبُ ذَنبِهِ، فيه يركَّبُ الخَلْقُ» [رواه البخاري (٤٨١٤)].

وقوله: (أبيتُ) أي: امتنعتُ عن القول بتعيين ذلك، لأنه ليس عندي في ذلك توقيفٌ.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٦٩).

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت الأرضُ يوم القيامة عندما يتجلَّى الحقُّ لفصل القضاء.

أو: أضاءت بعدلِ الله وقضائه بالحق بين عباده، فالظلم ظلماتٌ، والعدل نورٌ.

قال القرطبي رحمته: «وقد ضلَّ قوم هاهنا، فتوهموا أنَّ الله تعالى من جنس النور - الضياء المحسوس - وهو متعالٍ عن مشابهة المحسوسات، بل هو منورُ السموات والأرض، فمنه كلُّ نور خلقاً وإنشاء»<sup>(١)</sup>.

﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ﴾ أي: وضع كتاب الأعمال بيد صاحبه، إما يمينه، أو شماله، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَوْلَءُ كِتَابِي﴾ [الحاقة: ١٩].  
وقال أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلْبَسُنِي لَوِ أُوْتِيَ كِتَابِي﴾ [الحاقة: ٢٥].  
﴿وَجَاءَءَ بِالتِّيْنِ وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي: وجيء بالنبيين لِيُسْأَلُوا عن التبليغ، والشهداء من الكرام الكاتبين ليشهدوا، وكذلك أمة محمد عليه الصلاة والسلام، والجوارح التي يُنطقها الله، والأرض التي تحدت أخبارها.  
﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: وقضى بين العباد بالعدل، وهم لا يظلمون، فالحاكم هو الله المنزه عن الظلم، ولا يُتصور في حقه تعالى.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٧).

أي: أعطيت كل نفسٍ جزاء عملها كاملاً بحسب علمه سبحانه، الذي وسع كل شيء.

\* \* \*

## زمر الضالين وزمر المهتدين

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خِرَنَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَسْ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفَتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خِرَنَهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَبِعَمَّ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَاتٍ مِن حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُصِيَٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

ثم بينت الآيات توفية الجزاء بقوله تعالى:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خِرَنَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ .

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي: سيقوا إلى جهنم أفواجاً أفواجاً، بعضها إثر بعض، على حسب دركاتهم في جهنم، وشدة ضلالهم وإضلالهم، فرؤساء الضلال يساقون إلى جهنم قبل أتباعهم، قال تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَبْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

ويساقون إليها بشدة وعنف كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣] أي: يدفون إليها دفعاً شديداً على وجوههم.

كما قال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبِكَمَا ضَمُّنَا مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتِ زِدْنُهُمْ سَعيراً﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا﴾ أي: فتحت أبوابها السبعة بمجرد وصولهم إليها تعجيلاً لعذابهم، قال سبحانه: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ أي: قال لهم خزنة جهنم الغلاظ الشداد تقريعاً وتوبيخاً، وقد وصفهم الله تعالى بذلك في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْأ أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: ألم يأتكم رسل من جنسكم يبلغونكم رسالة الله تعالى، ويحذرونكم من المسؤولية والجزاء في يومكم هذا، والمعنى: أن أسباب الهداية قدّمت لكم، وحجته تعالى البالغة قامت عليكم، فلا عذر لكم.

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: قالوا: قد أتانا الرسل، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ولكن وجبت علينا كلمة الله بسوء أعمالنا واختيارنا، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

وكلمة العذاب هي كلمته سبحانه بتعذيبهم بعدله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٢).

أي: بس مَثْوًى المتكبرين جهنم. وأبهم القائل لتحويل ما يقال لهم.

ثم بيّن تعالى حال السعداء المهتدين، وما يتفضّل عليهم من نعيم وتكريم:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبِّكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ وهم الذين لبوا نداء ربهم الذي سبق في السورة: ﴿قُلْ يِعْبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠]، سيقوا إلى الجنة جماعات وأفواجاً: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع مَنْ يناسبهم، الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والعلماء مع أقرانهم، والشهداء مع بعضهم.

والجدير بالذكر أن نبينا عليه الصلاة والسلام أول من يدخل الجنة: ففي الحديث: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «آتي باب الجنة يوم القيامة فاستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك» [رواه مسلم (١٩٧)].

وأول الناس دخولاً الجنة من أمته عليه الصلاة والسلام من لا حساب عليهم، الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ، ولا يَكْتُمُونَ، وعلى ربهم يتوكلون» [رواه البخاري (٥٧٠٥)].

وقد وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر فقال: «أول زمرة تلج الجنة صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لا يَبْصُقُونَ فِيهَا، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون فيها، أنيئتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة، ومجاميرهم من الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحدٍ منهم زوجتان، يرى مُحٌّ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلافَ بينهم ولا تباغضَ، قلوبهم قلبٌ واحد، يسبحون الله بكرةً وعشيًّا» [رواه مسلم (٢٨٣٤)].

﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: وفتحت أبوابها الثمانية.

ففي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحَسِّنُ وُضوءَهُ، ثم يقومُ فيصلي ركعتين، مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة» فقلت - القائل عقبه بنُ عامر -: ما أجودَ هذه! فقال عمر رضي الله عنه: التي

قبلها أجود، قال: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَصَّأُ فَيَبْلُغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الوضوءَ، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ ورسولُهُ إلا فُتِحَتْ له أبوابُ الجنَّةِ الثمانية يدخلُ مِنْ أيها شاء» [رواه مسلم (٢٣٤)].

ودلَّ حرف الواو في قوله: (وَفُتِحَتْ) على أنَّ الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير: حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتحة، بدليل قوله سبحانه: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠]. وحذفت الواو في قصة أهل النار، لأنهم وقفوا على النار، وفتحت بعد وقوفهم إذلالاً لهم وترويعاً، وقيل: دلَّت الواو على حذف جواب (إذا) ليذهب الخيالُ كل مذهبٍ في تقديره، فإذا جاؤوها سعدوا وطابوا وفرحوا.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي: طاب لكم المقام، وطاب سعيكم وجزاؤكم، أو طهرتم من دنس المعاصي.

وقد جاء في الأدلة القطعية أنَّ الله تعالى يطهرُ نفوسَ أهل الجنة من أسباب النقص والحسد، فلا يتحاسدون في الجنة، مع ما بين منازلهم ودرجاتهم من تفاضل كبير، قال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا» [رواه البخاري (١٩٤)].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ط  
فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ (٧٤).

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: الحمد لله الذي أنجز لنا

ما وعدنا في الدنيا على السنة رسله الكرام، كما علمهم أن يدعوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا  
 وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].  
 ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَبَوًّا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: وأورثنا أرض الجنة نتصرف  
 فيها تصرف الوارث، وننزل فيها حيث نشاء، فيكون لكل واحد جنة لا توصف  
 سعةً وزيادةً على الحاجة، فيتخذ مقرّاً من جنته حيث يشاء.  
 ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي: نعم ثواب العاملين في الدنيا الجنة يوم القيامة.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ  
 الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٥).

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: وترى الملائكة  
 مُحَدِّقِينَ بالعرش، محيطين بجوانبه، قائلين: سبحان الله والحمد لله، أو قائلين:  
 سبحان الله وبحمده، أي: يسبحون الله متلبسين بحمده من أجل كماله وتوفيقه  
 وإنعامه، والمعنى: ذاكرين له بوصفي جلاله وإكرامه تلذذاً بذكره، وفيه إشعارٌ  
 بأنَّ منتهى درجات العليين، وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في ذكر الله ﷻ<sup>(١)</sup>.  
 ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: قُضِيَ بين المهتدين والضالين بالحق.  
 ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والقائلون هم أهل الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ  
 التَّعْوِيلِ ﴿١٩﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَفِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ ؕ وَأُخْرُ دَعْوَتُهُمْ أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ  
 الْعَالَمِينَ﴾ [يونس].

أسأله جل وعلا أن يجعلنا منهم، وأن يثبتنا على طريق الهدى.





## التَّزْكِيَّةُ وَالتَّزْبِيَّةُ فِي الْحَوَامِيمِ



- الدعاء والتفويض في سورة غافر.
- القرآن والتزكية في سورة فصلت.
- الوحي والشريعة في سورة الشورى.
- القدوة والمثل في سورة الزخرف.
- إنذار وانتقام في سورة الدخان.
- استسلام وإذعان في سورة الجاثية.
- الدعوة والاستجابة في سورة الأحقاف.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
مُقَدِّمَةٌ

في الموضوع الأساس لسور الحواميم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين:

وبعد: فإن من مقاصد القرآن الكريم الكبرى تزكية النفوس، وتنقيتها من رجس الكفر والفجور، وتربيتها وتنمية نوازع الخير والصلاح فيها، حتى تستقيم على طاعة الله تعالى عقيدة وسلوكاً.

هذا هو الموضوع الأساس الذي دارت في فلكه آيات سور الحواميم، إلا أن كل سورة سلكت مسلكاً معيناً لتحقيق هذا المطلب الرفيع:

- ف (سورة غافر) بينت أهمية الدعاء والتفويض.

- و(سورة فصلت) بيّنت دور القرآن الكريم وأثره في تهذيب النفوس وتربيتها.

- و(سورة الشورى) أبرزت دور الشريعة والوحي في هذا المجال.

- بينما ركزت آيات (سورة الزخرف) على دور القدوة والمثل، وبينت ما لهما من أثر كبير في تهذيب النفوس، وصقل القلوب، وتقويم السلوك.

- وأما (سورة الدخان) فأتجهت إلى بيان دور الإنذار والتهديد بالانتقام في تحقيق هذا المطلب.

- وأبرزت (سورة الجاثية) أهمية الاستسلام والإذعان، والرضا بأحكام التنزيل الحكيم في إصلاح النفوس وتربيتها.

- وأخيراً أبرزت (سورة الأحقاف) دور دعوة الحق والاستجابة لها في هذا السبيل.

أسأله تعالى أن يهذب نفوسنا، وينقي قلوبنا، ويرزقنا الاستقامة والثبات على دينه وأحكام شريعته.

تفسير سورة غافر  
الدُّعَاءُ وَالتَّفْوِيضُ فِي سُورَةِ غَافِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
تعظيم واجلال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿حَمَّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي  
الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيبِ ﴿٣﴾

بدأ الله تعالى سورة غافر بقوله:

﴿حَمَّ﴾ ﴿١﴾

حرفان من الحروف النورانية المقطعة، تقدّم الكلام فيها في فواتح عدد من  
السور: كالبقرة وآل عمران.  
وثُقُرأ بتفخيم الألف وتسكين الميم، وقُرئت أيضاً بإمالة الألف.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿٢﴾

أي: هذا الكتاب تنزيلٌ من الله لا من غيره، العزيز الغالب في سلطانه، فلا

يمنتع عليه مقدور، العليم بأحوال مخلوقاته، فما أنزله إلا بمحض مشيئته ورحمته، وعلمه بحاجة المكلفين من مخلوقاته إلى أحكامه وشريعته.

فهذا الكتاب واجب الاتباع، لأنه تنزيل العزيز العليم، ولأنه أيضاً تنزيل:

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٢﴾﴾.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ أي: يغفر ما سلف من ذنوب المذنبين، ويقبل توبة التائبين، شديد عقابه للجائنين المعاندين، ذي الفضل والنعم أو ذي الغنى والسعة.

ويجوز أن يكون ﴿التَّوْبِ﴾ مصدر تاب يتوب توباً، ويحتمل أن يكون جمع توبة. و﴿الطَّوْلِ﴾ الإنعام والفضل، يقال: اللهم طل علينا، أي: أنعم وتفضل، أو الغنى والسعة كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ [النساء: ٢٥]، أو المنّ، يقال: طال عليه وتطول إذا امتنّ عليه<sup>(١)</sup>.

وأفاد توسط الواو بين الأوليين الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة، فالمذنب التائب بين رحمتين، بين أن يقبل الله توبته، فيكتبها له طاعة من الطاعات، وبين أن يجعلها محاءة للذنوب، كأن لم يذنب.

ودلت الآية على رجحان صفات الرحمة على صفة العذاب، جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إنني قتلْتُ فهل لي من توبة؟ فقرأ عمر رضي الله عنه هذه الآية وقال: اعمل ولا تيأس.

وعن يزيد بن الأصم قال: كان رجلاً من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر رضي الله عنه، ففقد عمر فقال: ما فعل فلان ابن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب. فدعا عمر كاتبه فقال: اكتب: من عمر بن

الخطاب إلى فلان ابن فلان سلام عليك، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير. ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه، ويتوب الله عليه. فلما بلغ الرجل كتاب عمر، جعل يقرؤه ويردده ويقول: غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذرتني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي. فلم يزل يرددتها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزغ، ولما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحداً لكم زلة فسددوه، ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه<sup>(١)</sup>.

وهذا يدل على أن الآية تحث على الاتعاظ والتوبة.

والموصوف بهذه الصفات العالية والكمالات الرفيعة هو الإله المعبود حقاً:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ فلا معبود بحق سواه، وإلى حكمه وأمره المرجع والمصير يوم القيامة، فهو غافر الذنب فضلاً، قابل التوب وعداً، شديد العقاب عدلاً، لا إله إلا هو إليه المصير فرداً.

فالآية تقوي في النفس شعور المهابة والإجلال والتعظيم لله ﷻ، وتذكّرنا ببعض صفاته تعالى المهذبة للنفوس والمصفيّة للقلوب، إنها تبين لنا من خلالها صلتنا بالله تعالى، فنعرف كيف نعامله بمراقبة وخشوع وأمل ورجاء ونحن نرجو رحمته، ونخشى عذابه، إنه أسلوب رفيع في تربية النفوس وتهذيبها.

\* \* \*

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/٢٣٥.

## المجادلون بالباطل

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْرِزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴿٤﴾ كَذَبَتْ قِبَلَهُمْ قَوْمٌ نُوْحٌ  
وَالْأَخْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيَجَادِلُوهُ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ  
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾ .

ثم بينت الآيات حكمه تعالى في المجادلين بآيات الكتاب الذي نزله العزيز  
العليم:

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْرِزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴿٤﴾﴾ .

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ما يخاصم ويحاجج في دفع آيات  
الله وتكذيبها وإنكارها إلا الذين كفروا، فهم وحدهم المجادلون بالباطل في  
آيات الله، بينما يسلم بها كل من في الوجود، قال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَيَأْخُذُوا بِآيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُرُوءًا﴾ [الكهف: ٥٦].  
فالوجود كله مقتنع بآيات الله الشاهدة بوحدانيته وكماله، وما يشد عن كل  
ما في الوجود إلا الذين كفروا.

فالجِدال المذموم هو الجِدال بالباطل، وأما الجِدالُ فيها لإيضاح ملتبسها،  
وحل مشكلها، واستنباط معانيها؛ فجِدالٌ محمود مطلوب<sup>(١)</sup>.

ثم توجهت الآية إلى النبي ﷺ تخاطبه وتواسيه عن جدالهم بالباطل وعنادهم:

﴿فَلَا يَعْرِزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ أي: فلا يغررك إمهالهم وتصرفهم في البلاد مع  
كفرهم، فإن عاقبتهم إلى الهلاك، فهو كقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَهَادُ﴾ [آل عمران].

(١) تفسير القرطبي: ٢٩٢/١٥.

فهما تصرّفوا وتقلّبوا واستمتعوا، فمآلهم إلى الهلاك والخسران، وحالهم كحال الأمم الهالكة قبلهم:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ  
وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: كذبت قبلهم قوم نوح  
والأمم الذين تحزّبوا على الرسل وعادوهم بعد قوم نوح، كعاد وثمود، الذين  
قال الله فيهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَافِ ﴿١١﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ  
لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ [ص].

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: وأرادت كل أمة من هذه الأمم  
المكذبة أن يتمكنوا من رسولهم فيعذبوه ويهلكوه.

والأخذ: الأسر، والعرب تسمى الأسير الأخيد، لأنه مأسور للقتل.

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي: جادلوا بالباطل ليزيلوا به الحقّ  
الثابت، ومنه مكان دَحَضُ: أي مزلقة، لا تستقر عليه الأقدام.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فأخذتهم بالعذاب، وأنزلت بهم العقاب،  
فكيف كان عقابي؟! ألم يكن مهلكاً مستأصلاً؟!.

وهو سؤال تقرير فيه معنى التعجيب والتهويل، والجزاء من جنس العمل،  
فالقوم أرادوا أخذ الرسل فأخذتهم بالعقاب، وأنزلت بهم أشدّ العذاب.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾

أي: وكما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب، وجب أيضاً عذابهم في  
الآخرة بالنار.

وقد يكون المراد تهديد مشركي قريش، ويكون المعنى: وكما وجب إهلاك

الأمم السابقة المكذبة لرسالتها، وكذلك وجب إهلاك هؤلاء لعلة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار.

\* \* \*

### ثناء ودعاء

﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

ثم أبرزت الآيات فضل المؤمنين التائبين، ومكانتهم عند الملائكة المقربين، وأنهم ليسوا وحدهم في الساحة، فالملائكة المقربون تؤدبهم وتدعو لهم، ولا شك أن لدعاء الملائكة تأثيراً روحياً في تهذيب نفوس المؤمنين وصلقل قلوبهم:

﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾

﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يقرون بين تسبيح الله الدال على تنزيهه عن الاتصاف بصفات النقص، والتحميد الدال على إثبات صفات الكمال والإحسان له ﷻ.

ولا شك أن تخصيص حملة العرش ومن حوله بالذكر يدل على فضلهم، ومكانتهم في الملأ الأعلى، فهم يداومون على التسبيح والحمد كما مر معنا عند قوله تعالى في آخر سورة الزمر: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْعَرْشَ جِسْمٌ خَلَقَهُ اللَّهُ، وَأَمْرٌ مَلَائِكَتُهُ بِحَمَلِهِ، وَتَعَبُّدُهُمْ بِتَعْظِيمِهِ وَالطَّوَافُ بِهِ، كَمَا خُلِقَ فِي الْأَرْضِ بَيْتًا، وَأَمْرٌ بِبَنِي آدَمَ بِالطَّوَافِ بِهِ، وَاسْتِقْبَالُهُ فِي الصَّلَاةِ (١).

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: ويؤمنون بالله الإيمان اللائق بجلاله وكماله ووحدانيته. ويدل التسييح بحمده على الإيمان به، وصرحت الآية به إظهاراً لفضله، وترغيباً فيه، وإشعاراً بعلّة دعائهم للمؤمنين، فإن المشاركة في الإيمان تستدعي النصح والشفقة، ومن سجايا الملائكة: أن المؤمن إذا دعا لأخيه أمّنوا على دعائه، ففي «صحيح مسلم» [٢٠٩٤/٤]: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ الرسولَ ﷺ يقولُ: «مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ الْمَوْكَلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ». ولعلّه سبحانه محتجّب عن الملائكة بحجب جلاله وكماله فوصفهم بالإيمان به (٢).

﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ويسألونه تعالى المغفرة للمؤمنين يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعت رحمته وعلمك كل شيء، ونصب: (رحمةً وعلماً) على التمييز، وحول عن الفاعل للمبالغة في وصفه تعالى بالرحمة والعلم، حتى جعلت ذاته سبحانه كأنها عين الرحمة والعلم، وأشارت الآية إلى أدب من آداب الدعاء، وهو تقديم الثناء على الدعاء. ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: فاغفر للذين علمت توبتهم، واتبعوا صراطك، واحفظهم من عذاب الجحيم.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٨).

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ أي: أدخلهم جنات الإقامة الدائمة

(١) فتح الباري: ٤٠٥/١٣.

(٢) تفسير الخازن: ٣٤٠/٥.

التي وعدتهم إياها . وقرئ: (جنة عدن) .

﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي: وأدخل معهم الصالحين من آبائهم وأزواجهم وأولادهم ليتّم سرورهم، ويزيد حبورهم، فالله سبحانه بفضله يلحق المقصّرين من المؤمنين بالسابقين تكرمَةً لهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] .

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: إنك أنت الغالبُ على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله .

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

أي: وجنبهم المعاصي في الدنيا بحفظهم عن ارتكابها، ومن تجنّبهِ السيئات في الدنيا فقد رحّمته في الآخرة، وذلك هو الفوز العظيم، الذي لا مطمع وراءه لطامع .

فللدعاء تأثيرٌ كبيرٌ في تربية النفوس وتصفيتها وتهذيبها، فما أكرم المؤمنين على الله! ينامون على فرشهم والملائكة المقربون تستغفر لهم .

\*\*\*

مقت ويأس

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لمقتُ الله أكبرُ من مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ قالوا ربنا أمتنا اتنين وأحييتنا اثنتين فأعرفنا بدنوسنا فهل إلى خروجٍ من سبيلٍ ﴿١١﴾ ذلكم بأنّه إذا دعى الله وحده، كفرتم وإن بشرك به، تؤمنوا فالحكم لله العليّ الكبير ﴿١٢﴾ .

وفي مقابل هذه المكانة العالية للمؤمنين عقبّت الآيات بيان المكانة القبيحة للكافرين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى  
الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: يقال للكافرين: لمقت الله إياكم في الدنيا عندما دُعيتم إلى الإيمان فأعرضتم وكفرتم أكبر من مقت بعضكم بعضاً يوم القيامة .

والمقت: أشد الغضب، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩] .

ومن المعلوم أن الكفار يوم القيامة يمقت بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً كما مر معنا في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] .

ويمكن أن يكون المعنى أيضاً: لمقت الله لكم في الدنيا أشد من مقتكم أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر، فالكفار يمقتون أنفسهم، ولا يرتاحون إلى العقائد الباطلة المخالفة لما تقتضيه العقول السليمة .

﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِيَا وَاحِييتَنَا وَأُثْنِتِنَا فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ .

أي: إن قدرتك يا ربنا عظيمة، فإنك قد أحييتنا بعدما كنا أمواتاً في بدء خلقنا، ثم أمّتنا عند انتهاء آجالنا، ثم أحييتنا يوم القيامة، فاعترفنا بذنوبنا، فهل إلى خروج من النار من سبيلٍ كيف ما كان .

ولا يخفى ما في كلامهم من استبعاد خروجهم، واستشعارهم اليأس منه، وما قالوه إلا تحيراً أو تعللاً، وكان عليهم أن يتذكروا هذا في الدنيا كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] .

ولهذا أوجب بتذكيرهم بسبب ما أوصلهم إلى العذاب وأنه كان باختيارهم

وكسبهم:

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (١٣)

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي: ذلكم العذاب بسبب أنه إذا عبد الله وحده في الدنيا كفرتم بتوحيده وعبادته، وإن يشرك به تصدقوا ذلك الشرك.

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي: فالحكم لله وحده المستحق للعبادة، الذي لا أعلى منه ولا أكبر منه ﷻ، وقد حكم أن لا مغفرة للمشرك ولا خروج له من النار، فلا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه سبحانه.

\* \* \*

### الإخلاص في العبادة والدعاء

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ (١٤)  
فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (١٤)

وتابعت الآيات تربي في النفس شعور الإجلال والتعظيم لله رب العالمين، وتدعو إلى الإخلاص في عبادته ودعائه:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ (١٤)

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ﴾ أي: هو الذي يظهر لكم آياته الدالة على أن الحكم له وحده، وأنه هو المستحق وحده للعبادة والطاعة.

أو: هو الذي يريكم آياته وعجائب مصنوعاته الدالة على كمال قدرته، وأنه سبحانه العلي الكبير لتعملوا بموجبها، فتوحده وتعبده.

﴿وَيُنزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي: ينزل لكم من جهة السماء مطراً هو سبب الرزق، ودلت صيغة المضارع في الفعلين على تجدد الإراءة واستمرار التنزيل.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي: وما ينتفع بتلك الآيات الباهرة ويتعظ بها إلا مَنْ يرجع إلى طاعته تعالى وعبادته، فعليكم أن تدعوا لأمره، وتنقادوا لحكمه، وتقبلوا على طاعته:

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (١٤)

أي: فأخلصوا في عبادة الله وطاعته ودعائه، وخالفوا المشركين، ولو كرهوا ذلك وغازطهم إخلاصكم، دعوهم يموتوا بغيظهم وحسرتهم.

\* \* \*

### يوم التلاقي والآزفة

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (١٥)

يَوْمَ هُمْ تَنْزِلُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُخْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظُلُمٍ مَا لَ الظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا سَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَحَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَحَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

فهو سبحانه المستحق لأن تتوجهوا إليه بالدعاء والعبادة بخشوع وخضوع لأنه:

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ  
يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (١٥)

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: رفيع الصفات، فلا أرفع قدراً منه، خالقُ العرش ومالكه، وهو أعظمُ المكوّناتِ والمخلوقات، فمالكُ العرشِ مالكٌ لجميع المخلوقات، وسلطانهُ ثابتٌ على جميع المكوّنات، فكُلُّهم في قبضةِ قدرته عَلَّاهُ وتحت قهر مشيئته.

فقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ خبران يدلان على علو صمديته من حيث المعقول والمحسوس الدال على تفرّده في الألوهية، فإنَّ من ارتفعت درجاتُ كماله بحيثُ لا يظهرُ دونها كمال، وكان العرش الذي هو أصل العالم الجسماني في قبضة قدرته لا يصح أن يشرك به (١).

فهو المرتفعُ بعظمته في صفات جلاله وكماله ووحدانيته، المستغني عن كل ما سواه، وكلُّ الخلق فقراءٌ إليه، ويمكن أن يكون في قوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ إشارة إلى أنّه لا يفوزُ برضوانه إلا من علا في معارج العبادات ومدارج الكمالات. وتخصيص العرش بالذكر لأنه كما قلنا أعظم المكوّنات، ففيه تنبيه على كمال قدرة خالقه.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يلقي الوحي الذي تحيا به القلوب بأمره ومشيئته على من يختارُ من عباده، كما في قوله تعالى: ﴿يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

فالروحُ هو الوحي، وسَمَّاهُ روحاً لأنَّ به حياة القلوب من موت الكفر والجهل، وهو في الأصل إعلامٌ خفي سريع يقع بين جانبيين: الأول علوي

(١) تفسير البيضاوي: ٣٤٤/٥.

ملقي، والثاني جانبٌ ضعيفٌ متلقي، يحدث بمشيئته تعالى وحده من غير اكتسابٍ ولا اجتلابٍ.

﴿لِنُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أي: لينذر النبي الموحى إليه يوم التلاق، وقرئ: (لتنذر)، وهو يوم القيامة حيث تتلاقى فيه الأرواح والأجساد، وأهل السماء والأرض، والمرء وعمله، والظالم والمظلوم، والقاتل والمقتول... إلخ.

﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: يوم هم خارجون من قبورهم، لا يخفى على الله شيءٌ من أحوالهم وأعمالهم، وحينئذٍ ينادي المنادي: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟.. فيجيبه أهل المحشر:

﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ولا شك أن حقيقة الحال ناطقةٌ بذلك أبداً، وإعلانه يوم القيامة لزوال الأسباب فيه، وتوقف الوسائط، واختصاص جميع الأفعال بقدرته تعالى مباشرة. ومن نتائج هذا الإعلان والتقرير:

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أي: تُجزى كل نفس في هذا اليوم خيراً إن كسبت خيراً، وشرّاً إن كسبت شرّاً، فلا يقع ظلم في هذا اليوم في وجهٍ من الوجوه، لأنَّ الحكمَ والمُلْكَ فيه للواحد القهار، فلا تترك نفس واحدة من دون جزاء، فعلمه سبحانه وسِعَهم وقدرته أحاطت بهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حسابُ أحدٍ عن أحدٍ، ولا شأنٌ عن شأنٍ، يحاسبُ الخلقَ كلَّهم في وقتٍ واحدٍ وهو أسرع الحاسبين.

فالتذكيرُ بيوم القيامة من أنجح وسائل التربية والتهذيب، ولهذا تابعت الآيات الحديث عنها:

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (١٨)

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾ أي: يوم القيامة، وسُمِّيت بذلك لأنها قريبة، فكل ما هو آتٍ قريبٌ، يقال: أَرْزَقَ التَّرْحُلُ، أي: قُرْبٌ، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَرْزَقْتِ الْأَرْزَاقَ﴾ [النجم: ٥٧] أي: قربت الساعة.

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ﴾ أي: عندما تزول القلوب عن أماكنها من شدة الخوف حتى تصل إلى الحناجر كاظمين عليها، أي: ممسكين عليها، حتى لا تخرج مع أنفاسهم.

ففيه مبالغة عظيمة، وكناية عن شدة الخوف، وفرط الألم، فقد انسدت عليهم مجاري أنفاسهم، وأخذ الألم بجميع إحساسهم.

﴿مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ما للظالمين من قريبٍ مشفقٍ ينفع، ولا شفيعٍ يشفع.

والشعورُ بكمال علمه تعالى ومراقبته الدائمة يربِّي أيضاً النفوس، ويهذبها ويبعدها عن المعاصي والآثام:

﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٩)

أي: يعلم سبحانه خيانة الأعين ومسارقتها النظر المحرّم، كالنظرة الثانية إلى ما لا يحل، كأن ينظر الرجلُ إلى المرأة، فإذا رآه أصحابه غَضَّ بصره، فإذا غفل عنه أصحابه عاد إلى مسارقة النظر، ويعلمُ أيضاً ما تُخفي الصدور ومضمرات النفوس وهو اجسها وخواطرها، ولهذا فقضاؤه سبحانه حق وعدل:

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ  
الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ .

أي: والله يقضي بالحق، والآلهة المزعومة التي يعبدونها من دونه لا تقضي بشيء، لأنها عاجزة لا تعلم شيئاً، ولا تقدر على شيء، إن الله هو الذي يسمع أقوالهم ويبصر أحوالهم.  
ونظراً للاعتبار في تاريخ الأمم الماضية يساعداً أيضاً في تربية النفوس، وتصفية القلوب:

﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ  
مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ  
قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كانت هذه الأمم الهالكة أشد من المشركين المعرضين عن دعوة الرسول ﷺ. وفي قراءة: (أشد منكم).  
﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي: أهلكهم الله بسبب ذنوبهم، وما كان لهم واقٍ من الله تعالى يحميهم، ويمنع عنهم عذابه أبداً، وأفادت (كان) الاستمرار.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَاتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ  
الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ .

أي: أهلكهم الله، لأن رسلهم لما جاءتهم بالمعجزات الدالة على صدقهم كفروا بها، فأهلكهم الله إنه قوي لا يغلبه شيء، شديد العقاب، فكل عقابٍ دون عقابه سبحانه.

### مؤمن آل فرعون

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَفُورَ لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظٰلِمِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ آبَائِهِمْ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

وبمناسبة دعوة الآيات إلى الاعتبار بأحداث الأمم الهالكة، أوردت حلقةً جديدةً من قصة موسى مع فرعون وقومه لم تُذكر إلا في هذه السورة، وهي قصة مؤمن آل فرعون الذي صدّق برسالة موسى ﷺ، ودافع عنه، ودعا قومه إلى الاعتبار بمصير الأمم الهالكة قبلهم، ومهدت الآيات لهذه القصة بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾

أي: أرسلنا موسى مؤيداً بالمعجزات والحجج الواضحة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

أي: إلى رؤساء الكفر والضلال: فرعون ووزيره هامان، وإلى قارون، فكذبوا موسى، وقالوا: ساحر كذاب.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ  
وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا  
نِسَاءَهُمْ﴾ أي: فلما جاءهم موسى بالحق الثابت من عندنا كفروا به، وقالوا:  
اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه، واتركوا نساءهم للخدمة، أو ليصدّوهم عن دعوة  
موسى، وكان فرعون قد أمسك عن قتل من آمن بدعوة موسى من بني إسرائيل،  
فأعاده كما كان.

﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ أي: وما مكر فرعون ومن معه إلا في  
ضياح، فما دفع عنهم قضاء الله وعذابه.  
وبعد تردد قرر فرعون قتل موسى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ  
فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ ويبدو أنه كان خائفاً من أن  
يدعو موسى عليه.

﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وهذا شأن الطغاة  
في كل زمان ومكان، يتهمون معارضيهم بإفساد الدين والدنيا، فهي كلمة كل  
طاغية مفسد في حق كل داعية مصلح. وقرئ: (وأن يظهر في الأرض الفساد)  
بالواو ويفتح الياء ورفع (الفساد).

ولجأ موسى إلى الله مستعيذاً به من مكر فرعون وشره لَمَّا عَلِمَ بقراره:

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ .

أعلن ﷺ ذلك حثاً لقومه على الاقتداء به في اللجوء إلى الله، والتوكل

عليه، ولم يسم فرعون، بل وصفه بوصف يعمّه وأمثاله من الطغاة المتكبرين، تحقيراً له، واستهاناً بأمره، ومن اجتمع فيه التكبر عن الحق والتكذيب بيوم الحساب، فقد استكمل أقبح الصفات، فلا يتورّع عن أي جريمة مهما عظمت، ولا تنجح فيه أي وسيلة من وسائل التربية والتهذيب.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ أي: يُخفي إيمانه، ويبدو أنه كان من حاشية فرعون المقرّبين، له وجاهة وحظوة وسطوة، وفرعون لا يعلن مثل هذا القرار الخطير إلا بين الصفوة المختارة من رجال حكمه وأعوانه، آمن الرجل بموسى، وأخفى إيمانه، فلم يظهره حتى رأى فرعون عازماً على قتل موسى:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: أتقصدون قتلَ رجلٍ لأنه يقول: ربي الله، مع أنه جاءكم بالبينات من ربكم.

وهو سؤال إنكار أنكر فيه عزمهم على قتل موسى ﷺ، ونصّب نفسه مدافعاً عنه، وهو يعلم ما يترتبُ على ذلك من خطر كبير عليه.

وتابع الرجل دفاعه عن موسى مؤيداً كلامه بالحجج العقلية المنطقية:

﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي: فهو يتحمّل وبال كذبه إن كان كاذباً، وإن كان صادقاً يصبكم بعض ما يعدكم به إن لم يصبكم كله إن تعرضتم له بسوء.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ فلو كان مسرفاً كذاباً خذله الله، وما هداة، وما أيده بتلك المعجزات، أو أهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله.

والجدير بالذكر هنا أن أبا بكر رضي الله عنه قال مثل ذلك دفاعاً عن رسول الله ﷺ، ففي الحديث: عن عروة بن الزبير قال: سألتُ عبد الله بن عمرو بن

العاص: أخبرني بأشد شيء صنعته المشركون بالنبي ﷺ، قال: بينا النبي ﷺ يصلّي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبه بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ فقال: ﴿أَنْقَتُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾. [رواه البخاري (٣٨٥٦)].

قال ابن حجر رحمه الله: «ولقصة أبي بكر هذه شاهد من قصة علي، أخرجه البرّار: من رواية محمد بن علي، عن أبيه: أنه خطب فقال: مَنْ أشجع الناس؟ فقالوا: أنت. قال: أما إنني ما بارزني أحدٌ إلا أنصفتُ منه، ولكنه أبو بكر، لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ أخذته قريشٌ، فهذا يجؤه، وهذا يتلقاه، ويقولون له: أنت تجعلُ الآلهةَ إلهاً واحداً؟! فوالله ما دنا منا أحدٌ إلا أبو بكر يضربُ هذا، ويدفع هذا، ويقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول: ربِّي الله؟! ثم بكى علي؛ ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آلِ فرعونَ أفضلُ أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال علي: والله لساعة من أبي بكرٍ خيرٌ منه، ذاك رجل يكتُم إيمانه، وهذا يعلنُ بإيمانه»<sup>(١)</sup>.

﴿يَقَوْمَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

﴿يَقَوْمَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي: لكم اليوم الملك عالين غالبين في أرض مصر، فلا أحد يمنعنا من عذاب الله إن جاءنا. أدرج الرجل نفسه معهم، لأنه كان منهم؛ تطيباً لقلوبهم، وإظهاراً لإخلاصه في نصحتهم، لكي يتأثروا به. ولكن فرعون أصر على طغيانه وعناده، وقابل نصح الرجل المؤمن بمزيد من العناد والاستكبار:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وبلغ بهذا القول الغاية في الاستبداد والعناد، فالرأي ما يراه هو، لا ما يراه غيره، وما يبين لهم برأيه إلا سبيل الصواب والرشاد، هكذا بلغ به العناد والاستبداد إلى أن يدعي

لنفسه العصمة من الخطأ والزلل، وأنه لا يرى إلا الخير والصواب، وهو حال الطغاة المستبدين في كل زمان ومكان.

\* \* \*

### عاقبة التكذيب والعناد

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا بِقَوْمٍ إِذٍ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْرَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمٍ إِذٍ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّسَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدِينًا مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَخْفَرُ سُلْطَانِ أُنْدَهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبِي لِي صَرَخًا لَعَلِّي آتِلُغُ الْأَسَدَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ فِرْعَوْنَ سَوَّءَ عَمَلِهِ وَضَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

ولم يبال الرجل المؤمن بطغيان فرعون وغروره، بل ردَّ عليه بأسلوب غير مباشر، وهو يعظ قومه، ويبين لهم عاقبة التكذيب والعناد:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا بِقَوْمٍ إِذٍ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْرَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: إني أخاف أن ينزل بكم مثل ما نزل بالأمم المكذبة قبلكم:

﴿مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾.

أي: مثل جزاء ما كان عليه قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، والله

ما عاقبهم إلا بذنوبهم، وإعراضهم عن عبادته وطاعته، فهي دعوة لقومه لكي يعتبروا بأحوال المكذبين قبلهم، وتخويف لهم من عذاب الدنيا.  
ثم أضاف تخويفهم من عذاب الآخرة:

﴿وَيَقَوْمٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ﴾ (٣٢)

أي: يوم الاستغاثة والصياح؛ حيث ينادي المعدَّبون على أنفسهم بالويل والثبور، أو: ينادي بعضهم بعضاً فينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وقال قبل ذلك أيضاً: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وقرى بتشديد الدال؛ أي: يوم يندَّب بعضهم عن بعض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٥﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَجِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣١﴾ لِكُلِّ أُمَّرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس].

أو: يوم التنافر، من نَدَّ البعير إذا هرب ونفر، وذلك إذا سمعوا نفير النار ندُّوا هرباً، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً عليه، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْطَعْتُمْ أَنْ تَفْذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ﴾ [الرحمن: ٣٣].

ويقوي هذا المعنى قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تُؤَلُّونَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴿٣٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿يَوْمَ تُؤَلُّونَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: يوم تولُّون عن موقف الحساب فارَّين، ما لكم من عذاب الله مانع ودافع.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ وهو ردُّ على ما ادعاه فرعون عندما قال: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فمن أضله الله فلا يستطيع أحد أن يهديه .

ثم بيّن لهم أن سبب ضلالهم نابعٌ من داخل أنفسهم، من كسبهم واختيارهم، بتذكيرهم بمواقف آبائهم من دعوة نبي الله يوسف عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي: ولقد جاءكم يوسف بالحجج الواضحة الدالة على صدقه، ومع ذلك أعرضتم عنه، وكنتم في شك مما جاءكم به، حتى إذا مات كذبتُم رسالةً من بعده كما كذبتُم رسالته، ولهذا أضلَّكم الله .

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ أي: هكذا يضل الله من هو مسرفٌ في عصيانه، شكٌّ في دعوة المرسلين المؤيدة بالحجج والبراهين .

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ أي: وهؤلاء المسرفون المرتابون يجادلون لردِّ آيات الله بغير حجة ولا برهان، كما سبق معنا في أول السورة: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ﴾ [غافر: ٤] .

وقوله ع أيضاً: ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥] .

﴿كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: كبر جدالهم مقتاً عند الله وعند المؤمنين .

والمقت - كما مرَّ معنا - : أشد الغضب، ومقت الله تعالى لهم: طبعه على قلوبهم، وإضلالهم وإنزال العذاب بهم.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي: كذلك يختم الله على قلب كل متكبر جبار، فلا يعقل رشاداً، ولا يقبل هدى.

فضلالهم نابع من قلوبهم، بسبب إسرافهم وتكبرهم، ويبدو أن هذا التقرير تعقيب من الله تعالى على ما حكاه سبحانه من كلام الرجل المؤمن، ولهذا ذكرت الآيات بعده مثلاً من تكبر فرعون وتجره وضلاله وإسرافه:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُينَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: لعلي أصل بواسطته إلى الطرق المؤدية إلى السماوات، وهذا يدل على جهله بالله سبحانه، وشدة غروره وضلاله.

أو: لعله كما رأى سيد قطب رحمته الله: أراد أن يمؤه ويحاوِر ويداول كي لا يواجه الحقَّ جهرَةً، ولا يعترف بدعوة الوحداية التي تهزُّ عرشه، وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ وبلغ - لعنه الله - بذلك غاية الجهل والضلال، ولعله أراد ببناء هذا الصرح العالي أن يمؤه على الناس، ويشغلهم عن دعوة موسى، ويوهمهم أنه يعمل شيئاً يتوصّل به إلى تكذيب موسى عليه السلام، وهو حال الطغاة المستبدين، يأمرون بإقامة المنشآت المادية الكبيرة لينشغل الناس بها عن ظلمهم واستبدادهم، قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيَّمَهَا أَمْلاً مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَىٰ الطَّيْرِ فَاجْعَلْ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾

ثم بين تعالى عاقبة ضلاله واستكباره فقال:

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾  
أي: إلا في خسارٍ وهلاكٍ بسبب سوء عمله وابتعاده عن سبيل الحق والهدى.

\* \* \*

### ثبات وتفويض

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوَّمُ أَتَّبِعُونَ أهدِكُمْ سبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَتَقَوَّمُ إِنَّمَا هذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُحْزَنُ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ دَكَرَ أَوْ أُتِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِعَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَتَقَوَّمُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيمِ الْغَفِيرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لِي دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

وعادت الآيات إلى الرجل المؤمن تحكي لنا كلماته الأخيرة التي نصح بها قومه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوَّمُ أَتَّبِعُونَ أهدِكُمْ سبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾

أي: اتبعون أهدكم إلى طريق الحق والرشاد. وفي كلماته تعريضٌ بفرعون وطريقه، فاتباعهم لفرعون لا يوصلهم إلا إلى الفساد والضلال.

﴿يَتَقَوَّمُ إِنَّمَا هذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾

أي: إن هذه الحياة الدنيا - التي من أجلها تتبعون فرعون - حقيرةٌ قليلةٌ سريعةُ الزوال، وأمَّا الآخرةُ فهي دارُ الاستقرارِ والخلودِ إمَّا في النعيم أو في الجحيم.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ .

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: من عمل في الدنيا سيئة فلا يُجزى في الآخرة إلا بمثلها بعدله سبحانه .

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير حدٍّ وعدٍّ بفضلِهِ سبحانه .

ويبدو أن بعض حاشية فرعون استنكر موقف الرجل وإيمانه، ومعارضته لفرعون، فطلبوا منه العودة إلى طاعة فرعون، والاعتذار منه، فردَّ عليهم الرجل المؤمن مستنكراً موقفهم متأبياً ثابتاً على دعوة الحق :

﴿وَيَقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾﴾ .

أي: أخبروني كيف أَدْعُوكُمْ إلى الخير والسلامة وتدعونني في المقابل إلى الهلاك والعذاب؟! .

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِءَ مَا لَيْسَ لِي بِهِءَ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ .

أي: أنتم تدعونني لأكفر بالله، وأجعل له شريكاً على جهلٍ بلا دليل، فالعقيدة لا بد لها من دليلٍ يوجب العلم بها، وأنا أَدْعُوكُمْ إلى الإيمان بالله الغالب على كل شيء، والغفار لجميع الذنوب .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: حقاً أن ما تدعونني إليه لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه مخلوقٌ

ضعيف، وهو تعريضٌ بفرعون، وما كان يدعيه من صفات الألوهية عندما قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَآتَى الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: وأن مرجعنا جميعاً إلى المعبود الحقيقي وهو الله، فيجازي كلاً بعمله، وأن المسرفين المتجاوزين حدود عبوديتهم لله، كفرعون وأتباعه، هم أصحاب النار.

ولا بد أن فرعون قد غضب من كلام الرجل المؤمن، وضاق به ذرعاً، فأصدر أوامره لجنوده لإسكاته، والتخلص منه، وقد أحسَّ الرجل بذلك، ورأى أن ثمة تدبيراتٍ ومكائد تدبر له، فألقى كلمته الأخيرة؛ فوَّض بها أمره إلى الله، واستعاذ بها من مكرهم وكيدهم:

﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِئُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٤٤).

أي: فستعلمون صدق دعوتي، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، وأتوكل على الله مستعيناً به، وملتجئاً إليه، إنه تعالى بصير بأحوال عباده، يعلم من يستحق النُصرة فينصره ويؤيده، ويعلم من يستحق الخذلان فيخذله ويضله.

\*\*\*

## من عذاب القبر إلى عذاب النار

﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدِ احْكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَربَةِ حَهَّهَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يَحْفَافَ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا نَكَلُ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاتُوكُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾

وصدق الرجل المؤمن في استعاذته بالله تعالى، وتفويض أمره إليه، فصدقه

تعالى ونصره، ونجّاه من مكرهم وكيدهم كما نجّى موسى ﷺ:

﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ .

أي: وقاه الله ما أرادوا به من الشر، ونزل بفرعون وآله وجنوده أسوأ العذاب:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ .

أي: يُعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا، في أول النهار وآخره ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة قيل لخزنة جهنم: أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب. وفي قراءة: (أدخلوا آل فرعون) أي: يقال لهم: ادخلوا يا آل فرعون أشدَّ العذاب.

وهذه الآية دليل على عذاب القبر كما قال العلماء، فقد بوّب الإمام البخاري في «صحيحه» فقال: [٨٦] باب ما جاء في عذاب القبر، وذكر هذه الآية، وأوردَ عدداً من الأحاديث؛ منها:

[١٣٧٢] عن عائشة رضي الله عنها: أن يهوديةً دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر، فقال: «نعم عذاب القبر» قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صَلَّى صلاةً إلا تَعَوَّذَ من عذاب القبر. زاد في رواية: «عذاب القبر حق».

وذكر البخاري في [٨٠] كتاب الدعوات أيضاً: [٣٧] باب التعوذ من عذاب القبر، ثم أخرج بسنده:

[٦٣٦٤] عن موسى بن عقبة قال: سمعتُ أمَّ خالد بنت خالد قالت: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يتعوَّذُ من عذاب القبر.

[٦٣٦٥] وعن مصعب بن سعد قال: كان سعدُ يأمرُ بخمسٍ ويذكرهنَّ عن

النبي ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِهِنَّ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُحْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْضِ الْعُمْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ».

ثم وصفت الآيات في تعقيها الأول على قصة مؤمن آل فرعون أحوالهم وهم يقاسون أشد العذاب في النار:

﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧)﴾.

أي: وإذ يتخاصمون في النار، فيقول الضعفاء كالجنود والخدم لرؤسائهم كفرعون وهامان: إنا كنا أتباعاً لكم في الدنيا، فهل أنتم دافعون عنا شيئاً عن عذاب النار؟.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨)﴾.

أي: قالوا: نحن وأنتم في النار؛ فكيف ندفع عنكم شيئاً من عذابها؟! لو قدرنا لدفعناه عن أنفسنا، إن الله قد حكم حكماً لا يتغير ولا يتبدل، فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

ولما ضاقت بهم الحيل توجهوا جميعاً لخزنة جهنم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩)﴾.

أي: يخفف عنا مقدار يوم من العذاب. فيجيئهم خزنة جهنم موبخين:

﴿قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)﴾.

﴿قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أوما قامت عليكم الحجج

في الدنيا على السنة الرسل، فضيَّعتم أوقات الدعاء، وأعرضتم عن فرص الإجابة؟! .

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: أتونا بها فكذبناهم. فردَّ عليهم خزنة النار:

﴿قَالُوا فادْعُوا وَمَا دُعُوتُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: إذا كان الأمر كذلك

فادعوا أنتم، وما دعاء الكافرين إلا في ضياع وبطلان.

وواضح أن خزنة النار ما أرادوا إطماعهم في الدعاء، بل أرادوا إقناطهم

منه، فبينوا لهم أن دعاءهم غير مستجاب.

\* \* \*

### تأييد وتشبیت

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْقَلِيلِينَ مَعْدَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَأَصْبَرَ إِبْرَاهِيمَ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفَرَ لِدُنْيَاكَ وَسَجَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَعْتَرِ سُلْطَانِ اتَّهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِيَلْعَبُونَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ثم بين تعالى في تعقيبه الثاني على قصّة مؤمن آل فرعون أن تأييده لرسله والمؤمنين سنة من سننه الكونية القدرية الثابتة، فقد حمى موسى ﷺ وأيّده، ونجّى مؤمن آل فرعون من مكرهم وكيدهم.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ﴾ (٥١)

ينصرهم سبحانه في الحياة الدنيا بالحجة والبرهان، وينتقم من أعدائهم بإهلاكهم، وينصرهم يوم القيامة بفوزهم بالرضوان والجنان، وتعذيب أعدائهم بالنيران، ولا يخلُ بهذا الوعد الكريم ما يكون أحياناً لأعدائهم من تسلُّط عليهم امتحاناً لهم، إذ العبرة بالعواقب، وقد يكون السببُ ابتعاد المسلمين عن أحكام دينهم، وانتشار المعاصي بينهم.

والأشهادُ: جمع شاهدٍ، كصاحب وأصحاب، والمراد بهم من يقوم يوم القيامة بالشهادة على الناس من الملائكة والأنبياء والمؤمنين.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلْدَّارِ﴾ (٥٢)

أي: لا يقبل من الظالمين عُذر يوم القيامة، ولهم الإبعاد والحرمان من الرحمة، ولهم سوء الدار الآخرة؛ وهو عذاب جهنم. ومن تأييده تعالى لرسوله موسى ﷺ والمؤمنين معه ما أعطاه من المعجزات وما أنزل عليه من الشرائع والآيات:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ٱلْكِتَآبَ﴾ (٥٣)

أي: ولقد آتينا موسى أسباب الهداية بما أجرى سبحانه على يديه من معجزات، وأنزل عليه التوراة، وتركها بعده لبني إسرائيل:

﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَآبِ﴾ (٥٤)

أي: لأجل الإرشاد وتذكرة ذوي العقول المستتيرة المبصرة. ولا شك أن ما أتى الله نبينا محمداً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ أعظم مما أتى موسى ﷺ وقومه، وما قصَّ الله قصة مؤمن آل فرعون إلا تشبيهاً للنبي ﷺ،

ومواساةً له عما يلقي من أذى المشركين من قومه، ولهذا توجَّهت الآيات تخاطبه عليه الصلاة والسلام، وتأمره بالصبر مع الإكثار من الاستغفار والتسبيح:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: إن وعد الله حق ثابت لا يتخلف بنصر رسله والمؤمنين.

﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أي: لذنبك الذي تراه ذنباً.

وكان عليه الصلاة والسلام يرى نفسه مقصراً في حق شكر ما أنعم الله عليه، وهو تهيجٌ للأمة أيضاً على التوبة والاستغفار.

فقد أخرج النسائي في الكبرى [١٠٢٠٧]: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن الرسول ﷺ جمع الناس فقال: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإنني أتوبُ إليه في اليوم مئة مرة».

وأخرجه البخاري [٦٣٠٧] بلفظ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «والله إنني لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ من سبعين مرة».

ومن حديث الأغر المزني عند مسلم [٢٧٠٢] بلفظ: «إنه ليغان على قلبي، وإنني لأستغفرُ الله كلَّ يومٍ مئة مرة».

قال عياض: المراد بالغين فتراتٌ عن الذكر، الذي شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمرٍ ما عدَّ ذلك ذنباً، فاستغفر منه. وقيل: هو شيء يعتري القلب مما يقع من حديث النفس، وقيل: هو السكينة التي تغشى قلبه، والاستغفار لإظهار العبودية لله، والشكر لما أولاه، وقيل: هي حالة خشية وإعظام، والاستغفار شكرها، ومن ثم قال المحاسبي: خوفُ المقربين خوفٌ إجلالٍ وإعظامٍ<sup>(١)</sup>.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي: وداوم على التسبيح متلبساً بحمده

تعالى، وقيل: صلَّ اللهُ تعالى في آخرِ النهارِ وأوله، وهي الصلاةُ التي كانت في أوَّلِ الأمرِ قبلَ أن تفرَضَ الصلواتُ الخمسُ.

ثم كشفت الآيات للنبي عليه الصلاة والسلام سبب ضلال المشركين وعنادهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٥٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ أي: إن الذين يجادلون في آيات الله بغير دليل وبرهان، ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق، مع ظهوره، أو إلا إرادة الرئاسة والتقدم، أو إلا إرادة أن تكون لهم النبوة دونك حسداً وبغياً، ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، وهو ما أرادوه من الرئاسة أو النبوة، أو ما أرادوا من إبطال الحق وإطفاء نوره.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: فالتجئ إلى الله من كيد الحساد، وبغي البغاة، إنه يسمع أقوالكم، ويبصر أفعالكم، فالآية تحث على الاستعاذة بالله، واللجوء إليه بالدعاء والعبادة وكثرة الاستغفار والتسبيح والتحميد.

ثم بين سبحانه صورة من صور تعنت المشركين وجدالهم في قضية من أعظم قضايا الإيمان؛ وهي إنكارهم للبعث من القبور يوم القيامة:

﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧).

أي: لا يعلمون هذه الحقيقة لقصورهم في النظر والتفكير، وشدة غفلتهم، واتباعهم لشهواتهم، فهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وقوله أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

فيومُ الحسابِ والجزاءِ أمرٌ ضروري لا بدُّ منه للتمييز بين المتفاضلين :

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ .

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أي : ما يستوي عند الله تعالى الغافلُ عن آياته الجاحد لها ، والبصيرُ المستدل بها على وحدانيته وصدق رسوله ﷺ ، ولا يستوي أيضاً المُحسِن بالإيمان والعملِ الصالحِ والمسيءُ ، فلا بدُّ إذن من يوم يميِّز فيه الحق تعالى بين الفريقين .

وزيادة (لا) في (المسيء) لإبراز المقصود، وهو نفي مساواته للمحسن ، فهو كقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٦﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ .

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي : تذكرُ قليلاً تتذكرون ، وفي قراءة : (يتذكرون) . فمن يتذكر ويهتدي قليل بالنسبة للكافرين ، وهو ما أكدته الآية التالية :

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَنبِيءٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

أي : لا يصدقون بها لعدم تذكرهم واتعاضهم .

\* \* \*

### الدعاء والعبادة

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ .

إن للدعاء والعبادة دوراً كبيراً في تربية النفوس وتهذيبها وتثبيتها على الحق ، وهو ما قررته الآيات في تعقيبها الثالث على قصة مؤمن آل فرعون :

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: اعبدوني وحدي أجبكم وأغفر لكم، أو: سلوني أعطكم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين ذليلين. ودلت الآية على أن الدعاء عبادة لله تعالى، وجاء في الحديث الشريف: عن النعمان بن البشير رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. [رواه أبو داود (١٤٧٩) والنسائي (١١٤٠٠) والترمذي (٣٣٧٢) وصححه وابن ماجه (٣٨٢٨)].

ويؤيده ما أخرجه الترمذي [٣٣٧١]: من حديث أنس رفعه: «الدُّعَاءُ مُخَّ الْعِبَادَةِ». وقد تواردت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم في الترغيب في الدعاء والحث عليه، كحديث أبي هريرة رضي الله عنه - رفعه -: «ليس شيءٌ أكرمَ على الله من الدعاء» [أخرجه الترمذي (٣٣٧٠) وابن ماجه (٣٨٢٩) وصححه ابن حبان (٨٦٧) والحاكم (٤٩٠/١)].

قال الشيخ تقي الدين السبكي: «الأولى حملُ الدعاءِ في الآيةِ على ظاهره، وأما قوله بعد ذلك: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ فوجه الربط أن الدعاء أخصُّ من العبادة، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء، وعلى هذا فالوعيدُ إنما هو في حق من ترك الدعاء استكباراً، ومن فعل ذلك كفر... فالدُّعَاءُ هُوَ إِظْهَارُ غَايَةِ التَّذَلُّلِ والافتقار إلى الله والاستكانة له، وما شُرِعَتِ الْعِبَادَةُ إِلَّا لِلْخُضُوعِ لِلْبَارِي، وإظهار الافتقار إليه، ولذلك عبر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار، ووضع (عبادتي) موضع: دعائي، وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصَّغَارُ والهوان»<sup>(١)</sup>.

(١) فتح الباري: ٩٥/١١.

والآية ظاهرة في ترجيح الدعاء على التفويض كما قال مؤمن آل فرعون:  
﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤].

ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام كثير الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى في وقت الشدائد، روى البخاري [٣٩٥٣]: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد»، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حَسْبُكَ، فخرج ﷺ وهو يقول: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ﴾ [القمر: ٤٥].  
وزاد مسلم في روايته [١٧٦٣]: فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، وألقاه على منكبه، ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبيَّ الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز ما وعدك<sup>(١)</sup>.

وقوله: (أستجب) جزم في جواب الأمر، أي: إن تدعوني أستجب لكم، والاستجابة منوطة بمشيئته تعالى القائل: ﴿بَلْ إِيَّاهُ نَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَسْأَلُونَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١].

وهي تنوع أيضاً، فتارة تقع بعين ما دعا به، وتارة بعوضه، وقد ورد في ذلك حديث صحيح أخرجه الترمذي [٣٥٧٣] والحاكم [٤٩٣/١]: من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه - رفعه -: «ما على الأرض مسلم يدعو بدعوة إلا آتاه الله إيَّاهَا، أو صرف عنه من السوء مثلها».

ولأحمد [٤٤٨/٢]: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إمَّا أَنْ يَعْجَلَهَا لَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ».

وله [١٨/٣]: في حديث أبي سعيد رضي الله عنه - رفعه -: «ما مِنْ مسلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعةٌ رحمٍ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاثٍ: إمَّا أَنْ يُعْجَلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا» قالوا: إذاً نكثر. قال: «الله أكثر»<sup>(٢)</sup>.

(١) فتح الباري: ٢٧٩/٧.

(٢) المرجع السابق: ٩٦/١١.

فالله تعالى أكرم الأكرمين لا يرد السائلين خائبين، فما أوقفهم على باب فضله وكرمه وألهمهم الدعاء إلا يعطيهم ويتفضل عليهم، ورحم الله القائل:

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ مِنْ جُودِ كَفِّكَ مَا عَلَّمْتَنِي الطَّلْبَا

\* \* \*

### فضل واحسان

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِي كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخَرِّجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَسْأَلُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَتَّكُونُوا شِيوعًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنْفِقُ مِنْ قَبْلِ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ مُسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

ثم ذكّرت الآيات المستكبرين عن عبادته تعالى ودعائه؛ ببعض نعمه الكثيرة التي تفضّل بها عليهم، وهذا يدل على شدة فقرهم وحاجتهم إليه جل وعلا، فبين أولاً فضله عليهم بتنظيم الزمان:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: الله جعل لكم

الليل مظلماً هادئاً، تضعف فيه الحركات، وتهدأ الحواس، لتستريح فيه، وجعل النهار مضيئاً، معيناً على الانتشار والحركة، معيناً على الاكتساب وقضاء الحوائج، فالإنسان يحتاجُ إلى ظلمة الليل وسكونه، كما يحتاج إلى ضوء النهار وحركته، فهما مِنْ نعم الله الكبرى عليه، ذكرهما سبحانه في عدد من الآيات:

منها: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِيَأْسَوا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

ومنها أيضاً: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: إن الله لذو فضل عظيم على الناس لا يدانيه فضل، ونكره لتفخيمه وتعظيمه، ومع ذلك فإنَّ أكثر الناس لا يشكرون الله على فضله، ويُعرضون عن عبادته وشكره.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُؤْفَكُونَ﴾

أي: ذلك الله المرَبِّي لكم والمحسن إليكم لا رب لكم سواه، خالق كل شيء، لا معبود بحق إلا هو، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟! فهو سبحانه الجامع لهذه الأوصاف كلها التي جاءت مترادفة تقرر الصفة السابقة منها اللاحقة.

ثم بينت الآياتُ أنَّ سبب إفكهم هو إعراضهم عن التأمل والتفكير في آياته تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

أي: فكل من جحد بآيات الله وأعرض عنها أفك كما أفكوا، فعُوقِبَ بمسخ القلب وسوء الفهم.

ثم بينت الآياتُ فضله تعالى على الناس في المكان المناسب لمعيشتهم، وبتحسين صورهم وهيئاتهم، وبالرزق الطيب المناسب لهم:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُم بِأَحْسَنَ صُورِكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ ۗ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ .

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُم بِأَحْسَنَ صُورِكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَي: الله الذي جعل لكم الأرض مستقراً لكم، وجعل السماء سقفاً مرفوعاً، وصوّرکم بصور حسنة، منتصبى القامة، متناسبي الأعضاء، مستعدّين لمزاولة الصنائع واكتساب المهارات، ورزقكم من الطعام النافع المستلذ.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ ۗ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: ذلكم الله المرّبي لكم، فكل ما سواه مربوبٌ له سبحانه، فتزايد خيره وعطاؤه على العالمين، فهو مرّبي العالمين بخيره وفضله وإحسانه ﷻ، والكل مفتقرٌ إليه في وجوده وحياته وسائر أحواله، فلو قطع فيضُه عنهم لانعدموا بالكلية، وأما الحيُّ بذاته المستغني عن غيره فهو الله تعالى:

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ .

أَي: هو المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية، فلا يوصف بالحياة الكاملة إلا هو، فلا معبود بحق إلا هو سبحانه، فادعوه، وأقبلوا على عبادته بإخلاص، واحمدوه على كماله وجلاله وإحسانه قائلين: الحمد لله ربّ العالمين.  
وتوقفت الآيات عن بيان بعض نعمه الجليلة لتخاطب النبي ﷺ أمرة له أن يعلن كمال عبوديته لله واستسلامه لأمره الشرعي والقدري لكي يقتدي الناس به، فللقدوة الحسنة تأثيرها الكبير في التربية والتهذيب.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

أَي: قل لهم: إنني نُهيتُ أن أعبد الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لَمَّا

أنزل الله علي الآيات، فإنها مؤيدة للأدلة العقلية، ومنبهة عليها، وأمرت بالاستسلام الكامل لله رب العالمين، الذي خلقكم ورباكم في جميع أطوار حياتكم.

ثم عادت الآيات بعد هذا الإعلان تبيّن كمال قدرة الله في خلق الإنسان خلقاً متدرجاً:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلِ وَلِنَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أي: هو الذي بدأ خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم يخرجكم أطفالاً ضعفاً لا تملكون شيئاً ولا تعلمون شيئاً، واقتصر على الواحد (طفلاً) لإرادة الجنس، أو كل واحد منكم طفلاً، ثم يبيّكم، ويدرجكم في مدارج التربية، لتبلغوا سنّ القوة والشباب، ثم يهبطكم، ويضعفكم، لتكونوا في سن الضعف والشيخوخة، وهذا التدرج سنة من سنه القدريّة، لا تستطيعون تغييرها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلِ وَلِنَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: ومنكم من يميتّه الله من قبل بلوغ الأشدّ أو الشيخوخة، ومنكم من يقيه في الحياة إلى أجل مسمى، وكل ذلك بتقديره تعالى، لعلكم تعقلون ما في ذلك من حجاج وعبر تدلّكم على كمال قدرته وفضله، وأنكم دائماً في قبضة قدرته تعالى وتحت قهر مشيئته في جميع أحوالكم وأطواركم.

ومن صفات فعله سبحانه الدالة على كمال قدرته أنه وحده الذي يحيي ويميت دون أسباب ووسائل وآلات:

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٦٨) ﴿

أي: هو الذي يحيي الأموات، ويميت الأحياء، أو هو الذي يفعل الإحياء والإماتة، وإذا أراد أمراً من الأمور كالإحياء والإماتة فإنما يقول له: كن، فيحدث، ويوجد من غير امتناع أو توقف، فهو سبحانه يأمر أمراً واحداً لا يحتاج إلى وسائل ووسائط، بينما أفعال الخلق لا تخلو من الغرض والعرض، والمباشرة والمعالجة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وتعقل هذه الحقيقة وفهمها يهدب النفس، ويصل القلب، فيشرح عند سماع آيات الله، وينتفع بالدلائل الكثيرة المثبثة في المكونات، وعدم تعقلها وفهمها يؤدي إلى الغرور والاستكبار: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبراهيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبراهيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبراهيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالسَّمِيسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

\* \* \*

### مصير المعرضين عن عبادة الله

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنْ يُصَرَّفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذْ الْأَغْطَلُ فِي أَغْطِهِمْ وَالسَّلِيلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيرِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَّا بَل لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُصِلُ اللهُ الْكٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

فمثل هؤلاء لا ينفع معهم إلا أسلوب التهديد والوعيد، وهو ما اتجهت

الآيات إليه بعد أن مهّدت له بقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

أي: كيف يُصْرَفُونَ عنها؟ مع أنها واضحة ظاهرة، لا غموض فيها ولا خفاء.

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّْا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ .

أي: الذين كذبوا بالقرآن الواضح إعجازه وبيانه، وكذبوا أيضاً بكل الرسالات الإلهية، فسوف يعلمون وبال تكذيبهم وعاقبته، فتكذيبهم بالقرآن الكريم تكذيبٌ بكلِّ الرسالات الإلهية.

﴿إِذِ الْأَغْطُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

أي: إذ قيود الحديد والسلاسل في أعناقهم يُجْرُونَ بعنف على وجوههم في الحميم المتناهي في حرارته، ثم في النار يُطْرَحُونَ، فيكونون وقوداً لها، يقال: سَجَرْتُ التَّنُورَ: أوقدته، وسَجَرْتُهُ: ملأته، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤].

والمراد أنهم يعذبون بأنواع العذاب، وينقلون من نوع إلى نوع آخر، دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَمِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الصفات]. وقوله أيضاً: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانَ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤]. ومع هذا العذاب أيضاً يقال لهم تقيعاً وتوبيخاً:

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْبَأُوا مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ .

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْبَأُوا مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: غابوا عنا، أو ضاعوا عنا، ونحن في أمسِّ الحاجة إليهم. ثم يستدركون قائلين:

﴿بَل لَّمَّ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: بل تبين لنا اليوم أننا لم نكن نعبد شيئاً يُعتمد به، كما يقال: حسبته شيئاً فلم يكن.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: كذلك يبعد الله الكافرين عن الحق، والصواب بسبب سوء اختيارهم وكسبهم وتكبرهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (٧٥)

أي: ذلكم بما كنتم تطرون وتكبرون في الأرض ظالمين باغين، وبما كنتم تختالون وتفرحون.

﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئس ما أوى المتكبرين﴾ (٧٦)

أي: فبئس ما أوى المتكبرين عن الإيمان بالله وعبادته.

\* \* \*

### الثبات على طريق الدعوة والتبليغ

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا نُزِينُكَ بِعُضِّ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَاِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ (٧٧)  
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْضُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٧٨)

وعادت الآيات مرة ثانية في السورة تأمر النبي ﷺ بالصبر، وثبته في وجه عنادهم وإعراضهم، وتأمره أن يستمر في تبليغهم وإقامة الحجة عليهم:

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا نُزِينُكَ بِعُضِّ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَاِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ (٧٧)

أي: إن وعد الله بإهلاكهم حق لا بد منه، فإما نرينك بعضه في الدنيا، أو

نتوفينك قبل أن يحل بهم، فإلينا يرجعون يوم القيامة، فنجازيهم أشدّ الجزاء، فما عليك إلا أن تسيّر في طريق الدعوة والتبليغ دونَ نظرٍ للنتائج.

إنه أدبٌ كريمٌ - كما قال سيد قطب رحمته الله - يأخذ الله به أصحاب هذه الدعوة في شخص رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، إنه يعلمهم كيف يكون الإخلاص المبرأ عن أي شائبة، ولمثل هذه اللفتة العميقة ينبغي أن تتوجه قلوب الدعاة إلى الله في كل حين، فهذا هو حزام النجاة في خضمّ الرغائب التي تبدو بريئة في أول الأمر، ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك ويعوم.

وله عليه الصلاة والسلام في هذا أسوة في جميع المرسلين قبله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٧٨).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ فلا يعلم عددهم إلا الله تعالى، والذين لم يخبر عنهم القرآن أكثر من الذين أخبر عنهم، قال تعالى: ﴿رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦٤) رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: وما صحَّ وما استقام لرسول أن يأتي بمعجزة إلا بمشيئة الله تعالى، فالأمر منوطٌ بمشيئته سبحانه وحده.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: فإذا جاء أمر الله بعذاب المكذبين، حكم بالحق بنجاة المؤمنين، وإهلاك المصيرين على الباطل.

## إيمان اليأس

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَخْفَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْرِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَفْعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَيْرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ثم وصفت الآيات في آخر السورة أحوال المعرضين عن طاعة الله وعبادته عند نزول العذاب بهم، وبيّنت أن إيمانهم في ذلك الوقت جاء متأخراً فلا يقبله الله، ومهدت لذلك بتذكيرهم بمجموعة أخرى من نعم الله عليهم، وكأنها تقول لهم: كان عليكم أن تؤمنوا بالله وتعبده عندما كنتم تتمتعون بهذه النعم:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

أي: الله هو الذي خلق الأنعام لأجلكم ولمصلحتكم لتركبوا بعضها، وتأكلوا بعضها، كما مرّ معنا في مواضع كثيرة؛ منها قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أي: ولكم فيها منافع أحرّ غير الركوب والأكل، ولتبلغوا عليها حاجه

تستثقلونها، وهي حمل أثقالكم من بلد إلى بلد، وعليها وعلى السفن تُحمَلون، وقد مرَّ معنا أنه تعالى قد فصل منافع الأنعام في سورة النحل في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ﴾ (٨١).

وعقب سبحانه على تذكيرهم بهذه النعم بأسلوب التعجيب من إعراضهم عن عبادته وشكره:

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (٨١).

أي: وهكذا يبين لكم سبحانه الأدلة الدالة على كمال قدرته وفضله ورحمته، فأى آية من تلك الآيات تنكرون؟! إنها في غاية الظهور والوضوح بحيث لا يقدم على إنكارها إنسان عاقل. ثم ذكرتهم الآيات أيضاً بإعراضهم عن النظر والاعتبار بمصير الأمم الهالكة قبلهم:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آخَرَهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: فينظروا نظر مستبصر معتبر.

﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آخَرَهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: كانوا أكثر عدداً وعدة وأثاراً في الأرض، فآثارهم لا تزال باقية بعدهم، فأى شيء نفعهم ما كانوا عليه من قوة وتمكين؟!.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨٣).

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: أعجبوا بما

عندهم من العلم، واستحققوا علم الرسل واستهزؤوا به.

والمراد بالعلم عقائدهم الباطلة، أو علمهم بأحوال الدنيا، وسمّاه علماء تهكماً بهم، فهو في الحقيقة جهل، فالقوم أعجبوا بما عندهم، والعُجب من أعظم معوّقات التربية والهداية، والعلمُ بغير إيمان فتنة، يُعمي ويُطغي، كما هو حال كثير من الناس في وقتنا الحاضر.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: ونزل بهم جزاء جهلهم واستهزائهم،

ويزول عنهم عجبهم وغرورهم عند نزول العذاب:

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤)

أي: وتبرأنا مما كنا عليه من الشرك والكفر، وجاء إيمانهم متأخراً عن

وقته، فهو إيمان اليأس والبأس الذي لا يقبله الله ولا ينفعهم به:

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾ (٨٥)

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: وعدم

انتفاعهم بإيمان البأس سنة من سننه تعالى في الأمم السابقة، كما مر معنا في

شأن إيمان فرعون عندما أدركه الغرق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ

إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ

الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾ أي: وظهر في ذلك الوقت خسران الكافرين، فهم

خاسرون في كل وقت، ولكن خسارتهم تتبين عند معابنتهم العذاب.

أسأله تعالى الثبات على الإيمان، وأن يعيننا على طاعته وعبادته.



## تفسير سورة فصلت

### الْقُرْآنُ وَالتَّرَكِيهٖ فِي سُورَةِ فَصَلَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
التنزيل العربي المفصل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾  
بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي  
ءَاذَانِنَا وَقَدْ أُنزِلَ مِن بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَمْلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ  
أَتَمَّ إِلَهُكُمْ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾﴾ .

هكذا بدأ الله ثانية الحواميم كما بدأ الأولى ، ثم أورد سبحانه في صدر  
السورة بعض الصفات العالية الكريمة للقرآن الكريم :

﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ .

أي : القرآن تنزيلٌ من الرحمن الرحيم ، وتنزيله من أعظم النعم التي تفضل بها  
سبحانه على خلقه ، ولهذا أضيف التنزيل إلى الاسمين الكريمين : الرحمن الرحيم .

﴿ كُنْتُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ كُنْتُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي: هو كتاب بُيِّنَتْ ومُيِّزَتْ آياته، وجُعِلت معاني مختلفة، فيها كل ما يحتاج إليه الناس في دينهم، وتربية نفوسهم وتهذيبها، من أحكام وحكم، وأمثال ومواعظ، وترغيب وترهيب، وقصص، كما في قوله تعالى: ﴿ كُنْتُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١].

﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: أعني أو أمدح قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون ما فيه من دلائل الإعجاز الدالة على أنه تنزيل من الرحمن الرحيم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه لأنه نزل بلغتهم.

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي: بشيراً للمؤمنين به، ونذيراً للمعرضين عنه، ومع ذلك: ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي: أعرض أكثرهم عن تدبره وقبوله والإيمان به، فهم لا يسمعون سماع تفكير وانقياد وإذعان وتصديق.

فهم من أهل الجهل لا من أهل العلم؛ ولهذا حكى ﷺ بعض أقوالهم للنبي عليه الصلاة والسلام عندما يبلغهم آياته:

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْتَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَافِلُونَ ﴾ ﴿٥﴾ .

أي: قال المعرضون عن القرآن للنبي عليه الصلاة والسلام بوقاحة وعناد: قلوبنا في أغشية كثيفة محجوبة عما تدعوننا إليه، وفي آذاننا صمم؛ فهي لا تسمع دعوتك، وبيننا وبينك حجاب يمنعنا عن اتباعك، فاعمل على دينك وفي إبطال أمرنا، إننا عاملون على ديننا وفي إبطال أمرك.

وأمر عليه الصلاة والسلام أن يردَّ على هؤلاء المعاندين بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ أي: قل: إنما أنا بشر مثلكم، لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بيني وبينكم حجابٌ، يُلقى إليّ بواسطة الوحي أن معبودكم الذي يستحق العبادة واحد.

﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: فسيروا على صراطه المستقيم، ملتزمين بطاعته، ومداومين على تربية نفوسكم وتقويمها، وإصلاح سلوكها، وأسألوه المغفرة عما كنتم عليه من الشرك والفجور.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وويل للمصرين على الشرك، وهي كلمة للتقبيح على المخاطب فعله، وأما ما ورد: «وإد في جهنم، فلم يرد أنه معناه في اللغة، وإنما أراد من قال الله ذلك فيه فقد استحق مقراً من النار.

ومما يدل على أنها لتقبيح فعل المخاطب ما ورد في الحديث الشريف: «أنَّ النبي ﷺ رأى رجلاً يسوقُ بدنَةً فقال: «اركبها» قال: إنها بدنة، قال: «اركبها» قال: إنها بدنة، قال: «اركبها وَيْلَكَ» [رواه البخاري (٦١٥٩)].

\* \* \*

### أهم وسائل التزكية

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾ .

أي: الذين لا يزكُّون أنفسهم، ولا يربونها بتطهيرها من العقائد الباطلة

والعادات السيئة، وهم أيضاً ينكرون الحساب والجزاء يوم القيامة.  
 قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «والمراد من الزكاة هنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك: طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنّما سمّيت زكاةً لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه واستعماله في الطاعات».

وسمّيت أيضاً زكاةً المال بهذا الاسم، لأنها تطهّر النفس من الشح والبخل والأناية وحب الذات، فللزكاة صلة وثيقة بتزكية النفس وتهذيبها، وأشارت الآية إلى أن التوحيد والتصديق بيوم القيامة هي أهم وسائل تزكية النفس وتهذيبها، وتقويم اعوجاجها، وإصلاح سلوكها، كما قال الله تعالى لموسى ﷺ عندما أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَأَ ۗ وَاهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخَسْ﴾ [النازعات].

وفي الحديث الصحيح: عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقَمْتُ» [رواه مسلم (٣٨)].

وتأكيداً لكون القرآن الكريم بشيراً ونذيراً، جاء بعد إنذار المشركين تبشير المؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٨)

أي: غير مقطوع ولا منقوص ولا محسوب.  
 وقيل: نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن العمل والطاعة، يكتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه.  
 ويؤيد هذا المعنى الحديث الشريف: فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا» [رواه البخاري (٢٩٩٦)].

## الخلق المتدرج

﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾  
 وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّالِكِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَى  
 إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ  
 سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ  
 الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

ثم بينت الآيات بأسلوب الإنكار والتعجب قبح جريمة الكافرين بآيات القرآن الكريم وشناعة إعراضهم عن التصديق به، مع ظهور الأدلة المعجزة القاطعة على ذلك، فتحدثت عن خلقه تعالى للمكونات خلقاً متدرجاً، وإحداثه سبحانه الأرض والسماوات، وأبرزت أهمية هذا الحديث بتلقيه النبي عليه الصلاة والسلام، وتكليفه أن يخبرهم به، وأكدت بهذا أن القرآن الكريم تنزيل الرحمن الرحيم على النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، ليس له فيه إلا التلقي والتبليغ:

﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾

أي: كيف تكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين أو في نوبتين، وتجعلون له أمثالاً ونظراء وأكفءاء، ذلك الذي خلق الأرض في يومين هو رب العالمين أولاً وأبداً، له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالقية ولا مخلوق، لأنه على كل شيء قدير.

وأريد باليوم هنا الوقت مطلقاً، لأن اليوم المتعارف لا يتصور وجوده قبل خلق الشمس، ثم إن ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف، ويحتمل أن يكون أقل من ذلك أو أكثر، فالظاهر أن اليومين ظرفان لخلق

الأرض، وقد سبق بيان هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ...﴾ الآية [هود: ٧].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَيَرْكُ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ﴾

أي: جعل فيها جبلاً ثابتة مرتفعة عليها، وأكثر خيرها، وقدر فيها أرزاق أهلها، فعين لكل نوع ما يصلحها، ويعيش فيه، ويبن كميتهما وأقدارها لمن سيعيش عليها من أهلها في تمتة أربعة أيام، لأجل السائلين المحتاجين لهذه الأقوات والأرزاق.

فالمراد السؤال بلسان الحال والافتقار كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُ مِنكُمْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ مَّوْءً وَإِن تُعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ودلت كلمة (قدر) على أن كل شيء موزون بميزان الحكمة والعلم، وما من شيء في الكون إلا والله قادر على جعله أضعافاً مضاعفة، إلا أن العناية الربانية اقتضت ألا تبرز من خزائن الجود الرباني إلا ما تحده الحكمة، ويقتضيه العلم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]. وقوله: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ ولم يقل في يومين؛ للإشعار باتصالهما باليومين الأولين.

وفي الآية ردٌّ عما يُشاع في العصر الحاضر عن عجز الموارد الأرضية عن سد حاجات الأعداد المتزايدة من البشر، ويتغافلون عن الموارد الكبيرة التي استهلكوها في صنع وسائل التدمير، وهاهم اليوم ينفقون على تدميرها نفقات باهظة، وقد سبق أن تعرضنا لهذا الموضوع عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ مِّنْ نَّرْفِهِمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ أُنْتِي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَنبِئَا طَائِعِينَ﴾

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي: ثم عمد وقصد إلى خلق السماء وهي في حالتها الغازية، أو ما يسمونه في العصر الحاضر: السديمية.

﴿فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضُ أُنْتِ يَا طَوَّعًا أَوْ كَرِهًا قَالَتْ أَنِينَا طَائِعِينَ﴾ أي: قال للسماء والأرض: انقادا واخضعا لأمرى ومشيتى شتتما ذلك أو أبيتما، قالتا: أئينا منقادين لأمرى ومشيتك.

وقد يكون المراد التمثيلَ لكمال مشيئته تعالى، ونفاذها في ذرات الموجودات كلها منذ بدء خلقها.

وفي الآية ردُّ على ما قاله بعضُ فلاسفة الإغريق القدماء أمينوس وأفلاطون ومن أتى بعدهما أنَّ المكونات وُجِدَتْ بواسطة الفيض الإلهي دون إرادة، إذ فاض عن الإله العقلُ، ثم فاضَ عنه الروحُ، أو ما يسمونه بالهيولى، وهي عقيدةُ التثليث التي دخلتُ بعدَ ذلك إلى النصرانية، وحرَّفتها عن التوحيد الذي كانت عليه، بقرار مجامعها المسكونية، وأولها وأخطرها مجمع نيقية الذي انعقد في (٣٢٥م).

فالإخبارُ في الآية عن الخلق المتدرج دليلٌ على طلاقة إرادته تعالى وكمالها، فهو سبحانه قادر على خلق المكونات كلها دفعة واحدة كما مرَّ معنا عند قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١٢).

﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: فخلقهن في يومين، فتم خلق الجميع في ستة أيام، كما أخبر في عدد من الآيات؛ منها: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ الآية [الأعراف: ٥٤].

ومنها أيضاً: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَشَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: أوحى إلى سكان كل سماء ما أمرهم به، وكلفهم ما يليق بهم من التكليف.

﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: زيننا السماء

الدنيا بالكواكب، وحفظناها بها من استماع الشياطين كما سبق معنا عند قوله: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوْكُبِ ﴿١٦﴾ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿١٧﴾﴾ [الصفات].

ذلك الخلق والتنظيم وتقديرُ الغالبِ في ملكه، العليم بأحوال خلقه، فلا يقدر عليه إلا الله الغالب على كل شيء، والعليم بكل شيء.

ودلَّت الآياتُ على أنَّ خلق الأرض قبل خلق السماوات كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩].

ثم دحاها بعد ذلك كما في قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات] فالدَّحُو غيرُ الخلقِ، وهو مدها وبسطها أو إخراج مائها ومرعاها.

\* \* \*

### صاعقة عاد وثمود

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٢﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٤﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِفَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَلْحَمْتَهُمْ صَاعِقَةَ الْعَدَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ وَبِمَعِينِنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٧﴾﴾

ومن أساليب القرآن في التربية والتهذيب: التعقيب على تقرير الحقائق العلمية بإثارة وجدانية تحذّر من عواقب الإعراض عن هذه الحقائق، ولهذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾

أي: فإن أعرض المشركون بعد هذا البيان عن الإيمان، فقل: أنذرتكم هلاكاً مثل هلاك عادٍ و ثمود، يأتيكم قوياً شديداً كالصاعقة في قوتها وشدتها. والجدير بالذكر أنه جاء في بعض الأخبار: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآيات على عتبة بن ربيعة من كبار مشركي قريش، فلما بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسك عتبة على فيه عليه الصلاة والسلام فناشده الرحم أن يكف.

﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: إذ جاءتهم الرسل من جميع جوانبهم، واجتهدوا في دعوتهم لعبادة الله وحده. ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: قالوا للرسول: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة، فإننا بما أرسلتم به كافرون لأنكم بشر مثلنا. ثم فصلت الآيات جنابة كل أمة وعذابها الذي أهلك به:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: استعلوا في الأرض بغير استحقاق، فتكبروا، وطغوا، وقالوا اغتراراً بشوكتهم: من أشد منا قوة؟! أي: لا أحد أقوى منا.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أولم يعلموا أن الله الذي خلقهم هو أقوى منهم، فهو القادر على كل شيء، ﷻ .

﴿وَكَاُنُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: كانوا ينكرون الآيات التي أيد الله بها رسولهم مع علمهم أنها حق .

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ  
الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) .

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: فأرسلنا عليهم ريحاً شديدة باردة في أيام نكدات مشؤومات ذات نحس، لنذيقهم عذاب الذل والهوان في مقابل طغيانهم واستكبارهم؛ قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَلَيُّنَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُخْلِ حَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٧] .  
﴿وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: ولعذاب الآخرة أشد إهانة وإذلالاً، وهم لا يُمنعون منه ولا يُدفع عنهم .

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا  
يَكْسِبُونَ﴾ (١٧) .

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي: وأما ثمود فبيننا لهم سبيل الهدى، فأثروا الكفر والضلالة على الهدى والرشاد .  
﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فنزلت بهم وأهلكتهم صاعقة العذاب ذي الهوان والإذلال بسبب سوء كسبهم واختيارهم .

﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٨) .

أي: ونجينا المؤمنين الطائعين مع نبيهم صالح من هذه الصاعقة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا مِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦] .

## الجوارح الناطقة

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لَجُّوا لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ لَمْ يَشْهَدْتُمْ عَلَيْهَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْحَبْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم عرضت الآيات صورةً عجيبةً مرعبة من صور عذابهم يوم القيامة، ترك في نفس المتدبر لها آثاراً قوية مربيةً ومزكيةً:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: ويوم القيامة يساق أعداء الله إلى النار، فهم يدفعون بقوة وشدة.  
أو: يحبس أولهم حتى يلحق بهم آخرهم كالقطيع الكبير، وهذا يدل على كثرتهم.  
وفي قراءة: (نحشر أعداء الله) ووصفهم بأنهم أعداء الله ذمًا لهم بسبب عذابهم وهوانهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

أي: بما كانوا يعملون في الدنيا من فنون الكفر والمعاصي.  
وتخصيص السمع والأبصار بالشهادة، لأنها وسائل الإدراك الأساسية، وينضم إليها الأيدي والأرجل، أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

ويتكلمون مع أجزائهم وأبعاضهم مستنكرين شهادتها عليهم:

﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢١).

﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ ويبدو أن تخصيص الجلود بالكلام لكونها موضع الإحساس والألم، قال تعالى: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: ما نطقنا باختيارنا، بل أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، فلا يمتنع شيء على قدرته ونفاذ مشيئته.

ولا حاجة إلى تقييد الإطلاق بكل شيء حي، كما فعله بعض المفسرين كالبضاوي والنسفي، فكل المخلوقات تنطق بتسبيح الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومر معنا أن الجبال والطيور كانت تسبح مع داود عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿بِجِبَالٍ أَوْيٍ مَعَهُ وَالطَّيْرِ وَالنَّارِ لَهُ الْحَدِيدُ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: ومن قدير على خلقكم أول مرة، وأعادكم إلى حسابه وجزائه في هذا اليوم، لا يعجز عن إنطاق جوارحك لتشهد عليكم.

وفي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: «هل تدرُونَ مِمَّ أضحكُ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «مِنْ مَخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ يَقُولُ: بلى، فيقول: فَإِنِّي لَا أَجِيرُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهداً، فيختم على فيه، فيقال لأركانِهِ: انطقي، فتنطق بأعمالِهِ، ثم يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُخْرًا فعنكُنَّ كنتُ أناضِلُ» [رواه مسلم (٢٩٦٩)].

ثم يقال لهم بعد شهادة جوارحهم عليهم تبيكياً وتقريعاً:

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢).

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: ما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم، فما استترتم عنها بسبب غفلتكم وجهلكم وجحودكم ليوم الحساب والجزاء.

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفيننا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا؛ فإنه يسمع إذا أخفيننا، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الآية. [رواه البخاري (٤٨١٧)].

﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم الخفية، ولهذا اجترأتم على الكفر والفجور، فالشعورُ بمراقبة الله تعالى يربِّي الإنسان، ويزكي قلبه، ويهدِّب نفسه، ويحجزه عن المعاصي والآثام، قال تعالى: ﴿أَتَلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الصُّكُوتَ إِذْكَ الصُّكُوتَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ومرَّ معنا في الحديث الصحيح: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...» إلى أن قال النبي ﷺ: «ورجلٌ دعته امرأةٌ ذاتٌ منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله رب العالمين».

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣).

أي: وظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون أهلككم، فقد جرأكم على الكفر والمعاصي فأصبحتم بسببه من الخاسرين.

ولا شك أن ظنهم هذا يكفي وحده لكفرهم وخسرانهم، وتنسحب الآية على أصحاب المعاصي من المؤمنين، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الآية: هؤلاء قوم كانوا يُدمنون المعاصي، ولا يتوبون منها، ويتكلمون على المغفرة حتى خرجوا من الدنيا مفاليس<sup>(١)</sup>.

وأما الحديث الشريف في «صحيح مسلم» [٢٨٧٧]: عن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بثلاث قال: «لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ باللهِ الظنَّ» فمحمولٌ على التحذير من القنوط، وعلى الرجاء عند الخاتمة.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (٢٤)

أي: فإن يصابروا فالنار مسكن دائم لهم، وإن يسترضوا ويسألوا أن يرضوا ربهم، ويبدوا أعداراً فما هم فاعلون.

والمعتب: المقبول عتابه. والمستعتب: الجزع الخائف.

\* \* \*

### قِرَاءَةُ السُّوءِ

﴿وَقِيصًا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَسُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَىٰ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٦)

ثم بينت الآيات تأثير قرناء السوء وخطرهم على تربية النفس وتزكيتها وحجبها عن أسباب الهداية:

(١) تفسير القرطبي: ٣٥٣/١٥.

﴿وَقِيصْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَزْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ .

﴿وَقِيصْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَزْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: هيأنا لهم وأتحنا لهم أخذاناً وأصحاباً فحسّنوا لهم أعمالهم القبيحة الماضية والحاضرة، فأصروا عليها كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (١٦١) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

وكما يكون القرناء من الإنس يكونون من الجن أيضاً، دل على ذلك الحديث الشريف: فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَكُلَّ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ» قالوا: وإيّاكَ يا رسول الله ﷺ؟ قال: «وإيّاي إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانِي عَلَيْهِ فَأَسْلُمُ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ» [رواه مسلم (٢١٦٧)].

وفي رواية ثانية: «وقرينه من الملائكة» [رواه مسلم (٢١٦٨)].

وجاء أيضاً في الحديث الشريف: عن ابن مسعود رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بَابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فإِعَادٌ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فإِعَادٌ بِالخَيْرِ، وَتَصْديقٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ» [رواه الترمذي (٢٩٨٨) والنسائي في الكبرى (١٠٩٨٥) وابن حبان (٩٩٣)].

واللَمَّةُ: من الإلمام، وهو القرب، والمراد بها ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ أي: حق عليهم القولُ بدخول النارِ بسبب إصرارهم على الكفر، وسوء اختيارهم، مع أمم كثيرة قبلهم من الجن والإنس، صاروا مثلهم في الخسران. ثم بيّنت الآيات كيف كانوا يتواصون بالإعراض عن أسباب الهداية، ولا شك أن هذا من لَمَّة قرناء السوء:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٢٦).

أي: وقال الذين كفروا: لا تسمعوا للقرآن وعارضوه برفع الأصوات والتصفيق والصفير، حتى تغلبوا على قراءته.

وهذا يدل على أنهم يستشعرون في قرارة أنفسهم بأن للقرآن سلطاناً وتأثيراً قوياً على قلوبهم، ولهذا كانوا يتواصون بالإعراض عنه، والتشويش على قارئه، ويوصون أيضاً القادمين إلى مكة بذلك، قال ابن إسحاق في «السيرة»<sup>(١)</sup>:

وجعلت قريشٌ يحذرون الناسَ ومنَ قَدِمَ عليهم من العرب، وكان الطفيل بن عمرو الدؤسي يحدثُ أنه قدم مكة، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا له: لا تكلمنَّ محمداً، ولا تسمعنَّ منه شيئاً، قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعتُ ألا أسمعَ منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوتُ في أذني الكُرسف (القطن). ولكنَّ الله تبارك وتعالى قدَّر له أن يسمعَ النبيَّ ﷺ؛ وكان ذلك سببَ إسلامه ﷺ.

\* \* \*

### تهديد أعداء الله بعذاب النار

﴿فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) ذَلِكَ حَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ حَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتًا أَبَدًا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾.

ثم توعدت الآيات المعرضين عن القرآن بأشد أنواع العذاب:

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٢٢/٢.

﴿فَلَنَذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

أي: ولنعاقبنهم أعظم عقوبةٍ على أسوأ أعمالهم، وهو الإعراض عن دعوة القرآن الكريم، وصدّ الناس عنها.

ويدل هذا الوعيد الشديد المرعب المؤكّد على أنّ الإعراض عن دعوة القرآن جريمةٌ كبيرةٌ من أعظم الجرائم، فهو تنزيل الرحمن الرحيم، وهؤلاء المجرمون يَسْعَوْنَ في إطفاء نوره وحرمان الناس من أعظم آثار رحمته تعالى على عباده، ولهذا وصفتهم الآيات مرة ثانية بأنهم أعداء الله، وبينت جزاءهم ومكانه ووقته:

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَأْتِينَا يَمْجِدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

فالجزاء النار، والمكان جهنم، والوقت الخلود فيها أبداً، فهي بعينها دارُ إقامتهم، يُجْزَوْنَ فيها جزاءً مناسباً لجريمتهم الكبرى، وهو جحود آيات القرآن الكريم والصد عنها.

ويتذكّرون وهم يتقلبون في عذاب النار قرناءهم وأصحابهم من الجن والإنس، الذين زينوا لهم الضلال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا حَتًّا أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

أي: أَرْنَا فريقِي رؤوس الضلال من الجن والإنس، اللذين زينوا لنا الضلال حتى نشفيّ منهم، فجعلهم تحت أقدامنا، وندوسهم بها انتقاماً. وهذا يدل على شدة حسرتهم وحقدهم.

## تبشير أولياء الله بالجنة

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا  
وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ  
فِيهَا مَا نَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَلًا مِنْ عَفْوٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

وحملت الآيات في مقابل الوعيد الشديد لأعداء الله البشائر لأحبابه وأوليائه، وأظهرت في ثنايا هذه البشائر الأساس الأول في تزكية النفس وتربيتها:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا  
وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أي: إن الذين قالوا: خالقنا ومربينا الله، قالوا ذلك اعترافاً بربوبيته سبحانه، وإقراراً بوحدانيته، ثم ثبتوا عليه متمسكين به حتى الموت، فعملوا على مقتضى إقرارهم، والتزموا بأحكام دينه وشريعته. فمن اعترف أنه ﷻ مالكة، ومدبر أمره ومربيه، وأنه عبدٌ مربوب بين يدي مولاه، فالثبات على مقتضاه أن لا تزُلَّ قدمه عن طريق العبودية قلباً وقالباً ولا يتخطاه<sup>(١)</sup>.

(وثم) هنا للتراخي الرتبي، فإن الاستقامة على دين الله تعالى أصعب من الإقرار؛ لأنها تستدعي مجاهدة دائمة للنفس، ومراقبة مستمرة لها، وهذا هو الجهاد الأكبر. وقد تكون للتراخي الزمني أيضاً لبيان الاستمرار على مقتضاها في جميع الأوقات.

ودلت الآية على أن أساس تزكية النفس وتربيتها، يبدأ بإذعانها وإقرارها

بعبوديتها لله ﷻ، وعليها أن تستمرَّ على هذه الحقيقة، وتمسك بها في جميع أحوالها وتقلباتها، في عُسرها ويُسرِّها، ومكرها ومنشطها، قال أهل التحقيق: كمالُ الإنسان أن يعرف الحق لذاته لأجل العمل به، ورأس المعرفة اليقينية معرفة الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، ورأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيماً في الوسط، غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط<sup>(١)</sup>.

﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾  
أي: تدنو منهم الملائكة، وتبثُّ في نفوسهم ما يشرح صدورهم ويثبتهم، ويدفع عنهم الخوفَ والحزنَ.

فكما قبض الله قرناء السوء من شياطين الإنس والجن للكفار والفجار، يزينون لهم أعمالهم القبيحة، جعلَ الملائكة تدنو من أوليائهم، تثبتهم في الأوقات الحرجة، إنها مساعدةُ إلهية خاصة بالصالحين، تثبتُّ أقدامهم على الحق، وتقوي تمسكهم به، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وهذه المعونة لا تؤثر على اختيارهم الحر ولكنها تسنده وتقويه.

وتتنزل عليهم الملائكة قائلين: لا تخافوا ممَّا تقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم وراءكم في الدنيا، وأبشروا بالجنة التي وعدتم بها. فيبشرونهم بذهاب الشرِّ، وحصول الخير.

واختلفَ المفسِّرون في وقت هذا التنزل على أقوال: عند الموت، أو في القبر، أو عند البعث، وقد يتكرر التنزل في جميع هذه المواطن، وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وقد استحسنته ابن كثير في تفسيره للآية.

(١) تفسير الخازن: ٣٨٣/٥.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾﴾ .

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: نحن أنصاركم وأحباؤكم، نلهمكم الحق، ونحملكم على الخير في الدنيا، كما مر معنا، ولا نفارقكم في الآخرة أيضاً حتى تصلوا إلى الجنة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: ولكم في الجنة كل ما تشتهي أنفسكم من النعيم، ولكم فيها أيضاً كل ما تتمنونه وتسالونه، وهو أعم من الأول.

﴿نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ .

أي: ثبت لكم ذلك وتقرر تكريماً من رب غفور رحيم، أدخلكم دار كرامته ورحمته. والنزول: الضيافة التي تقدم للضيف حين نزوله.

\* \* \*

## الدعوة والداعي

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ .

والاستقامة عين الكرامة، فهي أفضل كرامة يُكْرَمُ بها الله تعالى أوليائه. وظهرت استقامتهم في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم من خلال الآيات الآتية:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: لا أحد أحسن ممن دعا إلى دين الله وطاعته قولاً وعملاً.

﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه، والراضين بقضائه وقدره.

قال ذلك تحدثاً بنعمة الله عليه، وإعلاناً لاستسلامه لله وحده، فنفعه لنفسه ولغيره، وكلمة الدعوة إذا اقترنت بالعملِ الصالحِ والاستسلامِ الكاملِ لله هي أصدق كلمة وأفضلها.

ولا شك أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو أول وأفضل من اتصف بهذه الصفات، ولهذا قال كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية كابن سيرين والسُّدِّي والحسن: هو رسول الله ﷺ. وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه<sup>(١)</sup>.

ويؤيده قول السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سُئِلَتْ عن خُلُقِ رسول الله ﷺ: إِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ. [رواه مسلم (٧٤٦)].

ففي الآية بهذا المعنى تعريضٌ وتوبيخٌ للذين كانوا يتواصون بالإعراض عن استماع القرآن الكريم، والتشويش على النبي عليه الصلاة والسلام، عندما كان يدعوهم إلى الله، ويتلو عليهم آياته، كما سبق عند قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وبهذا يظهر الانسجام والاحتباك بين آيات السورة، ولا مانع أن نقول: إنها تنسجُب أيضاً على كل مؤمن متصف بهذه الصفات.

\* \* \*

## ادفع بالتي هي أحسن

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا دُورٌ حَظِيظٌ عَظِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَرَعَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

ثم رَغِبَتِ الآيَاتُ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى الْمَشْرُوكِينَ وَلِغَوْهِمْ عِنْدَ تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَبِمُقَابَلَةِ إِسَاءَتِهِمْ بِالْإِحْسَانِ:

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أَي: إِنَّ الْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ مُتَفَاوِضَتَانِ فِي نَفْسَيْهِمَا، وَمَعَ ذَلِكَ قَابِلِ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ، وَأَحْسِنُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، وَادْفَعْ بِحَلْمِكَ جَهْلَ مَنْ يَجْهَلُ عَلَيْكَ.

وهو خلق رفيع أدب الله به النبي ﷺ في عدد من الآيات، منها قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وهكذا كانت أخلاقه ﷺ في القرآن، وهي أخلاقه التي نُعِتَ بها في التوراة، ففي الحديث الشريف: عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاصٍ رضي الله عنه قلتُ: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجلُّ والله، إنَّه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته بالقرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأُميين، أنتَ عبدي ورسولي، سميتك المتوكلاً، ليس بفظاً، ولا غليظاً، ولا سخاباً في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن

يقولوا: لا إله إلا الله، وَيَفْتَحْ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وقلوباً غلغلاً. [رواه البخاري (٤٨٣٨)].

وروى ابن إسحاق بإسنادٍ حسن: عن صفية بنت شيبة: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ قَالَ لَجَمْعٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ عِنْدَ الْكَعْبَةِ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرًا، أَخُ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخِ كَرِيمٍ، قَالَ: «أَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَاقُ»<sup>(١)</sup>.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه رداءٌ نجرانيٌّ غليظٌ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فجبذه بردائه جبذةً شديدةً، نظرتُ إلى صفحةٍ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وقد أثرت بها حاشيةُ الرداءِ من شدَّةِ جبذته، ثم قال: يا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَمَتْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. [رواه مسلم (١٠٥٧)].

وجاء زيدُ بنُ سَعْنَةَ قَبْلَ إِسْلَامِهِ يَتَقَاضَاهُ دِينًا عَلَيْهِ، فَجَبَذَ ثَوْبَهُ عَنْ مَنْكِبِهِ، وَأَخَذَ بِمَجَامِعِ ثِيَابِهِ، وَأَغْلَظَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّكُمْ يَا بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ مُظْلَمُونَ، فَانْتَهَرَهُ عَمْرٌ، وَشَدَّدَ لَهُ فِي الْقَوْلِ، وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَتَبَسَّمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَنَا وَهُوَ كُنَّا إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ أَحْوَجَ يَا عَمْرُ، تَأْمُرُنِي بِحُسْنِ الْقَضَاءِ، وَتَأْمُرُهُ بِحُسْنِ التَّقَاضِي» ثُمَّ قَالَ: «لَقَدْ بَقِيَ مِنْ أَجَلِهِ ثَلَاثٌ» وَأَمَرَ عَمْرٌ أَنْ يَقْضِيَهُ مَالَهُ، وَيَزِيدَهُ عَشْرِينَ صَاعًا لَمَّا رَوَّعَهُ، فَكَانَ سَبَبَ إِسْلَامِهِ. [أخرجه ابن حبان (٢١٠٥) والطبراني].

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: إذا فعلت ذلك صار عدوك صديقاً قريباً، وقد صار الطلقاء من أهل مكة أصحاباً للنبي عليه الصلاة والسلام بعد أن كانوا أعداء.

ويقتضي هذا الخلقُ معاناةً شديدةً من صاحبه، فعليه أن يجاهد نفسه، ويقمع شهوة الانتقام المركوزة فيها، كما جاء في الحديث الصحيح: «ليس

(١) سيرة ابن هشام: ٤١٢/١.

الشديد بالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» [رواه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩)] ولهذا قال تعالى :

﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ فكظموا غيظهم، واحتملوا الأذى، وانتصروا على أنفسهم.

والذين ارتفعوا إلى هذا المقام العالي قليل، أشار إليهم الله تعالى بقوله :

﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من الخير.

وقال بعضهم: الحظ العظيم: الجنة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَّيْنِ الْغَيِّظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْفِذَهُ؛ دَعَاهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يَخِيرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ» [رواه أبو داود (٤٧٧٧) والترمذي (٢٠٢١) وحسنه].

ومن المعلوم أنَّ الشيطانَ يستغلُّ حالَ الغضبِ ليزيِّنَ لصاحبه ارتكابَ أعمالٍ يندمُ عليها بعدَ ذلك، ولهذا بيَّنتِ الآياتُ أفضلَ وسيلةٍ تقاومُ فيها نزغاتِ الشيطانِ ووساوسه :

﴿وَمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ .

أي: وإنَّ حاولَ الشيطانُ أن يصرِفَكَ عن الدِّفعِ بالتِّي هي أحسنُ فاستعِذْ باللهِ من شرِّه، إنَّ الله هو السَّمِيعُ لدعائِكَ، العَلِيمُ بأحوالكِ.

والنَزْعُ: شِبْهُ النَخْسِ، شُبِّهَ بِهِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ بوسوسته كأنه ينخسه، ويدفعه إلى ما لا ينبغي عمله.

## سجود وتسبيح

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْبُلُّ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّا الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْفِقُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَسَ يُلْفَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكُنْتُمْ عَنْزِرٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

ثم بينت الآيات للدعاة أفضل أسلوب في عرض قضايا الإيمان ودعوة الناس إليها، وأول هذه القضايا وأهمها توحيد الله تعالى وعبادته وطاعته:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْبُلُّ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْبُلُّ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: ومن علاماته الواضحة القاطعة الدالة على كمال قدرته، وأنه سبحانه وحده المستحق للعبادة والطاعة: الليل والنهار، والشمس والقمر، فإن لهذه المخلوقات نظاماً دقيقاً بديعاً مُحْكَمًا يدل على أنها مخلوقة مسخرة لأمر خالقها ومشيئته، فهو وحده المستحق للعبادة والطاعة.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإن السجود أقصى مراتب الخضوع، فلا بد من تخصيصه لمن يستحقه، وهو الخالق جل وعلا الغني عن سجودهم وخضوعهم.

﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٣٨)

فإن امتنعوا عن السجود له والخضوع لأمره، فليعلموا أن عنده مخلوقاتٍ أعظم منهم منقادةً لأمره، ينزهونه ويقدمونه دائماً لا يملون، ولا يتوقفون عن طاعته وعبادته.

وهذه الآية آيةٌ سجدةٌ بلا خلافٍ، واختلفوا في موضع السجود منها، فقال مالك: موضعه ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ لأنه متصل بالأمر، وكان علي وابن مسعود وغيرهما يسجدون عنده.

وقال ابن وهب والشافعي: موضعه ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامثال، وبه قال أبو حنيفة، وكان ابن عباس يسجد عنده<sup>(١)</sup>.

وتأتي بعد قضية التوحيد وعبادته سبحانه وطاعته قضية الإيمان بيوم الحساب والجزاء والبعث من القبور، وأقرب مثال واقعي يدل عليه:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: يابسةٌ هامدةٌ لا حياة فيها.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: تحركت بالنبات، ونمت وسرت الحياة فيها.

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إن الذي أحيا الأرض اليابسة قادرٌ على إحياء الموتى، وبعثهم منها، فهو قادر على فعل ما يريد، ومحيط بكل الكائنات، لا يعزب عن علمه شيء منها.

(١) تفسير القرطبي: ٣٦٤/١٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ أي: إن الذين يميلون عن الصراط المستقيم الذي بيّناه في آياتنا بالإعراض عنها، والتشويش على قارئها، لا يخفون علينا، فسجازهم على ذلك .

والإلحاد: الميل والعدول، ومنه اللحد في القبر، ويقال: ألحد في دين الله، أي: حاد عنه وعدل .

﴿أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهو سؤال تقرير يبين الاختلاف بين مصير المؤمنين ومصير الملحدين، فالملحدون في الآيات يُلقون في النار، والمؤمنون بها آمنون يوم القيامة، وبناءً على ذلك:

﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهو أمر تهديد ووعيد يرد قولهم الذي حكاه عنهم في أول السورة: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ [فصلت: ٥] .

فالإعراض عن القرآن الكريم والإلحاد فيه أمر قبيح في غاية القبح والشناعة يستوجب أشد أنواع الوعيد .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتَبُ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم قبل أن يتأملوا فيه، ويتدبروا آياته، بل بادروا إلى تكذيبه دون تأمل وتفكير .

﴿وَإِنَّهُ لَكِنْتَبُ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: وإن القرآن لا نظير له، ولا تتأتى معارضته، ولا يتطرق إليه الباطل من أي جهة من الجهات أو بوجه من الوجوه، لأنه تنزيلٌ من حكيمٍ في أقواله وأفعاله، محمودٍ في تشريعه وتنزيله .

وكان رسول الله ﷺ يتألم من إعراضهم عن القرآن الكريم، ولهذا التفتت الآيات إليه تواسيه وتثبته:

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٣).

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: ما يقال لك إلا مثل ما قد قيل للرسول من قبلك، إذ كذبتهم أقوامهم مثل ما كذبتك قومك، فلا تبتئس بما تلقى منهم، وامض في دعوتهم.

إنه وحي واحد، ورسالة واحدة، وعقيدة واحدة، وإنه كذلك استقبال واحد من البشرية، وتكذيب واحد، واعتراضات واحدة، فأبى شعور بالأنس والقوة والصبر والتصميم توحيه هذه الحقيقة لأصحاب الدعوة السالكين في طريقها<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لذو مغفرة للتائبين وذو عقاب أليم للمصرين المعاندين.

\* \* \*

## الهدى والشفاء في القرآن

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِي وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٤٤).

ومن رحمته تعالى بهم أنه جعل القرآن عربياً معجزاً حتى لا يعترضوا عليه، ومع ذلك أعرضوا عنه وألحدوا في آياته:

(١) في ظلال القرآن: ٣/٢٧.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۗ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أي: ولو أنزلناه بلغة العجم لقالوا معترضين: لولا بُيِّنَتْ آياته، أكلام أعجمي ومرسل إليه عربي؟! وهو استفهام إنكار.

والأعجم: الذي لا يفصح؛ من العرب كان أو من العجم. والعجمي: غير العربي، فصيحاً كان أو غير فصيح. وقرئ بهمزة واحدة ممدودة للاستفهام (أعجمي) وبهمزتين للإنكار (أعجمي).

وسبق معنا في صدر السورة أن آيات القرآن الكريم مفصلة تفصيلاً شافياً وافياً بلسان عربي مبين، فالإعجازُ فيه ظاهر ثابت، وعجزهم عن معارضته دليل واضح على أنه من عند الله العزيز الحكيم، ولهذا أمر عليه الصلاة والسلام أن يردَّ على تكذيبهم وإعراضهم:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أي: القرآن للمؤمنين هدى إلى الحق، يرشدهم إليه، ويدلهم عليه، وهو أيضاً شفاء لما في الصدور من الشك والشبهات، فهو يدفع عن القلوب كلَّ شك وشبهة، كما أن الله تعالى جعل فيه شفاءً من الأوجاع والأسقام المعنوية والحسية، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فحال القرآن مع المؤمنين هدى شفاء. وأما مع المكذبين الملحدين:

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: في آذانهم صمم، فلا يسمعون سماع إجابة وهداية، ويتواصون في التشويش على قارئه، ولا يهتدون بهديه، ولا يرون بصائرهم، وجيء بـ (على) للدلالة على استيلاء العمى عليهم.

﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَكَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهو تمثيلٌ لعدم فهمهم وانتماعهم بآياته بمن يُنادى من مكان بعيد، فهو يسمع الصوت، ولا يفهم المراد منه، وهو سبب إعراضهم كما ذكر سبحانه في أول السورة: ﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٤٤).

\*\*\*

### المسؤولية والجزاء

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاحْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (٤٥) **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾** (٤٦) **﴿إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمَ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا وَيَعْلَمُهَا وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آئِنِ شُرَكَائِي قَالُوا ءَاذَنْتَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾** (٤٧) **﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَلُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾** (٤٨).

ثم بين تعالى على وجه التسلية لرسول الله ﷺ أن الاختلاف في شأن الكتب الإلهية، وإعراض المعاندين عنها أمرٌ قديمٌ عند جميع الأمم، فقد اختلف بنو إسرائيل في الكتاب الذي أنزل على موسى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاحْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (٤٥).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاحْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير عذاب المكذبين، لأهلكهم كما فعل بالأمم السابقة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وإنهم يستحقون ذلك، لأنهم في شك من القرآن موجب للريبة، مع كثرة الدلائل القاطعة على صدقه.

فإعراضهم عن القرآن الكريم عرّضهم للعذاب والهلاك، فهم الظالمون أنفسهم، والله سبحانه منزّه عن الظلم:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: من عمل صالحاً فنفعه لنفسه لا لغيره.

﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ومن أساء فضرره على نفسه لا على غيره.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فلا يعذب غير المسيء، وهو أيضاً حكيماً مالك، يتصرف في ملكه كما يريد، فالظلم لا يصدر عنه ﷻ، ولا يليق بكماله، فهو غني عن طاعة عباده، من أطاعه أثابه بفضله، ومن عصاه عاقبه بعدله، وكلُّ شيء يردُّ إلى علمه، ويجري بمشيئته وقدرته:

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۖ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا ۖ يَعْلَمُ ۖ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنَ شُرَكَاءِ ۖ قَالُوا ۗ أَدْنَتْكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ .

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: علم وقتها فلا يعلمه إلا هو سبحانه.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُ﴾ أي: وكما

يُردُّ إليه علم الساعة يُردُّ إليه علم الثمار والنتاج.

وأكمامها: أوعيتها، جمع كُمَّ بالكسر، وهو وعاء الثمرة.

فلا يحدث شيء إلا مقرون بعلمه سبحانه، واقع حسب مشيئته وإرادته.

والساعة غيبٌ في ضمير المستقبل المجهول، والثمرات في أكمامها سرٌّ غير منظور، والحمل في الأرحام غيبٌ أيضاً مستور، وكلها في علم الله، وفي قبضة قدرته ومشيئته، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد: ٨].

ويُقرُّ المعاندون المعرضون بهذه الحقيقة يوم القيامة عندما يقال لهم تقرّباً

وتوبيخاً:

﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنُ شُرَكَاءِي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي: قالوا: أسمعناك وأعلمناك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكاً.

﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾

أي: وغاب عنهم ما كانوا يعبدون في الدنيا من الآلهة المزعومة، وأيقنوا وعلموا أنه لا مهرب لهم من المسؤولية والجزاء.

\* \* \*

### معالم من الشخصية البشرية

﴿لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْوَحْيِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعْتَسِفْ فَنُوحًا ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَدَقَّنْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

ثم غاصت الآيات في أعماق النفس البشرية تبين بعض خصائصها وصفاتها، وتبرز الصفات المؤثرة في مواقفها وسلوكها، وتظهر من خلال هذه الصفات بعض معالم الشخصية البشرية ومواطن الضعف فيها، وحاجتها الشديدة إلى التزكية والتربية، فلا يستقيم سلوك النفس البشرية من دون تزكية وتربية وإرشاد، فهي بحاجة إلى مرشد يرشدها، ومؤدب يؤدبها، ومرب يأخذ على يديها، وينمي فيها نوازع الخير، ويبعدها عن مزلق الشر.

وهذه هي المهمة الأساسية للمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فهم المرشدون المربون الذين لا تستغني البشرية عن إرشادهم وتهذيبهم وتأديبهم، ومن دونهم تضيع وتضل وتنزلق في مهاوي الشقاء والضياع:

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقُنُوطٌ﴾ (٤٩)

أي: لا يملئ الإنسان من طلب المال والصحة ورغد العيش، وإن أصابه العسر والضيق أو الشدة والبلاء، فهو يؤوس قنوط من فضل الله تعالى ورحمته. فالْيُؤُوسُ: اليأس الذي انقطع رجاؤه من الخير، وهي من صفات القلب. والقنوط: الذي يظهر عليه أثر اليأس في جسده فيتضاءل وينكسر. ثم وصفت الآيات كيف يصيح هذا الإنسان عندما تتغير أحواله، ويأتيه اليسر بعد العسر:

﴿وَلَيْنَ أَذْفَنُهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُدَبِّقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٠)

﴿وَلَيْنَ أَذْفَنُهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: ولئن آتيناه خيراً وعافية من بعد ما أصابه من شدة وبلاء، قال: هذا لي، حصلت عليه بعلمي وعملي، فلا فضل لأحد علي.

مع أن في قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ إشارة إلى أن ما آتاه الله من خير هو نعمة تفضل الله بها عليه، دون أن تكون له سابقة استحقاق لهذا الخير، وليس له أيضاً أي تسبب في استجلابه، فهو محض فضل تفضل به سبحانه عليه، ومع ذلك صدر عنه كل هذا الغرور والاستكبار، وأضاف إليه أيضاً إنكار يوم الحساب والجزاء:

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: وعلى تقدير قيامها إن لي عنده للحالة الحسنى من الكرامة.

والتأكيد بالقسم هنا ليس لقيام الساعة، بل لكونه يرى أنه مجزي بالحسنى فيها إن قامت، فكما هو مستحق لنعم الدنيا مستحق كذلك لنعم الآخرة. وردّ تعالى على مثل هذا المغرور المختال، بأنه سيبيّن له حقيقة عمله الذي يجعله مستحقاً للإهانة لا للكرامة وللعذاب الشديد يوم القيامة، فقال:

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: من عذاب شديد وهو عذاب جهنم.

هكذا حال الإنسان إذا كان بمعزل عن إرشاد المرشدين وتزكية المرسلين، استكبار وطغيان في حال الرخاء والنعمة:

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١).

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي: أعرض عن طاعة المنعم وشكره، وتعظّم في نفسه، وتكبّر وترفّع عن الانقياد للحق، فطغى على عباد الله تعالى، وتجبّر وظلم.

وأما حاله في العسر والبلاء فيأس وعجز وهلع:

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: وإذا مسّه الشرُّ يكثرُ الشكوى، ويظهرُ البلوى، ويبالغُ في المسكنة والمسألة، فهو حريص على الجمع، شديد الجزع عند الفقد.

\* \* \*

### شقاء المعرضين عن القرآن

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ (٥٢) سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾.

وعادت الآيات في آخر السورة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، تأمره أن يسأل المعرضين عن القرآن سؤال تقرير وإلزام، يبين لهم من خلال هذا السؤال شدة حاجتهم إلى القرآن، وضخامة جنايتهم على أنفسهم بإعراضهم عنه:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ

بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ .

أي: لا أضلُّ ولا أشقى منكم بسبب كفركم برسالة القرآن .  
وقريباً سترون آثاره في الآفاق وفي أنفسكم حتى يظهر لكم أنه الحق :

﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ  
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: سيريبهم الله تعالى آياته .

والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتأكيد ثبوت الإراءة .

والآيات: هي العلامات والدلائل التي تدل على أن القرآن هو الحق، أنزله  
الحقُّ بالحقِّ، قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾  
[الإسراء: ١٠٥] .

قد سبق ذكر مثل هذه الآية أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ  
فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣] .

كما سبقت الإشارة إليها بقوله: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨] .

والمراد من الآفاق: أقطار السماء والأرض وما فيها من شمس وقمر  
وكواكب وجبال ورياح، كالذي سبق ذكره في الآيات:

- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] .

- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ [فصلت: ٣٩] .

والمراد من قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ما فيها من لطيف الصنعة وبديع الحكمة،

كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] .

فعجائب صنعته وبدائع حكمته لا حدود لها، وكلما تفكَّر بها الإنسان ازداد

معرفة بالله وتعظيماً له، كما سبق عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

إنه وعد الله لعباده أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء، وعدهم أن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق؛ هذا الدين، وهذا الكتاب، وهذا المنهج، ومن أصدق من الله حديثاً؟! ولقد صدقهم الله وعده، فكشف لهم عن آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وما يزال يكشف لهم في كل يومٍ عن جديد، وما يزال الإنسان في الطريق، ووعد الله ما يزال قائماً.

﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي: حتى يتبين لهم أن الله تَجَلَّىٰ منزل القرآن هو الحق من كل وجه، ذاتاً وصفةً، وقولاً وفعلًا، فهو الأول والآخِرُ، والظاهر والباطن، كان ولا شيء معه، وهو سبحانه الآن على ما عليه كان.

وإذا تبين لهم حقيقته عزَّ شأنه من كل وجه، يلزمُ ثبوتُ القرآن وحقيقته، وكونه تنزيل الرحمن الرحيم على رسوله النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد.

وفي قوله تعالى: ﴿بِرَبِّكَ﴾ مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، إشعار بأنه هو والمؤمنون هم الذين يكفيهم شهود الله على كل شيء دليلاً.

وأما الكافرون فهم في مرية من لقاء ربهم، فلهذا لا يكفيهم أنه تعالى على كل شيء شهيد:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شك عظيم من لقاء ربهم يوم القيامة.

﴿أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ فمن أحاط بكل شيء علماً وقدرة، لم يتخلف شيء عن شهوده، فهو على كل شيء شهيد.



## تفسير سورة الشورى

### الوحي والسريعة في سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
حقيقة الوحي ومصدره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿حَمَّ ١﴾ عَسَقَ ٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي  
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ .

بدأت سورة الشورى ثلاثة الحواميم بقوله تعالى:

﴿حَمَّ ١﴾ .

وهما حرفان من الحروف النورانية المقطعة. وخصت هذه السورة بزيادة في هذه الحروف:

﴿عَسَقَ ٢﴾ .

وتدل زيادة المبنى على زيادة في المعنى، والله سبحانه أعلم بالمعنى المراد منها، ويلاحظ أنّ هذه الحروف الخمسة رُسمت منفصلة بآيتين، ولم ترسم

متصلةً كسورة مريم التي ابتدئت بخمسة حروف أيضاً: ﴿كَهَيَّصَ ۝١﴾، ولعلَّ السبب أن تكون فاتحة السورة مثل غيرها من الحواميم.

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾.

أي: الله العزيز الحكيم يوحى إليك كما أوحى إلى الذين من قبلك، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

فمصدر الوحي واحد، والموحي هو الله ﷻ.

والأصل في معنى الوحي: الإعلام الخفي السريع، وهو يتم بين طرفين:

أولهما: الطرف العلوي الموحي أو الملقى.

وثانيهما: الطرف الموحى إليه أو المتلقي، وهذا الطرف لا يملك إلا التلقي.

فالوحي لا يتم ولا يقع إلا بمحض فضله تعالى ومشيئته، فهو العزيز في ملكه وسلطانه، الحكيم في أمره وقضائه، ولا يكون الوحي بالاكْتِسَابِ والاسْتِجْلَابِ من طرف المتلقي، فالنبوة لا تُكْتَسَبُ ولا تُسْتَجْلَبُ، قال تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وقال صاحب «جوهرة التوحيد» الشيخ إبراهيم اللقاني:

ولم تكن نبوةً مُكْتَسَبَةً ولو رقى في الخير أعلى عقبه

وفي قراءة: (يُوحَى) على البناء للمفعول على أن (كذلك) مبتدأ، (يوحي) خبره، و(الله) فاعل لجواب تقديره: من يوحى؟ ويكون الغرض من الإخبار إثبات

اتصافه تعالى بأنه من شأنه الوحي، لا إثبات أنه موحٍ، فالإيحاء مسلمٌ معلوم<sup>(١)</sup>.

ثم أكد سبحانه كمال ملكه وعظمة سلطانه بقوله:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٤﴾ .

أي: له وحده كل ما في السماوات والأرض خلقاً ومِلكاً وتدبيراً، وهو العلي العظيم في عزّه وجلاله، فهو أعلى من كل شيء وأعظم من كل شيء.

\* \* \*

### تسبيح واستغفار

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَفَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥﴾ .

ومن عظمته ﴿٥﴾:

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَفَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥﴾ .

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَفَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي: تكاد السماوات يتشققن من عظمة الله تعالى من جهتهنّ فوقانية، لأنّ أعظم الآيات والمخلوقات كالعرش والكرسي والملائكة من تلك الجهة، فهي أدلّ على العظمة، ولذا كانت قبلة الدعاء، ويتفطرن من تحتهنّ بالطريق الأولى.

وقيل: يتفطرن من دعاء الشريك والولد، قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَفَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿٦﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٦﴾ [مريم].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: والملائكة ينزهونه تعالى عما لا يليق به، متلبسين بحمده، ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين كما مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ [غافر: ٧].

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يقبل استغفارهم، ويزيدهم من فضله ورحمته.

\* \* \*

## الوحي والقرآن

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾

ثم وجَّهت الآيات الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام تواسيه عما يلقي من عناد المشركين وإعراضهم، وفي الوقت نفسه تتوعد المعرضين المعاندين:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾.

أي: والذين جعلوا لله شركاء وأنداداً فأعرضوا عن دعوتك، الله رقيب على أحوالهم وأعمالهم، فيجازيهم عليها، وما أنت بموكل بهم، ولا كفيلاً تؤخذ بهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا واضحاً جليًّا، لتنذر أهل مكة ومن حولها من سائر أقطار الأرض كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَّارِكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

[الأنعام: ٩٢].

والمراد بأم القرى: مكة المكرمة، سُميت بذلك لما روي أنه دُحيت الدنيا من تحتها، والأم تقال لكل ما كان أصلاً لشيء<sup>(١)</sup>.

ويؤيد ذلك ما مرَّ معنا في سورة الأنعام عند تفسير الآية السالفة الذكر بأن مكة المكرمة هي سُرة الأرض ومركزها، وقد ثبت علمياً أنها واقعة في وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية.

﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي: وتندر يوم القيامة الذي تُجَمَعُ فيه الخلائق، وهذا الجمع كائنٌ لا شك فيه، وبعد الجمع يتفرقون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

\* \* \*

### الله هو الولي

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَمَا اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحَكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَ كُمِ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾.

ثم بين تعالى كمال قدرته وطلاقة مشيئته فقال:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: ولو شاء الله لجعل الناس أمةً واحدةً مهتدين أو ضالِّين، ولكن يُدْخِلُ تعالى في رحمته مَنْ يَشَاءُ أَنْ يَدْخُلَهُ فِيهَا، ويدخل مَنْ يَشَاءُ أَنْ يَدْخُلَهُ فِي عَذَابِهِ. فالله بمشيئته وحكمته بنى أمرَ المكلفين على ما يختارون، فيدخل المؤمنين في

رحمته، ويذر المصرين على الظلم والشرك في ضلالهم وكفرهم، ويكون مصيرهم يوم القيامة إلى السعير، من غير ولي يلي أمرهم، ولا نصير يخلصهم من العذاب. ثم أكدت الآيات انتفاء وجود ولي أو نصير للظالمين يوم القيامة:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي: دع الاهتمام بشأنهم، واقطع الطمع في إيمانهم، أليسوا الذين اتخذوا من دون الله أولياء؟! وهو سبحانه الولي بحق، لا ولي بحق سواه.

ف (أم) للإضراب بمعنى (بل) أفادت الانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها، وأنكرت موالة غير الله، ونفته بأبلغ الوجوه.

ثم ختم الله الآية ببيان الدليل على أنه الحقيق بالولاية فقال:

﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فمن كان بهذه الصفة فهو الحقيق أن يتخذ ولياً، ومن لم يتصف بهذه الصفة فلا يكون ولياً. وتستوجب ولاية الله تعالى الانقياد والإذعان لأمره وحكمه:

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وما اختلفتم في شيء من الخصومات فتحاكموا فيها إلى شريعة الله، ولا تؤثروا على تحكيم شريعته غيرها، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: ذلكم الحاكم العظيم الشأن هو مالكي ومتولي أمري، عليه توكلت في كل أموري لا على غيره، إليه أرجع في كل ما يعرض لي من معضلات الأمور لا إلى غيره.

## تنزيه وإثبات

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ  
لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ  
يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ  
لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وهذا الحاكم العظيم هو خالق السماوات والأرض على غير مثال سبق.

﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾ أي: جعل سبحانه للناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم فيه التوالد والتكاثر. يذُرُّكُمْ: يكثركم، من الذَّرءِ: وهو البثُّ والتكثير، فكل المخلوقات تتكاثر وتتوالد بواسطة التزاوج بينها.

أما الله سبحانه فهو الواحدُ الأحدُ الذي لم يلد ولم يولد، ولهذا نفى ﷻ مشابهة شيء من المخلوقات له فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فلا يماثله شيءٌ في كل وجه، ويدخل في ذلك نفى أن يكون مثله سبحانه شيء يزوجه ﷻ.

والمراد من (مثله) ذاته تعالى، وقد ذكر ابن قتيبة: أن العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول: «مثلك لا يبخل»، وهي تريد أنت لا تبخل، على سبيل الكناية. وقيل: إن مثلاً بمعنى الصفة، والمعنى: ليس كصفته تعالى صفة، تنبيهاً أنه تعالى وإن وُصف بكثير مما يوصف به البشر، فليست تلك الصفات له ﷻ حسب ما يستعمل في البشر.

والمثل أعم الألفاظ الموضوعية للمشابهة - كما قال الراغب الأصفهاني - وذلك أَنَّ النَّدَّ يُقال لما يشارِكُ في الجوهر فقط، والشَّبهُ لما يشارِكُ في الكيفيَّةِ فقط، والمساوي لما يشارِكُ في الكمية فقط، والشكل لما يشارِكُ في القدر والمساحة فقط، والمثل عام في جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله تعالى نفي الشبه من كل وجه خصَّه سبحانه بالذكر<sup>(١)</sup>.

فليس له سبحانه مماثل في ذاته وصفاته، فلا يسد مسد ذاته تعالى ذات، ولا يسد صفاته تعالى صفة، كما أَنَّ أفعاله سبحانه لا يقدر غيره عليها، فهو واحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

﴿وَهُوَ السَّيِّعُ الْبَصِيرُ﴾ لكل ما يُسمع ويُبصر، وكأنه سبحانه ذكرهما لثلا يتوَهَّمُ أَنَّهُ تعالى لا صفة له، كما لا مثل له، فله الصفاتُ اللائقة بجلاله وكمالهِ ﷻ، فأول الآية تنزيهٌ، وآخرها إثباتٌ، والتوحيدُ إثباتٌ ذاتٍ غيرٍ مشبهة للذوات، ولا معطلة من الصفات، ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة، إلا من جهة موافقة اللفظ، وجلَّت الذاتُ القديمةُ أن يكونَ لها صفة حديثة، كما استحال أن يكونَ للذات المحدثَةِ صفةً قديمة. وهذا كله مذهبُ أهل الحقِّ والسُّنة والجماعة ﷺ<sup>(٢)</sup>.

ثم بينت الآياتُ أنه تعالى واحدٌ في أفعاله لا يقدر عليها غيره بقوله سبحانه:

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

أي: له سبحانه خزائن السماوات والأرض، أو له مفاتيح السماوات والأرض، والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن، يوسِّع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيِّقه على من يشاء، حسب ما سبق به علمه الذي وسع كل شيء.

\* \* \*

(١) روح المعاني: ١٨/٢٥.

(٢) تفسير القرطبي: ٩/١٦.

## الحاكمية والتشريع لله وحده

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣)

ثم بينت الآيات نتيجة ما سبق تقريره، أن الحاكمية والتشريع لله تعالى وحده، فلا يجوز الخروج عليها ومخالفتها:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣).

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ والخطاب في الآية للأمة المسلمة، ومعناه: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً، ومن بعده من أصحاب الشرائع، وأولي العزم من الرسل.

وإقامة الدين الذي شرعه الله هو توحيدُه وطاعته والإيمانُ بكتبه ورسله وبيوم الحساب والجزاء، فاجعلوه قائماً دائماً مستمراً من غير خلافٍ فيه.

والمراد بإيحاؤه إليه عليه الصلاة والسلام، ما ذكر في صدر سورة الشورى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣)، وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية، لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة، والالتفات إلى نون العظمة في (أوحينا) لإظهار كمال الاعتناء بما أوحى إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك إشعار بأن شريعته ﷺ هي الشريعة المعنى بها غاية الاعتناء،

وذلك هو السر في تقديم الذي أوحى إليه عليه الصلاة والسلام على ما بعده، مع تقدّمهم عليه زماناً، وتقديم توصية نوح لبيان كون المشروع لهم ديناً قديماً. ومعنى (شرع): نهج وأوضح وبين المسالك، وشرع لهم يشرع شرعاً، أي سنّه (١).

وما أراد تفاصيل الشرائع، فإنها مختلفة متفاوتة لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ إنما أراد أصول الشرائع التي يجمعها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: عظم على المشركين وشقّ عليهم ما تدعوهم إليه من توحيد الله وعبادته والتزام شريعته، فلا تبال بعنادهم وإعراضهم. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي: الله سبحانه يصطفي من يشاء فيوفقه، ويرشد من يقبل عليه، ويتمسك بشريعته، وهذا يدل على أنّ بعض المعرضين عن رسالته ﷺ سيستجيب للدعوة، ويصبح من المصدّقين بالرسالة.



### الدعوة إلى الحق والاستقامة عليها

﴿وَمَا نَعْرِفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ نَعْبًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَقَّتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَهْلِ مُسَعَّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فإِذْ قَادَعُ وَإِسْتَقَمَ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا نَبِيَّعَ أَهْوَاهُمْ وَقُلْ ءَامَسْتُ بِمَا أَرَلَّ اللَّهُ مِنْ كُتُبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَأَ أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاحُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

ثم بين سبحانه سبب إعراضهم عن دعوته عليه الصلاة والسلام،

(١) تفسير القرطبي: ١٠/١٦.

واستعظامهم لها، فقال:

﴿وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: إنّما كان اختلافهم بعد بلوغ الحقّ إليهم، وقيام الحجّة عليهم، وما حملهم عليه إلا البغي والحسد. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ولولا أنه تعالى قدر تأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لأهلك الله المبطلين الذين اختلفوا لعظم ما اختلفوا، فبعثه ﷺ بعثة رحمة كما مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وإن أهل الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، لفي شك أيضاً من دعوته، مدخل في الريبة والقلق. فمخالفة الحق ومعاندته لم تصدر عن المشركين من أهل مكة فقط، إنما صدرت أيضاً عن أهل الكتاب.

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فلاجل ذلك التفرق والإعراض عن الحق فادعُ إلى الائتلاف والاجتماع على دعوة الحق، واثبت عليها كما أمرك الله، فإنّ الثبات عليها أفضل وسيلة لتزكية النفوس وتهذيبها وجمعها على الحق، ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة، ولا تنظر إليها، فإنها سبب الفرقة والاختلاف.

وفي الآية إشارة إلى أنّ البشرية قد آلت إلى فوضى واضطراب، وأنها

أصبحت بحاجة إلى قيادة راشدة، وقد انتدب النبي ﷺ لهذه القيادة، وأنيطت به وبأتمته من بعده هذه المهمة.

﴿وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: وقل لهؤلاء المخالفين: آمنتُ بكلِّ كتابٍ أنزله الله، وأُمرتُ بتبليغكم شريعة الله وأحكامه لإقامة العدل بينكم، فلا يكون العدلُ إلا في ظل شريعة الله.

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: الله ربنا وربكم، وكل واحد منا مسؤول أمامه عن عمله، وبهذا يظهر الحق، ولا يبقى للجحود والإعراض مجالٌ سوى المكابرة والعداوة.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: الله يجمع بيننا يوم القيامة، وإليه المعاد لفصل القضاء.

ومع وضوح الحقِّ المؤيِّد بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ظل المعاندون يصدُّون المؤمنين عنه، ولهذا قال تعالى يتوعدهم:

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ مَجْهُومٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: والذين يجادلون المؤمنين المستجيبين لدعوة الرسول ﷺ ليصدوهم عن طريق الهدى؛ حجتهم زائلة باطلة عند الله تعالى، وعليهم غضب من الله، ولهم عذاب شديد يوم القيامة.

\* \* \*

## الشرعية الإلهية والعدل

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْتَهْفَؤُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ .

ثم بيّن سبحانه فضله على الناس، بما أنزل عليهم بواسطة الوحي من الكتب والشرائع لإقامة العدل بينهم:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ أي: الله الذي أنزل الكتب متلبسة بالصدق والحق، مشتملة على الدلائل والبراهين، وأنزل الشريعة التي توزن بها الحقوق، وتقيم العدل بين الناس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فلا يتحقق العدل إلا في ظل الشريعة الإلهية، ولا يقع الجور والظلم إلا عند الانحراف عنها، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن].

وتقرير يوم القيامة وشعور الإنسان بمسؤوليته عن التزام شريعة الله، يحمله على التزام هذه الشريعة والرضا بأحكامها، ولهذا أخبرت الآيات بتحقيق ووقوع الساعة فقالت:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: وما يدريك أيها الإنسان لعل وقت الساعة والجزاء قريب.

فاتبع الكتاب، واعمل بالشرعية الإلهية قبل أن يفاجئك يوم الحساب والجزاء، التي توزن فيه أعمالك، وتوفى جزاءك كما في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعُ

الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال: (قريب) ولم يقل: قريبة، لأن تأنيثها غير حقيقي كما في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ودلت الآية على أن الشعور بالمسؤولية والجزاء، يهذب النفوس ويجعلها تدعن للحق، وتمسك بالعدل، كما ينأى بها عن الجور والطغيان، ولهذا يكذب بها الطغاة الظالمون:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ آلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ .

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يستعجلون وقوعها استهزاء، ظناً منهم أنها غير واقعة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ وأما المؤمنون فإنهم خائفون منها، ويعلمون أنها آتية لا شك فيها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج].

﴿آلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ألا إن الذين يشكون في يوم القيامة ويخاصمون فيه لفي ضلال بعيد عن الحق.

\*\*\*

## الله لطيف بعباده

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانِ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَرَدُّ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانِ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْحَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ وَعِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

إن تقرير الساعة وما فيها من مسؤولية وجزاء، مظهر من مظاهر لطفه سبحانه بعباده، ففيها خيرٌ كثيرٌ للعباد، كما أنها تدل على رحمته تعالى وحكمته:

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ أي: لطيف بهم في تكليفهم وتقدير مسؤوليتهم ومحاسبتهم، فهو سبحانه بارٌّ بهم، ورفيق بهم، يقبل منهم القليل، ويعطيهم الجزيل، ويربيهم بصنوف من البر لا تبلغها الأفهام، ومن تربيتهم تقرير مسؤوليتهم يوم الحساب والجزاء.

ولطيف بهم أيضاً في إيصال المنافع وصرف البلاء، ومن لطفه سبحانه بهم أنه يمدهم بأسباب العيش والبقاء:

﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يرزق من يشاء كما يشاء، فيخص كل واحد من عباده بنوع من البر حسب ما تقتضيه حكمته، ويحرّم من يشاء.

وفي تفضيل قوم على قوم بالرزق حكم كثيرة، بينها تعالى في قوله: ﴿وَنَحْنُ قَسَمًا لِيَنَّهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي: وهو القادر على كل ما يشاء، المنيع الغالب الذي لا يُغلب.

ولله سبحانه أُلطافٌ خاصةٌ بأهل طاعته، يوفقهم ويسدّدهم ويبارك لهم:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي: من كان يريد ثواب الآخرة نَزِدْ له في ثوابه أضعافاً كثيرة، ونيسر له سُبُلَ الخيرات والطاعات، فالدنيا مزرعة الآخرة. ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي: ومن كان يريد الدنيا ومتاعها نُؤْتِهِ ما قَدَّرَ له منها، وقَسَمَ له فيها، لا كل ما يريده، وليس له في الآخرة نصيب، لأنه لم يعمل لها؛ قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء].

ولا يكون عمل الآخرة إلا في تطبيق شريعة الله، ولهذا توعّدت الآيات الذين لا يطبقونها، ولا يلتزمون بها، بل يحتكمون إلى الشرائع الوضعية التي وضعها شياطين الجن والإنس:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢١).

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ وفي الكلام إضمار تقديره: أيقبلون ما شرع الله من الدين؟ أم لهم شركاء شرعوا لهم شرائع تخالف دين الله وشريعته؟ فتشريع أحكام تخالف شرع الله وتفضيلها عليه شرك وكفر، لأنّ الحاكمية وحق التشريع لله وحده، الذي له الخلق والأمر، كما مرّ معنا في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

ولهذا وصفت الآيات المستحدثين للشرائع الوضعية بالشركاء، وجعلت طاعتهم فيما شرعوا واستحدثوا مظهراً من مظاهر الشرك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولولا أنه تعالى قَدَّرَ أن يكون الفصل بين الناس يوم القيامة، لعَجَّلَ عقوبتهم في الدنيا، ولقد أعدَّ لهم يوم القيامة عذاباً أليماً، فمخالفة شرع الله شرك وظلم:

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٢٢).

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: وتراهم يوم القيامة خائفين وجلين من شركهم وظلمهم، وبباله واقع بهم، أشفقوا أم لم يشفقوا.  
وأما المؤمنون العاملون بأحكام دينه وشريعته:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يتعممون في رياض الجنات، لهم ما يشاؤون عند ربهم من أنواع الكرامة والنعيم، إنه الفضل الكبير الذي يتفضل الله به عليهم يوم القيامة، وهي بشارة تحملها الآيات إليهم تهيئة لهم على دين الله وشريعته.

\*\*\*

### مودة آل البيت

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٣) أم يقولون أفترئى على الله كذباً فإن يشاء الله يحطه على قلبك ويمح الله الغلط ويعق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور﴾ (٢٤).

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٣).

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهي بشارة من الله حملها

النبيُّ الكريم ﷺ، وبلغها مبرأةً عن أي حظ دنيوي ونفع مادي له ولأهل بيته عليه الصلاة والسلام، أمر عليه الصلاة والسلام أن يعلنها كما أعلنها سائر الأنبياء والمرسلين قبله، كما سبق معنا في قوله تعالى على لسان جميع المرسلين: ﴿يَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي: لا أسألكم على هذا البلاغ مالا، وإنما أطلب أن تدروني أبلغ رسالة ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

أو: لا أسألكم عليه أجراً قط، ولكن أسألكم أن تؤدوني بسبب قرابتي فيكم، ويؤيده: أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فقال سعيد بن جبیر: قربي آل محمد رضي الله عنهم، فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. [رواه البخاري (٤٨١٨)].

قال ابن حجر رحمته الله: «والمعنى: إلا أن تؤدوني لقرابتي فتحفظوني، والخطابُ لقريش خاصة، والقربى: قرابة العصبية والرحم، فكأنه قال: احفظوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوة. فسعيد بن جبیر ومن وافقه كعلي بن الحسين والسدي وعمرو بن شعيب - فيما أخرجه الطبري عنهم - حملوا الآية على أمر المخاطبين بأن يوادوا أقارب النبي صلى الله عليه وسلم، وابن عباس حملها على أن يوادوا النبي صلى الله عليه وسلم من أجل القرابة التي بينه وبينهم»<sup>(١)</sup>.

والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به خبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما رواه عنه البخاري [٤٨١٨].

ولا ننكر الوصية بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً<sup>(٢)</sup>.

(١) فتح الباري: ٥٦٤/٨.

(٢) تفسير ابن كثير للآية.

وقال الحسن وقتادة: والمعنى إلا أن يتوددوا إلى الله ﷻ ويتقربوا إليه بطاعته، فالقربى بمعنى القربة كزلفى والزلفة، قال القرطبي ﷻ بعد حكاية هذا القول: وقول الحسن حسنٌ، ويدل على صحته الحديثُ المسند عن رسول الله ﷺ، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: لا أسألكم على ما أنبئكم به من البينات والهدى أجراً، إلا أن توادوا الله ﷻ، وتقربوا إليه بطاعته، وكذا قالت الأنبياء صلوات الله عليهم قبله: (إن أجري إلا على الله) (١).

وبعد أن برأت الآياتُ النبي ﷺ وقرابته عن أي حظ من حظوظ الدنيا، حثت المؤمنين بأسلوب غير مباشر على الاستكثار من الطاعات والحسنات بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً زِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: ومن يكتسب حسنةً نضاعفها له، وأصلُ القْرِفِ الكسبُ. يقال: فلانٌ يقْرِفُ لعياله، أي: يكسب (٢).

ولا شك أن منها مودةُ آل بيته ﷺ، حتى جعل بعض المفسرين الآية في محبة آل البيت، قال البيضاوي ﷻ: ومن يكتسب طاعةً؛ سيما حبَّ آل الرسول ﷺ (٣).

وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ ومودته لهم، فقد صحَّ عنه أنه كان يقول: والذي نفسي بيده لقرابةُ رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصلَ من قرابتي.

ونقل النسفي عن السدي: أنها المودةُ في آل الرسول ﷺ، نزلت في أبي بكر ﷺ، والظاهرُ العمومُ في أيِّ حسنةٍ كانت، إلا أنها تتناول المودة تناولاً أولياً بذكرها عقب ذكر المودة في القربى (٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: غفور للذنوب شكور للحسنات.

ودلَّت الآية على أن المؤمنين مكلفون بمودة آل البيت، فقد أخرج مسلم

(١) تفسير القرطبي: ٢٣/١٦.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٠٨/٥.

(٤) تفسير النسفي: ٤٠٨/٥.

[٢٤٠٨]: عن زيد بن أرقم رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أذكركم الله تعالى في أهل بيتي».

وأخرج الترمذي [٣٧٩٠] وحسنه، والطبراني والحاكم [١٥٠/٣]: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عليه الصلاة والسلام: «أحبوا الله تعالى لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله تعالى، وأحبوا أهل بيتي لحبي».. والأخبار في هذا كثيرة لا تحصى <sup>(١)</sup>.

وكما برأت الآيات دعوته عليه الصلاة والسلام عن أي حظ من حظوظ الدنيا، برأت شخصه الكريم أن يكون له أدنى تكلف في اكتساب الوحي واجتلابه، كما مر معنا قريباً عند الحديث عن ظاهرة الوحي، وسيأتي معنا في آخر السورة أنه عليه الصلاة والسلام ما كان قبل البعثة ينتظر الوحي عليه، قررت الآيات هذه الحقيقة في معرض الرد على مزاعم المشركين الباطلة وأكاذيبهم:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَبَدَّلَ اللَّهُ الْقَلْبَ وَوَجَّهُ الْحَقِّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَبَدَّلَ اللَّهُ الْقَلْبَ وَوَجَّهُ الْحَقِّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: بل يقولون: افترى محمد على الله كذباً بدعوى النبوة أو القرآن؟! والهمزة للإنكار التوبيخي، و(بل) للإضراب من غير إبطال المعنى، والمراد منه: كيف ينسبون مثل هذا إلى النبي ﷺ؟! ولو أنه فعله لمنعه الله من ذلك قطعاً، فلو كان افتراءً عليه، لشاء عدم صدوره عنك، فيختم على قلبك، فلا يخطر ببالك معنى من معانيه، ولا تنطق بحرف من حروفه، فمن شأنه تعالى أنه يمحو الباطل، ويثبت الحق، فلو كان افتراءً كما زعموا لمحقه الله ودفعه، ولمّا لم يفعل ذلك، بل أبقاه متتابعاً عليك، تبين أنه من عنده تعالى.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: إنه سبحانه عليم بما في صدرك وصدورهم،

(١) روح المعاني: ٣٢/٢٥.

فِيَجْرِي الْأَمْرُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، فَيَمْحُو بَاطِلَهُمْ، وَيُؤَيِّدُ نَبِيَّهُ، وَيُظْهِرُ دِينَهُ، وَيُعْلِي كَلِمَتَهُ.

\* \* \*

### حاجة العباد إلى الرزق والشرعية الإلهية

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَاسْتَجِبْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَّوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۗ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۗ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَاكِبَةٍ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

ثم بينت الآيات أنّ من لطفه تعالى بعباده المؤمنين أنه يقبل توبتهم، فهي تحثهم على تصفية قلوبهم، وتركية نفوسهم، بالاستكثار من الطاعات، وهجر السيئات، والثبات على التمسك بأحكام شريعته:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

فتوبوا إلى الله، وأعرضوا عن السيئات، واعلموا أنه تعالى يعلم ما تفعلون. والتوبة: الرجوع عن المعاصي بالندم عليها، والعزم على ألا يعود إليها أبداً، ففي الآية دعوة للمؤمنين لتمحيص التوبة، وجعلها خالصة لله تعالى، لأنه تعالى عليم بذات الصدور.

﴿وَاسْتَجِبْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَاسْتَجِبْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ﴾ أي: ويستجيب سبحانه

للتائبين المخلصين، ويزيدهم على ما سألوا من فضله الواسع، فحذفت اللام كما في قوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا مِنْكَ يَمُنُّونَ﴾ [المطففين: ٣] أي: كالوا لهم.

قال تعالى يبين فضله على التائبين المخلصين في التوبة: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقد يكون المعنى الإخبار عن استجابة المؤمنين لدعوة ربهم، وثباتهم على دينه وأحكام شريعته، وتكون الجملة معطوفة على مجموع قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥].

﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: فالمؤمنون يستجيبون، والكافرون يُعرضون، ولهم في مقابل ذلك عذاب شديد.

ثم بينت الآيات حكمته تعالى ورحمته في توزيع الأرزاق بين عباده، كدليل على شدة حاجتهم إلى دينه وأحكام شريعته، كحاجتهم وافتقارهم إلى رزقه وفضله:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾

أي: ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض وتكبروا وأفسدوا، وعلا بعضهم على بعض، ولهذا قدر سبحانه أن ينزل الرزق عليهم بقدر معين حسب ما تعلق به مشيئته، إنه خبيرٌ بأحوالهم، بصيرٌ بشؤونهم، فعليهم أن يلتزموا بأحكام دينه وشريعته، فلا غنى لهم عنها، ولا تستقيم حياتهم من دونها. ويؤكد هذا المعنى أنه تعالى ينزل عليهم الرزق حين تشتد حاجتهم إليه:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾

أي: وينشر سبحانه بركات الغيث ومنافعه في السهول والجبال والوديان، فهو الذي يتولى عباده بالإحسان، ويستحق الحمد على ذلك لا غيره، فلا غنى لعباده عن إحسانه، كما أنهم لا غنى لهم عن طاعته والتزام شريعته.

وها هي دلائل جوده ووجوده سبحانه مبثوثة في كل زمان، تذكّرهم بافتقارهم إليه وحاجتهم إلى عبادته وشريعته:

﴿وَمَنْ آيَنِيهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ .

أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته وعظيم إحسانه خَلَقَ السماوات والأرض، وما نشر فيهما من دابة، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات المتفرقين في أقطار السماوات والأرض، ومع هذا كله فإنه تعالى قادر على جمعهم عندما تتعلق به مشيئته.

\* \* \*

### الذنوب والمصائب

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ آيَنِيهِ الْمَوَارِ فِي الْخَرِّ كَالْأَعْلَاقِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلَنَّ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقَهُنَّ يَمَّا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُخَدِلُونَ فِيْ آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَنَعُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِدَّ اللَّهُ حَيْرًا وَابْتِغَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وعادت الآيات تذكرهم بضرورة التوبة، وتحثهم عليها، وتبين لهم ما يترتب عليها من خير كبير، فذنوبهم هي سبب مصائبهم:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ .

أي: فما سُلط على العبد من يؤذيه إلا بسبب ذنب يعلمه أو لا يعلمه، فليس للعبد إذا أُصيب بمصيبة - كما لو بغى عليه أحدٌ، أو أُصيب بنفسه وماله -

شيء أنفع له من التوبة والإنابة والاشتغال بتنقية نفسه من آثار المعاصي، وعفوه سبحانه عما بقي أكثر وأعظم.

ومر معنا أن الله تبارك وتعالى قال لأصحاب النبي ﷺ بعد مصابهم في غزوة أحد: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قَوْلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وعفوه تعالى منوط بمشيئته، غير متوقف على التوبة:

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٣١).

فأنتم دائماً في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته، وما لكم من دونه ولي يتولاكم، ولا ناصر ينصركم، فلا قدرة لكم أن تعجزوه سبحانه في بر أو بحر.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢).

أي: ومن علاماته الدالة على كمال قدرته السفنُ الجاريةُ في البحر، كأنها من ضخامتها أعلام، وهي الجبال. ومع ذلك فإن هذه السفن لا تمنعكم من نفاذ مشيئته تعالى، فهو سبحانه قادر على تعطيلها أو إغراقها:

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣٣).

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي: إن يشأ يجعل الريح التي تسيّرُها ساكنةً، فتبقى هذه السفنُ ثابتةً على ظهر البحر غير جاريات.

فالريحُ من الطاقاتِ المسخرةِ لكم، لا تنتفعون بها إلا بأمره سبحانه ومشيئته، ويقاسُ عليها كل القوى والطاقات التي سخرها الله تعالى للناس، فانتفاعهم بها منوط بمشيئته وقدرته.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في ذلك لبراهين ودلائل لكل مؤمن متفكر في آلاء الله، يشكره في الرخاء، ويصبر في الضراء.

﴿أَوْ يُؤَيِّبَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٤)

أو يرسلها ريحاً عاصفة تغرق هذه السفن بذنوب أصحابها، ويعفو عن كثير من ذنوبهم، فلا يجازيهم عليها. وهذا تأكيد لما سبق تقريره من كمال قدرته تعالى وطلاقة مشيئته وعظيم إحسانه.

﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ (٣٥)

أي: ولكي يعلم الذين يجادلون في آيات الله أنه لا مهرب لهم ولا فرار من أقداره تعالى.

وقرى بالجزم عطفاً على (يعف) فيكون المعنى: أو يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير آخرين.

ثم زهدتهم الآيات بما في الدنيا من متاع زائل، حتى لا ينشغلوا بها عن العمل للأخرة:

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمُنِعْ أَلْحِيوَةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦)

فالمؤمن والكافر يستويان في متاع الدنيا، فإذا صارا إلى الله تعالى كان ما عنده من الثواب خيراً وأبقى للمؤمن المتوكل عليه.

ولما ضمنت (ما) الأولى معنى الشرط؛ جاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية.

## الأسس الشرعية للمجتمع الإسلامي

﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ إِلَٰهٍ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَصَوْا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَحْرَهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَتَعَوَّنَ فِي الْأَرْضِ يَعبِرِ الْحَقَّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَمَرِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ .

مهَّد الله تعالى في الآية السابقة لبيان أهم القواعد الشرعية التي يجب أن تقوم عليها البنية الأساس للمجتمع الإسلامي، فاستبعد فيها قيام الحياة الاجتماعية الإسلامية على أساس المقياس المادي، ثم بيَّن تعالى أهم القواعد الشرعية التي يجب أن تحكم علاقات الأفراد في ظل المجتمع الإسلامي، وجاء بيان هذه القواعد في معرض مدح مجتمع الصحابة الأول الذين التزموا بها:

﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ إِلَٰهٍ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ .

أي: والذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والزنى، ويكظمون الغيظ إذا غضبوا، ويحلمون، فسجيتهم تقتضي الاستقامة على أمر الله، والصفح والعفو عن الناس.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ .

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: استجابوا لدعوة ربهم، واتبعوا رسوله ﷺ، ورفعوا منار الصلاة، التي هي عماد الدين.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي: وشأنهم قائم على الشورى في ما يتشاور فيه، فلا يستبدون بالرأي، فالشورى ألفة للجماعة، ومنار للعقول، وسبب للصواب، كما

مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: وينفقون جزءاً من أموالهم في وجوه الخير ومساعدة المحتاجين.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (٣٩)

أي: يتقمون ممن بغى عليهم ضمن الحدود المشروعة، فلا يعتدون، ففيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، وليسوا بالعاجزين ولا الأذلين، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم.

وهم مع هذا إذا قدروا عفوًا، فالعفو عند القدرة درجة عالية في الإحسان:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠)

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فالأولى سيئة حقيقية، والثانية ليست سيئة، والمقابلة للازدواج فقط.

أو: لأنها تسوء من تنزل به، وفيه إشارة إلى أن الانتصار والانتقام محمودٌ بشرط رعاية المماثلة.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فمن عفا عن ظلمه، وأصلح بالعفو ما بينه وبين ظالمه، فتوابه على الله، إنه تعالى لا يحب البادئين بالظلم، والمجاوزين حدَّ العدل بالانتصار، إنها عِدَّةٌ مبهمَةٌ تدل على عظم الثواب الموعود به.

﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ (٤١)

أي: ومن أخذ حقه بعدما ظلم لا مؤاخذه عليهم ولا معاتبته.

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤٢).

أي: إنما المؤاخذه والمسؤولية على الذين يبتدئون بالظلم، ويتكبرون في الأرض، أولئك لهم عذابٌ أليمٌ على ظلمهم وبغيهم.

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٤٣).

أي: ولمن صبر على الظلم والأذى وغفر ولم ينتصر مع قدرته عليه، إن ذلك الصبر من الأمور المشروعة المندوبة، فالعفو مندوبٌ إليه. ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال، فيصبح ترك العفو مندوباً إليه، وذلك إذا احتيج إلى كَفِّ زيادة البغي وقطع مادة الأذى<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### العذاب المقيم

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَبِئٍ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ اللَّهِ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدُّنْيِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ حَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَّا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبًا وَإِنْ نَضِمْهُمُ سَيْئَةً يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَلِيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ بُرُوجَهُمْ دُكْرَانًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾.

ومن أساليب القرآن الكريم في تهذيب النفوس وتربيتها، أن يعقّب على

آيات الأحكام بذكر شيءٍ من التهديد أو الترغيب، ليحمل النفوس على التمسك بها وتطبيقها:

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ ۚ﴾ (٤٤)

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: ما له من ناصر يتولاه، ويبين له مثل هذه الأحكام، ويوفقه للعمل بها، من بعد إعراض الله تعالى عنه وخذلانه. ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ﴾ أي: وعندما يرى الظالمون العذاب يقولون: هل نردُّ إلى الدنيا حتى نؤمن ونعمل بهذه القواعد والأحكام؟ ولا شك أن سؤالهم هذا يدل على شدة حسرتهم وندمهم.

﴿وَتَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ حَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ۚ﴾ (٤٥)

﴿وَتَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ حَفِيٍّ﴾ أي: وتراهم يعرضون على النار متذللين، يسارقون النظر إليها من شدة الخوف. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ويقول المؤمنون حين يرونهم على تلك الحال: إن المتصفين بحقيقة الخسران هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ أي: في عذاب دائم لا ينقطع، فلا رجوع لهم إلى الدنيا أبداً.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ۚ﴾ (٤٦)

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: وما كان لهم من أولياء يرفعون عنهم عذاب الله حسب ما كانوا يرجون.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إلى النجاة، فقد سُدَّتْ عليهم كل طرق النجاة، وهو تأكيد لما سبق في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [الشورى: ٤٤].

وبهذه الإثارة الوجدانية العنيفة هيأت الآيات القلوب والنفوس لتستجيب لدعوة الحق وتدعن لها:

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٧).

أي: استجيبوا لربكم قبل أن يأتي يوم لا يردده الله بعد أن تعلقت به مشيئته. أو: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يمكن رده، ما لكم في هذا اليوم مفرّ تلتجئون إليه، ولا تقدرّون أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه، لأنّه مدوّن في صحائف أعمالكم، وتشهد عليه جوارحكم.

ومع هذه الإثارة الوجدانية القوية والدعوة الحارة الملحة، أعرض بعضهم عن الاستجابة لها، فوجهت الآيات الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام تواسيه عن إعراضهم:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَعُغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَعُغُ﴾ أي: فإن أعرضوا عن الإجابة فما أرسلناك عليهم رقيباً، ما عليك إلا تبليغ الرسالة، وقد فعلت.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: ومن شأن الإنسان أنا إذا أنعمنا عليه فرح بالنعمة فرح البطر، فتكبر وتجبّر وأعرض عن شكر المنعم، وإن أصابته سيئة بسبب ما قدّمت يده، فإنّه كثير الجحود، يجحد ما تقدم من النعم، ولا يذكر إلا الحال الراهنة

التي هو فيها، فيذكر البلية ويستعظمها، ولا ينظر في سببها، مع أنها بسبب ما قدمت يدها من المعاصي والآثام كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وهذا شأن غير المؤمنين، أمّا أمر المؤمن فيختلف، قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له» [رواه مسلم (٢٩٩٩)].

وتأمل دقة أسلوب القرآن الكريم في إضافة النعمة إلى الله تعالى، وفي إضافة الشرّ والسوء إلى سببه ومن قام به، فالله سبحانه يتنزّه عن الشر، ويستحيل صدور الشرّ من الغني الحكيم الحميد، مع أنه جل وعلا خالق كل شيء، فالشرّ خيرٌ وحكمةٌ من جهة تعلق فعل الرب به وتكوينه، وشرٌّ من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه.

وتأكيداً لهذه الحقيقة قررت الآيات طلاقة مشيئته تعالى وكمال سلطانه في مخلوقاته:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ﴿٤٩﴾.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لله ملك السماوات والأرض خلقاً وتدبيراً، يتصرف فيهما كما يشاء دون أن يعترض عليه أحد في خلقه وتدبيره. ومن تدبيره سبحانه:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أي: يهب لمن يشاء من عباده ما يشاء من الأولاد، فيخص بعضهم بالإناث وبعضهم بالذكور.

﴿أَوْ يُزَوِّجَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ﴿٥٠﴾.

أو يجمع لبعضهم الذكور والإناث، ويجعل من يشاء عقيماً فلا يولد له، إنه

## أقسام الوحي

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورِ ﴿٥٣﴾﴾

وفي ختام السورة بينت الآيات أقسام الوحي، وألقت الضوء على هذه الظاهرة التي سبق ذكرها في أول السورة:

في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٣].

وفي قوله أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [٧].

وفي قوله أيضاً: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [١٣].

فحصرت في ثلاثة أقسام:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾﴾.

١ - ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا﴾ أي: ما صحَّ لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا وحيًّا، فيلقي في قلبه ما يريد إعلامه به.

قال ابن كثير: هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الرب جل وعلا، فتارةً يقذف في روع النبي ﷺ وحيًّا لا يتمارى فيه أنه من الله ﷻ، كما جاء في «صحيح

ابن حبان « [٣٢٢٨]: عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ».

٢ - ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ أو يسمعه كلامه القديم من غير رؤية، كما كلم موسى ﷺ، ولما سأل الرؤية مع التكليم مُنِعَ منها، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾ الآية [الأعراف: ١٤٣].

وما ورد في الحديث الصحيح: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا» [رواه الترمذي (٣٠١٠) وابن ماجه (١٩٠)] فهذا في عالم البرزخ، فقد قُتِلَ والد جابر يومَ أحد، والآية في دار الدنيا.

٣ - ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أو يرسل ملكاً فيوحي ذلك الملك إلى المرسل إليه من البشر بأمره تعالى ما يشاء أن يوحيه، وهذا الملك هو جبريل عليه السلام.

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ أي: إنه تعالى أعلى من كل شيء، حكيم في أمره وقضائه. ثم تحدثت الآيات عن نزول الوحي على النبي ﷺ:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: وبمثل هذا الوحي البديع أوحينا إليك روحاً من أمرنا، وهو القرآن الكريم.

وسمَّاهُ (روحاً) لأن فيه حياةً من موت الجهل والكفر، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فالقرآن حياة القلوب وربيعها، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا

زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب، كما أن الغيث ربيع الأرض<sup>(١)</sup>.

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ أي: ما كنت يا محمد تعلم قبل نزول الوحي عليك معالم الإيمان وشرائعه التي لا تعرف إلا بالوحي.

فما علم النبي عليه الصلاة والسلام أنه نبي مرسل إلا بالوحي، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧].

ولم يكن ﷺ متعبداً بشريعة أحد من الأنبياء قبله، بل شريعته مستقلة بنفسها، مفتوحة من عند الله، وكان عليه الصلاة والسلام يؤمن بالله ﷻ، فلم يسجد لصنم أبداً.

﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: ولكن جعلنا القرآن نوراً نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: وإنك لتدعو إلى صراط مستقيم، وهو دين الإسلام وشريعة القرآن، فهدايته عليه الصلاة والسلام هداية بيان ودعوة.

﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٥٣﴾

﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: وإنك لتدعو إلى صراط الله الذي له ملك السموات والأرض خلقاً وتدبيراً.

﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي: إلى حكمه تعالى وأمره ترجع أمور مخلوقاته، فالتزموا بدينه، وتمسكوا بشريعته، فإن مصيركم إليه جل وعلا.



## تفسير سورة الزخرف

### الْقُدُوءُ وَالْمَثَلُ فِي سُورَةِ الزُّخْرَفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
تعظيم القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُنْزُورِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَصْرَبُ عَلَيْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾

بدأ سبحانه سورة الزخرف رابعة الحواميم كما بدأ أخواتها ومثيلاتها بقوله:

﴿حَمَّ ١﴾ .

وقد سبق الكلام عليها في فواتح السور السابقة.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾ .

وهو قسم بالقرآن الكريم المكتوب في اللوح المحفوظ - كما سيأتي - الذي أبان الصراط المستقيم، وبين كل ما تحتاج إليه الأمة من الأحكام والشرائع.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ .

أي: إنا صيرناه قرآناً عربياً لكي تفهموا معانيه، وتتفهموا بما فيه .  
ويلاحظ التناسب بين القسم والمقسم عليه، وهو من الأيمانِ الحسنةِ  
البدیعةِ، فلا شيء أعلى منه فيقسم به، ولا أهم من وصفه فيقسم عليه .  
والجعلُ بمعنى التصييرُ المعدى لمفعولين لا بمعنى الخلق المعدى لمفعول  
واحدٍ، إذ الكلامُ مسوق لإثبات كونه قرآناً عربياً مفضلاً وارداً على أساليبهم، لا يعسر  
عليهم فهم ما فيه، ودرك كونه معجزاً، كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ .

أي: وإنه في اللوح المحفوظ عندنا لرفيع الشأن، ذو حكمة بالغة .  
أو: محكم ثابت لا يُنسخُ، أو حاكم على غيره من الكتب، قال تعالى:  
﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٦٦﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج].  
وقال أيضاً: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾  
[الواقعة].

وقال أيضاً: ﴿كَلَّا إِنَّهَا نَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ مَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ تَرْفَعُهُمْ مُّطَهَّرَةً ﴿١٤﴾  
بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿عبس﴾ .

قال ابن كثير رحمته الله: ولهذا استنبط العلماء من هاتين الآيتين أن المحدث  
لا يمَسُّ المصحف، لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في  
الملا الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه  
إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم والانقياد له بالقبول والتسليم .  
وبعد أن بينت الآيات علو شأن القرآن العظيم، وأن الله أنزله لكي يؤمنوا به  
ويعملوا بموجبه، أنكرت أن يكون الأمر بخلافه:

﴿أَفَنْصَرِبُ عَنْكُمْ أَلذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ (٥)

أي: أفنصّحيه ونبعده عنكم لأنكم كنتم منهمكين في الإسراف، مصرّين عليه؟! .  
فالحكمة تقتضي إنزال القرآن عليهم، ومتابعة تذكيرهم به، ولو أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه، قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رُفِعَ حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله ﷻ عادّ بعائده وكرمه ورحمته فكرره عليهم عشرين سنة<sup>(١)</sup>.  
وقول قتادة لطيف المعنى جدًّا - كما قال ابن كثير - فالله جل وعلا من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر به ليهدّي به من قدّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.  
وفي قراءة: (إن كنتم) بالكسر على أن الجملة شرطية، وما قبلها دل على جواب الشرط، والمعنى: لا نفع لك.

\* \* \*

### المسرفون في الجهل والضلالة

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْرِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ نَطَشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَلْفَاكٍ وَالْأَعْيُنِ مَا تَرَكُونَ (١٢) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُقِلُونَ (١٤)﴾

فإسراف الأمم السالفة لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾ .

أي: أرسلنا كثيراً من الأنبياء في الأمم السابقة .

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ .

وهي حكاية حال ماضية مستمرة، فيها تسلية لرسول الله ﷺ من استهزاء قومه .

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ .

أي: فأهلكنا أشد من قوم النبي ﷺ بطشاً، وسلف في القرآن في مواضع كثيرة ذكر قصصهم وحالهم التي من حقها أن تسير مسير المثل، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦].

ومن إفراطهم في الجهالة ومجاوزتهم الحد في الضلالة أنهم يعبدون غيره تعالى، مع إقرارهم واعترافهم بأنه الخالق:

﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ .

ولهذا ذكرتهم الآيات ببعض نعمه سبحانه عليهم، الدالة على كمال قدرته وعلمه، وأنه وحده المستحق للعبادة والطاعة:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: الذي جعل لكم الأرض مكاناً ممهداً لحياتكم وعيشكم - وفي قراءة: (مهاداً) - وجعل لكم فيها طرقاً تسلكونها في أسفاركم، لكي تهتدوا إلى مقاصدكم، وتستدلوا أيضاً بمقدوراته على قدرته .

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ﴿١١﴾﴾ .

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ أي: والذي نزل من السماء ماءً بمقدار معين، حسبما تعلقت مشيئته، فأحيينا بذلك الماء بلدةً لا نبات فيها، وفي قراءة: (ميتاً) بالتحديد.

وتنكير (ميتاً) لأن البلدة في معنى البلد والمكان، والالتفات في (أنشَرْنَا) بنون العظمة لإظهار كمال القدرة في إحياء الأرض اليابسة.

﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا﴾ أي: كذلك تبعثون من قبوركم أحياء كقوله في موضع آخر: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

وقوله أيضاً: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَةَ لَكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: والذي خلق أصناف المخلوقات كلها، فمع كثرة أصناف المخلوقات، فإنَّ خالقها واحدٌ، وكل ما سوى الله مخلوق، لأنه زوجٌ له مقابل، والفرد المنزه عن المقابل هو الله ﷻ كما مرَّ معنا عند قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: وجعل لكم ما تركبونه في البر والبحر، فغلب المتعدّي بنفسه على المتعدّي بغيره، يقال: ركبت الدابة، وركبت في السفينة، والمراد من الأنعام الإبل خاصة، فالبقر لا تُركب، وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «بينما رجلٌ راكبٌ على بقرةٍ التفتت إليه فقالت: لم أخلق لهذا، خلقت للحرائث، قال: آمنتُ به أنا وأبو بكرٍ وعمر، وأخذ الذئبُ شاةً فتبعها الراعي، فقال له الذئبُ: مَنْ لها يومَ السَّبْعِ يومٍ لا راعي لها غيري؟ قال: آمنتُ به أنا وأبو بكرٍ وعمر». قال أبو سلمة: وما هما يومئذٍ في القوم. [رواه البخاري (٢٣٢٤)].

﴿لِئَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣)

﴿لِئَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: لتستقروا على ظهوره، ثم تذكروا نعمة ربكم بقلوبكم معترفين بها، ثم تحمدوه عليها بألسنتكم.

﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: سبحان الذي ذلّله وجعله منقاداً لنا، وما كنا له مطيقين، فالله سبحانه هو الذي سخّره وضبطه لنا وليس لنا من القوة ما نسخره ونضبطه بها.

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١٤)

أي: وإنا إلى ربنا لراجعون.

فعلى الإنسان أن يتأمل الحالة التي هو فيها، ويعتبر بما فيها، فالسفر في الدنيا يذكّره بالسفر إلى الآخرة.

وفي الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً ثم قال: «سبحان الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَىٰ، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَىٰ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، واطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ» وإذا رجع قالهنّ وزاد فيهنّ: «أَيُّونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ» [رواه مسلم (١٣٤٢)].

\* \* \*

## القسمه الباطلة

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ أَحَدًا مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْحَيِّينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يُمْشِقُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِضَامِ عِزٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنْتًا أَشْهَدُوا حَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْتَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم أظهرت الآيات تناقض أقوالهم؛ حيث اعترفوا أولاً أن الله خالق السماوات والأرض، ثم نسبوا إليه الولد، ووصفوه سبحانه بصفات المخلوقين:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ فقالوا: الملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ووصفت الآية الولد بالجزء، لأنه بضعة ممن ولد منه أو ولد له، وهو مستحيل على الله تعالى، الذي لا يوصف بالانقسام مطلقاً، إذ الانقسام والتركيب من صفات المخلوقات، والله يتنزه عن ذلك.

وقيل: الجزء اسم للنساء، يقال: أجزأت المرأة إذا ولدت أنثى، ووجه بعضهم ذلك بأن حواء خلقت من جزء آدم ﷺ (١). وفي قراءة: (جُزْءاً) بضمين.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إن الإنسان الذي يقول هذا القول ظاهر الكفر، مبالغ فيه، فهو يجحد نعم الله تعالى عليه، ويصف الله تعالى بصفات لا تليق بكماله وغناه.

ولهذا وجهت الآيات الخطاب إلى أصحاب هذا القول توبخهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري:

﴿أَمْ أَتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ ﴿١٦﴾

أي: أتخذ ربكم لنفسه البنات وأخلصكم بالبنين؟! فكيف اختار لنفسه المنزلة الأدنى، ولكم الأعلى، فهي قسمة باطلة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ ﴿١٦﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿[النجم].

فما أجهلهم! لم يقنعوا بأن جعلوا لله تعالى جزءاً حتى جعلوا هذا الجزء من أبغض الأشياء إليهم:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾

أي: إذا بُشِّرَ أحدهم بالجنس الذي جعله للرحمن شبهاً، فالولد لا بد أن يشبه الوالد، صار وجهه أسوداً، واربداً غيظاً، وهو مملوء القلب من الكرب والكآبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨].

﴿أَوْ مِنْ يُنْسَوْنَ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ﴿١٨﴾

أو من يُرَبَّى ويشبُّ في الزينة، وهو في المجادلة والإدلاء بالحجة ضعيف؟ فلا يضاف إلى الله من هذا وصفه، ولعلَّ سبب ضعف المرأة في الجدال شدة حياتها. وقرئ: (يُنْشَأُ) بفتح الياء وإسكان النون، أي: ينمو وينبت. وفيه دلالة على إباحة الحلبي للنساء، والإجماع منعقد عليه، والأخبار فيه لا تحصى<sup>(١)</sup>.

والآية ظاهرة في أن النشوء في الزينة والنعموة من المعايب والمذامم بالنسبة للرجال، لأنه من صفات ربّات الحِجال، فعلى الرجال أن يجتنبوا ذلك: وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال» [رواه البخاري (٥٨٨٥)].

وتأكيداً للتناقض في أقوالهم الباطلة قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنَّ شُهَدَائِهِمْ  
وَيُسْأَلُونَ﴾ ﴿١٩﴾

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾؟! أي: أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إنثاء؟! فإن ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة كما قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾؟! [الصفات: ١٥٠]. وفي قراءة: (أأشهدوا) بهمزة داخلية على الفعل الرباعي المبني للمفعول، وفي قراءة أيضاً: (أوشهدوا) بهمزة استفهام داخلية على همزة مضمومة مسهلة. ﴿سَتَكُنَّ شُهَدَائِهِمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ أي: ستسجل عليهم شهادتهم، ويسألون عنها يوم القيامة. وفي قراءة: (سنكتب شهادتهم).

\*\*\*

## التقليد الأعمى والترف

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَنْتُمْ  
 كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ  
 مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ  
 وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ بِآهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا  
 أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم أضافت الآيات حكاية قول آخر من أقوالهم المتناقضة الدالة على شدة جهلهم وضلالهم:

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي: لو شاء الله منا ترك عبادة الأصنام لمنعنا عن عبادتها، ولكن شاء منا عبادة الأصنام. فردّ الله تعالى عليهم بقوله:

﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: إن هم إلا يكذبون، فقولهم هذا لا يدل عليه دليل، بل هو محض الكذب، ومشيتته تعالى غير رضاه، كما سبق بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ الآية [الزمر: ٧].

فعبادة الأصنام كفرٌ، وهي باختيارهم وكسبهم، والله سبحانه لا يرضى بها، ولا أمرهم بها أيضاً، وهم مكلفون بأن تكون أعمالهم موافقةً لأمره وشرعه لا لإرادته، إذ إرادته غيبٌ عنهم، لا علم لهم بها، حتى يقع مراده سبحانه، ولهذا قال في الرد عليهم: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فلا حجة لهم من جهة العقل ولا من جهة السماع والنقل أيضاً.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

أي: هل آتيناهم كتاباً من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله فهم يأخذون بما فيه؟! .

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

فالقوم لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية، بل اعترفوا أنهم يقلدون آباءهم، وأنهم مهتدون بتقليدهم .

والأمة: الطريقة التي تُؤمُّ وتقصد، من الأمِّ وهو القصد<sup>(١)</sup> .

ثم كشفت الآية للنبي ﷺ على وجه التسلية والمواساة أن تقليد الآباء داءٌ قديم منتشرٌ على وجه الخصوص بين الأغنياء المترفين:

﴿وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

وتخصيص المترفين بالذكر يشعر بأن التثنم وحبَّ البطالة صرفهم عن النظر والتفكير إلى التقليد الأعمى، ودفعهم إلى المبادرة لإعلان كفرهم ومعارضتهم دعوة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤] .

﴿قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي: قال كل نذيرٍ لأمته: اتقتدون بآباءكم ولو حجتكم بدين أهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟! وفي قراءة: (قُل) ويكون حكاية قول ماضٍ أوحى إلى كل نذير .

﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰفِرُونَ﴾ أي: إنا ثابتون على دين آبائنا وإن جئتنا بما هو أهدى.

فالتقليد الأعمى أكبر العقبات والمعوقات القائمة في وجه كل دعوة إلى الإصلاح ومقاومة الفساد والظلم، والترف يقوِّي نزعة التقليد الأعمى.

﴿فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمُ ۖ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكٰذِبِينَ﴾ ﴿٢٥﴾

فلا تكثرث بتكذيب قومك، فإنَّ الله سوف ينتقم منهم إن أصروا على كفرهم وتكذيبهم.

\*\*\*

### براءة إبراهيم عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيْمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَهِدٌ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَآفِيَةً فِي عَقِبِهِ ۖ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَنَعْتَ هٰؤُلَاءِ ۖ وَأَبَاءَهُمْ حَقًّا ۖ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾

واذكر يا محمد للمشركين من قومك قصة إبراهيم عليه السلام، وكيف تبرأ من ضلال أبيه وقومه، وخرج على عاداتهم البالية، ومعتقدات آبائهم الباطلة، وتمسك بالحق المؤيد بالدليل والبرهان، اذكره لهم لكي يقلدوه إن كانوا حقاً يريدون تقليد آبائهم، فإنه أشرفهم وأشهرهم:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيْمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَهِدٌ ﴿٢٧﴾﴾

أي: إنني بريء من عبادتكم، لكن الذي خلقتني فإنه سوف يشبني على الهداية. فالاستثناء منقطع، وكأنه عليه السلام أراد أن يبين لهم بهذا الاستثناء أنه لا يستحق

العبادة إلا الخالق، وأن يشد أفكارهم إليه، كما مرَّ معنا من أقواله: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء].

أو: إنني بريء من معبوداتكم إلا الذي فطرني، والاستثناء على هذا المعنى متصل، ولعلَّ قومه كانوا يعبدون الله والأوثان، لكنَّ هذا المعنى فيه إيهام التسوية بين الله سبحانه وبين غيره جل وعلا.

أو: إنني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني، وتكون (ما) موصوفة.

و(براء) مصدر وَصَفَ ﴿٧٥﴾ به نفسه مبالغة، ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث، فلا يُثنى ولا يُجمع ولا يُؤنث. وقرئ: (بريء) و(براء) مثل كريم وكرام.

والجديرُ بالذكر أنَّ براءة إبراهيم ﴿٧٥﴾ من أبيه وقومه ذكرها الله تعالى في مواضع عديدة، ليتأسى به المؤمنون، وتكون قدوة لهم، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلََمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة].

ومنها أيضاً: ﴿فَدَّ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَأُ حَسَنَةً فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الآية الممتحنة: ٤].

وأشار إليها سبحانه أيضاً في قوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت].

ولم يكتفِ ﴿٧٥﴾ بإعلان براءته من قومه من أجل دعوة التوحيد، بل أوصى بها أولاده وذريته ليبقى فيهم من يوحِّد الله، ويدعو إلى عبادته وحده:

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

أي: وجعل إبراهيم كلمة التوحيد - وهي: لا إله إلا الله - باقية في ذريته،

فبقي فيهم من يوحد الله ويدعو إلى عبادته وحده، لعل المشركين منهم يرجعون عن شركهم بدعاء الموحدين، فقد اهتم ﷺ بغرسها في نفوس أبنائه، ووصّاهم بها، قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

فأكرمه الله تعالى بأن جعله إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَعَاطَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقد انتهت هذه الكلمة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ببركة الدعوات الخاشعات التي رفعها إبراهيم وولده إسماعيل إلى الله تعالى وهما يرفعان قواعد بيت الله الحرام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ورسول الله ﷺ أوسط قريش نسباً، يمتدُّ نسبه إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ففي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله اصطفى كنانةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، واصطفى قريشاً مِنْ كنانةً، واصطفى مِنْ قريشِ بني هاشم، واصطفاني مِنْ بني هاشم» [رواه مسلم (٢٢٧٦)].

وأخرجه الترمذي في سننه [٣٦٠٥] بلفظ: «إنَّ الله اصطفى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ...» وقال: هذا حديث صحيح.

قال القاضي عياض رحمته الله: «وأما شرفُ نسبه؛ وكرم بلده ومنشئه؛ فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مشكل ولا خفي منه، فإنه نخبة بني هاشم وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قبَلِ أبيه وأمه، ومن أهل مكة أكرم بلادِ الله على الله وعلى عباده»<sup>(١)</sup>.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾ .

أي: بل متعتُ أهل مكة وهم من ذرية إبراهيم بالمد في العمر والنعمة، فاغثروا بالمهلة، وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد، حتى جاءهم القرآن الكريم ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام بيِّن لهم الأحكام، ويدعوهم إلى كلمة الحق والإيمان، ولكنهم أعرضوا وكذبوا.

\* \* \*

### إعراض واعتراض

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْصًا سَخِرَ اللَّهُ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ حَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

أي: ولمَّا جاءهم رسول الله ﷺ بدعوة الحق، وصفوه بالسحر، وأعرضوا عن اتباعه، واعترضوا على إنزال الرسالة عليه:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ .

أي: لولا نُزِّلَ القرآن على رجل من أغنياء ووجهاء مكة أو الطائف. وهذا يدل على أنهم لم يعرفوا للنبي ﷺ منزلته، وما رآوه أهلاً لحمل الرسالة، فالرسالة منصبٌ عظيمٌ، لا تليقُ إلا بعظيم. ولم يعلموا أنها رتبة عظيمة

روحانية تستدعي عظم النفس في التحلّي بالفضائل والكمالات القدسية، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية<sup>(١)</sup>.

وردّ الله على اعتراضهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري بكل ما فيه من تجهيل وتعجيب فقال:

﴿أَهْرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ لَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ .

﴿أَهْرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ؟!﴾ أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله العزيز الحكيم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه - كما قال ابن كثير رحمته - لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً. ﴿لَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: نحن أوقعنا التفاوت بين العباد في الرزق، فأفقرنا قوماً، وأغنينا قوماً، وهم عاجزون عن الاعتراض عليه، فكيف يعترضون على تخصيص بعض عبادنا بالنبوة والرسالة وشأنها أعظم وأخطر من شؤون الدنيا؟! .

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ أي: وخالفنا بينهم أيضاً في الملكات والمواهب والصفات، ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال، ويحتاج بعضهم إلى بعض، فيكون التعاون والتآلف.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ والنبوة وما تؤدي إليه خير مما يجمعون من حطام هذه الدنيا الفانية.

## الزينة والمتاع

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم بين تعالى حقارة الدنيا التي عدّها الكافرون مقياس التفاضل:

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

أي: لولا أن يجتمع الناس على الكفر لأجل المال لجعلنا لبيوت الكافرين سُقْفًا من فضة، وسلالم من فضة أيضاً عليها يصعدون.  
وفي قراءة: (سُقْفًا) بفتح السين وإسكان القاف على الواحد، ويراد به الجمعُ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

أي: ولجعلنا أيضاً أبواب بيوتهم والأسرّة التي ينامون عليها من الفضة.

﴿وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ .

﴿وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ أي: ولجعلنا لهم زينة من كل شيء يتزين فيه، ويتمتع فيه في الدنيا الزائلة الفانية، أو هو الذهب كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وَقُرَّتْ (لما) بالتشديد والتخفيف، والمعنى: وكل ذلك هو متاع الحياة الدنيا.  
﴿وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فلا يشاركون فيها غيرهم.

فالدنيا هينةٌ على الله تعالى يعطيها من يحب ومن لا يحب، كما قال: ﴿كَلَّا تُمَدُّ هَتُولَاءُ وَهَتُولَاءُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْطُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].  
 وقال النبي ﷺ: «لو كانت الدنيا تزنُ عند الله جناح بعوضةٍ ما سقى منها كافراً شربةً ماءٍ» [رواه ابن ماجه (٤١١٠) والترمذي (٢٣٢٠) وقال: حديث حسن صحيح].

\* \* \*

### القدوة السيئة

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَبَلِّغْتَنِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِفَيْنِ فَيَسَّ الْقَرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَفْعَلَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرًا فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي صَلَاتٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذْرٌ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم كشفت الآيات سبب انصرافهم عن القدوة الحسنة إلى القدوة السيئة بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ومن يعرض عن ذكر الرحمن ويتعامى عنه ويتغافل، وهو القرآن الكريم، نضمٌ إليه شيطاناً نسلطه عليه، يُغويه ويُضله، ولا يفارقه. وفي قراءة: (يقبض).  
 وفي الآية إشارة إلى أن المداومة على قراءة القرآن الكريم وذكر الله تعالى باسم من أسمائه الحسنی تبعُدُ الشيطانَ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: وإن الشياطين ليصدون الغافلين عن سبيل الهدى، وفي الوقت نفسه

يحبسون أنفسهم أنهم على الهدى، فهم كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيدهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وكما كان الشياطينُ مقارنين لهم في الدنيا، فهم يقرون معهم في الآخرة:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فِيمَنْ آلَ الْقُرَيْنِ﴾ (٣٨).

أي: حتى إذا جاءنا يوم القيامة قال الكافر لقرينه: يا ليت بيني وبينك بعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس القرين أنت.

وفي قراءة: (حتى إذا جاءنا) على التثنية، والمراد: الكافر وقرينه.

وقوله: ﴿الْمَشْرِقَيْنِ﴾ تغليبٌ لاسم أحدهما على الآخر، كما يقال للشمس والقمر: القمران. ولأبي بكر وعمر: العمران. وللتمر والماء: الأسودان. وهذا التمني لا ينفعه ويقال له:

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩).

أي: لن ينفعكم هذا التمني إذ ثبت وصحَّ أنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا بإعراضكم عن ذكر الرحمن، فأنتم مشتركون في العذاب، كما كنتم مشتركين في الكفر.

أو: لن ينفعكم اشتراككم في العذاب، لأنَّ لكل واحد نصيبه الأوفر منه، ويقويه قراءة: (أنكم).

لقد أدى بهم إعراضهم عن ذكر الرحمن، واتباعهم القدوة السيئة إلى الاستغراق في الكفر والإفراط في الضلال حتى قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام مسلماً ومواسياً:

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٠).

فلا قدرة لك على هدايتهم مهما بالغت في دعوتهم، لأنهم أعرضوا عن

سماح الحق ورؤية أدلته، فصاروا كالصم الذين لا يسمعون، والعمي الذين لا يبصرون، فلا خلل ولا نقص في الداعي، إنما الخلل والنقص في المعرضين عن الدعوة فلا بد من الانتقام منهم:

﴿فَأَمَّا نَذَبَ بِكَ فَأِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٤١).

أي: فإن قبضناك قبل أن ترى عذابهم فإنا منهم منتقمون لا محالة في الدنيا.

﴿أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ (٤٢).

أو نرينك العذاب الذي وعدناهم، فإنهم في قبضة قدرتنا، وتحت قهر مشيئتنا، لا فرار لهم ولا نجاة.

ولقد أراه عليه الصلاة والسلام ذلك يوم بدر، وأقر عينه وعيون المؤمنين بالانتقام من رؤوس الكفر والضلال.

\* \* \*

### الثبات على الصراط المستقيم

﴿فَأَسْتَمِسِّكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعَدُّونَ ﴿٤٥﴾.

فعلى الدعوة إلى الله تعالى أن يستمروا على طريق الدعوة، ويثبتوا عليه دون انتظارٍ للنتائج، المهم في الدعوة الاستمرار والثبات حتى تكون دعوتهم خالصة لله تعالى، ولهذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ إمام الدعوة:

﴿فَأَسْتَمِسِّكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣).

أي: تمسك بالذي أوحى إليك في القرآن من الأحكام والشرائع، إنك على

دينٍ قويم، ومنهج مستقيم، لا يزيغ عنه إلا ضالٌّ هالك.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أي: وإنه لشرف عظيم لك ولقومك وهم العرب الذين أنزل القرآن بلغتهم.  
أو: لشرف لك ولأمتك وهم المؤمنون، وسوف تُسألون يوم القيامة عن قيامكم بحقه، وتعظيمكم له، وعن شكركم هذه النعمة.

فالقرآن نزل بلغة العرب، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لغتهم حتى يفقوا على معانيه، فَشَرَّفَ العربُ بذلك على سائر الناس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

أو إنه لتذكيرٍ لك ولقومك، وبيِّن ما بكم حاجة إليه من الأحكام والشرائع، وسوف تُسألون عن العمل به، فهو شرفٌ لكلِّ مَنْ عمل به - كما قال القرطبي رحمه الله - سواءً كان من العرب أم من غيرهم.

وتابعت الآيات تؤكِّد صدق دعوته عليه الصلاة والسلام:

﴿وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

فجميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده، ونهوا عن عبادة غيره، فالمراد من السؤال التقرير للمشركين أنهم على الباطل، وأنه لم يأت رسولٌ بعبادة غير الله تعالى، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله أيضاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

[النحل: ٣٦].

## السلف والمثل

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَكَالَٰءِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ  
 بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ  
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ادْعُوا رَبَّكُمْ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكُمْ عِبَادَتَكُمْ إِنَّا لَنُفِثُكُمْ  
 كَيْفَ نَشَاءُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ  
 مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ خَيْرٌ لِّي مِنْ نَحْوِهَا أَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٥٠﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا  
 يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥١﴾ فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴿٥٢﴾ فَاسْتَحَفَّ  
 قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ  
 أَجْمَعِينَ ﴿٥٤﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٥﴾﴾ .

ثم بين سبحانه أن فرعون وقومه كانوا سلفاً لمشركي قريش، فقد اعترضوا  
 أيضاً على اصطفاء موسى ﷺ لمقام النبوة والرسالة بسبب فقره وقلة ما في يده  
 من متاع الدنيا، كما اعترض مشركو مكة على اصطفاء الله تعالى للنبي عليه  
 الصلاة والسلام لمقام النبوة والرسالة:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَكَالَٰءِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ .

ولقد أرسلنا موسى ﷺ مؤيداً بالمعجزات إلى فرعون ومن حوله من وجهاء  
 قومه، فقال: إني رسول رب العالمين .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: استهزؤوا منها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها، وكذبوا موسى ﷺ،  
 وأعرضوا عن دعوته .

فتتابعت عليهم المعجزات تصديقاً لموسى ﷺ، وفي بعضها شيء من العذاب تحذيراً لهم:

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: وما نريهم من معجزة إلا وهي مختصة بنوع خاص من الإعجاز، يميّزها عن غيرها، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون عن عنادهم وكفرهم، كالسنين والظوفان والجراد وغيرها كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣].

وكلّمنا وقع بهم العذاب لجؤوا إلى موسى يسألونه أن يدعو ربه، ليكشف العذاب عنهم:

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: يا أيها الساحر ادع لنا ربك ليكشف عنا العذاب بما أخبرتنا عن عهده إليك أنّا إن آمننا كشف عنا العذاب، إننا لمؤمنون.

ويبدو أنهم نادوه بهذا النداء تعظيماً وتوقيراً، فللساحر عندهم مكانة رفيعة، وقد ذكر سبحانه في موضع آخر أنهم نادوه باسمه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤].

وهذا يدل على أنهم نادوه باسمه، وقرنوا معه وصفه بصفة الساحر، فدعا موسى ربه، فكشف العذاب عنهم، مع علمه سبحانه أنهم لم يؤمنوا، كشفه عنهم إمهالاً لهم إلى الوقت الذي قدره بسابق علمه ومشيئته لإهلاكهم:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: ينقضون عهدهم، ويصرون على كفرهم.

ثم بينت الآيات سبب إصرارهم وعنادهم:

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۗ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

فهو مغترّب بما عنده من متاع الدنيا وزخارفها، فتساءل مختلاً متكبراً: أليس لي ملك مصر وأنهارها المتفرعة عن النيل، تجري تحت قصوري، وتروي جناني وبساتيني، أفلا تبصرون ذلك؟! .  
فهذا في نظره يدل على أنه المستحق للطاعة والمتابعة دون نبي الله موسى، ولهذا أضاف قائلاً معرضاً بموسى ﷺ:

﴿أَمْرًا أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ .

أي: بل أنا خير من هذا الذي هو ضعيف فقير، ولا يبين الكلام.  
قال ذلك افتراء على موسى ﷺ، وتنقيصاً له، إذ كان في لسانه خلل يسيرٌ في النطق أبرأه سبحانه منه كما سبق لنا عند قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٥٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٥٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٥٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٥٨﴾﴾ [طه: ٥٨].  
فاستجاب الله له فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٣٦].  
فالفضل في نظر فرعون منوط بما في يد الإنسان من متاع الدنيا وزينتها وزخرفها، ولهذا أضاف قائلاً:

﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ مُقَرَّبِينَ ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ أي: هلا ألقى عليه أساور من ذهب إن كان صادقاً، فالذهب في نظر فرعون هو سبب الرياسة والتقدم، كما هو في نظر مشركي مكة عندما اعترضوا على رسالة النبي ﷺ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: مقترنين بموسى محيطين به كما تحيط حاشية الملوك بهم تفخيماً لهم وتعظيماً.

﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ ﴿٥٤﴾

أي: فحمل فرعون قومه على الخفة والعجلة والطيش بما عنده من زينة الدنيا وزخارفها، فسارعوا إلى تقليده وطاعته؛ إنهم كانوا خارجين عن طاعة الله، ولذلك أطاعوا ذلك الفاسق كما يقال في الأمثال السائدة: إِنَّ الطيورَ على أشكالها تقع.

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥٥﴾

أي: فلما اشتد غضبنا عليهم بسبب إفراطهم في الكذب والفسوق انتقمنا منهم فأعرقناهم أجمعين.

وروى الإمام أحمد [١٤٥/٤]: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: أَنَّ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ لَهُ» ثم تلا صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

فهو كقوله تعالى: ﴿سَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «وجدت النعمة مع الغفلة»<sup>(١)</sup>.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

أي: جعلناهم قدوة للكفار الذين يأتون بعدهم في استحقاق العذاب، وعظة وعبرة للناس بعدهم.

ويجوز أن يُراد بالمثل القصة العجيبة التي تسير مسير الأمثال، ومعنى

كونهم مثلاً أن يقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].



### الخصومة بالباطل

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَلْهَيْتَنَا حَيْرَ أَمْرٍ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾

وبمناسبة ذكر المثل أظهرت الآيات شدة عناد مشركي قريش وجدلهم الباطل في عيسى ابن مريم عليه السلام، فقد جعل الله تعالى خلقه من أمه التي لم يمسسها بشر مثلاً على كمال قدرته تعالى، وأن الأسباب ليست هي المؤثرة، إنما الخالق والمؤثر هو الله القادر على الخلق بسبب ومن غير سبب:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾

أي: يعرضون، وقالوا: ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلهاً، كما اتخذت النصرارى عيسى ابن مريم إلهاً، قاله قتادة، ونحوه عن مجاهد قال: إن قريشاً قالوا: إن محمداً يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى، فأنزل الله هذه الآية.

وقد أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش: «يا معشر قريش إنه ليس أحدٌ يُعبدُ من دون الله فيه خيرٌ» قالوا: ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، وقد عبدته النصرارى، فإن كنت صادقاً فإنه كآلهتهم. فأنزل الله الآية. [رواه أحمد (١/٣١٧)].



﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ .

أي: ما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة، وجعله مثلاً لبني إسرائيل يستدلون به على كمال قدرة الله تعالى.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

ومن كمال قدرته تعالى أنه لو شاء لخلق منكم يا رجالاً ملائكة يخلفونكم في الأرض، فحال عيسى عليه السلام - وإن كانت عجيبةً - فالله تعالى قادر على ما هو أعجب من ذلك.

وفي الآية إبطالاً أيضاً لقولهم عن الملائكة بأنهم بناتُ الله كما مرَّ معنا، فالملائكة ذواتٌ ممكنةٌ مخلوقة، خلقها سبحانه ابتداءً من دون توليد، وهو سبحانه قادر على أن يخلقهم بالتوالد كما خلق غيرهم.

﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُكُ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرْطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ .

أي: وإن عيسى عليه السلام بخلقه بغير أب دليل على قدرة الله على بعث الناس يوم القيامة، فلا تشكَّن بها، واتبعوني فيما أخبركم به وأدعوكم إليه، فهو الصراط المستقيم الذي لا يضلُّ سالكه، ولا يزيغُ عنه إلا هالك.

أو إنَّ عيسى ممَّا يُعَلِّمُ به مجيء الساعة، لأنَّ نزوله من علاماتها الكبرى، فيعلم به دنوُّها، ويؤيده قراءة: (وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ) والعَلْمُ هو العلامة، كما تؤيده الأحاديث الصحيحة الكثيرة، حتى قال ابن كثير رحمته الله: وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً.

وقد بَوَّبَ الإمام البخاري في «صحيحه» باباً خاصاً في: [٦٠] كتاب أحاديث الأنبياء، فقال: [٤٩] باب نزول عيسى ابن مريم عليها السلام، وأخرج فيه [٣٤٤٨]: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي

بيده، ليوشكنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ  
الْخَنزِيرَ، وَيَضَعَ الْحَرْبَ، وَيَضَعَ الْجَزِيَّةَ، وَيَفِيضَ الْمَاءُ، حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ،  
حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ:  
وَأَقْرَبُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِدِيٍّ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ  
شَهِدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

قال ابن حجر رحمته الله: وهذا مصيرٌ من أبي هريرة إلى أن الضمير في قوله:  
(ليؤمنن به) وقوله: (قبل موته) يعود على عيسى، أي: إلا ليؤمن بعيسى قبل  
موت عيسى، وبهذا جزم ابن عباس في ما رواه ابن جرير عنه بإسناد صحيح.  
وعن الحسن قال: قبل موت عيسى، والله إنه الآن لحَيٍّ، ولكن إذا نزل  
آمَنُوا به أجمعون، ونقله عن أكثر أهل العلم، ورجَّحه ابن جرير وغيره.

قال العلماء: الحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود  
في زعمهم أنهم قتلوه، فبين الله تعالى كذبهم، وأنه الذي يقتلهم، أو نزوله لدنو  
أجله ليدفن في الأرض، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها،  
فيوافق خروج الدجال فيقتله<sup>(١)</sup>.

وقد أيدت الأحاديث الصحيحة الكثيرة: أن عيسى يقتل الدجال، منها:  
حديث النّوّاس بن سَمْعَانَ رضي الله عنه قال: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ  
فَخَفَضَ فِيهِ وَرَفَعَ، حَتَّى ظَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا  
فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَالَ غَدَاةً، فَخَفَضْتَ فِيهِ  
وَرَفَعْتَ، حَتَّى ظَنْنَا أَنَّهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرَ الدَّجَالِ أَخُوْفَنِي عَلَيْكُمْ،  
إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَاْمَرُّوْا حَجِيجَ  
نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَائِفَةٌ، كَأَنِّي أَشْبَهُهُ  
بِعَبْدِ الْعُرَيِّ بْنِ قَطَنِ، فَمَنْ أَدْرَكَكُمْ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ . . .  
فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيًّا

دمشق، بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافرٍ يجد ریح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بابٍ لُد فيقتله...» [رواه مسلم (٢٩٣٧)].

وكما أمرت الآياتُ باتباعه عليه الصلاة والسلام حذرت بعد ذلك من اتباع الشيطان:

﴿وَلَا يَصُدَّنْكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٦٢)

أي: ولا يصدنكم الشيطان عن اتباعي، فإنه عدوٌ لكم ظاهرُ العداوة، فلا تكونوا مثل بني إسرائيل في مخالفتهم لعيسى عليه السلام.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٦٣)

أي: ولما جاء عيسى بالمعجزاتِ الدالة على صدقه قال لبني إسرائيل: قد جئتكم بالشرعية المحكمة، ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة، فاتقوا الله بعبادته وحده، والتزام الشريعة التي كلفكم بها، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه.

ثم أعلن عليه السلام أنه يدعو إلى دين التوحيد الذي هو الصراط المستقيم:

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦٤)

أي: إنني مخلوق مربوب لله تعالى، كما أنكم مخلوقون مربوبون له سبحانه، فهو وحده المستحق للعبادة، وهذا هو الصراط المستقيم، الذي لا يضلُّ سالكه.

ومع وضوح دعوته ﷺ، وكثرة المعجزات الدالة عليها؛ انقسموا إلى فرقي وأحزاب، ووقع الاختلاف بينهم:

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ .

أي: اختلف الأحزاب من بين من بُعث عيسى إليهم، فويل للذين كفروا وأشركوا من عذاب يوم القيامة، فهو كما قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

\* \* \*

### رحم الإيمان والتقوى

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَحْيَاءُ يَوْمَئِذٍ بِعَصْفِهِمْ لِبَعْضِ عَدُوٍّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ لَا حَوْلَ إِلَّا بِعِزِّكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتَ تَحْرُوكُ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ .

وهذا اليوم آتٍ لا ريب فيه، وكلُّ آتٍ قريبٌ، فلماذا لا يبادر مشركو مكة إلى الإيمان؟! .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ .

أي: ما ينتظرون إلا إتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها .  
ويومئذٍ تنقطع بينهم كلُّ العلاقات المادية التي كانت في الدنيا، وتقلَّب إلى عداوةٍ وبغضاءٍ وآلامٍ وحسراتٍ:

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧).

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: المتحابون في الأمور الدنيوية والمصالح المادية يعادي يوم القيامة بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، كما أخبرنا ربنا في آيات كثيرة؛ منها: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

فالذين أحبوا فرعون وأطاعوه، واتبعوه لمناصبه وذهبه، يلعنونه ويعادونه يوم القيامة، وكذلك المشركون الذين تعلقت أبصارهم بعظماء مكة والطائف، وأعرضوا من أجلهم عن النبي ﷺ.

﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم أحبابٌ وأصحابٌ في الدنيا والآخرة، ولا تنقطع خلتهم وصدقاتهم بالموت، فَرَحِمُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى أقوى من الموت، يُكرمهم الله تعالى يوم الفزع الأكبر ويناديهم قائلاً:

﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩).

ووصفه تعالى لهم بصفة الإيمان به والاستسلام لأحكام دينه وشريعته؛ جاء تعليلاً لهذه الكرامة العظيمة التي يتفضلُ بها عليهم. وفي قراءة: (يا عبادي).

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (٧٠).

أي: ادخلوا الجنة أنتم وقرناؤكم من المؤمنين تُسْرُونَ وتكرمون. أو أنتم وأزواجكم المسلمات. والمعنى الأول ينسجم مع قوله السابق: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧١).

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: وأكواب من ذهب أيضاً، تارة يطاف عليهم بصحاف وأكواب من ذهب، وتارة من فضة، لقوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

وكأن ذكر صحاف الذهب هنا أمرٌ مقصود تعريضاً بالمترفين في الدنيا، الذين أعمى بريقُ ذهبها أبصارهم عن رؤية دلائل الحق، فأعرضوا عن اتباعه، وباعوا دينهم بعرضٍ قليل زائل، كما سبق معنا عند قول فرعون: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣]. فأين ذهب الدنيا وزخرفها من ذهب الجنة ونعيمها؟!.

ويؤيد ذلك أن الإسلام حرم استعمال آنية الذهب والفضة، فإن استعمالها من مظاهر الترف.

وفي الحديث الشريف: عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تلبسوا الحريرَ، ولا الديباجَ، ولا تشربوا في آنية الذهبِ والفضةِ، ولا تأكلوا في صحافِها، فإنَّها لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة» [رواه البخاري (٥٤٢٦)].

وعن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ شَرِبَ فِي إِنَاءٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَإِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ» [رواه مسلم (٢٠٦٥)].

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي: وفي الجنة كل ما تشتهيهِ الأنفُسُ، وتستلذه الأعين، فتسرُّ بمشاهدته.

وبعد هذا الخبر توجهُ الآياتِ الخطابِ إلى أهل الجنة تشريفاً وتكريماً بقوله

تعالى:

﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكنون أبداً.

﴿رَبِّكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

وفي إشارته سبحانه إلى الجنة بـ (تلك) دلالة على أنها مطلوبة يسعى إليها طلابها، بينما أشار إلى جهنم بـ (هذه) تقريباً لها، وتخويفاً منها، وفي قراءة: (تشتهي الأنفس)، (ورثتموها).

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ .

أي: تأكلون بعضها، فنعيم الجنة لا ينتهي، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا كَثِيرٌ ﴿٧٣﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة].

\* \* \*

### نداء المجرمين في جهنم

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴿٧٤﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُّسَلِّمُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادُوا يَمْشِكُ لِيَقْصِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنكُورُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أُنزِلُوا أَمْرًا فَإِنَّا مَبْرُؤُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَسْمَعُونَ آتَانَا لَا تَسْمَعُ سُرَّتْهُمْ وَبِخُونُهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُورُونَ ﴿٨٠﴾﴾ .

فما قيمة متاع الدنيا الزائل بجانب نعيم الجنة الباقي الذي لا ينقص ولا يببّد؟! وما أعظم الفرق بين ذلك النعيم الخالد وبين متاع الدنيا الزائل الذي سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ولِيُؤْتِيَهُمْ آتُونًا وَسُرْرًا عَلَيْهَا يُسْكُونُونَ ﴿٧٤﴾﴾ وَرُحْرُقًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿الزخرف﴾! بينما هي شر للمجرمين الغارقين بالإجرام والكفر:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٥﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ .

أي: لا يخففُ العذابُ عنهم، وهم فيه آيسون من الرحمة والنجاة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ .

أي: فما عذبهم سبحانه هذا العذاب إلا بعدله، فهم الذين ظلموا أنفسهم باختيارهم وكسبهم، ويدفعهم بأسهم من النجاة إلى سؤال الموت:

﴿وَنَادُوا يَمْئَلُكَ لِيَقُضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ .

أي: ونادوا مالكا خازن جهنم: لئِمِثْنَا رَبُّكَ فِيرِحْنَا مِنَ الْعَذَابِ . فيجيبهم بعد زمن طويل: إِنَّكُمْ مَقِيمُونَ فِي الْعَذَابِ، فلا خلاصَ لكم منه . ثم ذكَّره موبخاً بأن سبب شقائهم هذا كان بكسبهم واختيارهم:

﴿لَقَدْ حَسِبْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ .

أي: لقد بيَّنا لكم الحق، ووضحناه بالأدلة والبراهين، ولكنَّ أكثركم أعرض عنه، لأنكم تكرهون الحق ولا تُدْعون له . وبعضهم ما كان يكره الحق، ولكنه كفر تقليداً .

ويبدو كما مرَّ معنا أن أهل النار تتعدد نداءاتهم واستغاثاتهم فهم يستغيثون أولاً بخزنة النار: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُحْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَاذْعَبُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر].

فلما يسوا منهم نادوا مالكا، فلما يسوا منه نادوا ربَّ العزة والجلال: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا بَتَدَكَّرْ فِيهِ مَن تَدَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وبينت الآيات أنهم يستحقون هذا العذاب لكثرة جرائمهم، فهم لم يكتفوا بالإعراض عن رسالة النبي ﷺ والاعتراض على اختياره لحمل الرسالة، بل أضافوا إلى ذلك أنهم مكروا به عليه الصلاة والسلام، وائتمروا فيما بينهم للتخلص منه، فأنزل الله تعالى يتوعدهم على ذلك بقوله:

﴿أَمْ أَرْمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

أي: أم أحكموا كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ، فإننا مبرمون كيدنا في إحباط مكرهم، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رُؤِيًا﴾ [الطارق].

وقوله أيضاً: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

والإبرام: الإحكام، وأبرمت الشيء: أحكمته.

وكان المشركون يتناجون سراً في ناديهم، وهم يأتُمرون برسول الله ﷺ،

فأنزل الله يتوعدهم ويفضحهم:

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ أُرْسِلْنَا لَدَيْهِمْ لِيَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أي: أيحسبون أنا لا نسمع ما تكلموا به سراً، بلى نحن نسمع حديثهم، ورسلنا من الملائكة أيضاً يسمعون ويكتبون.

\* \* \*

## توحيد وتنزيه

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَدَرَهُمْ بِعُذْرَتِهِمْ وَيَلْعَنُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَاءَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٧﴾

وعادت الآيات بعد هذا الوعيد والتهديد والإثارة العاطفية الوجدانية إلى الأسلوب العقلي المنطقي لتذكّر المشركين بوحدانية الله تعالى، وتنزيهه عن الاتصاف بالولادة والولد، وبهذا تردّد على مزاعم المشركين الباطلة بأن الملائكة بناتُ الله، وتردّد أيضاً على الذين وصفوا عيسى عليه السلام بأنه ابن الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨١﴾

أي: فأنا أول الخاضعين له، والمعظمين له.

فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو أعلم بالله، وبما يصحّ له، وما لا يصح، وأولى بتعظيم ما يجب تعظيمه، وهو كلام وارد على سبيل الفرض، المراد منه نفي الولد، ونقض كل شبهة يتعلّق بها المخالف، كما قال سعيد بن جبير للحجاج حين قال له: والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى، قال سعيد: لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير النسفي: ٤٤٤/٥.

فإنكار الولدِ وتنزيهه تعالى عنه ليس لعنادٍ ومراءٍ، بل لتقرير الحق: وهو أن الله سبحانه منزّه عن الولد:

﴿سُبْحٰنَ رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُوْنَ ﴿٨٢﴾﴾ .

فربُّ هذه المكونات العظيمة يتنزه عن الولد، وعن كل صفة لا تليق بوحدانيته وجلاله وكماله، وما أقوال المشركين إلا أقوال باطلة، هي محض الجهل واتباع الهوى والتقليد الأعمى، فلا تبالِ بهم:

﴿فَدَرَهُمْ يَخُوْضُوْا وَيَلْعَبُوْا حَتّٰى يَلْقٰوْا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُوْنَ ﴿٨٣﴾﴾ .

أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا بدنياهم بما فيها من زخرف ومتاع حتى يلاقوا يوم الحساب والجزاء.

﴿وَهُوَ الَّذِى فِي السَّمٰوٰتِ اِلٰهٌُ وَفِي الْاَرْضِ اِلٰهٌُ وَهُوَ الْحَكِىْمُ الْعَلِىْمُ ﴿٨٤﴾﴾ .

أي: والله هو المستحق أن يُعبدَ في السماء وفي الأرض، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله، العليم بما كان ويكون.

واتصافه سبحانه بكمال الحكمة والعلم دليل على استحقاقه العبادة وحده، فالآية تنفي الآلهة المزعومة السماوية والأرضية، وتؤكد على ألوهيته وحده ﷻ كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمٰوٰتِ وَفِي الْاَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُوْنَ﴾ [الأنعام: ٣].

﴿وَتَبٰرَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَالِىَّهِ تُرْجَعُوْنَ ﴿٨٥﴾﴾ .

﴿وَتَبٰرَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: تزايد خيره سبحانه وعطاؤه على كل شيء، فأحسانه لم يزل ولا يزال ثابتاً في ازدياد، فأين عطاء فرعون وأمثاله من عطاء الله تعالى مالك السماوات والأرض وما بينهما؟! .

﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وعنده وحده علم الساعة، فلا يعلم وقتها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فالجميع مربوطون لجلاله، منقادون لمشيئته، وإليه مرجعهم يوم الحساب والجزاء، وهذا يؤكد كمال علمه وحكمته سبحانه. وقرئ: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ على الغيبة. ثم أكدت الآيات كمال ملكه وسلطانه سبحانه في الدنيا والآخرة:

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ أي: ولا يملك الذين يعبدون من دونه تعالى الشفاعة كما زعم المشركون أنهم شفعاؤهم عند الله. ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إلا من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه يشفع بإذنه تعالى، فالاستثناء متصل إن أريد بالموصول كل من عبد من دون الله لاندراج الملائكة والمسيح فيه، ومنفصل إن خص بالأصنام. وفي الآية إشارة إلى أن الإيمان ينبغي أن يُبنى على شيء من النظر والتفكير لا على مجرد التقليد.

وكما أخبرت الآيات في صدر السورة عن إقرارهم بأن الله خالق السماوات والأرض، أخبرت في آخرها عن إقرارهم بأنه تعالى هو خالقهم أيضاً، فالخالق واحد وهو المستحق للعبادة:

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ .

أي: فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع اعترافهم بأنه وحده الخالق.

فبناء الإيمان على شيء من النظر والتفكير أمرٌ ميسور، تؤيده الفطرة، وتقويه الشواهد الكثيرة الآفاقية والنفسية.

## صفح وسلام

﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْحَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ .

فكفرهم في الحقيقة كفر عناد وجحود، وتقليد أعمى للعقائد الباطلة المتوارثة، حتى شكى النبي ﷺ إلى ربه من ذلك:

﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ .

أي: وقال محمد: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

وقرى: (قيله) بالجر، أي: وعنده علم الساعة وعلم قيله، وبالنصب عطفاً على محل الساعة، أي: ويعلم قيله، والقيل والقول والقال والمقال واحد، ويجوز أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه، وجواب القسم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والكلام خارج مخرج التحسر والتحزن والتشكي من عدم إيمانهم<sup>(١)</sup>.

ولهذا جاءت الآية الأخيرة في السورة تواسي النبي عليه الصلاة والسلام وهي تخاطبه:

﴿فَأَصْحَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ .

أي: أعرض عنهم، ولا تبال بعنادهم وجحودهم، وقل قولاً فيه مسالمة لهم، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وعنادهم.

ففي الآية توجيه لطيف للنبي ﷺ لكي يحتمل أذاهم، ويصبر على إعراضهم، ولا يدعو عليهم، فهو ﷺ نبي الرحمة، يربي النفوس ويهذبها بحلمه

(١) روح المعاني: ١٠٨/٢٥.

وأناته وصبره، وما ذكره بعض المفسرين من أن المعنى المراد: أعرض عن دعواهم آيساً من إيمانهم<sup>(١)</sup>، لا أراه هو المعنى المراد، فهو يصادم مهمة النبي عليه الصلاة والسلام المكلف بها، وهي الدعوة إلى الله تعالى، والصبر على كل المعوقات التي تواجهه، كما أنه لا يتفق مع ما سبق ذكره في صدر السورة عند قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥].

وقد ذكرنا ثمة أن الحكمة تقتضي إنزال القرآن الكريم عليهم، ومتابعة تذكيرهم به، ولو أعرضوا عنه، ولم يلتفتوا إليه.

قال ابن كثير رحمته الله في تفسير الآية: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ عن المشركين. ﴿وَقُلْ سَلِّمٌ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم، واصفح عنهم فعلاً وقولاً.

فهو أفضل الأساليب في الدعوة إلى الله تعالى، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ومر معنا أنه عليه الصلاة والسلام بصبره ومصابرته وحلمه قد نجح نجاحاً باهراً بعد ذلك في تربية نفوس المشركين القاسية، وتهذيب طباعهم الخشنة، حتى أذعن أكثرهم إلى الإسلام، ودخلوا فيه طائعين مستسلمين.

فعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يأخذوا من هذه الآيات ومن سنته عليه الصلاة والسلام العبر والعظات في الدعوة إلى الله تعالى، عليهم ألا ييئسوا من هداية المدعويين، وأن يكرروا عرضها بأساليب متنوعة، فالقلوب بيده سبحانه، ولا يدري الداعية متى يفتح الله تعالى برحمته هذه القلوب المغلقة بأنوار هدايته. أسأله تعالى أن ينور قلوبنا بأنوار الكتاب المبين، تنزيل الحكيم العليم.

\* \* \*

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير النسفي للآية.



## تفسير سورة الدُّخان إِنذَارٌ وَإِنقَامٌ فِي سُورَةِ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الليلة المباركة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُنِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبْرَكَةِ إِنَّا كُنَّا مُدْرِكِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِنْ عَدْنًا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

بدأ سبحانه سورة الدخان خامسة الحواميم في القرآن الكريم بقوله :

﴿حَمْدٌ ۝١﴾ .

ثم أقسم بالقرآن الكريم فقال :

﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِينِ ۝٢﴾ .

أي : والكتاب الذي بين الله به كل ما يحتاج إليه المكلفون من الحكم والأحكام والشرائع في أمر دينهم .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ۗ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ﴾ أي: إنا أنزلنا القرآن في ليلة مباركة؛ وهي ليلة القدر لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١].

وهي في شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ الآية [البقرة: ١٨٥].

ومن المعلوم: أنَّ القرآن الكريم نُزِّلَ على النبي ﷺ مفرقاً، أكد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقرَأْنَا فَوْقَهُ لِنُقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَيَّ مَكِّيًّا وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان: ٣٢].

ومرَّ معنا في تفسير آيات الصوم في سورة البقرة [١٨٣ - ١٨٥]: أنَّ ابن عباس لما سئل عن ذلك قال: «إنَّه أنزل في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام». وهو رأي جمهور العلماء.

وذهب بعضهم إلى أنه ابتدئَ نزوله في شهر رمضان، وهو رأي الشعبي من علماء التابعين.

وأشار ابن حجر رحمته الله إلى التوفيق بين القولين بأنَّ نزوله إلى السماء الدنيا، وابتداءً نزوله على النبي ﷺ كان في شهر رمضان، في تعليقه على قول ابن عباس رحمته الله: «كان رسولُ الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكونُ في رمضان حين يلقاه جبريلُ، وكان يلقاه في كلِّ ليلةٍ من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسولُ الله ﷺ أجودُ بالخير من الريح المرسلة».

قال ابن حجر: وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ابتداءً نزول القرآن كان في شهر رمضان، لأنَّ نزوله إلى السماء الدنيا جملةً واحدةً كان في رمضان، كما ثبت من حديث ابن عباس، وكان جبريلُ يتعاهده في كل سنة، فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه به مرتين كما ثبت في

الصحيح [٦٦] كتاب فضائل القرآن، (٧) باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ عن فاطمة رضي الله عنها.

والمباركة: الكثيرة الخير، لنزول القرآن فيها، ونزول الملائكة، ومضاعفة ثواب العبادة، فهي خيرٌ من ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

ثم بين تعالى أن من مقتضى إنزال القرآن الكريم حكمة الإنذار، وهو التحذير من العقاب: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾

أي: في تلك الليلة المباركة يُكْتَبُ ويفضَّلُ ويبيِّنُ كلُّ أمرٍ محكم، لا يبدل ولا يغير، أو كل أمر ذي حكمة، وإن كون هذه الليلة مفرق الأمور ذات الحكمة يستدعي أن ينزل فيها القرآن الكريم الحكيم المحكم كما قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِنَا ثُمَّ فَضَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١].

قال ابن عباس: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة، ورزق ومطر، حتى الحج، يقال: يحج فلان، ويحج فلان. وقال في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق، وقد وقع اسمه في الموتى.

ذكر ذلك القرطبي في «تفسيره» وقال بعده: «وهذه الإبانة لأحكام السنة إنما هي للملائكة الموكلين بأسباب الخلق»<sup>(١)</sup>.

وإنزال القرآن الكريم من أعظم الأحداث التي مرّت على البشرية، عظّمه سبحانه وفخّمه بقوله:

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ .

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: أمراً أنزلناه على مقتضى علمنا وحكمتنا وتدبيرنا، وهو تفخيمٌ بعد تفخيمٍ للقرآن الكريم .

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: إنا كنا مرسلين محمداً ﷺ رحمة من ربك بخلقه، إنه هو السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم، يعلم شدة حاجتهم إلى رسالة الإسلام، وإنزال القرآن، وبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاؕ اِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِيْنَ ﴿٧﴾﴾ .

أي: إن كنتم موقنين أنه مالك السماوات والأرض وما بينهما، ومدبر أمرهم، فعليكم أن تؤمنوا بالرسول ﷺ الذي أرسله إليكم .

﴿لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ .

أي: لا معبودَ بحق إلا هو، بيده الحياة والموت، فهو ربكم ورب آبائكم الأولين شتم أم أبيتم، وقرئ بالجر بدلاً من ﴿رَبِّ السَّمٰوٰتِ﴾ .

فكما يربِّي سبحانه السماوات والأرض وما بينهما، ويدبر أمرهم، يربِّي النفوس المؤمنة، ويهذب القلوب المستنيرة، بهدي التنزيل الحكيم، فالقلوب تحيا بالاستجابة لهديه، والاستسلام لشرعه، وتموت بإعراضها عنه كما قال سبحانه: ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا اسْتَجِيبُوْا لِلّٰهِ وَلِلرَّسُوْلِ اِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيْكُمْ وَاَعْلَمُوْا اَنَّ اللّٰهَ يَحُوْلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهٖ وَاَنَّهُۥٓ اِلَيْهِ تُحْشَرُوْنَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

## دخان من السماء

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَعْشَى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

ولهذا وصف سبحانه أصحاب القلوب الميتة القاسية المعرضة عن هدي التنزيل الحكيم فقال:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾ .

أي: جاءهم الحق المؤيد بالأدلة والبراهين، وهم يشكُّون فيه لابعين غافلين، لا يكلفون أنفسهم عناء النظر فيه، مع أنه أمر خطير وكبير، ولهذا توعدَّهم بقوله:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: فانتظر لهم يوم تأتي السماء بجذب ومجاعة، حتى يروا ما بينهم وبين السماء كهيئة الدخان.

ومن المعلوم أنه في سنوات القحط والجفاف يكثر الغبار، ويتكدَّر الهواء، لقلة الأمطار المسكَّنة له، وموت النباتات الممسكة للتربة.

﴿يَعْشَى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ .

أي: يحيط بالناس اللاعبيين الغافلين قائلاً لهم بلسان حاله: هذا عذاب أليم، فانتبهوا من غفلتكم، وتوقفوا عن لهوكم ولعبكم واستهزائكم، فإنَّ الأمر جدُّ خطير وكبير.

ويبدو أن القوم أحسوا بالخطر، فانتبهوا من غفلتهم، وقالوا:

## ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (١٧)

أي: إنا مؤمنون إن كشفت العذاب عنا.

وفي الحديث الشريف: عن مسروق تلميذ ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما رجلٌ يحدث في كِنْدَةِ فقال: يجيءُ دخانٌ يومَ القيامةِ فيأخذُ بأُسماعِ المنافقينَ وأبصارِهِم، ويأخذُ المؤمنَ كهَيِّةِ الزكامِ، ففزعنا، فأتيتُ ابنَ مسعودٍ، وكان متكئاً فغضبَ فجلسَ فقال: مَنْ عَلِمَ فليقل، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فليقل: اللهُ أعلمُ، إنَّ اللهُ قالَ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لَمَّا دعا قريشاً كذَّبوه، واستعصوا عليه، فقال: «اللهم أعني عليهم بسبعِ كسبِ يوسفٍ» فأصابتهم سنةٌ حصَّت (أذهبت) كلَّ شيءٍ، حتى كانوا يأكلون الميتة، وكان يقومُ أحدهم فكان يرى بينه وبين السماء مثل الدخان من الجهدِ والجوع.

وفي رواية: حتى أكلوا الجلودَ والميتةَ، وجعل يخرجُ من الأرضِ كهَيِّةِ الدخانِ، فأتاه أبو سفيان فقال: أيُّ محمد، إنَّ قومك قد هلكوا، فادعُ اللهُ أن يكشفَ عنهم. فدعا ثم قال: «تعودوا بعد هذا». ثم قرأ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِثْلُنَا فَأَكْشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان]. قال عبد الله: أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ [رواه البخاري (٤٨٢٤)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خمسٌ قد مضين: «اللزائم، والروم، والبطشة، والقمر، والدخان» [رواه البخاري (٤٨٢٥)].

قال ابن حجر: «ولا تدافع بين الروايتين، لأنه يُحمل على أنه كان مبدؤه من الأرض، ومنتهاه ما بين السماء والأرض».

وقيل: هو دخان يجيء قبل قيام الساعة، ولم يأت بعد، ويؤيد هذا القول الحديث الشريف: عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: كان النبي ﷺ في غرفة، ونحن أسفل منه، فاطلع علينا، فقال: «ما تذكرون؟» قلنا: الساعة، قال: «إنَّ

الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: حَسَفَ فِي الْمَشْرِقِ، وَحَسَفَ فِي الْمَغْرِبِ، وَحَسَفَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالِدُخَانُ، وَالِدَجَالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ».

وفي رواية ثانية: «العاشرة نزول عيسى ابن مريم» [رواه مسلم (٢٩٠١)].  
ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين الآثار.

\* \* \*

### البطشة الكبرى

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَطَّشُ الْأُنثَى الْكَرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

وَعَلِمَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢] كما سيأتي معنا، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ قَائِلًا:

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

أي: كيف يتذكرون ويتعظون بما أصابهم والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذُّرِّ والاتعاظ ما هو أعظم منه عندما جاءهم الرسول ﷺ بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ فلم يتذكروا وأعرضوا عنه:

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾.

وأضافوا إلى عنادهم وإعراضهم افتراءهم على النبي ﷺ وقولهم عنه: معلَّمٌ مجنون، أي: قالوا تارة: يعلمه بشر، وأخرى: مجنون، فلا يُتَوَقَّعُ مِنْ مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْمَعَانِدِينَ أَنْ تَلِينَ قُلُوبُهُمْ، وَتَهْدَبَ نَفُوسُهُمْ، وَمَا رَفَعَ اللَّهُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ إِلَّا إِكْرَامًا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَرَحْمَةً.

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

أي: إنا نكشف العذاب عنكم زماناً طويلاً، وإنكم تعودون إثر كشفه إلى ما كنتم عليه من الكفر والطغيان.  
وصيغة الفاعل في الفعلين دلاً على تحققهما، وقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبي ﷺ، فعادوا إلى ما كانوا عليه من كفر وطغيان.

﴿يَوْمَ نَبِّطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ .

أي: إنا ننتقم منهم يوم نبطش البطشة الكبرى.  
والبطش: العنف والسطوة، والأخذ الشديد والبأس، والمراد من يوم البطشة: يوم غزوة بدر كما مرَّ معنا عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه عبْدُ بن حُمَيْد عن أبي بن كعب، وهو قول مجاهد والحسن وأبي العالية وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين وقتادة.  
وقيل: هو يوم القيامة، فقد أخرج ابن جرير وعبد بن حُمَيْد بسند صحيح: عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

## إهلاك المجرمين

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِيَّادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِرُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِبَعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ خُذُّ مَعْرِفُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

ثم أخبرت الآيات أن الانتقام من المجرمين المصرين على الكفر والطغيان سنة من سنن تعالى التي لا تتبدل، أجراها سبحانه على فرعون وقومه بسبب إعراضهم عن دعوة موسى وطغيانهم وظلمهم:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ .

أي: امتحنا قوم فرعون قبل قوم النبي ﷺ، وجاءهم رسول كريم هو موسى عليه السلام.

﴿أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِيَّادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ .

أي: قال لهم: أرسلوا معي بني إسرائيل، وكفوا عن ظلمهم، إني لكم رسول من الله، أمين على الرسالة.

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: ولا تتكبروا على الله بالاستهانة برسوله، والإعراض عن رسالته، إني آتاكم بحجة واضحة تدل على صحة نبوتي وصدق رسالتي.

﴿وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ .

أي: وإني اعتصمت واحتميت بربكم أن تقتلوني.

وفي قراءة: (عُثْ) بالإدغام.

ومرَّ معنا أن فرعون عزم على قتل موسى، وأنه ﷺ التجأ إلى الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢١﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر].

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وإن لم تؤمنوا برسالتي فاتركوني، ولا تتعرضوا لي بسوء. ومع هذا التلطف في الدعوة أصرَّ فرعون وقومه على إجرامهم وطغيانهم، فدعا عليهم موسى ﷺ:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ فِئْمٌ كَابِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: عريقون بالإجرام والفساد.

وما دعا ﷺ عليهم إلا بعد أن يئس من إيمانهم وتهذيب نفوسهم، فقد أجرى الله على يديه عدداً من المعجزات الباهرة فلم ينتفعوا بها، وأعرضوا عنها، ولما حان الأجل المسمى في علمه تعالى للانتقام منهم أوحى الله إليه:

﴿فَأَسْرِعْ بَعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: إن كان الأمر كما تقول فأسرِ بيني إسرائيل ليلاً، إن فرعون وجنوده يتبعونكم إذا علموا بخروجكم. وفي قراءة: (فأسر) بوصل الهمزة من سرى.

﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: اترك البحر مفتوحاً ساكناً على هيئته بعد أن تجاوزه مع بني إسرائيل، إنهم جند مغرقون.

ويبدو أن موسى ﷺ بعد أن تجاوزَ البحرَ بمن معه أراد أن يضرب البحر كما ضربه أولاً فينغلق كي لا يتبعه فرعون وجنوده، فأمره الله أن يتركه مفتوحاً ساكناً على هيئته، ليدخله فرعون وجنوده، فلما دخلوا فيه أطبقه سبحانه عليهم، فأهلكهم وأغرقهم، وبهذا تمت كلمته تعالى، وتحققت مشيئته بإهلاكهم من خلال الأسباب الظاهرة التي قدرها بسابق علمه ومشيئته.

\* \* \*

### بكاء السماء والأرض

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ حَتِّ وَعَيْبٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعَمَ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْطَرِفِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم أخبر تعالى عن حقارتهم وهوانهم وقلة شأنهم مع ما كانوا عليه من الغنى والنعيم:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْبُونَ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعَمَ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ما أكثر الحدايق والعيون والمزارع والمنازل المزيينة التي تركوها، وكانوا فيها متنعمين، يستمتعون بكل ما فيها. وقرئ: (فكهيين).

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

أي: كذلك كان أمرهم ومصيرهم، وأورثناها قوماً آخرين، وهم بنو إسرائيل، فقد مكّنهم الله من التصرف فيها كما في قوله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْبُونَ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء].

لكنهم لم يرجعوا إليها، بل توجهوا إلى الأرض المباركة في بلاد الشام، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا

فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ  
فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ .

أي: هلك فرعون وقومه وبادوا، فلم يبالِ بهلاكهم أحد من أهل السماء والأرض، وما كانوا مهلهلين ومؤخرين إلى وقت آخر.

وفي الآية إشارة إلى أن الأرض والسماء تتأثران بموت الصالحين الذين يعمرنهما بطاعة الله وعبادته، يؤيده قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة].

وفي الحديث: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وله بابان: بابٌ يصعدُ منه عمله، وبابٌ ينزلُ منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾» [رواه الترمذي (٣٢٥٥)].

وفي تفسير ابن كثير للآية عن مجاهد: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، فقيل: أو تبكي؟ فقال: وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود، وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسيحه فيها دوي كدوي النحل.

ورحم الله سيد قطب عندما قال في تعقيبه على هذه الآية: ولو أحسَّ الجبارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله، ولأدركوا أنهم يعيشون في الكون منبوذين منه، مقطوعين عنه، لا تربطهم به أصرة، وقد قطعوا أصرة الإيمان.

## إسراف وطغيان

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٥﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٦﴾  
 وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ وَءَايَنَّا لَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ نَكْتًا مُبِينٌ ﴿٣٨﴾ إِنَّ  
 هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَتَوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ  
 ﴿٤١﴾ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا ﴿٤٣﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ إِنَّ يَوْمَ  
 الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ إِلَّا مَنْ  
 رَزَقَهُ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٧﴾﴾

هكذا نجَّ الله بني إسرائيل، وانتقم من فرعون وقومه بسبب إسرافهم  
 وطغيانهم، وقال معقباً على ذلك:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٥﴾﴾

وهو ظلم فرعون واستعباده بني إسرائيل، وقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم.

﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٦﴾﴾

أي: إنه كان متكبراً مبالغاً في الإسراف، جعلته الآية نفس العذاب لمبالغته  
 فيه وشدة طغيانه.

﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

أي: ولقد اخترنا بني إسرائيل على عالمي زمانهم، ونحن عالمون بحقيقتهم.

﴿وَأَنبَأْنَهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَتُوا مُبِيتٌ﴾ ﴿٣٣﴾ .

وأعطيناهم من عظام المعجزات الحسية التي لم نعطي مثلها غيرهم ابتلاء واختباراً، لنظهر عملهم، ونبين للناس أمرهم.  
مهَّد الله بهذا التعقيب للحديث عن كفار مكة وإعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ، وإنكارهم يوم الحساب والجزاء:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ .

أي: إن كفار قريش ليقولون: ما النهاية إلا في الموتة الأولى، وما نحن بمبعوثين بعدها، فابعثوا آبائنا إن كنتم صادقين فيما تقولون من قيام الساعة.  
وكلامهم هذا موجهٌ إلى الرسول ﷺ والمؤمنين.  
وردَّ تعالى عليهم مهتداً متوعداً، فمثل هؤلاء المعاندين لا تناسبهم إلا لغة الوعيد والتهديد:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ .

أي: أكفار قريش أقوى أم قوم تُبِعَ الذي ملكوا الممالك شرقاً وغرباً، والذين من قبلهم من الأمم القوية؟! أهلكناهم لأنهم كانوا مجرمين.  
ويمكن أن يكون تُبِعَ هو ذو القرنين الذي ذكر في سورة الكهف، فهو رجل صالح مؤمن، ولهذا ذمَّ سبحانه قومه ولم يذمه.  
أخرج الحاكم [٤٥٠/٢] وصححه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان تُبِعُ رجلاً صالحاً، ألا ترى أن الله ذم قومه ولم يذمه.

كما أخرج أحمد [٣٤٠/٥] والطبراني [٢٩٦/١١] وابن أبي حاتم: عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تبعاً، فإنه كان قد أسلم».

ثم نفت الآيات نفيًا قاطعاً أن يكون سبحانه قد خلق الخلق عارياً عن الحكمة:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ (٣٨)

أي: عابئين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩)

أي: ما خلقناهما إلا بسبب الحق وهو الإيمان والطاعة والعبادة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، فالمؤمنون الذين يَعْمُرُونَ الأرض بطاعة الله، هم الذين يعلمون حكمة خلقهم، ويقولون كما مر معنا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ففي يوم الحساب والجزاء يظهر تعالى حكمته في خلقه، ولهذا أكدته الآيات بقوله تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠)

أي: إن يوم الفصل بين الحق والباطل موعدهم أجمعين.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤١)

أي: يوم لا يدفع ولا ينفع صاحبٌ عن صاحبه شيئاً، ولا هم يُمنعون من العذاب.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٢)

أي: لا ينفع يومئذٍ إلا رحمة الله، المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

## الزقوم والحميم

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ حُدُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

ثم عرضت الآيات صوراً مرعبة من صور انتقامه تعالى من الطغاة المجرمين يوم القيامة:

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ .

أي: المبالغ في الإثم، المصّر عليه.

وذكر كثير من المفسرين أنه أبو جهل، ولا شك أنها تنسحب على أمثاله أيضاً.

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾ .

أي: كالماء الحار عندما يشتد غليانه، أو كدردي الزيت الأسود، وهو عكره، سُمِّي مهلاً، لأنه يُمهل في النار ويترك.

وفي قراءة: (تغلي في البطن) أي: شجرة الزقوم تغلي في البطن.

﴿كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ .

أي: تغلي كما يغلي الحميم.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الرسول ﷺ قرأ هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ثم قال رسول الله ﷺ: «لو أن قطرةً من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف بمن تكون طعامه» [رواه الترمذي (٢٥٨٥) وقال: حسن صحيح].

﴿خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: ويقال لخزنة جهنم: جرّوه واسحبوه بعنف إلى وسط الجحيم. وفي قراءة: (فاعتلوه) بالضم.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِن عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ .

والمصبوب هو الحميم لا عذابه، إلا أنه إذا صبَّ عليه الحميم فقد صبَّ عليه عذابه، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لُهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج].  
ويقال له استهزاء وتقريعاً وتهكماً على ما كان يزعمه:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ .

أي: ذق لأنك كنت تزعم العزة والكرم عند قومك في الدنيا. وهذا استهزاء به، وتقريع له، ومعناه: إِنَّكَ أَنْتَ الذليل المُهان. وفي قراءة الكسائي: (أنك) بالفتح.

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

أي: تشكُّون وتمارون فيه، كما قال تعالى: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور].

\* \* \*

### أمن ونعيم

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي حَتِّ وَعُقُوبٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ ثَمَرٍ مَّا لَا حَاسِبِينَ ﴿٥٦﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ذَلِكُمْ هُوَ الْعِزُّ الْمَعْلُومُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَتَرَبَّعُ لِبِلْسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْقُبْ إِنَّهُمْ مُرْتَبِعُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وعرضت الآيات في المقابل صوراً من صور إنعامه تعالى على عباده المتقين :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾

أي : في مكان أمين يأمنون فيه من أي مكروه . وفي قراءة : (مُقام) بضم الميم .

﴿فِي حَتِّ وَعُقُوبٍ ﴿٥٢﴾﴾

أي : يقيمون في جنات وعيون ، لا تنقطع ولا تبيد ، ولا يتركونها كما ترك فرعون وقومه جنَّاتهم وعيونهم .

﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾

أي : متواجهين ، لا يرى بعضهم ظهور بعض ، فيزداد أنسهم ببعضهم .  
ومرَّ معنا أن السندس : ما رقَّ من الديباج ، والاستبرق : ما غلظ منه .

﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

أي : وكما أدخلناهم الجنة زوجناهم بحور عين .  
والحور : جمع حوراء ، وهي البيضاء الحسنة ، التي يحار الطرف في

حُسْنَهَا، أو لِحور عينيها، وهو شدة البياض والسواد. والعَيْنُ: جمع عَيْنَاء، وهي الواسعة العينين.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَلَكَهَةٍ آمِنَةٍ﴾.

أي: يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه وهم آمنون من كل سوء، فالأمن يظللهم في كل شيء، في مطاعمهم ومشاربهم وملابسهم ومجالسهم، فلا خوف يعكّر عليهم صفاءهم ويشغل بالهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ أي: لا يذوقون في الجنة الموت سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا، فالاستثناء يؤكد النفي، فلا يذوقون فيها الموت أبداً، فهم آمنون منه.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يُذبح، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حُزناً إلى حُزْنهم» [رواه البخاري (٦٥٤٨)].

وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ينادي منادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» [رواه مسلم (٢٨٣٧)].

﴿وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: ووقاهم سبحانه مع هذا النعيم عذاب الجحيم.

وهذا الأمنُ والنعيمُ والوقايةُ من عذاب الجحيم، كلُّه فضل من الله تعالى

نفضَّل به عليهم من غير سابقة استحقاق:

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٥٧)

لأنه وقاية من المكاره، وفوز بالمطلوب.  
 وقرئ: (فضلٌ من ربك) بالرفع، أي: ذلك فضل من ربك.  
 وفي ختام السورة ختمت الآيات بتذكير النبي ﷺ بدور القرآن الكريم وأهميته في تهذيب نفوسهم وتقويم اعوجاجهم:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨)

أي: إنما يسرناه بلسانك ولغتك كي يفهموه، ويعملوا بموجه.  
 فاستمسك به، ودُم على تذكيرهم بآياته، لعل قلوبهم تنتفع بهديه، وتستشيرُ بنوره، وإلا فانتظر ما يحل بهم:

﴿فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ (٥٩)

إنهم منتظرون ما يحلُّ بك.  
 ولا يخفى ما في الآية من تهديد ووعيد، بالانتقام منهم إن أصرُّوا على كفرهم وعنادهم.. وقد فعل سبحانه ذلك في يوم بدر، يوم البطشة الكبرى.  
 والحمد لله ربِّ العالمين.

\*\*\*

## تفسير سورة الجاثية

### اسْتِسْلَامٌ وَإِدْعَانٌ فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
مدارج الكمال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْيَافٌ لَّيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَنَضْرِبُفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

بدأ سبحانه سورة الجاثية سادسة الحواميم كما بدأ غيرها من الحواميم فقال :

﴿حَمَّ ١﴾ .

ثم نوّه تعالى بشأن القرآن الكريم :

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ١﴾ .

فهو الكتاب المنزل من الله العزيز الحكيم على النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

ثم لفتت الآيات الأنظار إلى الدلائل والبراهين الدالة على كمال قدرته تعالى وباهر حكمته، والمبثوثة في جميع المكونات الآفاقية والنفسية، وكلها تدعو إلى الإذعان لحكمه والاستسلام لأمره:

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ .

أي: وفي خلقكم في أطوار مختلفة، وفي ما ينشره ويفرّقه من دابة، آيات لقوم يوقنون بوجود الله ووحدانيته.

﴿وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ .

فالمنصفون من الناس إذا نظروا في السماوات والأرض نظراً صحيحاً موضوعياً علموا أنها حادثة مخلوقة لا بد لها من خالق، فأمنوا به، فإذا نظروا في خلق أنفسهم، وتنقلها من حال إلى حال، وفي خلق ما ظهر على الأرض من أصناف الحيوان، ازدادوا إيماناً بوجود الخالق، وأيقنوا بكمال قدرته، وباهر حكمته، فإذا نظروا في سائر الحوادث المتجددة، كاختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وتصريف الرياح شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، عقلوا هذه الحوادث، واستحكم علمهم بأن مدبرها ومحدثها إله واحد، وعُدُّوا بذلك من العقلاء أولي الألباب الذين أحسنوا الانتفاع بعقولهم.

هكذا يرتقي الإنسان في مدارج الكمال، وينتقل من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، فالإنسان يشرف بمعرفة الله تعالى، ويكمل بالإيمان به ﷻ، وكلما ازداد الإنسان معرفةً بربه، ازداد خشيةً له وتعظيماً، فكان الآيات تبين أفضل الطرق في تربية النفس وتهذيبها وتكميلها، ولهذا قال تعالى منوهاً بما فيها:

﴿ذَلِكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ .

أي: تلك آيات دلائله التي تدل عليه سبحانه، نتلوها عليك بالحق الثابت

المؤيد بالدليل والبرهان، فإذا أعرضوا عنها، ولم يؤمنوا بها، فلن يؤمنوا  
بغيرها، ففيها البراهين القاطعة والحجج الساطعة التي لا توجد في غيرها.

\*\*\*

### سبيل الهدى والفلاح

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْحِ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْلُغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّمَّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

فمن لم ينتفع بها ولم يستجب إلى لغة المنطق والعقل؛ لا تناسبه إلا لغة  
الوعيد والتهديد:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

وويل: كلمة تهديد ووعيد، تقال لمن يريد الله تعذيبه، كما مر معنا.  
والأفاك: الكذاب المبالغ في الكذب.  
والأثيم: مرتكب المعاصي والآثام الكثيرة.

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: يسمع آيات القرآن  
الكريم تُقرأ عليه، ومع ذلك يتمادى في كفره، متعاضماً في نفسه، كأنه

ما سمعها، فسماع القرآن الكريم كافٍ شافٍ، يكفي مرید الحق ليعرفه، ويدعن له، فلا حجة للمعرض عنه.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره على الباطل، وإعراضه عن الحق.  
ولا يخفى ما في الوعيد بلفظ البشارة من تهكم مرير بهذا الأفك الأثيم.  
إنَّ إعراضه عن الحق أدى به إلى انحطاطه، وتسفيهه إلى حدِّ الاستهزاء  
بآيات القرآن عندما يسمعها ويعلم أنها منها:

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾

أي: أولئك المتصفون بهذه الصفة لهم عذاب يهينهم ويدلهم.

﴿مَنْ وَرَّأَيْهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿مَنْ وَرَّأَيْهِمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: مصيرهم ومآلهم إلى جهنم.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولا يدفع عنهم شيئاً من عذاب جهنم ما كسبوا من الأموال والأولاد، ولا ما عبدوا من دون الله من آلهة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولا نجاة لهم من العذاب العظيم إلا إذا تمسكوا بهدي القرآن الكريم.

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّبِّهِمْ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿هَذَا هُدًى﴾ فهو سبيل الهداية والفلاح لا فلاح بغيره، فكأنه عين الهدى.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّبِّهِمْ أَلِيمٌ﴾ أي: والذين أعرضوا عنه وكفروا بآياته لهم أشد العذاب.

ومن الآيات المؤدية إلى سبيل الهدى والفلاح الدالة على كمال فضل الله وإحسانه:

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: لتجري السفن فيه بمشيئته وقدرته كما في قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٦٦﴾﴾ إِنَّ يَسَاءَ بُسْكِنَ الرِّيحَ فَيُظَلِّلَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿الشورى﴾ .

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولعلكم تشكرونه سبحانه على هذه النعم فتتبعون سبيل الهدى والفلاح .

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ فكل ما في السماوات والأرض مسخَّر لمنافعكم بمشيئته تعالى وقدرته، فهو وحده المحسن المتفضل الخالق المدبِّر، وكلُّ شيءٍ في هذا الوجود من الله وإليه، فهو مُنشِئُه ومدبِّرُه، ولا يحدث شيء من دون محدث أحدثه وخالق خلقه .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ﴾ فيعرفون فضله تعالى عليهم والمكانة العالية الرفيعة التي رفعهم إليها .

وعليهم أن يقابلوا إحسانه وفضله سبحانه بالإحسان إلى عباده:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: يعفوا ويتجاوزوا عن الذين لا يرجون ثواب الله، أو لا يخافون بأس الله ونقمته، فهو توجيه كريم للمؤمنين، وتثبيت لهم في مواجهة أذى الكافرين وظلمهم وبغيهم، فإنَّ الله سبحانه سينتقم منهم، وعلى المؤمنين أن يكلوا أمرهم إليه .

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فالله هو الذي يجزيهم بما كانوا يكسبون من خير أو شر، فلكل أجل عنده كتاب، والله لا يعجل لعجلة عباده، وكل إنسان مسؤول عن عمله:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾

فلكل نفس ثواب عملها الصالح، وعليها عقاب عملها السيئ، ثم إلى ربكم ترجعون، فيجازيكم بأعمالكم خيرا وشرها.

\* \* \*

### اعتبار واستبصار

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾  
 وَعَآئِنَهُمْ يَبْدَأُ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا أَحْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيَا بِيَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي  
 بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ حَمَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعَهَا وَلَا  
 تُتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْمُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ  
 بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا صَبْرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

وبنو إسرائيل أقرب مثال واقعي من تاريخ الأمم يُذكر للاعتبار والاستبصار، فهم من الأمم التي تفضل الله عليهم بنعم كثيرة، وبوأهم بين الأمم والشعوب مكانة رفيعة، فقابلوا نعم الله عليهم بالجحود والكفران:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أنزل الله عليهم التوراة، ومكن لهم في الأرض، واختار منهم كثيراً من الأنبياء.

﴿وَرَزَقْنَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: وفضلناهم بما آتيناهم على عالمي زمانهم.

﴿وَأَتَيْنَهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٧).

﴿وَأَتَيْنَهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أي: وأعطيناهم معجزات واضحات أجراها سبحانه على أيدي رسله تبيِّن لهم الحق وترشدهم إليه.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فما وقع الخلاف بينهم إلا من بعد ما جاءهم ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم، وإنما اختلفوا لتحاسد بينهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: إن ربك يفصل بينهم يوم الحساب والجزاء فيما وقع بينهم من اختلاف.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨).

ثم جعلناك يا محمد بعد اختلاف أهل الكتاب على شريعة عظيمة من أمر الدين، فتمسك بها، ولا تتبع أهواء الجهال النابعة من شهواتهم.

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩).

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ إن اتبعتهم.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فلا يوالِيهم، ولا يتبع أهواءهم إلا من كان مثلهم.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأنت قدوتهم وإمامهم، فدم على ولاية الله، وأعرض عمَّا سواه، وذلك باتباع القرآن الكريم، فهو سبيل الهدى والفلاح.

﴿هَذَا بَصِيرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ .

أي: هذا القرآن يبصِّرُ الناسَ طريقَ الفلاح والنجاح، فإنَّ ما فيه من معالم الدين وأحكام الشريعة بمنزلة البصائر لقلوب الموقنين، يهديهم الله به من الضلالة ويرحمهم.

\*\*\*

### التمييز بين المتفاضلين

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَحَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْرَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ .

فلا بدَّ أن يمتازوا عن غيرهم بسلوكهم وأعمالهم وأخلاقهم، وكما اختلفوا في الحال لا بد أن يختلفوا في المصير والمآل:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي: أيظن الذين اكتسبوا المعاصي والكفر أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات؟! لا، فالمؤمن مؤمن في الدنيا والآخرة، والكافر كافر في الدنيا والآخرة، وشتان ما بينهما في الحال والمآل، ولا يعقل أن يسوي الله بين المتفاضلين، وهو الحُكْمُ العَدْلُ ﷻ .

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء حكمهم هذا، وهو الحُكْمُ بالتساوي بين المؤمنين والكافرين.

وفي قراءة: (سواءً محياهم ومماتهم) برفع (سواء) على أنه خبر مقدم، وما بعده مبتدأ.

وكيف يسوي سبحانه بينهم، وقد خلق السماوات والأرض على أساس الحق والعدل؟! فالحق أصيل في بناء الكون، وما أنزل الله الميزان والشريعة وقرر الحساب والجزاء إلا لحماية هذا الحق:

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٢).

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ والحق يستدعي انتصار المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المسيء والمحسن. وإذا لم يتحقق هذا في الحياة الدنيا لا بد أن يتحقق في الآخرة، فُتْجِزَىٰ كل نفس بما كسبت:

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

\* \* \*

### التحذير من اتباع الهوى

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَحَتَّمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٣).

وعادت الآيات إلى التحذير من اتباع الهوى، وبيان ما يؤدي إليه من إعراض عن الحق وانهماك في الضلال:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَحَتَّمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٣).

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾؟! أي: أنظرت إلى من ترك متابعة الهدى إلى

مطاوعة الهوى، فهو يعبد هواه، فلا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه، فالسؤال فيه تعجيب من حاله.

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: خذله الله، وهو عالم بضلاله وفساد جوهره.

﴿وَوَخَّمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ فلا يقبل موعظة، ولا يعتقد حقاً، ولا يبصر هدًى، فالشر في متابعة الهوى، والخير في مخالفته.

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا يهديه أحد بعد أن أضله الله، أفلا تتذكرون هذه الحقيقة، وتتعظون بها، فالحوادث كلها لا تحدث إلا بمشيئته تعالى وقدرته حتى الهدى والضلال، وقرئ بالتخفيف والتشديد (تذكرون، تتذكرون).

\* \* \*

### الرد على الدهرية

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾  
 ﴿١٤﴾ وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّمُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُعْمِدُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمَبْطُلُونَ ﴿٢٧﴾ .

ومن صور ضلالهم وأتباعهم لأهوائهم أنهم يضيفون الحوادث إلى الدهر والزمان، وينكرون وجود الخالق المحيي والمميت:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾  
 ﴿١٤﴾ .

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: وقالوا: ما الحياة

إلا الحياة الدنيا التي نحن فيها، نموت ونحيا فيها، ولا حياة بعدها، وما يهلكنا إلا مرور الزمان.

﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: وما يقولون ذلك من علم، إن هم إلا يتوهمون ويتخيلون.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: يُوْذِنُنِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» كذا أخرجه البخاري في «صحيحه» [٤٨٢٦].

وأخرجه الطبري بهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ: إِنَّمَا يَهْلِكُنَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، هُوَ الَّذِي يَمِيتُنَا وَيُحْيِينَا، فَقَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا...﴾ الآية قال: فيسبون الدهر»<sup>(١)</sup>.

وسبق معنا في سورة البقرة مناظرة إبراهيم عليه السلام لأمثال هؤلاء المغرورين المخدوعين في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ويضيفون إلى كفرهم هذا جحود يوم القيامة محتجّين بحجج باطلة واهية:

﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

﴿٢٥﴾

أي: وإذا قرئت عليهم آيات القرآن الناطقة بالحق أعرضوا عنها محتجّين بما لا يصلح أن يكون حجّة، وهو قولهم: ﴿أَتَتُوا بَابًا آيَاتًا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأننا بُعث بعد الموت.

وقرئ برفع: (حجّتهم) على أنها اسم كان، ويكون المعنى: ما كان حجّتهم شيئاً من الأشياء، إلا هذا القول الباطل، أما القول الحق المؤيد بالدليل والبرهان فهو ما أمر النبي ﷺ أن يردّ به عليهم:

﴿قَالَ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿قَالَ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي : الله يحييكم ابتداءً، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، لا كما زعمتم أنكم تحيون وتموتون بمجرد مرور الزمان والدهر، فالإحياء والإماتة حوادث لا بد لها من محدث مختار، قدرها بمشيئته وسابق علمه .

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي : لا شك في جمعكم، فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة، والحكمة تقتضي الحساب والجزاء، والإتيان بآبائكم قبل هذا اليوم لا حكمة فيه، ولهذا قدر سبحانه امتناع وقوعه .

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهلهم وقصورهم في التفكير والنظر، فالتقص والخلل فيهم، بسبب انهماكهم في شهواتهم، وتغلب أهوائهم عليهم، فالحق واضح أبلج، مؤيد بالحجج والبراهين الساطعة .

ثم قررت الآيات كمال سلطان الله تعالى في ملكه، وأنه وحده المتصرف والمؤثر فيه، فلا تأثير للزمان والدهر، والحوادث لا بد لها من محدث، والزمان ليس إلا ظرفاً لها لا تأثير له بها :

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِ يَخْسِرُ الْمُبٰطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

فسلطانه تعالى مطلق لا حدود له في الدنيا والآخرة، وفي هذا اليوم يخسر المبطلون، الذين ينسبون الحوادث إلى الدهر .

\* \* \*

## من مشاهد يوم القيامة

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابًا يُطَاقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْلَمُوا أَنَّ كِتَابِي تَنَزَّلُ عَلَيْكُمْ فَمَنَعْتُمْ قَوْمًا تُحْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ فِيهَا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَنْصِيحِينَ ﴿٣٤﴾ دَلِكُمْ بِأَنكُم مُّخَذَّبْتُمْ ءَأَنتُمْ اللَّهُ هَرَوَا وَعَرَّكُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُمْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وعرضت الآيات تعظيماً لشأن هذا اليوم - يوم القيامة - وتهويلاً له مشهداً

من مشاهدته:

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾ أي: باركة على الركب، ممّا يدل على شدة خوفهم

وغاية خضوعهم وذلّتهم.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تُدعى إلى كتاب أعمالها للحساب

والجزاء، ويقال لهم: اليوم تجزون ما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر.

﴿هَذَا كِتَابًا يُطَاقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أي: هذا كتابنا يشهد عليكم بما عملتم شهادة حق، لا زيادة فيها

ولا نقصان، إنا كنا نأمر الملائكة الكرام أن تكتب ما كنتم تعملون.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (٣٠)

أي: فيدخلهم الله في رحمته الموصلة إلى جنته، فيفوزون الفوز الواضح الخالص عن الشوائب والأكدار.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٣١)

وأما الذين كفروا فيقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن الإيمان بها، فكنتم قوماً عادتهم الإجرام، أو عريقين في الإجرام؟! ومن إجرامكم إنكاركم يوم القيامة:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ (٣٢)

أي: قلت استبعاداً لها واستغراباً: إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين بوقوعها.

وكان هؤلاء فريق آخر غير الدهرية المنكرين وجود الخالق ﷻ.

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٣٣)

أي: ظهر لهم عقوبات أعمالهم عندما عينوا قبحها، وعرفوها، ونزل بهم جزاء استهزائهم. ولما كان الجزاء من جنس العمل يقال لهم:

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمَا نَسْفَةً لِّقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوئِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيحٍ﴾ (٣٤)

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمَا نَسْفَةً لِّقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: نترككم في العذاب كما تركتم في الدنيا الإيمان بهذا اليوم، فلم تبالوا به، وتركتم الاستعداد له. ﴿وَمَاؤئِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيحٍ﴾ يخلصونكم منها.

﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَضْتُمْ أَحْيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ﴾ (٣٥)

﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: ذلكم العذاب بسبب إعراضكم عن الدلائل التي تهذب نفوسكم، وترشدكم إلى الحق، فلم تحفلوا بها، ولم تقبلوا عليها، وأقبلتم على الدنيا مغترين بها:  
﴿وَعَرَضْتُمْ أَحْيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ﴾ أي: ولا يطلب منهم أن يرضوا ربهم لفوات أوانه.

\* \* \*

### الحمد والكبرياء لله تعالى

﴿قُلِّبَ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٦) ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧)

وختمت آيات السورة بإعلان الحمد لله، وفيه - كما مر معنا - إقرار بكمال ذاته وصفاته وإحسانه، وإذعان وانقياد لآياته وأحكامه:

﴿قُلِّبَ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٦)

فكل شيء مربوب لله تعالى، فهو خلق من خلقه، وتحت قهر تصرفه ومشيئته.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧)

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وله العظمة والجلال، والقدرة والكمال في كل المكونات، إذ هي أثر من آثار قدرته وصنعتة، وباهر حكمته، فعظموه، ومجدوه، وأذعنوا لأحكام دينه وشرعه في تنزيله تنزيل العزيز الحكيم:

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: وهو العزيز الذي لا يُغْلَبُ، الحكيم في كل ما قضى وقَدَّر، فالكبرياءُ صفةٌ من صفات كماله وجماله، لا يشاركه فيها أحد، ولا تليقُ بغيره ﷻ.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالوا: قال رسول الله ﷺ: «العزُّ إزارُهُ، والكبرياءُ رداؤُهُ، فمن ينازعني عذبتُهُ» [رواه مسلم (٢٦٢٠)].

والضمير في (إزاره، ورداؤه) يعود إلى الله تعالى للعلم به، وهذا وعيدٌ شديدٌ في الكبر، وتسميته إزار ورداء مجازاً، واستعارة حسنة، كما تقول العرب: فلان شعاره الزهد، ودثاره التقوى، لا يريدون الثوب الذي هو شعار أو دثار، بل معناه: صفته كذا.

اللهم اجعلنا ممن يعظّمك ويمجّدك، ويدعن لأحكام دينك وشرعك يا رب العالمين، والحمد لله ربّ العالمين.



## تفسير سورة الأحقاف الدَّعْوَةُ وَالِاسْتِجَابَةُ فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
دعوة الحق ودعوة الباطل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَحَلَّ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَادِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَلْنَا مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَصْلٌ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾

بدأ سبحانه سورة الأحقاف سابعة الحواميم كما بدأ سورة الجاثية قبلها فقال:

﴿حَمَّ ١﴾ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

ثم بيّن سبحانه أنّ الحق أصلٌ أصيلٌ في خلق هذا الكون، ولذا قدّر له أجلاً مسمى ينتهي إليه؛ هو يوم الحساب والجزاء:

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا  
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ .

فلا يؤمنون به، ولا يستعدون له .

فأمريت الآيات النبي عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم توبيخاً وتقريعاً:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنذِرُونِي  
بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَرْتُمْ مِنَ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي:

أخبروني عن حال آلهتكم التي تعبدونها من دون الله أي شيء خلقوا من الأرض؟! أم لهم شركة مع الله في خلق السماوات تستحق من أجلها العبادة؟! .

﴿أَتُنذِرُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَرْتُمْ مِنَ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: ائتوني

بكتاب من قبل هذا القرآن، أو بقية من علم يؤثر عن الأولين شاهدةً باستحقاقهم العبادة إن كنتم صادقين في دعواكم .

فالدعوة لا تصح من غير دليل عقلي أو سمعي، وحيث لم يقم عليها دليل

فهي دعوى باطلة، ولهذا حكمت الآيات على أصحابها بالضلال:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ  
غَافِلُونَ ﴿٥﴾﴾ .

أي: لا أضل ممن يدعو آلهة من دون الله لا تسمع ولا تجيب ما دامت

الدنيا، وهم أيضاً عن دعاء المشركين غافلون، لا يشعرون ولا يدرون، وكذلك

لا تجيب أيضاً في الآخرة، فما بعد هذه الغاية يوافق ما قبلها ويزيد عليها:

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ .

أي: وإذا حُشِرَ الناس يوم القيامة كان المعبودون أعداءً للعابدين، ويتبرأ المعبودون أيضاً من عبادة الكافرين إياهم، كما يتبرأ إبليس عندما يقول لأهل النار: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

\* \* \*

### ردود على أباطيل

﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِصُونَ فِيهِ كَافٍ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنْ أُرْسِلُ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنِجُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ .

ثم انتقلت الآيات إلى حكاية ما هو أشنع وأقبح من إعراضهم، فالمشركون لم يعرضوا فقط عن دعوة النبي ﷺ، بل اتهموه بالسحر والكذب:

﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ .

﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واطحات في بيان ما يلزم بيانه.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بادر الذين كفروا أول سماع

الحق من غير تفكير وتأمل إلى وصفه بأنه سحر مبين.

ثم أضافوا إليه قولاً أقبح من القول الأول، وهو اتهام الرسول ﷺ بالافتراء والكذب على الله تعالى، ولهذا حكته الآيات بأسلوب الانتقال والإضراب المتضمن الإنكار والتوبيخ:

﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ .

﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أمر رسول الله ﷺ أن يرُدَّ عليهم معلناً ضعفه وخوفه من الله تعالى: فَإِنْ كُنْتُ مَفْتَرِيًّا كَمَا تَقُولُونَ فَلَا تَمْنَعُونَ عَنِّي شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى .

وكيف أجتريُّ وأعرِّضُ نفسي لعقابه وانتقامه وهو العليم بكل شيء:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: هو أعلم بما تخوضون فيه من الطعن في آياته ووصفها بالسحر والافتراء.

﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: تكفيني شهادته تعالى، فهو يشهد لي بالصدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالكذب والإنكار، ومع ذلك فإنكم إن آمنتُمْ يغفر ما سلف منكم ويرحمكم .

ولا شك أن شهادة الله العليم الخبير أعظم شهادة، قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكِ الْمَكِينِ يُشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء].  
وتابعت الآيات تردُّ على أباطيلهم وضلالاتهم:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾﴾ .

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لست أول رسولٍ أرسل، فقد جاءت الرسل من قبلي، فلماذا تكذبونني، وتستنكرون بعثتي إليكم؟! .

والبدع: بمعنى البديع، كالخِلِّ بمعنى الخليل، وهو ما لا مثل له .

﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: ولا أعلم الغيب، فلا أدري ما قدر الله لي ولكم في الدنيا، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والقول بأن المراد: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة، وأنه نسخ بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] غير صحيح، لأنه خبر، والنسخ لا يكون في الأخبار، ولم يزل رسول الله ﷺ من أول مبعثه إلى مماته يخبر أن من مات على الكفر مخلد في النار، ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو في الجنة<sup>(١)</sup>.

وأما ما ورد في الحديث الشريف الذي ترويه أم العلاء الأنصارية: أنها قالت عندما توفي عثمان بن مظعون: رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْكَ أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لها النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهُ؟» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «أما عثمان فقد جاءه والله اليقين، وإنني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعلُ به». قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً، وأحزنني ذلك، فنيمتُ فأرَيْتُ لعثمان عيناً تجري، فجيئتُ إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «ذلك عمله» [رواه البخاري (٢٦٨٧)].

وفي رواية ثانية بلفظ: «والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعلُ بي» [رواه البخاري (١٢٤٣)].

فمحمول هذا القول على شدة تواضعه عليه الصلاة والسلام، وإرشاد للمؤمنين كي لا يتألوا على الله تعالى.

﴿إِن أَنجُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يوحي إلي، وما أنا إلا نذير بين الإنذار، أحذركم من عقاب الله تعالى.

\* \* \*

## شاهد من بني إسرائيل

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِءِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِءِ فَأَمَانَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ .

وكما شهد الله على صدق النبي عليه الصلاة والسلام وصحة رسالته شهد له أيضاً المؤمنون العلماء من أهل الكتاب:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِءِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِءِ فَأَمَانَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِءِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِءِ فَأَمَانَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: أخبروني إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن، وهي التوراة، فإن ما في القرآن من التوحيد والوعيد والوعيد يطابق ما في التوراة، فآمن الشاهد، بينما استكبرتم عن الإيمان، وأعرضتم عنه.

أو: شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي، فبشّرت به، وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] أي: إن ذكره والتنويه به في جميع كتب الأنبياء السابقين.

وجواب الشرط محذوف تقديره: أستم أضلّ الناس وأظلمهم، دل عليه قوله تعالى في ختام الآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإعراض عن دعوة

الحق.

والشاهد هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه عند جمهور المفسرين، ويؤيده الحديث

الشريف: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: ما سمعتُ النبي ﷺ يقولُ لأحدٍ يمشي على الأرض: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ [رواه البخاري (٣٨١٢)].

أو: كل من أسلم من أحبار أهل الكتاب كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

فأمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم.

قال ابن كثير في تفسير الآية بعد أن عَزَى هذا القول إلى مسروقٍ من علماء التابعين: وهذا يعُمُّ عبدَ اللهِ بنَ سلام وغيره، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣].

وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ يَحْزَنُونَ لِالَّذِينَ سَجَدُوا﴾ الآية [الإسراء: ١٠٧].

\* \* \*

### كبر وجهل

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (١١)

ثم بينت الآيات أن الكِبْر هو سبب إعراضهم عن دعوة الحق:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (١١)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: قالوا لأجل المؤمنين وفي شأنهم: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء.

يعنون بلالاً وعماراً وضحياً وخباباً رضي الله عنهم وأشباههم من المؤمنين الضعفاء

الفقراء والعبيد والإماء، فإنَّ معالي الأمور في زعمهم لا ينالها الفقراء والضعفاء، وأخطؤوا في ذلك خطأً فاحشاً، فالتفاوتُ في الأرزاقِ والمواهبِ امتحانٌ واختبارٌ، سقطوا فيه كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]!؟.

ومرَّ معنا أن قوم نوح قبلهم قالوا مثل ذلك: ﴿وَمَا نَزَّلَكَ لِئَلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكُلْبَاءِ الرَّأْيِ وَمَا نَزَّى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وأن نوحاً ﷺ ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

وأضافت الآية تبين موقفهم من القرآن الكريم، وتحكي قولهم الذي يرددونه كلما نزل منه نجم، فمن المعلوم أن القرآن نزل منجماً على النبي ﷺ:

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيرٌ﴾ أي: وظهر عنادهم واستكبارهم وجهلهم أيضاً بالإعراض عن هدي القرآن الكريم، وسيقولون كلما سمعوا شيئاً منه: هذا كذب قديم، كقولهم عنه: ﴿أَسْطُرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

وهو الكبر الذي وصفه النبي ﷺ في الحديث الشريف: فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبَرٍ» قال رجلٌ: إنَّ الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنةً. قال: «إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ» [رواه مسلم (٨٩)].

وبطر الحق: دفعه وإنكاره تكبراً. وغمط الناس: احتقارهم. فالكبر منعهم من الإذعان للحق والاستسلام له، وهو الجهل والسفه، فمن جهل شيئاً عاداه وأعرض عنه.

## دعوة القرآن ودعوة التوراة

﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۗ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ حَلِيلِينَ فِيهَا جَزَاءٌ يَّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

ثم صرّحت الآيات بما أشارت إليه في السابق من المماثلة بين التوراة والقرآن :

﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۗ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي : ومن قبل القرآن الكريم أنزل الله التوراة إماماً وقُدوة، يؤتم بها في دين الله وشريعته، ورحمة لمن آمن بها وعمل بما فيها .  
والمماثلة ليست في كلّ الجوانب، إنما المماثلة بين القرآن والتوراة في أصل الاعتقاد، وكون كل منهما المرجع الأساس الأول للتكاليف والأحكام التي شرعها الله تعالى، فالتوراة كانت المرجع الأساس الأول لبني إسرائيل قبل نزول القرآن الكريم، الذي جعله الله تعالى المرجع الأساس الأول للشريعة الإسلامية، وهي الشريعة التي تعبدّ بها الإنس والجن إلى قيام الساعة .

ويبدو أن سكوت الآيات هنا عن ذكر الإنجيل، لأنه تعالى أنزله أيضاً على بني إسرائيل، يدعوهم فيه إلى التمسك بشريعة التوراة، فعيسى ﷺ لم يأت بشريعة جديدة ناسخة لشريعة التوراة، إنّما عدّل بعض أحكامها كما مرّ معنا في قوله تعالى على لسان عيسى ﷺ : ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجَلٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجَمَّتُمْ بِنَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران: ٥] .

ولهذا فإنّ النصارى يقدّسون الأسفار التي يقدسها اليهود، ويسمونها : العهد القديم، رغم ما بينهم وبين اليهود من خلاف كبير في الاعتقاد، وقد

استغل اليهود تقديس النصارى للعهد القديم لكسب تأييد الدول النصرانية لإقامة دولتهم في فلسطين.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وهذا القرآن كتاب مصدق للكتب التي أنزلها الله قبله، أنزله عربياً فصيحاً بيّناً واضحاً لينذر الرسول ﷺ به الكافرين، ويبشر المحسنين، وفي قراءة: ﴿لِيُنذِرَ﴾ بقاء الخطاب للرسول ﷺ.

فالآية تعظم شأن القرآن الكريم، وتردُّ على المشركين قولهم: ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحزاب: ١١]؛ فكيف يكون إفكاً وهو الكتاب الذي صدق كتاب موسى الذي كان للمؤمنين من أهل الكتاب إماماً ورحمة، وقد أنزله الله تعالى باللسان العربي المبين، فمؤيدات صدق دعوة القرآن الكريم في القرآن نفسه وهي واضحة بينة. ثم بينت الآيات بُشْرَى للمحسنين بعد أن بينت إنذاره للكافرين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: إن الذين جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في أمور الدين التي هي منتهى العمل، فلا خوف عليهم من لحوق مكروه، ولا هم يحزنون من فوات محبوب، فالمراد ببيان دوام نفي الحزن<sup>(١)</sup>، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

فلا تتحقق الاستقامة إلا بالدوام على الطاعة، واستمرار الشعور بمراقبة الله تعالى، وهو مقام الإحسان الذي بيّنه النبي ﷺ في قوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)].

و(ثم) للتراخي الرتبي أو للزماني، وهي تفيّد الاستمرار على الاستقامة في جميع الأوقات.

(١) تفسير أبي السعود: ٨٢/٨.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: أولئك المتصفون بهذه الصفة أصحاب الجنة، جوزوا جزاءً بما كانوا يعملون في الدنيا باتباع دعوة الحق، والتزام أحكامها .

\* \* \*

### المستجيبون لدعوة الحق

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾  
 ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَجَاوَرُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

وعودنا سبحانه في التنزيل الحكيم على ضرب الأمثال الواقعية المحكمة،  
 فعرضت الآيات على سبيل المقارنة نموذجين بشريين لإنسانين:  
 أولهما: المتمسك بدعوة الحق والمدعن لها في جميع مراحل حياته:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي: وصينا الإنسان بأن يحسن بوالديه  
 إحساناً، وقرئ: (حُسْنًا) أي: فعلاً ذا حُسن، كأنه في ذاته عَيْنُ الحُسن لكثرة  
 حُسنه، وقرئ: ﴿حَسَنًا﴾ أي: إيصاءً حَسَنًا، وقرئ أيضاً: (حُسْنًا).

ثم أبرزت الآية شدة معاناة الأم في حمل ولدها وإرضاعه:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: حملاً ذا كره، ووضعاً ذا كره، وقرئ بفتح الكاف، ومعناها واحد وهو المشقة.

﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ أي: ومدة حمله إلى أن ينفصل من الرضاع ثلاثون شهراً، فالمراد من الفصال: الرضاع التام المنتهي بالفظام.

فدلت الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله أيضاً: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

ولعل تصدير الآية بتذكير الإنسان بفضل والديه عليه، لكي يعلم فضل الله عليه بالأولى، فيقبل على عبادته وطاعته والاستقامة على شريعته.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: حتى إذا بلغ نهاية قوته، وغاية شبابه، وهو سن الأربعين، قال: رب ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي، وأن أعمل صالحاً ترضاه.

أو: رغّبني ووفّقني، من: أوزعته بكذا؛ أي: جعلته مولعاً به، راغباً في تحصيله<sup>(١)</sup>.

والمراد نعمة الدين وغيرها، ولا يكون العمل صالحاً مقبولاً عند الله إلا إذا كان خالصاً له وحده، موافقاً لشرعه، فكأنه يقول: اجعل عملي على وفق رضاك.

وتشير الآية إلى أن العيش في رعاية والدين مسلمين نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان، لما لهما من تأثير قوي في تربية ولدهما تربيةً صالحةً أو فاسدة، كما مرّ معنا في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» [رواه البخاري (٤٧٧٥)].

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: اجعل ذريتي صالحين، أو اجعل الصلاح سارياً في ذريتي، راسخاً فيهم، ولهذا عُذِّي بـ (في)، فالوالد الصالح يهتَمُّ بصلاح ذريته، وسلامة عقيدتهم ودينهم، وهو حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وكذلك مر معنا أن من دعاء عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

ولا تفر عين الوالد الصالح بولده إلا إذا كان مثله في الصلاح والاستقامة. ﴿إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: إني تبت إليك عمّا لا ترضاه، وإني من المستسلمين لأمرك، المتقادين لشريعتك.

وهكذا تلتقي في هذا النموذج أصرة النسب مع أصرة الدين، ولذلك أشارت الآية إليهم جميعاً بقوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَبِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: نتقبل عنهم الحسنات، ونثيبهم عليها أحسن ما يقتضي الثواب من الطاعات، ونتجاوز عن سيئاتهم فنغفرها ونصفح عنها.

وفي قراءة: (يتقبل) و(يتجاوز)، و(أحسن) على أنه نائب فاعل، وقرئ أيضاً: (يتقبل) و(يتجاوز) مبنيين للفاعل.

﴿فِي أَحْسَبِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: كائنين مع أصحاب الجنة تحقيقاً للوعد الصادق على السنة الرسل في الدنيا.

## المعرضون عن دعوة الحق

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهٗ أَفِ لَكُمَا أَعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِخَانِ اللَّهَ وَيَلِيكَ ءَايَمِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِفَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ لَكُمْ طَبِيبٌ لَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْمَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُعْرَضُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِعِيرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

ثانيهما: نموذج الإنسان الجاحد المعرض عن دعوة الحق، حيث تفترق أصرة النسب عن أصرة الدين:

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهٗ أَفِ لَكُمَا أَعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِخَانِ اللَّهَ وَيَلِيكَ ءَايَمِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهٗ أَفِ لَكُمَا أَعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أي: والذي قال لوالديه عند دعوتهما له إلى الإيمان: أف لكما، أتعدانني أن أبعث من القبر بعد الموت، وقد مضت أجيالٌ من قبلي، ولم يخرج منها أحد؟! .  
والمراد من قوله: ﴿أَفِ لَكُمَا﴾ إظهارُ التضجرِ من دعوتهما له إلى الإيمان، إذ هو صوت يصدر عن المرء عند تضجره.

وقري: (أف) بالفتح والكسر بغير تنوين، وبالحركات الثلاث مع التنوين.  
وقد مرَّ معنا أن الله تعالى نهى الولد أن يقول لوالديه مثل هذه الكلمة فقال:  
﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا أَفِي وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿وَهُمَا يَسْتَفِخَانِ اللَّهَ وَيَلِيكَ ءَايَمِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: والوالدان يستعظمان قول ولدهما، ويسألان الله الغوث والمعونة من قبحه وشناعته، ويقولان له: ويلك آمن وصدق بيوم الجزاء والحساب، فهو وعد حق من الله تعالى.

ومر معنا: أن كلمة (وَيْلٌ) تقال لمن أراد الله تعذيبه، والمراد منها هنا حث الولد وتحريضه على الإيمان، وهي تدل على شدة حرص الوالدين على هداية ولدهما وإنقاذه من هاوية الكفر والضلال، ولكن الولد العاق يصبر على عناده وكفره.

﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي تدعوانني إلى التصديق به إلا حكايات الأولين الباطلة المسطورة في كتبهم. فالآية تصف ولداً كافراً فاجراً عاقاً لوالديه.

وما روي: أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قبل إسلامه؛ غير صحيح، رده السيدة عائشة رضي الله عنها وكذبتة، ففي الحديث: أن مروان بن الحكم لما كان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أُفٍّ لَكُمْ أَتَعَدَّيْنِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري. [رواه البخاري (٤٨٢٧)].

قال ابن حجر رحمته الله: «والعجب مما أورده الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر، وقد تعقبه الزجاج فقال: الصحيح أنها نزلت في الكافر العاق، وإلا فعبد الرحمن قد أسلم فحسن إسلامه، وصار من خيار المسلمين»<sup>(١)</sup>.

كما أن قوله تعالى بعد ذلك لا يناسب عبد الرحمن:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا

خَسِرِينَ ﴿١٨﴾

أي: أولئك الجاحدون يوم القيامة وجب عليهم قوله تعالى لإبليس ومن تبعه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

من حقّ عليه القول هو من أعلم الله تعالى أنه لا يُسَلِّمُ أبداً، وأنه من القوم الخاسرين، الذين ضيعوا حياتهم وفطرتهم باتباع الشيطان.

وفي قراءة: (أنهم) بفتح الهمزة على تقدير (لأنهم).

ومن المعلوم: أن عبد الرحمن بن أبي بكر قد أسلم، وكان من أفاضل الصحابة، فهذا التعقيب يدل على أن الآيات عرضت أنموذجاً بشرياً يتكرر دائماً، وما أرادت إنساناً معيناً.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أي: ولكل واحد من الفريقين يوم القيامة مراتب ومنازل من جزاء ما عملوا من خير وشر.

﴿وَلِيُوفيهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: وليوفيهم جزاء أعمالهم وهم لا يُظلمون بنقص ثواب وزيادة عقاب. وفي قراءة: (ولنوفيهم) بالنون.

ثم بينت الآيات من خلال عرضها لمشهد من مشاهد يوم القيامة أن سبب تكذيبهم بهذا اليوم انشغالهم بشهوات الدنيا:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ إما بعرضها عليهم، وكشف ما فيها من العذاب لهم، أو بتعذيبهم فيها، ويقال لهم حينئذ تقريباً وتوبيخاً:

﴿أَدَّبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أي: تمتعتم بالطيبات في الدنيا، واتبعتم الشهوات واللذات، فانشغلتم بها عن الاستعداد للآخرة.

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: فالיום تُجزون عذاب الخزي والفضيحة بما كنتم تستعملون في الأرض بغير استحقاق، وبما كنتم تخرجون عن طاعة الله تعالى.

ولما وبَّخ الله تعالى الكافرين بالتمتع بالطيبات أثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات في الدنيا رجاء ثواب الآخرة، ومرر معنا وصف لمعيشة النبي ﷺ عند تفسير آيتي التخيير في سورة الأحزاب [٢٨ - ٢٩]، وقوله عليه الصلاة والسلام لعمر ﷺ: «أولئك قومٌ عَجَلَتْ لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» [رواه البخاري (٢٤٦٨)].

\* \* \*

### دعوة هود عليه السلام

﴿وَأذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٦﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّكَ عَنِ الْمَيْمَنَةِ فَأَنَّا يُبَادِلُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُنزِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا بِمَجْهُولِكُمْ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطْرُنًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْحَوْا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَحْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ مَكَنْتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنْتُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْعَادَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْعَادُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْرَهُونَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٢﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وانتقلت الآيات من إنذار الوالدين الصالحين ولدهما العاق الكافر، إلى إنذار نبي من الأنبياء أمته، واختارت نبي الله هوداً عليه السلام وإنذاره أمته الذين استكبروا في الأرض، وتمتعوا بالطيبات في الدنيا، واتبعوا الشهوات:

﴿وَأذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَأذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ أي: واذكر يا محمد للمعرضين عن

دعوتك هوداً ﷺ عندما أنذر قومه بالأحقاف، وهي منازل قومه جنوب أرض العرب في حضرموت وما حولها .

﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْأَنْدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: مضت الرسل من قبل هود ومن بعده، أو أرسلت الرسل إلى من حول بلاده، فلم يكن ﷺ يدعياً من الرسل، وقال لقومه كما قال غيره:

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

ولكنهم أعرضوا عن دعوته:

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّكِفَ عَنْ آهَاتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعَدْنَا إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢) .

أي: قالوا: أجيئنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟! فأتنا بما تعدنا من العذاب العظيم، إن كنت من الصادقين في وعدك .

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٣) .

قال: إنما العلم بوقت مجيء العذاب عند الله لا عندي، وأبليغكم ما أرسلت به، فما على الرسول إلا البلاغ، ولكني أراكم قوماً تجهلون أن الرسل بعثوا منزيين مبلغين لا معذيين مقترحين .

أو: تجهلون قدر العذاب الذي ينزل بكم وطبيعته .  
ويؤيد المعنى الثاني قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤) .

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: رأوا سحاباً عارضاً في أفق السماء، متوجهاً إلى أوديتهم، قالوا: هذا عارضٌ يأتينا بالمطر، ويبدو أن المطر قد حُسِّنَ عنهم، فأصيبوا بالقحط والجفاف .

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: بل هو ريح فيها عذاب أليم وهو العذاب الذي استعجلتم به.

﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: تهلك كل شيء بمشيئة ربها، فكل شيء منوط بمشيئته تعالى.

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ أي: فأصبح لا يرى الناظر إليهم إلا مساكنهم، فلم تبق منهم الريح إلا الآثار والمساكن المعطلة الخاوية.

وفي قراءة: (لا ترى إلا مساكنهم) بالتاء ونصب المساكن، قال تعالى: ﴿فَكَأَنَّ مِنَ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَثِرُ مَغْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥].

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سري عنه، فعرفته عائشة ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وما أدري كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدَيْنِهِمْ﴾» [رواه البخاري (٣٢٠٥)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكْتُ عَادٌ بِالذَّبُّورِ» [رواه البخاري (٣٢٠٦)].

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء الفظيع نجزي المجرمين.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي: ولقد مكناهم فيما لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من قوة الأبدان، وطول الأعمار، وكثرة الأموال، فقد كانوا أكثر

منكم أموالاً، وأشد قوة وآثراً كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِعَابًا﴾ [مريم: ٧٤].

وقوله أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِثْمًا قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ وهي وسائل التمكين التي تمكنهم من معرفة خالقهم ليشكروه ويعبدوه.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: فما انتفعوا بها، ولا دفعت عنهم عذاب الله عندما نزل بهم، لأنهم كانوا يجحدون بآيات الله، وينكرون الدلائل التي تدلهم عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْدَاؤُنَا لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: ونزل بهم جزاء استهزائهم وتكذيبهم لأنبيائهم.

وزادت الآيات في تهديدهم ووعيدهم فخصّصت بعد تعميم:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧).

أي: ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى - يا أهل مكة - وكررنا تذكيرهم بالآيات والحجج والمواعظ لعلهم يرجعون عن الطغيان إلى الإيمان، ولكنهم أصروا على طغيانهم وكفروهم فأهلكناهم.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا

كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٨).

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلهَةً﴾ أي: فهلاً نصرهم وخلّصهم

من العذاب الذين اتخذوهم آلهة يتقربون بعبادتهم إلى الله! فقد كان المشركون يقولون عن عبادتهم الأصنام: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].

ولا يخفى ما في الآية من تهكم مرير بهم.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْعُرُونَ﴾ أي: غابوا عنهم وهم أحوج ما يكونون إلى نصرهم.

وهذا نتيجة شركهم، وأثر افترائهم على الله، فهم الجناة على أنفسهم.

\* \* \*

### الجن المستجيبون لدعوة الحق

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِكم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

وكما زادت الآيات في وعيد أهل مكة وتهديدهم، زادت في تعريضها بهم عندما تحدثت عن الجن الذين استجابوا لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتأثروا بسماع القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي: اذكر لقومك المعرضين عن دعوتك خبر النفر من الجن الذين وجهناهم إليك ليستمعوا القرآن، لعلمهم ينتبهون لجهلهم وغلطهم، وقُبِح ما هم عليه من الكفر بالقرآن والإعراض عنه،

حيث إنهم كفروا به وهم أهل اللسان الذي نزل به، ومن جنس الرسول الذي جاء به، وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عند الله، وآمنوا به، وليسوا من أهل لسانه، ولا من جنس رسوله.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَبُوا﴾ أي: فلما حضروا تلاوته قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنسمعه، وفيه إشارة إلى وجوب الإنصات لاستماع القرآن حين تلاوته كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصَبُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ويبدو أنه ﷺ لم يعلم بهم حتى أنطق الله شجرة أعلمته بوجودهم، ففي «صحيح البخاري» [٣٨٥٩]: عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه أذنته بهم شجرة.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي: فلما أتم وفرغ من تلاوته تفرقوا وذهبوا إلى قومهم يندرونهم ويبلغونهم دعوة الإسلام.

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث، فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، سمعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١]، وأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] وإنما أوحى إليه قول الجن. [رواه البخاري (٤٩٢١)].

ودلت رواية ابن عباس هذه على أن الجن استمعوا قراءته ﷺ، ثم رجعوا إلى قومهم.

ودلت رواية ابن مسعود رضي الله عنه أنهم وردوا إليه رسالاً فوجاً بعد فوج، ففي

الحديث: عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه سُئِلَ: هل شهد أحدٌ منكم مع رسولِ الله ﷺ ليلةَ الجنِّ؟ قال: لا، ولكن كُنَّا مع رسولِ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا: استظير أو اغتيل، فبتنا بشرَّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ، فلَمَّا أصبحنا إذا هو جاء من قِبَلِ حِراءَ، فقلنا: يا رسولَ الله فقدناكَ فطلبناكَ، فبتنا بشرَّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ! فقال ﷺ: «أنا نبي داعي الجنِّ فذهبتُ معه، فقرأتُ عليهم القرآن» قال: فانطلق بنا، فأرانا آثارَهُم، وأثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «لكم كلُّ عظمٍ ذُكِرَ اسمُ الله عليه يقعُ في أيديكم أوفرَ ما يكونُ لحمًا، وكلُّ بعرةٍ علفٌ لدوابكم، فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعامُ إخوانكم» [رواه مسلم (١٥)].

فهؤلاء المنذرون هم رسلُ الجنِّ الذين بلغوا قومهم ما سمعوه من الرسول ﷺ.

﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي: أنزل بشريعة كاملة من بعد موسى، فقد كان عيسى عليه السلام مأمورًا بالعمل بمعظم ما في التوراة كما مرَّ معنا. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهذا الكتاب أنزل مُصَدِّقًا للكتب السابقة قبله، ويهدي إلى العقيدة الصحيحة، والشريعة المستقيمة، فخير القرآن صدق، وتكليفه عدل.

﴿يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

﴿يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ﴾ أي: أجيئوا رسول الله ﷺ، وصدقوا بصفة دعوته ورسالته، فهو الداعي إلى الله كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٩﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٥٠﴾ [الأحزاب].

وهذا يدل على عموم دعوته ﷺ للإنس والجن، وأنه ﷺ قد بلغ دعوته الجن، كما بلغها الإنس.

﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّئْكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم التي سلفت منكم قبل الإسلام، ويقيكم من عذاب جهنم الأليم.

فمؤمنو الجن - كما قال ابن كثير رحمته - يدخلون الجنة كمؤمني الإنس، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فقد امتنَّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، ولم يرد نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة، وإن أُجبروا من النار، ولو صح لقلنا به.

ويؤيده عموم قوله تعالى السابق: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]؛ لأنه قال قبلها: ﴿يَمَعَّشَرَ الْبِرِّ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْتَهِى﴾ [الأنعام: ١٣٠].

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ .

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا نجاة له من الله، ولا مهرب، فهو في قبضة قدرته تعالى، وتحت قهر مشيئته في أي مكان وزمان، كما ذكر سبحانه من قول الجن: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ كُنْعِجَزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢].

﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي: وليس له أنصار يمنعونه من الله، فكما لا نجاة له بنفسه لا نجاة له بغيره.

﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أولئك الذين لم يجيبوا داعي الله في ضلال مبين، فالإعراض عن الحق يوقِّع في الضلال، وليس بعد الحق إلا الضلال.

\*\*\*

## موعظة بليغة

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مِنَّا إِنَّهُمْ كَانُوا لَمِنَ الْأَلْفَاكِ ﴿٣٥﴾﴾ .

وكما بدأ سبحانه السورة ببيان كمال قدرته في إيجاد المخلوقات، ختمها بتقرير كمال قدرته على إعادتهم بعد الموت في الأجل المسمى الذي سبق به علمه وتعلقت به مشيئته، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: ولم يتعب بخلقهن وإبداعهن كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

فهو تقرير لكمال قدرته جل وعلا أبداً، وأنها لا تنقص ولا تتغير بالإيجاد أبد الآباد.

﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على كل شيء من البعث وغيره.

ثم وصفت الآيات حال المعرضين عن دعوة الحق يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ، ويقال لهم تقريراً وتوبيخاً:

﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟! أي: أليس هذا العذاب هو الحق الذي حذرکم الرسول ﷺ منه، ودعاكم إلى التصديق به؟! .

ولا يملكون حينئذٍ إلا الاعتراف المشوب بالأسف والندم:  
﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

ثم توجهت الآيات إلى الرسول الداعي ﷺ تثبته على طريق الدعوة، وتواسيه عما يلقي من إعراض المعرضين عنها:

﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغْ فَمَلَّ يَهُلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: أولو الشدة والثبات من الرسل .

وهي صفة جميع الرسل، أو صفة أصحاب الشرائع المشهورة الذين ذكروهم سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] .  
﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ بنزول العذاب .

وهو تثبیت له ﷺ، فما كان ﷺ يستعجل تعذيبهم، بل كان يستعجل هدايتهم، وقد يكون المراد: لا تستعجل تعذيب المستهزئين منهم المصرين على الكفر والتكذيب الذين قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] .

﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ أي: عندما يرون العذاب يشعرون كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا وقتاً قصيراً من شدة العذاب وطول مدته .

﴿بَلَّغْ فَمَلَّ يَهُلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: هذا الذي دُعيتم إليه ووعظتم به فيه غاية الموعظة، فهو موعظة بليغة كافية شافية، فلا يهلك بعذاب الله إلا المعرضون عنه، الخارجون عن الاتعاظ به، والعمل بموجبه، فالحجة قائمة عليهم بدعوة الرسول ﷺ، ولا عذر لمن بلغته الدعوة بالإعراض عنها .



## تفسير سورة مُحَمَّد الْحَرْبُ وَالسَّلَامُ فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
المقارنة بين المؤمنين والكافرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ۗ﴾ (١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ .

بدأ سبحانه السورة ببيان أحوال المسلمين والكافرين :

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ۗ﴾ (١)

أي: الذين كفروا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام، أو صدوا غيرهم عنه؛ أبطل أعمالهم، وأحبطها، وحكم ببطلانها .

والمراد أعمال البر: كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وإجارة المستجير، وفك الأسير، ونحو ذلك، لأنها كانت لغيره تعالى، كما قال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] .

أو: أبطل ما عملوه من الكيد والمكر بالنبِيِّ ﷺ والمسلمين؛ أبطلها سبحانه، وجعل الدائرة تدور عليهم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (٢).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن الكريم، خصَّه بالذكر تعظيماً لشأنه، وتنبههاً إلى أنه لا يتم الإيمان إلا به، فهو من قبيل عطف الخاص على العام، ثم أكد هذا المعنى فقال:

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فهو ناسخ للأديان كلها، ولا يردُّ عليه نسخٌ، فهي جملة معترضة تفيد حصر الحق فيه.

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: سترها وأزالها، ولم يؤاخذهم بها، وأصلح حالهم في الدنيا بالتوفيق والتأييد.

فالبال: الحال والشأن، وكل ما له خطر، ولذلك يقال: ما باليتُ بكذا، أي: ما اكثرتُ به.

والتعبير يلقي ظلالَ الطمأنينة والراحة والثقة والرضا والسلام، ومتى صلح البال استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ (٣).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ذلك الإضلالُ للكافرين، وإصلاحُ البال للمؤمنين، بسبب اتباع الكافرين الباطل، واتباع المؤمنين الحق في القرآن الكريم.

ففي الآية توضيحٌ بأسلوب اللف والنشر، وهو من محاسن الكلام، أشار سبحانه إلى حسنه بقوله:

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي: مثل ذلك البيان البديع يبين الله للناس أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين في الحال والمآل، والجارية مجرى الأمثال، وهي اتباع المؤمنين الحق وفوزهم وفلاحهم، واتباع الكافرين الباطل وخيبتهم وخسرانهم.

\* \* \*

### أحكام في القتال والأسر

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَتُمْوَهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا يَدَاؤُهُ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّئَلَّا يُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَكُمْ ﴿٤﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِاللِّمَمِ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصَرُوا اللَّهُ بِصُرَّتِكُمْ وَبَيَّتَ اقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾.

ومهدت الآيات بهذا البيان البديع لتشريع أحكام ضرورية في قتال الكفار ومعاملة الأسرى:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَتُمْوَهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا يَدَاؤُهُ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّئَلَّا يُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَكُمْ ﴿٤﴾﴾.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي: فإذا كان الأمر كذلك، ولقيتم الذين كفروا في ميادين القتال، فاضربوا رقابهم ضرباً.

وحصَّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها، والمراد: اقتلوهم.

وفي ضرب الرقاب إشارة إلى الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل، قال

تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

[التحریم: ٩].

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ﴾ أي: حتى إذا أكثرتم فيهم القتل وقهرتموهم وأضعفتموهم فأسروهم.

فالإِثْخَانُ: مأخوذ من الثخين وهو الغليظ، والمراد شِدَّةُ التقتيل، حتى تتحطم قوة العدو، فلا يقدر على هجوم أو دفاع.

فما دام العدو قوياً فعلى المجاهدين أن يجعلوا تحطيم قوته، ودفع خطره، هدفهم الأول، وألاً ينشغلوا بأسر جنوده، فإنَّ ذلك يؤدي إلى صرف جزء من قوتهم إلى جمع الأسرى وحراستهم، في وقت يحتاجون فيه إلى صرف كل قوتهم وحشد طاقتهم لإضعاف العدو، وإنزال أكبر الخسائر في صفوفه، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنَّيَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُنْخَفَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

والوثاق: بالفتح والكسر اسم ما يوثق به، والمعنى: فشدوا وطاق الأسرى حتى لا يفلتوا منكم.

﴿فِيمَا مَتَابَعْدُ وَإِيمَا فِدَاءً﴾ أي: بعد الأسر إمَّا أن تمنوا عليهم منَّا بإطلاقهم بغير عَوْضٍ، وإمَّا أن تفادوهم فداءً، بأن يفادى بأسراهم أسرى المسلمين، أو بأخذ المال منهم.

وقد رواه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة، وهو قول صاحبيه، والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره لثلا يعودوا حرباً على المسلمين، فحكم الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وعن مجاهد: ليس اليوم من ولا فداءً، إنما هو الإسلام أو ضرب العنق<sup>(١)</sup>.  
 وذهب أكثر العلماء إلى أن الآية محكمة، والإمام مخير في الرجال البالغين من الكفار إذا أسروا بين أن يقتلهم، أو يسترقهم، أو يمنَّ عليهم فيطلقهم بلا عوض، أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين. وإليه ذهب ابن عمر، وبه قال الحسنُ وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء، قال ابن عباس: لما كثر المسلمون

(١) تفسير النسفي: ٤٩٩/٥.

واشتد سلطانهم أنزل الله في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ هذا القول هو الصحيح، عمل به الرسول ﷺ والخلفاء بعده<sup>(١)</sup>.

واختار هذا القول القرطبي واستحسنه، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ إذا جاز أن يقع التعدد، فإذا لقينا الذين كفروا قتلناهم، فإذا كان الأسرُ جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمن على ما فيه الصلاح للمسلمين.

قال ابن عطية: «وإمام المسلمين يخير في أسراه في خمسة أوجه: القتل، أو الاسترقاق، أو ضرب الجزية، أو المن، أو الفداء، ويترجح النظر في كل أسير بحسب حاله من أذية المسلمين أو ضد ذلك»<sup>(٢)</sup>.

﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: حتى تنتهي الحرب.

وأوزار الحرب: آلتها كالسلاح والمؤن والذخائر التي لا تقوم الحرب إلا بها، وأسند وضعها إليها إسناداً مجازياً، وهو في الحقيقة لأهلها.

واختلفوا في الغاية التي عندها تضع الحرب أوزارها، قال قتادة: حتى يُسَلِّمَ الجميع، فتضع الحرب أوزارها، وقال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم ﷺ، وقال آخرون: حتى لا تبقى للمشركين شوكة، بأن تغلبهم فيسلموا أو يستسلموا، وظاهر اللفظة أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبداً<sup>(٣)</sup>.

وقد يكون المراد هو ما ذكر تعالى في قوله: ﴿وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَلْبًا لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٢٩]. ومرر معنا في تفسيرها: أن المراد: قاتلوا الكفار حتى لا يبقى لهم قوة يستطيعون بها أن يفتنوا المسلمين عن دينهم. وسيأتي مزيد تفصيل للموضوع عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَنَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥].

(١) تفسير الخازن: ٤٨٩/٥.

(٢) المحرر الوجيز: ٣٨٦/١٣.

(٣) المرجع السابق نفسه.

• الحكمة من تشريع القتال:

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: افعلوا ذلك، ولو يشاء الله لأهلكهم بغير قتال، وكفاكم أمرهم، ولكن أمركم بالقتال ليختبر المؤمنين بالكافرين، والكافرين بالمؤمنين، تمحيصاً للمؤمنين، وإهلاكاً للكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَذَلِكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٤] **﴿وَلِيُخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَخَفَّ الْكَافِرِينَ﴾** [آل عمران].

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: فلن يضيعها.

وفي قراءة: (قاتلوا) أي: جاهدوا.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِالهُمَّ﴾

أي: يثبتهم على طريق الهداية، ويحققها لهم، ويصلح حالهم.

فالعمل الصالح يثبت صاحبه على الإيمان، ويحفظه من فتن الضلال، ولا شك أن الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال الصالحة المؤدية إلى فضله تعالى ورحمته في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، وحياة الشهداء حياة برزخية خاصة، يتعهدا الله في الملاء الأعلى، ويزيدها هدى وضياء وإشراقاً.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَها لَهُمْ﴾

أي: يبينها لهم حتى يعرف أحدهم منزله في الجنة من غير استدلال.

كما في الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري **﴿عَنْهُ﴾** قال: قال رسول الله **﴿ﷺ﴾**: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدي بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا» [رواه البخاري (٦٥٣٥)].

ثم مهّد تعالى بهذه الآيات المشوّقة المثبتة لينادي المؤمنين ويكلّفهم بنصرة دينه وحماية شريعته:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثِّبْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾

أي: يثبت أقدامكم على طريق الحق والهدى، فالآية تؤكد مضمون قوله تعالى السابق: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْمَمِ﴾ [محمد: ٥]، والجزء من جنس العمل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].  
أو: يثبت أقدامكم عند قتال العدو، أو يثبتها يوم القيامة على الصراط.

\*\*\*

### الإعراض عن شريعة الله

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾

أي: فهلاكاً لهم وخيبة وشقوة، وأبطل أعمالهم، لأنها في طاعة الشيطان. فالمعنى المراد من قوله: (فتعسا لهم) عكس تثبيت أقدام المؤمنين، نصب على المصدر على سبيل الدعاء.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: ذلك التعسُّ والإضلالُ بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله في القرآن الكريم، وأعرضوا عن أحكام دينه وشريعته. وهو ما نشاهده في عصرنا الحاضر من الواقع الأليم الذي انتكست إليه

المجتمعات الإسلامية نتيجة إعراضها عن تحكيم شريعة الله ، وإقبالها على تحكيم الشرائع الوضعية ، التي أوصلتها إلى الذلة والفرقة والضلال ، وإلى الشقاء والتعاسة .

﴿فَأَحْطَ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي : أبطلها وجعلها ضائعة خاسرة ، فإحباط الأعمال من لوازم الكفر والإعراض عن دين الله وشريعته .

ثم التفتت الآيات التفاتة قوية إلى مصارع الأمم الهالكة ، تذكر المعرضين عن دين الله بها ، وتحذرهم من مثلها :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾﴾ .

أي : أفعدوا في أماكنهم فلم يسيروا في الأرض فينظروا آثار الأمم الهالكة المكذبة؟! فإن آثارهم تُنبئ عن أخبارهم ، دمر الله عليهم ديارهم ، فخرّب بيوتهم فوق رؤوسهم ، وأهلك أهلهم وأموالهم ، وللكافرين المعرضين عن دين الله وشريعته أمثال عاقبتهم وتدميرهم .

\* \* \*

### الله مولى المؤمنين

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَنَّاتٍ بِحَبْرِ مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذه العقوبة للكافرين ، لأن الله مولى الذين

آمنوا، يؤيدهم، وينصرهم على أعدائهم في الدنيا، إن أحسنوا التمسك بدين الله وأحكام شريعته.

﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي: لا مولى لهم ينصرهم ويدفع عنهم العقاب والعذاب.

فالمولى هنا بمعنى الناصر، وأما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢] فمعناه الرب والمالك، والله رب كل شيء ومليكه، ومن ولايته تعالى للمؤمنين في الآخرة أن يكرمهم بالنعيم المقيم في جنات الخلد:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ  
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، ويحرم المعرضين من هذا النعيم بسبب انشغالهم بمتاع الدنيا الزائل.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ فلا همّة لهم إلا بطونهم وشهواتهم، لاهون بها، غافلون عما يُراد بهم، ولهذا شبههم بالأنعام، وهو تشبيه يُبعدهم عن كل سمات الإنسان ومعالمه، ويُلقِي عليهم ظلال الأكل الحيواني الشره، والمتاع الحيواني الغليظ.

﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي: والنار مثواهم ومستقرهم.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان لا يأكلُ حتى يؤتى بمسكين يأكلُ معه، قال مولاه نافع: فأدخلتُ رجلاً يأكلُ معه، فأكلَ كثيراً فقال: يا نافع لا تدخل هذا عليّ، فإني سمعتُ النبي صلى الله عليه وآله يقول: «المؤمنُ يأكلُ في مَعَى واحدٍ، والكافرُ يأكلُ في سبعةِ أمعاء» [رواه البخاري (٥٣٩٣)].

قال ابن حجر رحمته الله: «اختلف في معنى الحديث؛ فقيل: ليس المرادُ به ظاهره، وإنما هو مثلُ ضَرْبٍ للمؤمن وزهده في الدنيا، والكافر وحرصه عليها، وقيل: المعنى: إنَّ المؤمنَ يأكلُ الحلالَ، والكافرُ يأكلُ الحرامَ، وقيل: المرادُ

حَضُّ الْمُؤْمِنِ عَلَى قِلَّةِ الْأَكْلِ إِذَا عَلِمَ أَنَّ كَثْرَةَ الْأَكْلِ صِفَةُ الْكَافِرِ، وَلَيْسَتْ حَقِيقَةً الْعَدَدِ مُرَادَةً، فَتَخْصِيصُ السَّبْعَةِ لِلْمَبَالِغَةِ فِي التَّكْثِيرِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا اطْرَادَهُ فِي حَقِّ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، فَقَدْ يَكُونُ فِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَأْكُلُ كَثِيرًا إِمَّا بِحَسَبِ الْعَادَةِ وَإِمَّا لِعَارِضٍ يَعْضُ لَهُ»<sup>(١)</sup>.

﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾<sup>(١٣)</sup>.

أي: وكم من قرية هي أشد قوة من مكة التي كان أهلها سبب خروجك، أهلكتناهم، فلم يجدوا ناصرًا ينصرهم ويمنع عنهم العذاب.

\* \* \*

### أنهار الجنة وحميم النار

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَبِينَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾<sup>(١٤)</sup> مَثَلُ الْحَسَةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ عَذْبٍ وَعِيسٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّدَىٰ يَنْغَيَّرُ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن حَمْرٍ لَّدَىٰ لِلشَّرْبِ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَهَمٌّ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾<sup>(١٥)</sup>.

ثم عادت الآيات إلى أسلوب المقارنة بين فريقَي المؤمنين والكافرين، فبيّنت من خلالها السبب الرئيس الأول الذي أدى بكل فريقٍ منهما إلى أحواله التي هو عليها:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَبِينَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾<sup>(١٤)</sup>.

أي: أفمن كان مستقرًّا على حجة ظاهرة من ربه، متمسكًا بها، وهو القرآن

الكريم، كمن زَيَّنَ له سوءُ عمله من الكفر والمعاصي، واتبعوا بسبب ذلك التزيين أهواءهم الزائغة.

فلا يعقل أن يكون هذان الفريقان المتفاضلان متساويين عند الله، وكما كانا مختلفين في الاعتقاد والسلوك لا بدَّ أن يكونا مختلفين في المآل والمصير، فإن من المكابرة التسوية بين المتمسك بالبينة والتابع للهوى، فهو كمن يسوي بين الجنة والنار، وشتان ما بينهما.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥)

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ أي: مثل الجنة التي وعد المتقون مثل عجيب، وشيء عظيم، فيها أنهار من ماء غير متغير ولا متتن، وأنهار من لبن، لم يتغير طعمه، كما تتغير ألبان الدنيا، وأنهار من خمر، يلتذُّ بها الشاربون، ولا يكونُ معها ذهاب عقل وصداع وأسقام كخمر الدنيا، وأنهار من عسل مصفًى، ليس فيه شمع وشوائب كعسل الدنيا.

وهذا يدل على أنَّ أشربة الجنة كثيرة ومتنوعة، وكلها تفجر من الفردوس في الجنة، فقد جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» وفي رواية: «وفوقه عرشُ الرحمن» [رواه البخاري (٢٧٩٠)].

﴿وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: لهم في الجنة من كل أنواع الثمرات.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ولهم مع هذا النعيم مغفرة عظيمة من ربهم، فلا حساب عليهم ولا عقاب في الجنة.

أو: هي مجاز عن إحلال رضوانه تعالى عليهم كما في الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يدك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى - يا ربنا - وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربنا، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» [رواه مسلم ٢٨٢٩].

﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ﴾ أي: أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار.  
﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي: وسقوا ماءً حاراً شديد الغليان فقطع من فرط حرارته أمعاءهم.

\*\*\*

## المرض الروحاني والدواء الإلهي

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِن عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَأُ أَؤْتِيكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا رَادَهُمْ هُدًىٰ وَآانَّهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

ثم عرضت الآيات بعض أصناف الناس الذين اتبعوا أهواءهم، وشغلوا بها عن استماع الحق والانتفاع به من رسول الله ﷺ:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِن عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَأُ أَؤْتِيكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِن عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَأُ أَؤْتِيكَ﴾ وهم المنافقون؛ كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، فيسمعون كلامه، ولا يعونه،

تهاوناً منهم وتغافلاً، حتى إذا خرجوا من مجلسه ﷺ قالوا للصحابة على طريقة الاستهزاء: ماذا قال آنفاً؟ أي: الآن، والمرادُ منه الساعة التي هي أقرب الأوقات إلى المتكلم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أولئك الذين ختم الله على قلوبهم بسبب إعراضهم وتغافلهم، ولهذا لم يؤمنوا، ولم ينتفعوا بما سمعوا من رسول الله ﷺ، ولما تركوا اتباع الحق اتبعوا أهواءهم، وأمات الله قلوبهم، فلم تفهم ولم تعقل.

واستمرت الآيات على أسلوب المقارنة:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَوْلِهِمْ ﴿١٧﴾﴾

أي: والمؤمنون الذين اهتدوا بآيات الله زادهم الله بصيرة وعلماً، وشرح صدورهم لكلام رسوله ﷺ، ووقفهم للعمل به، وأعانهم عليه، أو أعطاهم ثواب تقواهم، أو بين لهم ما يتقون، وفي إسناد التقوى إليه تعالى وإسناد الهوى إليهم إشارة إلى الأدب مع الله تعالى، كما قال الخليل ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وتلويح أن متابعة الهوى مرض روحاني، وملازمة التقوى دواء إلهي<sup>(١)</sup>.  
ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].  
وقوله أيضاً: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

\* \* \*

## أشراط الساعة

﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْتُمْ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْتُمْ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ ﴿١٨﴾﴾ .

﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: لم يبقَ من الأمور الموجبة للتذكر والاعتاظ أمرٌ مترقب سوى إتيان نفس الساعة، إذ قد جاء أشراطها وهم غافلون عنها.

ففي الآية وعيدٌ وتهديدٌ للكافرين والمنافقين، فالساعة تأتيهم بغتة، وهم لا يزالون على كفرهم ونفاقهم، وسُميت القيامة ساعة لسرعة قيامها.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال سبعاً، فهل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هراماً مفنّداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائبٍ ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر» [رواه الترمذي (٢٣٠٧)].

وأشراطها: علاماتها وأماراتها مما ورد في القرآن الكريم أو فيما أخبر عنه ﷺ، قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَسْقَى الْقَمَرَ﴾ [القمر: ١].

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: شقَّ القمر ونحن مع النبي ﷺ بمنى، فقال: «اشهدوا» [رواه البخاري (٣٦٣٦)].

وبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة، لأنه خاتم الرسل، أكمل الله تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» قال: وضمَّ السبابة والوسطى. [رواه مسلم (٢٩٥١)].

ومن أشراط الساعة التي أخبر عنها النبي ﷺ: ما جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتُلَ فَعْتَانُ

عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يُبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يُقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال، فيفيض، حتى يهمل رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به، وحتى يتناول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه، ولا يطوبانه، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته، فلا يطعمه، ولتقوم الساعة وهو يليط حوضه، فلا يسقي فيه، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» [رواه البخاري (٧١٢١)].

قال البيهقي وغيره: الأشراف منها صغار، وقد مضى أكثرها، ومنها كبار ستأتي. وعلق ابن حجر على ما ذكر من قول البيهقي فقال: وهي - أي الكبار - التي تضمنها حديث حذيفة بن أسيد عند مسلم [٢٠٩١]؛ وهي: «الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها كالحامل المتيم، ونزول عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، والريح التي تهب بعد موت عيسى فتقبض أرواح المؤمنين»<sup>(١)</sup>.

﴿فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أي: فمن أين لهم التذكر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة، ولو تذكروا فإنه لا ينفعهم في ذلك الوقت، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّ لَهُ الْذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣].

## استغفار النبي عليه الصلاة والسلام

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثُوكُمْ﴾ ﴿١٩﴾ .

ثم عظمت الآيات شأن الساعة، فوجهت الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام تأمره بكثرة الاستغفار:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثُوكُمْ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: فإذا جاءت الساعة فاعلم أنه لا ملجأ ولا منجى ولا مفرع عند قيامها إلا إلى الله، الذي لا إله إلا هو، أو دُم على ما أنت عليه من العلم، أو ازدد علماً إلى علمك، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فالعلم بالله تعالى وكماله وغناه لا حدود له.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ الذي تراه ذنباً، وهو شعورك بالتقصير في شكر نعمه تعالى المتواليه عليك.

ومرّ معنا في الحديث الشريف: عن المغيرة رضي الله عنه قال: إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقوم - أو ليصلي - حتى ترمّ قدماه - أو ساقاه - فيقال له، فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [رواه البخاري (١١٣٠)].

قال العلماء: إنّما ألزم الأنبياء أنفسهم بشدة الخوف لعلمهم بعظيم نعمة الله تعالى عليهم، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبدلوا مجهودهم في عبادته ليؤدوا بعض شكره، مع أنّ حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد<sup>(١)</sup>.

وقد يكون طلبه ﷺ المغفرة إجلالاً وتعظيماً لربه، وعلى سبيل التواضع والهضم لنفسه، أو على سبيل التعليم لأُمَّته لتقتدي به.

وقد يكون سبب استغفاره ﷺ أنه لما كان ينشغل بالنظر في أمور المسلمين ومصالحهم حتى يرى أنه قد شغل بذلك - وإن كان من أعظم طاعة وأشرف عبادة - عن أرفع مقام مما هو فيه، وهو التفرد بربه ﷻ، وصفاء وقته معه، وخصوص همه من كل شيء سواه<sup>(١)</sup>.

ولعله المعنى المراد من قوله ﷺ: «إنه ليغانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفرُ الله في اليوم مئةَ مرَّةٍ» [رواه مسلم (٢٧٠٢)].

و(الغين) هو الغيم الرقيق، والمرادُ به هنا ما يتغشى القلب، فكان هذا الشغل والهم يغشى قلبه الشريف ﷺ، ويغطيه عن غيره، فيستغفر الله منه. حكاها الشيخ النووي عن القاضي عياض.

وقال الغزالي في «الإحياء»: «كان ﷺ دائمَ الترقُّي، فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها فاستغفر من الحالة السابقة»<sup>(٢)</sup>.

وقد يكون استغفاره عليه الصلاة والسلام من ذنوب أُمَّته، فهو كالشفاعة لهم، ويقوِّبه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: استغفر لذنوبهم بالدعاء لهم.

وفي إعادة حرف الجر وحذف المضاف إشعاراً بفرط احتياجهم إلى استغفار الرسول ﷺ، وكثرة ذنوبهم، فإنها جنسٌ آخر تغاير ذنبه ﷺ.

وأشارت الآية إلى أن العلم قبل العمل، فالعمل تابع للعلم، فهو الأول وهو الأمير على العمل.

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: والله يعلم تصرفاتكم وأحوالكم في الدنيا ومصيركم إلى الجنة أو إلى النار يوم القيامة.

(١) تفسير الخازن: ٥٠٧/٥.

(٢) فتح الباري: ١١/١٠٢.

فهو سبحانه محيط بكل أعمالكم وحركاتكم وسكناتكم فاحذروه وراقبوه، وعظّموا أمره واستغفروه، فالدنيا زائلةٌ قصيرةٌ، والآخرة باقية خالدة، وطاعته تعالى والجهاد في سبيله خير لكم في الدارين.

\* \* \*

### المتقاعسون عن القتال

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ ۗ﴾ (١٦)

وبعد أن زهدتهم الآيات في الدنيا بينت جُبْنِ المنافقين وتقاعسهم عن تنفيذ أمر الله تعالى، وخاصة عندما يؤمرون بالجهاد:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ ۗ﴾ (١٦)

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلاً نزلت سورة نؤمر فيها بالجهاد. فالمؤمنون حريصون على الجهاد، وأما المنافقون فشأنهم مختلف: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: أنزلت سورة لم تُنسخ، أمروا فيها بالقتال، أو سورة محكمة لا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال. وفي قراءة: (نزلت سورة) بالبناء للفاعل.

﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: رأيت المنافقين تشخص أبصارهم جنناً وهلعاً، كمن أصابته غشية الموت. ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ ۗ﴾ وهو وعيد وتهديد من الولي وهو القرب، ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم الموت، أو يؤول إليه أمرهم.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: طاعة وقول معروف أفضل وأحسن من ترك امتثال أمر الله تعالى .

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: فإذا جد الجد، وكلفوا بالقتال، فلو صدقوا الله، وبادروا إلى تنفيذ أمره، لكان الصدق خيراً لهم من كراهة الجهاد والتعاس عنه .

\* \* \*

### المفسدون في الأرض وقاطعو الأرحام

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْتَهَمُوا وَاعْمَى أَبْصَرُهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرِثَاءُ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾

ثم وجهت الآيات الخطاب إليهم لتأكيد توبيخهم وتشديد تقييدهم:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ .

أي: هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس، وتأمرتم عليهم أن تفسدوا في الأرض، وتقطعوا أرحامكم، تناحراً على الملك، وتهالكاً على الدنيا، فإن موقفكم من الجهاد - وهو وسيلة كل خير وصلاح، ودفع كل شر وفساد - يدل على ذلك .

وقد يكون المراد من (توليتم) أعرضتم، ويكون المعنى: فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن، وفارقتم أحكامه، أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء، وأخذ الرشاً . وفي قراءة: (إن تُولَّيْتُمْ) بضم التاء والواو وكسر اللام، أي: تولاكم حكماً ظلمةً، خرجتم معهم، وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم .

وهذا يدل على ضعفهم في الدين، وحرصهم على الدنيا، فهم أحقأ أن يتوقع ذلك منهم كل من عرف حالهم.

ودلت الآية على حرمة قطع الأرحام، وهي - كما قال القرطبي في تفسيره - نوعان؛ عامة، وخاصة:

**فالرحم العامة:** رحم الدين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان، والمحبة لأهله، ونصرتهم، والنصيحة لهم، وترك مضاربتهم...

وأما **الرحم الخاصة:** وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم حقوق خاصة وزيادة، كالنفقة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدتهم في أوقات ضرورتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاومت الحقوق بُدئ بالأقرب فالأقرب.

وقال بعض أهل العلم: إنَّ الرحم التي تجبُّ صلُّتها هي كلُّ رحم محرَّم<sup>(١)</sup>.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خلق الله الخلق، فلمَّا فرغَ منه قامتِ الرحمُ، فأخذتْ بحقو الرحمنِ، فقال لها: مَهْ، قالت: هذا مقامُ العائذِ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصلَ من وصلك، وأقطعَ من قطعك؟ قالت: بلى يا ربِّ، قال: فذاك» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [رواه البخاري (٤٨٣٠)].

قوله: «قامت الرحم» يحتمل أن يكون على الحقيقة، والأعراضُ يجوزُ أن تتجسَّدَ وتتكلمَ بإذن الله، ويحتمل أن يكون ذلك على طريق ضرب المثل والاستعارة، والمراد تعظيم شأنها، وفضل واصلها، وإثم قاطعها.

وقال عياض: الحقو: معقد الإزار، وهو الموضع الذي يُستجار به ويحترمُ به على عادة العرب، لأنه من أحق ما يحامى عنه ويدفع، كما قالوا: نمعه مما نمع منه أُرنا، فاستعيرَ ذلك مجازاً للرحم، لاستعاذتها بالله من القطيعة.

وقد يطلق الحقو على الإزار نفسه، كما في حديث أم عطية: «فأعطاها

(١) تفسير القرطبي: ٢٤٧/١٦.

حقوه فقال: أشعرُنها إِيَّاهُ» يعني إزاره، وهو المراد هنا، وهو الذي جرت العادة بالتمسك به عند الإلحاح في الاستجارة والطلب، والمعنى على هذا صحيح مع اعتقاد تنزيه الله عن الجارحة<sup>(١)</sup>.

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم» [رواه البخاري (٥٩٨٣)].

والأحاديث في فضل صلة الرحم كثيرة، كما أنها أيضاً كثيرة في التحذير من قطعها. يكفي أن نذكر منها ما رواه جبير بن مطعم رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يدخل الجنة قاطع» [رواه البخاري (٥٩٨٤)].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾

أي: أولئك المخاطبون الذين أبعدهم الله من رحمته فأصمهم عن استماع الحق لسوء اختيارهم، وإعراضهم عنه، وأعمى أبصارهم عن رؤية دلائل الحق والانتفاع بها.

ولا شك أن لعنة الله التي ذكرت في الآية أدت بهم إلى قسوة قلوبهم وحرمانها من هدي القرآن الكريم، ولهذا قال تعالى منكرًا عليهم تغافلهم وإعراضهم عن تدبر آياته:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ أَمْرًا عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾

أي: ألا يتأملون ويتصفحون القرآن لينتفعوا بما فيه من مواظب وزواجر؟ أم على قلوبهم أقفال، فلا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر؟!.

وأضيفت الأقفال إلى القلوب للدلالة على أنها أقفال مناسبة لها مختصة

بها، لا تجانس الأفعال المعهودة، وهي أفعال الكفر والختم والطبع، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

\* \* \*

## الردة والنفاق

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ آدْبُرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ۚ﴾ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ. فَاحْبِطْ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلْعَهُمْ فَلَمَعَنَّهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَسْلُوَنَكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ ﴿٣٢﴾ يَتَّيَّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَعْرِفَهُ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ .

كما أدت لعنة الله بهم أيضاً إلى الارتداد عن الإسلام وموالاته الشيطان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ آدْبُرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ۚ﴾ (٢٥)

أي: إن الذين رجعوا إلى الكفر من بعد ما تبين لهم الهدى بالأدلة الظاهرة، الشيطان سهّل لهم، وحسّن لهم ذلك، ومدّ لهم في الأمانى والآمال.

وفي قراءة: (وأَملي لهم) على صيغة المتكلم، أي: الشيطان يغويهم، وأنا أنظرهم وأمهلمهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: ذلك الارتداد والرجوع إلى الكفر بسبب أنهم قالوا لليهود الكارهين لنزول القرآن: سنطيعكم في بعض الأمر، وهو ما ذكره سبحانه عنهم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَانِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم، أي: نطيعكم في هذا الجانب، أمّا إعلان الكفر والخروج من الإسلام، فلا نطيعكم فيه، لما كان لهم في إظهار الإسلام من المنافع الدنيوية.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: والله يعلم إخفاء ما قالوه لليهود، وفي قراءة: (أسرارهم) ومنها هذا الذي أظهره سبحانه.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ ﴿٢٧﴾ .

أي: فكيف يعملون ويحتالون إذا توفتهم الملائكة عند الموت، يضربون وجوههم وأدبارهم؛ هل يستطيعون حينئذٍ أن يقاتلوا ملائكة الموت، ويمنعون أنفسهم منه؟! .

ودلت الآيات على أن اليهود كرهوا نزول القرآن الكريم على الرسول ﷺ، وأن المنافقين أولياء لهم، كما دلت على حالهم عند الموت، ووصفته بأفطع وأهول الأحوال، وكأنها تردُّ على المنافقين ما قالوه لليهود، فإنهم يخافون من الموت، ويجنبون عن القتال لأجله، فكيف يتقون ضرب الوجوه والأدبار عند نزوله بهم.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا يتوفى أحدٌ على معصيةٍ إلا تضربُ الملائكةُ في وجهه وفي دبره.  
فالكلامُ في نظره على الحقيقة، ولا مانع من ذلك وإن لم يحس بالضرب من حضر، وما ذلك إلا كسؤال الملكين وسائر أحوال البرزخ<sup>(١)</sup>.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢٨)

أي: ذلك المصير الأليم والتوفي الهائل بسبب أنهم اتبعوا ما عرّضهم لسخط الله، وكرهوا رضوانه، فأحبط أعمالهم التي عملوها حال إيمانهم.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ (٢٩)

أي: أحسب المنافقون الذين وصفتهم الآيات أن الله لن يفضحهم ويظهر ما في قلوبهم من حقد وعداوة لرسول الله ﷺ والمسلمين؟! .  
فأمرهم هذا أمرٌ خطير لا ينبغي السكوت عليه.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٠)

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمِهِمْ﴾ والله قادر على كشفهم وإظهار حقيقتهم لرسوله ﷺ، ولهذا قال سبحانه له: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم بعلامتهم التي تعرفهم بها، ففيه إشارةٌ إلى قوة ذلك التعريف الذي لا يقع معه اشتباه.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: ولتعرفنهم من فحوى كلامهم ومقصده.

وهذا يدل على أنهم ما كانوا يقدرّون على كتمان ما في أنفسهم، وهو جوابٌ قسمٍ محذوف، فلم يتكلم بعد نزول هذه الآية منافق عند النبي ﷺ إلا عرفه.  
﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فلا يخفى عليه شيء منها.

ثم بينت الآيات أن من حكمته تعالى في تشريع الجهاد كشف المنافقين وفضحهم، وتمييز المؤمنين عنهم.

﴿وَلَنَبَلِّغُنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلِّغُوكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ (٣١).

﴿وَلَنَبَلِّغُنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ أي: ولنبلونكم بالقتال إعلاماً لا استعلاماً حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين عليه.

فالمراد من قوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ أي: على الوجود والظهور، فالله تعالى عالمٌ بجميع الأشياء قبل وجودها، وقدّر سبحانه ألا يعاملنا بحسب سابق علمه فينا، بل بأعمالنا التي نكتبها باختيارنا، فهو العلم الذي يقع به الجزاء، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ ۚ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذَائِهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٠) وَلِيَمَّحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَّحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران].

﴿وَنَبَلِّغُوكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نظهرها ونكشفها.

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبلنا، فإنك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا وعذبتنا.

ثم توعدت الآيات اليهود الذين كانوا يمالئون المنافقين ويصدون الناس عن اتباع الرسول ﷺ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ (٣٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: وعادوا الرسول ﷺ من بعد ما شاهدوا من نعوته عليه الصلاة والسلام في التوراة، وما أنزل عليه من الآيات.

﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: لن يضرّوا رسول الله ﷺ شيئاً بمشاقته وعداوته، وسيحبط مكائدهم التي نصبوها له عليه الصلاة والسلام، ولا يخفى ما في الآية من تعظيم لشأن رسول الله ﷺ، فمعاداته معادة الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

ثم توجهت الآيات تخاطب المؤمنين تحذّره من الوقوع في حبال اليهود ومكرهم، وترك طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام والإعراض عن أحكام شريعته.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣).

كما أبطل المنافقون أعمالهم بموالاتة أعداء الإسلام. فالردة تحبط جميع الأعمال الصالحة، وأما الرياء والعُجب والمنُّ والأذى فتبطل ثواب الصدقات، واحتجَّ بعض العلماء كمالك وأبي حنيفة بالآية على وجوب إتمام ما شرع من نوافل الأعمال، فأوجبوا إتمامه وقضائه إذا أبطل. فاثبتوا على الإيمان، وتمسّكوا بالإسلام، حتى ينزل بكم نازل الموت، فالذين يموتون على الكفر لا يغفر الله لهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤).

\* \* \*

## السلام والاستعداد

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ وَإِنْ تَوَيْتُمْ وَتَنَفَّوْا يُوْتِكُمْ أُحْوَركُمْ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْئَلْكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَسَبِّحْهُمْ نَسْخَلُوا وَيُحْرِجْ أَصْفَدَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءَ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِمَّكُم مَّنْ يَنْخَلُ وَمَنْ يَنْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْهَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾

وبعد التحذير من الردة ثبتتهم الآيات في مواجهة الكفار:

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: فلا تضعفوا وتدعوا الكفار إلى الصلح خوراً وجبناً، وأنتم في حال علو وتفوق على عدوكم، فالإسلام دين السلام لا دين الاستسلام، فإن كونهم الأعلون، وكونه تعالى ناصرهم من موجبات الثبات، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وفي قراءة: ﴿السلم﴾ بالكسر.

ولا تتعارض الآية مع قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

فالآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال، فلا تجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين<sup>(١)</sup>.

ومرر معنا في الحديث عن آية سورة الأنفال أنه يجوز لولي أمر المسلمين أن يصالح الأعداء ويسالمهم إذا رأى في ذلك مصلحة للمسلمين، وسيأتي معنا في

(١) تفسير القرطبي: ٢٥٦/١٦.

سورة الفتح أن النبي ﷺ صالح قريشاً صلح الحديبية، وكان فيه مصلحة كبيرة للإسلام والمسلمين، حتى سماه الله تعالى فتحاً بقوله الكريم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].

فأمر الصلح والحرب منوط برأي ولي أمر المسلمين، وليس بحتم أن يقاتل الكفار أبداً أو يجابنوا إلى الهدنة أبداً، ولا تعني مصالحة الأعداء ترك الاستعداد، فإعداد القوة أمر واجب على المسلمين في جميع الأحوال.

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكُبَكُمْ أَعْمَالِكُمْ﴾ أي: والله معكم بالنصر والتأييد، ولن ينقصكم أجر أعمالكم وجهادكم.

ثم زهدتهم الآيات بالدنيا، حتى لا تؤدّي مسالمة العدو إلى تعلقهم بها، وانشغالهم بها عن طلب الآخرة، كما حثتهم على الإنفاق في سبيل الله لإعداد القوة والاستعداد.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالِكُمْ﴾.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾ أي: باطل وغرور إلا ما كان منها في طاعة الله وعبادته.

واللعب: ما يشغل الإنسان، وليس فيه منفعة في الحال وفي المآل، وإن شغله عن مهمة نفسه فهو اللهو.

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: إنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه عليكم فهو سبحانه غني عنكم.

﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْعَافَكُمْ﴾.

أي: إن يسألكموها، ويبالغ في المسألة، تبخلوا بها، ويظهر بغضكم وعداوتكم، فالبخل يخرج الأضغان.

﴿هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْسِنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَن نَّفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ۗ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ۗ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْسِنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أنتم أيها المخاطبون تدعون لتنفقوا جزءاً من أموالكم في سبيل الله كالجهاد والزكاة وغيرها .

﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: فمنكم من يبخل، ويمتنع عن الإنفاق، ويعود ضرر بخله على نفسه، والبخل يتضمن معنى الإمساك ولهذا عُدي ب (عن) .

﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ۗ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ فما يأمركم به لمنفعتكم، فهو غني عن عبادتكم، وأنتم المحتاجون إليه سبحانه .

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: وإن تعرضوا عن حمل الرسالة، والقيام بتكاليفها، يخلف عليها قوماً آخرين كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رِزْقٍ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۗ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۗ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤] .

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي: لا يكونوا أمثالكم في التولي عن الإيمان والتقوى، بل يكونون راغبين فيهما .

وجاء في الحديث الشريف الذي أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير والترمذي، وهو حديث صحيح على شرط مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا...﴾ فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ولا يكونون أمثالنا؟ فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال: «هذا وقومهم، والذي نفسي بيده، لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناولوه رجالاً من فارس» .

ويقويه ما في «الصحيحين» [البخاري (٤٨٩٧) ومسلم (٢٥٤٦)]: من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة [٣]:  
 ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قلت: مَنْ هم يا رسول الله؟ فلم يرجعه حتى سألت  
 ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، وضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، ثم قال:  
 «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجالٌ - أو رجلٌ - من هؤلاء».

قال ابن حجر رحمته الله: «وقع في بعض طرقه عند أحمد بلفظ: «لو كان العلمُ  
 عند الثريا». وفي بعض الطرق عند أبي نعيم أنَّ ذلك كان عند نزول قوله تعالى:  
 ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، ويحتمل أن يكون ذلك صدر عند نزول كل من  
 الآيتين»<sup>(١)</sup>.



## تفسير سورة الفتح بَسَائِرِ النَّصْرِ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الفتح الأعظم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَعْرِفَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتَبَّعَ بِعَمَتِهِ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَبْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَرِيبًا ﴿٣﴾﴾

حملت سورة الفتح في مستهلها البشائر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾﴾

أي: مكناك ونصرناك نصراً بيناً ظاهراً مفرقاً بين الحق والباطل بغير قتال، أو بقتال، أو: إنا قضينا وحكمنا لك فتحاً مبيناً ظاهراً.

والمرادُ به صلح الحديبية حين صدّه المشركون في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين العمرة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتي من قابل، فأجابهم ﷺ إلى ذلك على كُروه من جماعة من الصحابة، منهم: عمر بن

الخطاب ﷺ، فلما نحرَ هديه حيثُ أُحْصِرَ، ورجع، أنزل الله ﷻ هذه السورة، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما آل إليه من المصلحة.

عن البراء ﷺ قال: تعدُّونَ أُنتمَ الفتحَ فتحَ مكةَ، وقد كان فتحُ مكةَ فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرضوانِ يومَ الحديبيةِ، كنا مع النبي ﷺ أربعَ عشرةَ مئةً، والحديبيةُ بئرٌ، فنزحناها، فلم نتركُ فيها قطرةً، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتاها، فجلسَ على شفيرها، ثم دعا بإناءٍ من ماءٍ، فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صبَّه فيها، فتركناها غيرَ بعيدٍ، ثم إنها أُصدرتنا ما شئنا وركابنا. [رواه البخاري (٤١٥٠)].

قال ابن حجر: «المراد بالفتح هنا الحديبيةُ، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتب على الصلح الذي وقَّع من الأمن ورفع الحرب، وتمكَّنَ مَنْ يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك، كما وقع لخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما، ثم تبعت الأسبابُ بعضها بعضاً إلى أن كملَ الفتحُ، وقد ذكر ابن إسحاق في «المغازي» عن الزهري قال: لم يكن في الإسلام فتحٌ قبل فتح الحديبية أعظمَ منه، إنما كان الكفر حيث القتال، فلما أمن الناسُ كلهم، كلَّم بعضهم بعضاً، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكن أحدٌ في الإسلام يعقل شيئاً إلا بادر إلى الدخول فيه، فلقد دخل في تلك الستين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»<sup>(١)</sup>.

وذهب جماعة إلى أنه فتح مكة، وهو كما في «زاد المعاد» الفتح الأعظم، الذي أعزَّ الله تعالى به دينه، واستنقذ به بلده، وطهر حرمه، واستبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزِّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس بعده في دين الله ﷻ أفواجاً، وأشرق وجه الدهر ضياءً وابتهاجاً، وكان سنة ثمانٍ<sup>(٢)</sup>.

وقال مجاهد والعوفي: هو فتح خيبر، والأول أكثر، وخيبر إنما كانت وعداً وعدوه على ما يأتي بيانه<sup>(٣)</sup>.

(١) فتح الباري: ٤٤١/٧.

(٢) روح المعاني: ٨٦/٢٦.

(٣) تفسير القرطبي: ٢٦١/١٦.

وقيل: هو فتح فارس والروم وسائر بلاد الإسلام التي يفتحها الله ﷻ له .  
ثم بينت الآيات ما جمع الله للنبي ﷺ بالفتح من غايات كريمة ومقاصد رفيعة:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَمْتَنِعَ بِرِزْقِهِ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿٢﴾ .

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي: ليغفر لك الله كل ما تراه ذنباً كما مرَّ معنا في قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

فبالفتح تحققت المساعي الطيبة المباركة، التي بذلها النبي ﷺ فأقر الله عينه به .  
قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين».

﴿وَيَمْتَنِعَ بِرِزْقِهِ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين، وبما أفاضه سبحانه على نبيه من النعم الدنية والدنيوية حتى خضع له وتذلل من كان يتكبر عليه .

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة الحجة .

ولهذا بادر ﷺ بعد صلح الحديبية إلى إرسال الرسائل إلى ملوك الأرض يدعوهم فيها إلى الإسلام، ففي الحديث: عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أن نبيَّ الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ». [رواه مسلم (١٧٧٤)].

فكانه قال: ويهدي بك صراطاً مستقيماً، أو يثبتك على الهدى.

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا﴾ ﴿٣﴾ .

أي: نصرأ غالباً منيعاً لا يتبعه ذل، أو يعزُّ وجود مثل هذا النصر .  
وإظهار الاسم الجليل مع النصر لإظهار كمال العناية بشأنه، وفيه إشارة إلى

أنه لا يكون إلا من عند الله تعالى، ولهذا قال النبي ﷺ لما أنزلت عليه هذه الآية: «لقد أنزلت عليّ آية هي أحبُّ إليّ من الدنيا جميعاً» [رواه مسلم (١٧٨٦)].

\* \* \*

### جنود الله

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ يُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْرًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ .

ثم بينت الآيات بعد هذا التعظيم والتشريف للنبي عليه الصلاة والسلام ما أفاض سبحانه على أصحابه من بداية الفتح:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ أي: الله أنزل الطمأنينة والثبات في قلوبهم ليزدادوا يقيناً منضماً إلى يقينهم .

ولعله مثل الطمأنينة التي سألتها إبراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۗ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

أكرم الله بمثلها أصحاب النبي ﷺ، فأراهم تحقق ما وعدهم من النصر والفتح، وتيسير الأمن بعد الخوف.

والمراد من إنزال السكينة خَلْقُهَا وإيجادها، وفي التعبير بالإنزال إيماءً إلى علو شأنها، قال الراغب: «إنزال الله تعالى نعمته على عبده إعطاؤه تعالى إياها»<sup>(١)</sup>.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يعلم جنوده سبحانه إلا هو، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

ومرّ معنا أنّ الرعب جندي من جنوده تعالى حمى به أصحاب الكهف، وسخره للنبي ﷺ ونصره به، وكذلك الحُب جندي من جنوده تعالى حمى به نبيه موسى ﷺ فقال: ﴿وَأَلْفَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، وكذلك السكينة من جنوده سبحانه، أنزلها في قلوب الصحابة، فإن من لوازمها ثبات الأقدام عند اللقاء في الحروب، فكان ذلك من أسباب النصر.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليمًا بجنوده وأحوال مخلوقاته حكيمًا في تقديره وتدييره.

#### • زيادة الإيمان ونقصانه:

واحتجّ بالآية القائلون بزيادة الإيمان ونقصه، وهم جمهور الأشاعرة والفقهاء والمحدثون والمعتزلة، ونقل ذلك عن الشافعي ومالك، قال البخاري: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أنّ الإيمان قولٌ وعملٌ، يزيدُ وينقصُ.

وقال النووي ومحققون من علماء الكلام: إنّ الإيمان بمعنى التصديق القلبي يزيد وينقص أيضاً بكثرة النظر، ووضوح الأدلة، وعدم ذلك، ولهذا كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم...

وقال جماعة من العلماء أعظمهم الإمام أبو حنيفة، وتبعه أصحابه وكثير من المتكلمين: الإيمان لا يزيد ولا ينقص. واختاره إمام الحرمين، واحتجوا بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان، وهذا لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان، والزيادة في الآية بحسب الدوام والثبات، وكثرة الزمان والأوقات، أو ثمرته

(١) روح المعاني: ٩٢/٢٦.

وإشراق نوره في القلب، فإنَّ نور الإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي<sup>(١)</sup>.  
والجدير بالذكر أنَّ الإمام البخاري بَوَّبَ في صحيحه باباً خاصاً في زيادة الإيمان ونقصانه فقال: [٣٣] باب زيادة الإيمان ونقصانه، وقول الله تعالى:  
﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ﴿وَبَرِّدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال:  
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فإذا ترك شيئاً من الكمال فهو ناقص.  
ثم أورد ﷺ حديث أنس رضي الله عنه: [٤٤] عن النبي ﷺ قال: «يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ».  
ثم ذكر تعليقاً رواية أخرى [٤٤] للحديث بلفظ: «من إيمانٍ» مكان «من خيرٍ»<sup>(٢)</sup>.  
ثم بيَّن سبحانه فضله على المؤمنين يوم القيامة:

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ<sup>٤</sup>  
وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾.

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ<sup>٤</sup>﴾ أي: ليغطي سيئاتهم ولا يظهرها.  
وقدمت الآية إدخال الجنة على التكفير مع أنَّ تكفير السيئات قبل دخول الجنة، مسارعة إلى بيان المطلب الأعلى، وهو دخول الجنة. فالآيات حملت البشائر فبدأت بأعلاها وأعظمها.  
﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: وكان ذلك في علم الله فوزاً عظيماً، لأنه منتهى ما تطمَّحُ إليه قلوبُ المؤمنين والمؤمنات.

\*\*\*

(١) روح المعاني: ٩٣/٢٦.

(٢) فتح الباري: ١٠٣/١.

## دائرة السوء

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةٌ  
السُّوءِ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ .

وفي مقابل ما حملت الآيات من البشائر للمؤمنين والمؤمنات، حملت التهديد والوعيد للمنافقين والمشركين والمشركات:

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةٌ  
السُّوءِ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ .

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ﴾ أي:

ظن الأمر السوء أنه تعالى لا ينصرُ رسوله ﷺ والمؤمنين الذي سيأتي معنا عند قوله سبحانه: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السُّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

وسوء الظن بالله تعالى كفرٌ، لما فيه من تكذيب لله سبحانه، واتهام له ﷻ في حكمه، فهو ظن مُرَدٍّ ومهلك، قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةٌ السُّوءِ﴾ أي: عليهم دائرة ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين، فهو دائر عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وفي قراءة: (دائرة السوء) بالضم، وهما لغتان، غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه، والمضموم جرى مجرى الشر الذي هو نقيض الخير، وكلاهما في الأصل مصدر<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٧/٦.

﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: وساءت جهنم منقلباً، هكذا توعدتهم الآية بالشر في الدنيا وإبعادهم عن رحمته تعالى، وبالعذاب الشديد في الآخرة.

وأكد سبحانه قدرته على الانتقام من أعداء رسوله ﷺ ودينه، قال:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٧).

ففي جنود السماوات والأرض مَنْ هو للرحمة وتثبيت المؤمنين، وفيهم أيضاً مَنْ هو للعذاب.

وعلم الله ضعف المؤمنين، فناسب أن تكون خاتمة الآية الأولى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، ولما بالغ في وصف تعذيب الكافر والمنافق وشدته ناسب أن تكون خاتمة الآية الثانية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

\* \* \*

### البيعة على الموت

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّزُوا وَتُقَرَّبُوا﴾ (٩) ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١).

وعادت الآيات مرة ثانية تخاطب النبي ﷺ وهي تمجده وتعظمه، وتبين وجوب تعظيمه واتباعه وطاعته على المؤمنين:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨).

أي: شاهداً على أمتك يوم القيامة، ومبشراً المؤمنين بفضل الله ورحمته، ومنذراً المعرضين بعذابه وسخطه.

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٩﴾ .

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: لتؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، وتعظموا الرسول ﷺ بنصره وتقويته، ومنعه من أعدائه، وتحترموه، وتعرفوا فضله ومكانته، فالضمير فيهما للنبي ﷺ، وهنا وقف تام، ويمكن أن يكون الضمير فيهما لله تعالى، فلا وقف ولا تشتيت للضمائر، ويكون المعنى: وتعزروه سبحانه بنصر دينه ورسوله، وتوقروه بتعظيمه ﷺ .

﴿وَسُبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: وتنزهوا الله في أول النهار وآخره، أو تصلوا لله تعالى وفيها التسبيح، وفي قراءة: (ليؤمنوا، ويعزروه، ويوقروه، ويسبحوه) بالياء .

وتعظيم النبي ﷺ واحترامه تعظيم الله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٠﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أي: إن الذين يبايعونك يا محمد يوم الحديبية على الموت في نصرتك، أو على أن لا يفروا إنما يبايعون الله، لأنهم يقصدون طاعته كما قال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠] .

وكان السبب في البيعة: أن النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يبعث رجلاً إلى قريش، يبلغهم ما جاء له، فدعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبيعته إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إنني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من عدي بن كعب أحدٌ يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني: عثمان بن عفان .

فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظماً لحرمة، فخرج

عثمانُ إلى مكة، فبلغ رسالة رسول الله ﷺ، فقالوا له: إن شئت أن تطوفَ في البيتِ فطف، فقال: ما كنتُ لأفعلَ حتى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ.

واحتبسته قريشٌ عندها، فبلغ رسولُ الله ﷺ والمسلمين أن عثمانَ بنَ عفانٍ قد قُتل، فقال ﷺ: «لا نبرُحُ حتى نناجزَ القومَ» فدعا الناسَ إلى البيعةِ، فكانت بيعةُ الرضوانِ تحتَ الشجرةِ<sup>(١)</sup>.

وفي الحديث الشريف: أن رجلاً من أهل مصر سأل ابنَ عمرٍ رضي الله عنهما قال: إنني سائلك عن شيءٍ فحدثني عنه: هل تعلمُ أن عثمانَ فرَّ يومَ أُحدٍ؟ قال: نعم. فقال: تعلمُ أنه تغيبَ عن بدرٍ، ولم يشهدْها؟ قال: نعم. قال الرجلُ: هل تعلمُ أنه تغيبَ عن بيعةِ الرضوانِ فلم يشهدْها؟ قال: نعم. قال: الله أكبر. قال ابنُ عمر: تعال أبين لك: أمّا فراره يومَ أُحدٍ فأشهدُ أن الله عفا عنه وغفرَ له، وأمّا تغيبه عن بدرٍ، فإنه كانت تحتَه بنتُ رسولِ الله ﷺ، وكانت مريضةً، فقال له رسولُ الله ﷺ: «إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممَّن شهدَ بدرًا وسهمه». وأمّا تغيبه عن بيعةِ الرضوانِ فلو كان أحدٌ أعزَّ بطنٍ مكةَ من عثمانٍ لبعثه مكانه، فبعث رسولُ الله ﷺ عثمانَ، وكانت بيعةُ الرضوانِ بعدما ذهبَ عثمانُ إلى مكة، فقال رسولُ الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يدُ عثمانٍ» فضربَ بها على يده، فقال: «هذه لعثمان» فقال له ابنُ عمر: اذهب بها الآن معك. [رواه البخاري (٣٦٩٩)].

ففي الآية تعظيم لشأن هذه البيعة أكده سبحانه بقوله بعد ذلك:

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما.

أو هو حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايعُ بواسطة رسوله ﷺ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ

(١) سيرة ابن هشام: ٢٠١/٣.

وَيُقْنَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

واليد في حق الله تعالى صفة من صفات ذاته ليست جارحة، ومذهب السلف السكوت عن التأويل، وإمرار آيات الصفات كما جاءت، وتفسيرها قراءتها والإيمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: فمن نقض عهده فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ومن وفى بما عاهد عليه الله في البيعة فسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا يوم القيامة.

وضم هاء (عليه) حفص في قراءته، وفي قراءة: (فَسَيُؤْتِيهِ) بالنون.

ولما سئل سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال:

على الموت. [رواه البخاري (٢٩٦٠)].

وقال بعضهم: بايعهم على ألا يفروا. ولا تنافي بينهما لاحتمال أن يكون

ذلك في مقامين، أو أحدهما يستلزم الآخر.

\* \* \*

## أعدار المتخلفين

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآيَاتِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَبِّكَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنتُمْ قَوْمًا تُورَا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغَيِّرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

ثم عرضت الآيات للذين حرموا أنفسهم من هذا الأجر العظيم، وتخلفوا عن رسول الله ﷺ، ولم يخرجوا معه، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً، استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، فتناقل عنه كثير منهم، واعتلوا بالشغل بأنزل الله فيهم:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآيَاتِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: سيقولون لك إذا رجعت إليهم من عمرتك: شغلتنا أموالنا وأهلونا، فاستغفر لنا بسبب تخلفنا. قالوا ذلك على وجه التقية والمصانعة، فكذبهم سبحانه:

﴿يَقُولُونَ بِآيَاتِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فهم كاذبون في طلب الاستغفار، لا يبالون أستغفر لهم النبي ﷺ أم لا.

ولهذا أمر عليه الصلاة والسلام أن يتوعدهم بدل أن يستغفر لهم:

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا أحد يمنع عنكم ما قدره الله لكم من ضر أو نفع.

وذلك أنهم ظنوا أن تخلفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضر، أو يجلب لهم النفع بالسلامة من مخاطر الخروج معه، وفي قراءة: (ضراً) بضم الصاد، ومعناه: سوء الحال.

﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: ليس الأمر كما تقولون، بل كان الله خبيراً بحقيقة تخلفكم ومجازيكم عليه.

ثم فضحهم سبحانه وبين سبب تخلفهم:

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: بل ظننتم أن لن يرجع الرسول ﷺ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، بأن يستأصلهم المشركون بالمرة، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: وحسن هذا الظن في قلوبكم، وانشرحت له صدوركم وعملتم به.

﴿وَوَظَنَنْتُمْ ظَنَّ سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: وظننتم أن الله سبحانه لا ينصر رسوله ﷺ، وصرتم بسبب ذلك الظن الفاسد قوماً بائرين هالكين لا خير فيكم.

ثم دعتهم الآيات بأسلوبٍ غير مباشرٍ إلى الإيمان الصادق قبل أن ينزل بهم العذاب:

﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

وهي نار جهنم، ونكرها تهويلاً لها.

ثم أخبر تعالى عن كمال ملكه وسلطانه وطلاقة مشيئته:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ .

ولا يغفر سبحانه إلا لمن تقتضي الحكمة أن يغفر له ممن يؤمن بالله ورسوله ﷺ بصدق وإخلاص .

\* \* \*

### عقوبة المتخلفين

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِ لِنَأْخُذُهَا ذُرُوعًا نَنبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُسَدِّلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ قُلْ لَن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُحَلِّينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَى قَوْمِ أُولَىٰ بِأَيْسٍ شَدِيدٍ يُقْتَلُونَ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِن تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمُرِيضِ حَرْجٌ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ .

وكما بينت الآيات جبن المتخلفين وتأقلهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ بينت أيضاً طمعهم الشديد، وتعلق قلوبهم بالمنافع الدنيوية والمكاسب المادية :

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِ لِنَأْخُذُهَا ذُرُوعًا نَنبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُسَدِّلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ قُلْ لَن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ .

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِ لِنَأْخُذُهَا ذُرُوعًا نَنبِعْكُمْ﴾ أي : سيقول لك المخلفون المذكورون عند انطلاقكم إلى مغامر خيبر لتأخذوها حسبما وعدكم الله إياها : دعونا نخرج معكم، ونشارككم في المغامر .

وهذا يدل على أنهم كانوا يرون ضعف العدو، ويتحققون النصر، فقد جاء في الأخبار الصحيحة: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ أَنْ يَعْوِضَهُمْ عَنْ مَغَانِمِ مَكَّةَ مَغَانِمِ خَيْبَرَ<sup>(١)</sup>.

﴿بُرَيْدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ﴾ بأن يشاركوا بالغنائم التي خصها الله بأهل الحديبية، فإنه عليه الصلاة والسلام رجَعَ من الحديبية في ذي الحجة سنة ست، وأقام بالمدينة بقيتها، ثم غزا خيبر في أوائل سنة سبع بمن شهد الحديبية ففتحها، وغنم أموالاً كثيرة فخصّها بهم، ولا ينافي هذا إعطاؤه عليه الصلاة والسلام بعض مهاجري الحبشة القادمين مع جعفر، وبعض الدوسيين والأشعريين، وهم أصحاب السفينة، فلعلّه كان برضا الغانمين، أو أعطاهم من الخمس الذي هو حقه عليه الصلاة والسلام، فكلام الله وعده بتلك الغنائم لأهل الحديبية، وفي قراءة: (كلم الله).

﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تتبعونا، فإنه نفي في معنى النهي عن الاتباع للمبالغة.

﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل تهيتكم للخروج إلى خيبر.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: لم يأمركم الله بذلك، بل تحسدوننا أن

نشارككم بالغنيمة، وقرئ: (بل تحسدوننا) بكسر السين.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: بل كانوا لا يفهمون إلا فهماً قليلاً، وهو

فهمهم لأمر الدنيا، وهو رد لقولهم الباطل في المؤمنين، ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد، وهو الجهل المفرط، وسوء الفهم في أمور الدين.

إنّ منع المتخلفين عن المشاركة في فتح خيبر كان عقوبة مؤقتة لهم بسبب

تخلفهم عن الخروج مع النبي ﷺ إلى الحديبية، ولهذا أمر ﷺ أن يخبرهم بأنّ بابّ الجهاد مفتوح لهم، وأنه يمكنهم أن يتلافوا ما سلف من تقاعس وتثاقل:

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقْبَلُونَهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ .

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقْبَلُونَهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ﴾ أي : ستدعون إلى قوم أولي قوة شديدة تقاتلونهم حتى يسلموا فيدخلوا بالإسلام، أو ينقادوا ويستسلموا لأحكامه بإعطاء الجزية .

واختلفوا في تعيين هؤلاء القوم، وتعددت آراؤهم: ثقيف وهوازن، أهل الردة، الروم والفرس، المغول والتتر، ولا مانع من حمل الآية على جميع أعداء الإسلام، ووطن القرطبي في تفسيرها إلى لطيفة في الآية فقال: في هذه الآية دليل على صحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم .

لكن من المعلوم أن قتال فارس والروم بدأ في عهد أبي بكر، واستمر في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهما .

﴿فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة .  
﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي : إن تولوا عن الاستجابة لدعوة الجهاد كما توليتم من قبل عن الخروج إلى الحديبية يعذبكم عذاباً أليماً .  
ثم استنتت الآيات أصحاب الأعدار من الوعيد على التخلف :

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَؤْتِ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ .

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ أي : لا تكليف عليهم ولا مسؤولية في التخلف عن القتال، فإن مدار التكليف على الاستطاعة، فهذه الأعدار ظاهرة في ترك الجهاد، ويلحق بها أمثالها، كما يلحق بها الفقر الذي لا يمكن صاحبه من الخروج إلى الجهاد، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ

وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُفْقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَضَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ [التوبة: ٩١].

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾  
أي: ومن يعرض عن الطاعة، ويستمر على الكفر والنفاق يعذبه عذاباً أليماً.  
وفي قراءة: (ندخله، نعذبه) بالنون.

\* \* \*

### بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

وبعد أن عظمت الآياتُ شأن البيعة في الحديبية، ونددت بالمتخلفين عن الخروج إليها، بينت فضل الذين استجابوا للرسول ﷺ وخرجوا معه وبايعوه، فأخبر تعالى عن رضاه عنهم:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وفي الحديث الشريف: عن جابر رضي الله عنه قال: قال لنا رسولُ الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خيرُ أهلِ الأرض» وكنا ألفاً وأربعمئة، ولو كنتُ أبصرُ اليومَ لأريتكم مكان الشجرة. [رواه البخاري (٤١٥٤)].

قال ابن حجر: هذا صريحٌ في فضل أصحاب الشجرة، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعة بمكة وبالمدينة وبغيرهما. وعند مسلم [٢٤٩٥]: من حديث جابر مرفوعاً: «لا يدخلُ النارَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا والحديبية». وروى مسلم

[٢٤٩٦] أيضاً: من حديث أم مبشر: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يدخل النار أحدٌ من أصحاب الشجرة»<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن الله تعالى قدّر أن يخفى عليهم أمر تعيين مكانها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها. [رواه البخاري (٢٩٥٨)].

وعن سعيد بن المسيب قال: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها، فلم نقدر عليها. [رواه البخاري (٤١٦٣)].

قال ابن حجر: وجدت عند ابن سعد بإسناد صحيح: عن نافع: أن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة، فيصلون عندها، فتوعدهم، ثم أمر بقطعها فقطعت<sup>(٢)</sup>. ولعلهم فعلوا ذلك بشجرة ظناً منهم أنها شجرة البيعة.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: فعلم سبحانه ما في قلوبهم من الصدق والإخلاص عند مبايعتهم، فأنزل عليهم الطمأنينة والأمن وسكون النفس، وأثابهم فتحاً قريباً، هو فتح خيبر بعد انصرافهم من الحديبية. ففي الآية شهادة عظيمة من الله تعالى بإخلاص أصحاب بيعة الرضوان، مما يدل على فضلهم ﷺ كما مر معنا.

﴿وَمَعَانِمْ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

﴿وَمَعَانِمْ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ من أموال خيبر، وكانت ذات غنى بالأموال والمزارع والنخيل، وفي قراءة: (تأخذونها) بالثناء والالتفات بالخطاب لتشريفهم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: كان الله ولا يزال منيعاً لا يغلب، حكيماً في ما يحكم ويقدر.

\*\*\*

(١) فتح الباري: ٤٤٣/٧.

(٢) المرجع السابق: ٤٤٨/٧.

## مقدمة الفتوح وتوالي البشائر

﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ. وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً  
لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْنَاكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوتُ وَإِنَّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾  
سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

وكانت غنائم خيبر مقدمة لمغانم كثيرة متوالية مع امتداد الفتوح وتوالي النصر:

﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ. وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ  
آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي: فعجل لكم غنيمة خيبر.

ففي الآية إشارة إلى كثرة الفتوحات والغنائم التي يكرمهم الله تعالى بها في المستقبل، فغنيمة خيبر في جنب ما وعدهم الله به من الغنائم كالكثير من الكثير.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي: وكف أيدي حلفاء أهل خيبر من بني أسد وخطافان حين هموا بنصرتهم، فخذف الله تعالى في قلوبهم الرعب فنكصوا، أو كف أيدي مشركي قريش عنكم بالصلح.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولتكون هذه الأحداث أمانة للمؤمنين، يعرفون بها فضله تعالى عليهم، وصدق رسوله ﷺ في كل ما أخبرهم به.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ بالتوفيق والتثبيت.

واستمرت الآيات تحمل البشائر بالنصر والفتح للنبي عليه الصلاة والسلام

ولأصحابه:

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ .

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: وعجّل لكم مغنم أخرى، وهي مغنم هوازن في غزوة حنين، لم تقدرُوا عليها في أول الأمر عندما حدث ما حدث من الفرار، قد أظهركم الله عليها، وقدّر لها لكم، أو حفظها لكم، ومنعها من غيركم.

وقد يكون المعنى: وعدكم الله فتح بلاد أخرى لم تقدرُوا عليها بعد، وهي بلاد فارس والروم وكل فتح يفتحه المسلمون إلى آخر الزمان، فهي كقوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وقال هنا أيضاً:

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فقدرته سبحانه تامة لا تختص بشيء دون شيء .  
ومن الدلائل التي تدل على كمال قدرته جل وعلا:

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُجِدُونَ وِلْيًا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ .

أي: ولو قاتلكم مشركو مكة، ولم يصالحوها لانهمزوا، ثم لا يجدون لهم ناصرًا ولا مساعدًا لأن الله خذلهم .

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: سنة الله في نصر أنبيائه وأوليائه سنة قديمة، ونصبت على المصدر، أو كسنة الله، وهي الطريقة والسيرة .  
﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ولا يستطيع أحد تغيير سنته تعالى .

## محل الهدى

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِبْكُمْ مِنْهُم مَعْرَةً يَغَيِّرُ عِلْمًا لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَرَىٰ لَأَعْدَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ .

شرعت الآيات بعد ذلك تصف بعض ما حدث في الحديبية، وتبين فضله تعالى على المؤمنين:

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وهو الذي كفف أيدي أهل مكة عنكم وأيديكم عنهم في داخل مكة، فبعض الحديبية من مكة، من بعد أن مكنكم منهم.

وفي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم، متسلحين يريدون غرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأخذهم سلماً فاستحياهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ . [رواه مسلم (١٨٠٨)].

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي: فيجازيكم عليه. وفي قراءة: (بما يعملون) بالياء، فيكون تهديداً للكفار.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّ بِكُمُ الْكُفْرَانُ وَلَئِنِ اتَّخَذْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ حُرَمًا فَذَلِكُمْ فِي اللَّهِ عِزًّا وَإِنَّهُ لَكَبِيرٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ أي: هم الذين كفروا ومنعوكم أن تصلوا إلى المسجد الحرام وتطوفوا به، وصدوا الهدى وهو محبوسٌ من أن يبلغ مكانه الذي يحلُّ فيه نحره، وهو أرض الحرم، أو محلها المعهود الذي هو منى.

والهدى: ما يُهدى إلى الكعبة من الأنعام.

والمحلُّ بالكسر: غاية الشيء، وبالفتح الموضع الذي يحله الناس.

وقد استدل أبو حنيفة رضي الله عنه بالآية على أن المحصر محلُّ هديه الحرم، وقال غيره: يذبح المحصر الهدى حيث يحلُّ من إحرامه، وقد سبق تفصيل المسألة عند قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا بِرُءُوسِكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُمْ﴾ [البقرة: ١٩].

#### • حرمة المؤمنين والمؤمنات:

﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّ بِكُمُ الْكُفْرَانُ وَلَئِنِ اتَّخَذْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ حُرَمًا فَذَلِكُمْ فِي اللَّهِ عِزًّا وَإِنَّهُ لَكَبِيرٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعرفوهم بأعيانهم، أن توقعوا بهم وتهلكوهم فتصيبكم من جهتهم مشقة ومكروه، وأنتم غير عالمين بهم.

وجواب (لولا) محذوف، لدلالة الكلام عليه، والمعنى: لولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين الكافرين غير عالمين بهم، فيصيبكم بذلك مكروه، لما كفَّ أيديكم عنهم.

وكانوا - على ما أخرج أبو نعيم بسند جيد وغيره عن أبي جمعة بن جنيد -

تسعة نفر، سبعة رجال وهو منهم، وامرأتين<sup>(١)</sup>.

(١) روح المعاني: ١١٣/٢٦.

ودل قوله: ﴿بِعَبْرٍ عَظِيمٍ﴾ على فضل الصحابة، فقد أخبر عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية، والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم أصابوا أحداً من ذلك لكان عن غير قصد.

﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: لم يأذن لكم في قتال المشركين ليُسلم منهم من قَدَّر له الإسلام.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض لعذبنا الذين كفروا عذاباً أليماً بقتلهم وأسرهم.

ففي هذه الآية دليلٌ على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن، إذ لا يمكن أذية الكافر إلا بأذية المؤمن، قال أبو زيد: قلت لابن القاسم: رأيت لو أن قوماً من المشركين في حصن من حصونهم، حصرهم أهل الإسلام وفيهم من المسلمين أسارى في أيديهم، أيحرق هذا الحصن أم لا؟ قال: سمعتُ مالكاً وسئل عن قوم من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم النار ومعهم الأسارى في مراكبهم؟ فقال مالك: لا أرى ذلك، لقوله تعالى لأهل مكة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وكذلك لو تترس كافر بمسلم لم يجز رمية...

قلت: قد يجوز قتل الترس ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كلية قطعياً، فمعنى كونها ضرورية: أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس، ومعنى أنها كلية: أنها قاطعة لكل الأمة حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين، فإن لم يفعل قتل الكفار الترس، واستولوا على كل الأمة، ومعنى كونها قطعياً: أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعاً<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

## حمية الجاهلية وكلمة التقوى

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ أي: إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الأنفة والغضب، وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، ولم يقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم، وأنكروا أن يكون محمدٌ رسول الله ﷺ، وهي حمية الجاهلية التي تمنع الإذعان للحق.

ففي حديث صلح الحديبية: أنه لما جاء سهيلُ بنُ عمرو قال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم» فقال سهيل: هاتِ اكتبِ بيننا وبينك كتاباً. فدعا النبي ﷺ الكاتبَ فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيلُ: أمّا الرحمنُ فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنتَ تكتبُ. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ الله» فقال سهيلُ: والله لو كنا نعلمُ أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: «والله إنني لرسولُ الله وإن كذبتُموني، اكتب: محمد بن عبد الله...» فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت، فنطوف به» فقال سهيلُ: والله لا تتحدّث العربُ أنّا أخذنا ضغطةً، ولكن ذلك من العام

المقبل . . . وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه نبي الله، ولم يقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينه وبين البيت. [رواه البخاري (٢٧٣٢)].

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فأنزل الله عليهم الثبات والوقار، فتوقروا وحلموا، فلم يدخلهم شيء من حمية الجاهلية كما حدث للمشركين .

﴿وَأَزْمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ أي: جعلهم يتمسكون بكلمة التقوى، وهي: لا إله إلا الله، التي يتقى بها الشرك، فهي رأس كل تقوى، ومنها طاعة رسول الله ﷺ.

ففي حديث الصلح: أن النبي ﷺ لما فرغ من قضية الكتاب قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مراتٍ، فلما لم يبق منهم أحدٌ دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَكَ، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم، حتى فعل ذلك، نحر بُدْنَهُ، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا قاموا ونحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي: وكانوا أحق بها من غيرهم، والمستأهلين لها، وهذا ثناء آخر على الصحابة الذين شهدوا الحديبية من ربهم إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل الله على قلوبهم من سكينته، وما جعل فيها من تقوى، وهو تكريمٌ بعد تكريم صادرٍ عن علم وتقدير.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم من يستحق الخير ممن لا يستحقه.

\* \* \*

## الرويا الصادقة

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُحَلِّفِينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ .

عادت الآيات بعد أن فرغت من وصف ما حدث بالحديبية إلى بداية الأحداث تبين السبب المباشر لها :

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُحَلِّفِينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُحَلِّفِينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: صدق الله رسوله ﷺ في رؤياه، وأراه الرؤيا الصادقة .  
ومرّ معنا أن رؤيا الأنبياء وحي، وكان رسول الله ﷺ قد رأى بالمنام أنه دخل مكة، وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة .  
وفي حديث الصلح: أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: أوليس كنتَ تحدِّثنا أنا سنأتي البيتَ فنطوفُ به؟ قال: «بلى، فأخبرتُكَ أَنَا نأتيه العام؟» قال: قلتُ: لا . قال: «فإنَّكَ أتيه ومطوفٌ به» .

فقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: صدقاً متلبساً بالحق، فما رآه رسول الله ﷺ كأنَّ لا محالة في الوقت المقدر له وهو العام القابل .

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليماً لعباده الأدب، ولتحقيق الخبر وتوكيده .

وقوله: ﴿ءَامِينَ﴾ أثبت لهم الأمن وهم يؤدُّون مناسك العمرة، حتى ينتهوا منها بحلق رؤوسهم، وتقصيرها عند الإحلال .

وفي الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم ارحم المحلّقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «اللهم ارحم المحلّقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» [رواه البخاري (١٧٢٧)].

﴿لَا تَخَافُوتُمْ﴾ فلا يخافون من عدوّهم وهم في داخل بلده.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي: فعلم سبحانه أن الصلاح كان في الصلح وتأخير دخول مكة.

﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: فجعل من دون دخول مكة فتحاً قريباً، هو فتح خيبر، أو صلح الحديبية، يستأنس به المؤمنون، حتى يتيسر الموعد، وتتحقق رؤيا رسول الله ﷺ.  
وفتح خيبر، ودخل النبي ﷺ وأصحابه مكة معتمرين آمنين، وفتح بعد ذلك مكة، وتوالت الفتوح، وأظهر الله تعالى دينه على كل دين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢٨).

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ليُعليه على جميع الأديان وينسخها به، فلا يقبل الله تعالى غير الإسلام ديناً.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على صدق رسوله ﷺ، وأن ما وعده به كائن، وكيف لا يشهد الله له بالصدق وهو رسوله ﷺ.

\*\*\*



تشاهدهم حال كونهم راعين ساجدين يبتغون ثواباً ورضاً من الله، وإن آثار الصلاة من خشوع وتواضع وسمت حسن ونظافة ووضاء بادية عليهم، فالصحابه رضي الله عنهم خلصت نياتهم، وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديتهم. ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي: ذلك الوصف العجيب الشأن الذي ذكر صفتهم في التوراة.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ أي: وصفتهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه وأولاده فقواه وأعانه حتى قوي وغلظ واشتد، وقام على عوده، الذي يحمله ويقوم عليه.

وهو مثل ضربه الله لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مكتوب في الإنجيل أنهم يكونون قليلاً، ثم يزدادون ويكثرون.

قال ابن كثير: هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة.

﴿يُعِجِبُ الزَّرَّاعَ﴾ أي: يعجب الزراع بكثافته وقوته وحسن منظره.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أي: إنما قواهم وكثرهم ليغيظ بهم الكفار.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رضي الله عنه تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم لأنهم يغيظونهم.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: وعد الله الصحابة مغفرةً وأجراً عظيماً، فقله: (منهم) لبيان الجنس لا للتبويض، فلهم كلهم الفضل والسبق والكمال.

فالآية تدل على فضل الصحابة رضوان الله عليهم، وترد على كل من يكرههم وينتقدهم، فلا يجوز الطعن عليهم، أو التعرض لهم بسوء، كما لا يجوز

أن يضمّر في قلبه بغضاً لأحد منهم، فمن انتقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد ردّ على الله ربّ العالمين، وأبطل شرائع المسلمين.

قال القرطبي: فالصحابَةُ كُلُّهُمُ عدوٌّ أولياء الله تعالى وأصفياءه وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، هذا مذهبُ أهل السُّنَّةِ، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة.



## تفسير سورة الحجرات أَخْلَاقٌ وَمَبَادِيٌّ فِي سُورَةِ الْحُجْرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
تأديب وتحذير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْفُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾  
يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَهْجُرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَهَجْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾  
إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِدَّ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة الحجرات بنداؤه وجهه للمؤمنين، أدبهم فيه بأداب كريمة، يجب عليهم أن يتحلوا بها في معاملة رسول الله ﷺ:

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْفُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ .

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تسرعوا بقول أو فعل قبل أن يقوله رسول الله ﷺ وقبل أن يفعله .

وفيه إشارة إلى احترام رسول الله، والانقياد لأوامره ونواهي، وذكر (الله) تعظيماً له، وإشعاراً بأنه من الله بمكانٍ يوجبُ إجلاله .

وقرئت: (لا تَقَدَّمُوا) بفتح التاء والداد من التقدم، و(لا تُقَدِّمُوا) بضم التاء وكسر الدال من التقديم.

قال القرطبي: كان في العرب جَفَاءً وسوء أدبٍ في خطاب النبي ﷺ، فأنزل الله السورة يعلمهم فيها مكارم الأخلاق ورعاية الآداب.

وقال ابن كثير: هذه آياتُ أدبِ الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون بها الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام.

﴿وَأَنفُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واتقوا الله في كل ما أمركم به إنه سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم.

ثم حذَّره ﷺ ونهاهم عن رفع الصوت بحضرة رسول الله ﷺ:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي: لا تجعلوا كلامكم مرتفعاً على كلام النبي عليه الصلاة والسلام، لأن رفع الصوت دليلٌ على قلَّة الاحتشام وترك الاحترام.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم.

أو: لا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً، وخاطبوه بالنبي أو الرسول كما خاطبه ربُّ العزة والجلال، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

فلم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه فيما بينهم، وهو الخالي عن مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير النسفي: ٣٩/٦.

﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لئلا تحبط أعمالكم، أو مخافة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون بذلك.

قال ابن كثير: أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري.

وقال القرطبي: وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره ﷺ، وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشریفاً لهم؛ إذ هم ورثة الأنبياء.

قال القاضي أبو بكر ابن العربي: حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمته حياً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثلاً كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به<sup>(١)</sup>.

وفي الوعيد بحبوط العمل ولو بغير قصد المخالفة دليل على خطورة ما نُهوا عنه، ولهذا خاف الصحابة ﷺ خوفاً شديداً، حتى إن بعضهم اعتزل مجلسه عليه الصلاة والسلام، وبعضهم كان يكلمه سراً.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله، وهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال: «أذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» [رواه البخاري (٤٨٤٦)].

وعن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، وأشار الآخر برجل آخر، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ الآية<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير القرطبي: ٣٠٧/١٦.

(٢) روح المعاني: ١٣٩/٢٦.

ثم أثنت الآيات على الذين يتخلّقون بهذه الأخلاق:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣)

أي: أولئك الذين طهّر الله قلوبهم من كل قبيح وشرحها للتقوى فأخلصها لها، وفي التصريح بجزائهم تعريض بسوء حال من ليس مثلهم.

\*\*\*

### المنادون من وراء الحجرات

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ حَبْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقًا مِسًّا فَتَنِينَا أَنْ نُصِيبُوا قَوْمًا بِيَهْلَةٍ فَذُصِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِينَ﴾ (٦)

وهم الذين نادوا رسول الله ﷺ من خارج الحجرات، قال تعالى فيهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤)

فلو كان لهم عقل لما فعلوا هذا الفعل القبيح الدال على سوء الأدب مع رسول الله ﷺ. وكانوا من جفاة الأعراب، الغالب عليهم الجهل، والحكم على الأكثر دون الكل بذلك، لأن منهم من لم يقصد ترك الأدب بل نادى لأمر ما. والحجرات: بيوت نساءه أمهات المؤمنين، وكانت تسعاً، لكل واحدة منهن حُجرة، وكانت - كما أخرج ابن سعد عن عطاء الخراساني - من جريد النخل، على أبوابها المسوح من شعر أسود. وأخرج البخاري في الأدب، وابن أبي الدنيا والبيهقي: عن داود بن قيس

قال: رأيتُ الحجراتِ من جريدِ النخلِ مغشى من خارجٍ بمسوحِ الشعرِ، وأظنُّ عرضَ البيت من بابِ الحُجْرَةِ ستة أو سبعة أذرع. . .

وأخرجوا عن الحسن: أنه قال: كنتُ أدخلُ بيوتَ أزواجِ النبيِّ ﷺ في خلافةِ عثمانَ بنِ عفان، فأتناولُ سقفها بيدي، وقد أُدخلتُ في عهدِ الوليد بن عبد الملك بأمره في مسجدِ الرسول عليه الصلاة والسلام، وبكى الناس لذلك، وقال سعيد بن المسيَّب يومئذٍ: والله لوددتُ أنهم تركوها على حالها، لينشأ أناس من أهل المدينة، ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسولُ الله ﷺ في حياته، فيكونُ ذلك ممَّا يزهدهم الناس في التكاثر والتفاخر<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ .

أي: ولو تحقق صبرهم وانتظارهم لكان الصبرُ المذكور خيراً لهم من الاستعجال، لما فيه من رعاية حسن الأدب مع الرسول ﷺ، والله واسع المغفرة والرحمة، يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا وأصلحوا فالتزموا هذه الآداب مع رسول الله ﷺ.

ثم أضافت الآيات تبيين عاقبة الاستعجال وترك الثاني والتثبت:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: فتوقفوا فيه، وتحققوا من صحته، ولا تعتمدوا قولَ الفاسق، لأنَّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه.

والفاسق: الخارج عن حدود الشرع، وفي تنكير الفاسق والنبأ تعميم

(١) تفسير النسفي: ٤٤/٦.

للفساق والأبناء، ودلت الآية على جواز قبول خبر العدل الواحد، لأننا لو توقفنا في خبره لسوينا بينه وبين الفاسق.

وفي قراءة: (فتثبتوا) أي: فتوقفوا إلى أن يتبين لكم الحال.

﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ أي: كيلا تصيبوا قوماً جاهلين حالهم وحقيقة أمرهم فتصبحوا على ما فعلتم من إصابتكم بالخطأ نادمين على العجلة وترك التأني.

وأجمعوا أنها نزلت في الوليد بن عقبة، وقد بعثه رسول الله ﷺ مصدقاً إلى بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم إحنة في الجاهلية، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه، فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فبعث خالد بن الوليد فوجدهم يصلون، فسلموا إليه الصدقات ورجع. [رواه أحمد في المسند برقم (١٥٣٧)].



### الراشدون

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَزَقَنَاهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَصَلِّا مِّنَ اللَّهِ وَبِعَمَّةِ وَاللَّهِ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَزَقَنَاهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: فاتقوا الله ولا تكذبوا، فإن فيكم رسول الله ﷺ يخبره الله ويعرفه حالكم فتفتضحوا،

فارجعوا إليه، واطلبوا رأيه، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، فلو أطاعكم في كثير مما تخبرونه به لوقعتم في العنت، وهو الجهد والهلاك. وهذا يدل على أن بعضهم أشار على الرسول ﷺ بالإيقاع ببني المصطلق. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنْ وَرَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حبه إلى نفوسكم، وحسنه في قلوبكم.

وهو استدراك يبين عذرهم، فهم من فرط حبهم الإيمان أشاروا على الرسول عليه الصلاة والسلام بالإيقاع ببني المصطلق. ﴿وَكُرْهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْأَعْيَانَ﴾ أي: وبغض إليكم الكفر والكذب وجميع المعاصي، وهذا التدرج لبيان كمال النعمة. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين أصابوا طريق الحق ولم يميلوا عن الاستقامة والرشد.

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾

أي: فعل ذلك بكم فضلاً منه ونعمة عليكم، والله عليم بمن يستحق الهداية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. أخرج الترمذي [٣٢٦٩] وصححه: عن أبي نضرة قال: قرأ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه هذه الآية فقال: هذا نبيكم ﷺ يوحى إليه، وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعتوا، فكيف بكم اليوم؟!.

\*\*\*

## مبدأ الإصلاح بين المتخاصمين

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

ومما شرعه سبحانه عند حدوث الاقتتال بين طائفتين من المؤمنين الإصلاح

بينهما :

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ .

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي: إن طائفتان من المؤمنين قتلتا؛ فأصلحوا بينهما بالنصح والموعظة والدعوة إلى حكم الله .

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: فإن تعدت إحداهما على الأخرى، وأبت الاستجابة إلى حكم الله؛ فقاتلتا التي تبغي حتى ترجع إلى حكم الله وأمره وشرعه .

﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالإنصاف القائم على العدل، وقيد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف والجور، لكونه بعد المقاتلة .

وفي الحديث: عن جابر رضي الله عنه قال: اقتتل غلامان، غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فنادى المهاجري: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا؟! دعوى أهل الجاهلية؟!» قالوا: لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع (ضرب) أحدهما الآخر . قال: «فلا بأسَ ولنصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينبهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره» [رواه مسلم (٢٥٨٤)].

﴿وَأَقْسَطُوا لِنَّ اللَّهِ يُحِبُّ الْمُقْسَطِينَ﴾ أي: واعدلوا في كل الأمور إن الله يحب العادلين.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ المقسطينَ عندَ الله على منابرٍ من نورٍ عن يمينِ الرحمنِ ﷻ، وكلتا يديه يمينٌ، الذين يعدلونَ في حكمهم وأهليهم وما ولوا» [رواه مسلم (١٨٢٧)].

وروي في سبب نزولها: عن أنس رضي الله عنه، قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيتَ عبدَ الله بن أبي، فانطلقَ النبي ﷺ وركبَ حماراً، فانطلقَ المسلمون يمشون معه، وهي أرضٌ سبخةٌ، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، والله لقد آذاني نتنُ حمارِكَ، فقال رجلٌ من الأنصار: والله لحمارُ رسولِ الله ﷺ أطيَّبَ ريحاً منك، فغضبَ لعبدِ الله رجلٌ من قومه، فشتمه، فغضبَ لكلِّ واحدٍ منهما أصحابه، فكان بينهما ضربٌ بالجريدِ والأيدي والنعال، فبلغنا أنها أنزلت: ﴿وَإِن طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾<sup>(١)</sup>.

والجديرُ بالذكر: أن العلماء حذروا من سبِّ الصحابة وانتقادهم بسبب ما شجر بينهم بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، قال القرطبي رحمه الله: «لا يجوزُ أن ينسبَ إلى أحدٍ من الصحابة خطأً مقطوعاً به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه، وأرادوا الله ﷻ، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكفِّ عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهى النبي ﷺ عن سبهم، وأنَّ الله غفرَ لهم وأخبرَ بالرضا عنهم»<sup>(٢)</sup>.

ثم أكد سبحانه مبدأ الأمر بالإصلاح، بتقرير مبدأ هام يقوم عليه المجتمع الإسلامي:

(١) تفسير القرطبي: ٣٢١/١٦.

(٢) المرجع السابق: ٣٢٣/١٦.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أي: إنهم منتسبون إلى أصل واحد، ورحم واحد، وهو الإيمان، وهو يوجب الإصلاح بينهم. وفي هذه الآية والتي قبلها دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله تعالى سمّاهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين.

ولما سُئِلَ علي بن أبي طالب عليه السلام عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟ قال: لا، من الشرك فرؤا، فقيل: منافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل له: فما حالهم، قال: إخواننا بَعَوْا علينا.

وقد أكد النبي صلى الله عليه وآله وسلم مبدأ الأخوة بين المؤمنين في أحاديث كثيرة؛ منها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [رواه مسلم (٢٥٨٠)].

ومنها أيضاً: قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» [رواه مسلم (٢٥٨٥)].

ومنها أيضاً: قوله عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى» [رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦)].

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فالتقوى تحملكم على التواصل والتراحم وتحقيق مبدأ الأخوة بينكم، وتجعلكم ترجون رحمة الله.

\* \* \*

## تحريم أسباب الخصام

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بَشَرًا مِّنَ الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾

ثم حرم سبحانه كل ما يؤدي إلى الاختلاف والخصام بين المؤمنين فنهى عنها بقوله:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بَشَرًا مِّنَ الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: عسى أن يكون المسحور منهم خيراً عند الله من الساخرين، فهو تعليل للنهي، ولما كان الخبر مختصاً بالرجال أكد النهي بالنسبة للنساء، وأفردهن بالذكر لأن السخرية منهن أكثر.

﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: ولا يسخر نساء من نساء عسى أن تكون المسخورات منهن خيراً من الساخرات، فالله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم كما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» [رواه مسلم].

وقال أيضاً: «رُبَّ أَشْعَثٍ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ» [رواه مسلم (٢٦٢٢)].

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: ولا يعب بعضكم بعضاً، فإن المؤمنين كنفس

واحدة. أو: لا تفعلوا ما تُلمزون به، فإنَّ من فعل ما يستحق به اللمز فقد لُمز نفسه. والأول أوجه كقوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] وهو الذي يزدرى الناسَ ويتقصهم، وبنه على معايهم.

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يدعوا بعضكم بعضاً باللقب، وخصَّ عرفاً بما يكرهه الشخص من الألقاب، قال النووي رحمته الله: اتفق العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره، سواء كان صفةً له أو لأبيه أو لأمه أو لغيرهما.

﴿يَسَّ الْأَسْمُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بئس الاسمُ أن تقولوا له: يا يهودي أو يا نصراني بعدما أسلم، أو يا منافق بعدما تاب، أو من فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز فهو فاسق، وبئس الاسمُ الفسوق بعد الإيمان فلا تفعلوا ذلك فتستحقوا اسم الفسوق.

فالمبدأ الذي تقرره الآية أن كلَّ مَنْ لَقَّبَ أخاه بلقبٍ يكرهه أو سَخَرَ منه فهو فاسق، وذلك لا يجوز، أكد هذا المبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرٌ؛ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا» [رواه البخاري (٦١٠٣)].

ويُستثنى من ذلك ما يراود به الصفة والتعريف، لا العيبَ مثل: حميد الطويل، وسليمان الأعمش، وكان في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رجل في يديه طول يدعه ذا اليمين.

ثم ختم الله الآية بوعيد المصريين على هذه المعاصي: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَنْبَأْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب، ووضع العصيان موضع الطاعة.

\*\*\*

## تحريم ظن السوء وما يؤدي إليه

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَّبُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدِكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَّبُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدِكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي: تباعدوا منه.

فالآية أمرت باجتنب بعض الظن، والمراد منه ظن السوء، ووصفته بالكثرة، وأشارت إلى خطورته، فأمرت باجتنب الكثير منه ليقع التحرز عن القليل.

والظن: عبارة عما تركز إليه النفس، ويميل إليه القلب.

وسوء الظن حرام كسوء القول، فكما يحرم أن تحدث غيرك بمساوئ الناس، يحرم أن تحدث نفسك بمساوئ غيرك، ويُستثنى من ذلك الخواطر والهواجس، وما لا تستطيع دفعه عن نفسك.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً» [رواه البخاري (٦٠٦٤)].

وقال القرطبي: المراد بالظن هنا التهمة التي لا سبب لها، كمن يتهم رجلاً بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها.

وأما ما ورد في الحديث: عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أظنُّ فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً» فكان لرجلين من المنافقين، ومثل هذا ليس من الظن المنهي عنه، لأنه في مقام التحذير من مثل من كان حاله كحال الرجلين، والنهي إنما هو عن

ظن السوء بالمسلم السالم في دينه وعرضه، وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما: إنا كنا إذا فقدنا الرجلَ في عشاءِ الآخرةِ أسأنا به الظنَّ<sup>(١)</sup>.

فعلى المسلم أن يتحفظَ، وأن يجتنبَ أماكن الشبهات، وما يعرضه لسوء الظن، ويحرص على سلامة دينه وعرضه.

ويؤدي سوء الظن إلى التجسس؛ ولهذا قال تعالى بعد أن نهى عن سوء الظن:

﴿وَلَا يَجَسَّسُوا﴾ أي: ولا تبحثوا على عيوب الناس ومعائبهم، وتطلعوا على ما ستر الله منها، وذلك أن الشخص يقع له خاطرُ التهمة، فيريد أن يتحقق، فيتجسس، ويبحث، ويستمع، فنهي عن ذلك.

وسبق معنا في الحديث السابق: قوله عليه الصلاة والسلام: «إياكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديثِ، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا».

وفي «المعجم الكبير» للطبراني: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إذا ظننتَ فلا تحقِّقْ، وإذا حسدتَ فاستغفر، وإذا تطيَّرتَ فامضِ».

• تحريم الغيبة:

﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: ولا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره في غيبته.

فالغيبة: ذكرُ العيب في ظهر الغيب، ويدخل فيها الرمز والإشارة ونحوهما والتعريض، كأن يمشي مثل مشيته، أو يغمز بعينه عند ذكره، أو يقول عند ذكره: الحمد لله الذي عافانا.

وفي الحديث الشريف: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «أندرونَ ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذُكِرْكَ أَخَاكَ بما يكره» قيل: أفرأيتَ إذا كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبتَهُ، وإن لم يكن فيه فقد بهتَهُ» [رواه مسلم (٢٥٨٩)].

فالإسلام يحرص على صيانة عرض المسلم غاية الصيانة لتقدم النهي عن

(١) فتح الباري: ٤٨١/١٠.

الخوض فيه بالظن، فإن قال الظانُّ: أبحثُ لأتحقق. قيل له: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. فإن قال: تحققتُ من غير تجسس. قيل له: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

والجديرُ بالذكر: أنَّ المستمعَ لا يخرجُ عن إثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه، فإن خافَ فبقلمه، فإن كان قادراً على القيامِ أو قطع الكلامِ بكلامٍ آخرٍ يلزمه، وإن اغتابَ الفاسقَ ليحذّرَ منه الناسَ يُثاب عليه، لأنه من النهي عن المنكر، ولا إثم عليه، ولو ذكر مساوئ أخيه على وجه الاهتمام لا يكون غيبة، إنَّما الغيبةُ أن يذكره على وجه الغضبِ، وله أن يذكرَ ما يعرفُ لمثل مشورةٍ في نكاحٍ، وسفرٍ، وشركةٍ، ومجاورةٍ، وإيداعٍ، ونحوها على قصد النصح<sup>(١)</sup>.

وقد تكون الغيبة واجبةً كجرح المجروحين والشهود، وبيان العيب للمشتري، قال العلماء: تباح الغيبةُ في كلِّ غرضٍ صحيحٍ شرعاً، حيث تعيَّن طريقاً إلى الوصول إليه بها، كالتظلم والاستعانة على تغيير المنكر والاستفتاء والمحكمة والتحذير من الشر<sup>(٢)</sup>.

ثم مثَّلت الآية لما يناله المغتاب من عرض الذي يغتابه بأفحش صورة وأقبحها: ﴿أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فكما تكره أن تأكلَ لحمَ أخيك ميتاً فعليك أن تكره لحمه وهو حيٌّ، فعرضُ الإنسان كلحمه ودمه، والإنسان يتألَّم قلبه إذا ذُكرَ بسوءٍ كما يتألَّم جسده إذا أكل لحمه.

روى أبو داود [٤٨٧٨]: من حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله صلَّى الله عليه وآله قال: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَحْمُشُونَ وَجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ».

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي: واتقوا الله باجتناب ما نهيتكم عنه، والندم على ما صدر منكم، فإنه سبحانه يقبل توبتكم ويرحمكم.

(١) الهدية العلائية، ص ٢٥٧.

(٢) فتح الباري: ٤٧٢/١٠.

فعلى المغتاب أن يقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود، وأن يتحلل من الذي اغتابه إذا علم أنه لا يتأذى، أو يثني عليه في المجالس التي اغتابه فيها.

\* \* \*

### المساواة في الأصل والتفاضل بالتقوى

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ .

ثم قرر سبحانه مبدأ الأخوة الإنسانية الداعية إلى التعاون والائتلاف، والمانعة من الاختلاف والاختصام والسخرية واللمز والاعتياب:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ أي: خلقناكم من أصل واحد هما آدم وحواء، وحواء خلقت كما سبق معنا من آدم، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّهَ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ وقرئت: (لتتعارفوا) بتاءين على الأصل. أي: وجعلناكم جموعاً عظيمة وقبائل متفرعة عن هذه الجموع ليعرف بعضكم بعضاً بنسبه، لا للتفاخر بالأباء والقبائل، ولهذا قال تعالى بعد تقرير هذا المبدأ:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ﴾ أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب والأنساب، ولما سئل النبي ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قال: «أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يَوْسُفُ بْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فَعَنْ مَعَادِنِ»

العرب تسألونني؟ الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» [رواه البخاري (٣٨٣)].

وفي صحيحه ابن خزيمة وابن حبان [٣٢٧٠] وتفسير ابن مردويه: عن ابن عمر قال: خطب النبي ﷺ يوم الفتح فقال: «أما بعد يا أيها الناس، فإن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها، يا أيها الناس، الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله» ثم تلى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...﴾.

وروى أحمد وابن أبي حاتم: من طريق أبي نضرة: حدثني من شهد خطبة النبي ﷺ بمنى وهو على بعير يقول: «يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، خيركم عند الله أتقاكم»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: إن الله عليم بكم وبأعمالكم، خبير بباطن أحوالكم. ودلت الآية على تحريم دعوى الجاهلية، والافتخار بالأنساب، أكد ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «ليس منا من صرَبَ الخدودَ، وشقَّ الجيوبَ، ودعا بدعوى الجاهلية» [رواه البخاري (١٢٩٧)].

وقال ﷺ أيضاً: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبية، أو ينصر عصبية، فقتل فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفني لذي عهدٍ عهدَه، فليس مني ولست منه» [رواه مسلم (١٨٤٨)].

والمعنى: يغضب ويقاتل ويدعو غيره لا لنصرة الدين والحق، بل لمحض التعصب لقومه ولهواه، كما كان أهل الجاهلية.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص

(١) روح المعاني: ١٦٣/٢٦.

جميعُ القيم التي يتكالبُ عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون، وهو هذا المبدأ الذي قرره الإسلام، مبدأ الأصل الإنساني الواحد، والدين الواحد، الذي أساسه عبادة الله الواحد.

\* \* \*

## الإيمان والإسلام

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِسُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَأَمَسُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ ءَأَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمْتُ بِلِ اللَّهِ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ نَصِيرٌ لِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

ثم بين تعالى أن أساس التقوى التي يتفاضل فيها الناس - وهو الإيمان بالله وحده - موضعه في القلب:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِسُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِسُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: قال بعض الأعراب، وهم بنو أسد، قدموا المدينة، فأظهروا الإسلام طمعاً في الصدقة.

فالإيمان هو التصديق، والإسلام الدخول في الإسلام بإظهار الشهادتين وترك محاربة المسلمين.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تواطئ قلوبكم ألسنتكم بعد، فالإقرار باللسان من غير موافقة القلب إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان،

وهذا من حيث اللغة، وأما في الشرع فالإيمان والإسلام واحد، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات].

وفي قوله: (لَمَّا) إشارة إلى توقع دخول الإيمان في قلوبهم.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: وإن تخلصوا في طاعة الله ورسوله ﷺ لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً، وفي قراءة: (لا يآلتكم) بمعنى ينقصكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ما فرط من تقصيركم ويرحمكم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: ثم لم يشكوا، ولم تحدث لهم ريبة. و(ثم) للتراخي الزمني، أفادت الثبات والدوام والاستمرار.

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعة الله.

والمجاهدة بالأموال والأنفس تنسحب على كل العبادات المالية والبدنية.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين صدقوا بادعاء الإيمان.

ويبدو أنه لما نزلت هذه الآية جاؤوا وحلفوا أنهم مخلصون فأنزل الله:

﴿قُلْ أَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿قُلْ أَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرون الله بتصديق قلوبكم؟! .

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو سبحانه يعلم

المنافقين والمخلصين الصادقين.

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ آسَلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ آسَلَمُوا﴾ وهو قولهم: أسلمنا ولم نحاربك. يمتنون بذلك على رسول الله ﷺ .

﴿قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ أي: لا تمنوا عليّ بإسلامكم، فَنُصِبَ بِنَزْعِ الْخَافِضِ .  
 ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان .  
 وفي سياق الآية لطف، وهو أنهم لما سموا ما صدر عنهم إيماناً ومثوا به، نفى أنه إيمان وسمّاه إسلاماً، بأن قال: يمتنون عليك بما هو في الحقيقة إسلام، وليس بجدير أن يمتن به عليك، بل لو صحّ ادعاؤهم الإيمانَ فله المنة عليهم بالهداية لا لهم<sup>(١)</sup> .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

فكيف يخفى عليه ما في ضمائرکم. وفي قراءة: (يعملون) بالياء .  
 والحمد لله رب العالمين .



## تفسير سورة ق

### البصيرة والموعظة في سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الأمر العجيب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَدَا  
مَتَا وَكُنَّا نُرَابًا ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ .

بدأ الله تعالى السورة بقوله:

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ .

﴿ق﴾ وهو حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل بعض السور؛ مثل قوله تعالى: (ص)، (ن). وقد سبق الكلام عليها في أول سورة البقرة، وسورة (ق) هي السورة الثانية المبدوءة بحرف واحد، سميت باسم الحرف الذي افتتحت به، كما سميت (سورة ص) باسم الحرف الذي افتتحت به.

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ وهو قسم بالقرآن ذي المجد والشرف، ووصف القرآن به لكثرة ما يتضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية، أو لأنه كلامٌ المجيد، فهو وصف بصفة قائله، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٦﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج].

وجواب القسم محذوف، يشعر به الكلام، وهو إثبات صدق نبوته ﷺ، وإثبات المعاد والجزاء والحساب، وله نظائر في أقسام القرآن، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿ص﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: إنا أنزلناه لتنذر به الناس، فلم يؤمنوا به، بل تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر.

و(بل) للإضراب عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف، قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

﴿فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وهو الأمر الذي يتعجب منه، ولم يقل: (فقالوا)، بل قبح حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر، وليس هذا بعجيب، وإنما الأمر العجيب إنكارهم وعنادهم.

﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾.

أي: أئذا متنا وصرنا تراباً كيف يمكن أن نرجع إلى هذه البنية والتركيب؟! ذلك رجع بعيد الوقوع.

فإنكارهم العودة إلى الحياة بعد الموت هو الأمر العجيب حقاً كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذْ ذَا كُنَّا تُرَابًا ءَأَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]. وفي قراءة: (إذا متنا) بهمزة واحدة، ويكون استفهاماً حذفت منه الهمزة.

\* \* \*

## الكتاب الحفيظ

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ ﴿٥﴾﴾

ورد سبحانه عليهم قائلاً:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل الأرض من أجسادهم.

فمن عمّ علمه ولطف حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى، وتأكل من لحومهم وعظامهم في كل لحظة من الزمن المتطاوّل الذي تتفتت فيه أجسادهم وتبلى، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا؟! فأحوال أبدانهم بعد الموت معلومة لله تعالى، يعلم أين ذهبت، وإلى أين صارت، قال تعالى: ﴿تَلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء].

وهذا يدلُّ على كمال علمه سبحانه، فهو عليمٌ بتفاصيل الأشياء كليّاتها وجزئياتها على أتمّ وجه، وإذا حدث تداخل بين الأجساد بعد الموت، فإنّه سبحانه يميّز بينها بكمال علمه وقدرته، فهو يعلم الأصيل من الدخيل.

والجدير بالذكر أنّ عجب الذنب لا يبلى، وهو العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب، وهو رأس العُضُعُصِ، ويقال له: (عجم) بالميم، وهو الذي يبقى من جسم الإنسان ليعاد تركيب الخلق عليه.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجْبَ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ، وَفِيهِ يُرَكَّبُ» [رواه مسلم (٢٩٥٥)].

﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ أي: عندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ومقاديرها، أثبت الله فيه كل ما يكون، وهذا الكتاب محفوظ أيضاً من التغيير، وهو تأكيد لكمال علمه تعالى بها بثبوتها في اللوح المحفوظ.

ثم وصف سبحانه حقيقة حال المعرضين عن الحق المنكرين بعث الأجساد بعد التفتت والبلى فقال:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

أي: فهم في أمر مضطرب قلق حائر.

فالحق ثابت قوي راسخ، فمن تجاوزه زلّت قدمه، وفقد الثبات والاستقرار والطمأنينة والسكينة، التي يشعر بها المؤمنون، فتتقاذفه أمواج الباطل، وتقلقه الشكوك، وتتأرجح مواقفه، وتتغير كما تتغير أهواؤه وأمزجته.

\* \* \*

### النظر إلى السماء

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَازَيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾.

وقوة الحق وثباته بسبب قيامه على النظر والتفكير والدليل والبرهان، وهو ما دعتهم الآيات إليه وحثهم عليه:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَازَيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي: أغفلوا أو أعموا فلم ينظروا إلى السماء فوقهم؟!.

ويبدو - والله أعلم - أن المراد النظر إلى جهة السماء، وقوله: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يشير إلى ذلك، وظواهر الآيات ناطقة بأن السماء مرئية، وجمهور العلماء

يقررون ذلك وهم معذورون، ورحمَ الله العلامة الألويسي عندما قال: «وأنت تعلم أن الأصحاب مع الظواهر حتى يظهر دليل على امتناع ما يدل عليه، وحينئذ يؤولونها»<sup>(١)</sup>.

وقد أثبت العلماء في العصر الحاضر أن المسافات بين النجوم هائلة، تقاس بالسنين الضوئية، وهي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة، ومن المعلوم أن سرعة الضوء في الثانية الواحدة مئة وستة وثمانون ألف ميل، وثمة نجوم تبعد عن الأرض مئات السنين الضوئية كما يقول العلماء، فالفضاء الممتد من الأرض إلى السماء الدنيا أوسع بكثير مما كان يظن قديماً، فالأرض جسم صغير يسبح في الفضاء بين مجموعة كبيرة من الأجرام، وقد يكون حجم الأرض بالنسبة لها كحبة رمل، فالأرض الجرم الثالث من المجموعة الشمسية من مجرة درب التبانة، ويقرر علماء الفلك أن في هذه المجرة ما يقرب من ألف مليون نجم.

وهذا يزيدنا معرفة بعظمة خالقه ومبدعه ﷻ، ولا يعني ذلك أن السماء هي هذه الكواكب والأجرام العلوية السابحة في الفضاء، فهذه الأجرام كلها دون السماء الدنيا، فللسماء حقيقتها المستقلة، وهي بناء متماسك له أبواب؛ وهي سبع سماوات بعضها فوق بعض، كما صرحت بذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ذات الدلالة القطعية.

﴿كَيْفَ بَيْنَنَهَا وَزَيْنَهَا﴾ أي: كيف رفعناها وأحكمناها وزيناها بالكواكب والنجوم اللامعة المضيئة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوْكَبِ﴾ [الصفات: ٦].

﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي: وما لها من فتوق وشقوق، والمراد أنها سليمة من العيوب، لا فتق فيها، ولا صدع ولا خلل<sup>(٢)</sup>، كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفْوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

(١) روح المعاني: ١٧٥/٢٦.

(٢) تفسير النسفي: ٦١/٦.

فالبناءً محكمٌ متقنٌ لا خللَ فيه ولا عيب، وهذا يزيدنا يقيناً بكمال قدرته تعالى وباهر حكمته.

\* \* \*

### التبصرة والذكرى

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَصْرَةً وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّحْلَ بَاسِقَاتٍ لَمَّا طَلَعَ نَبِيذٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطانها وجعلناها ممتدة منبسطة بالنسبة إليكم، وهذا لا ينافي كرويتها بالنسبة لضخامة حجمها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ﴾ جبالاً ثوابت تمنعها من الاضطراب، كما سبق معنا عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: وأنبتنا في الأرض من كل صنف حسن بهيج يسر الناظرين إليه، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً لكل عبد راجع إلى ربه.

فالتفكير في بدائع صنعه سبحانه يرد الشاردين الحائرين إلى الحق إذا تطلعوا إليه، وأخلصوا في طلبه، فبين العلم والإيمان أصراً قويةً ينشغل عنها أكثر العلماء العاملين في مراكز البحوث، لأن تفكيرهم متجه إلى استثمار كل حقيقة

علمية يتوصّلون إليها لتحقيق السيطرة والمكاسب المادية، وبهذا تنقطع هذه الأصرّة، وتنطمس في عقولهم وقلوبهم، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

ودلت الآيات على أن آفاق التفكير والنظر في الإسلام واسعة شاملة كل ما يستطيع الإنسان النظر إليه والتفكير فيه، ابتداءً من نفسه وتكوينه، إلى الأرض التي يعيش عليها، ثم إلى الفضاء الواسع الممتد حوله بكل ما فيه من أجرام وكواكب ونجوم، فإن كان مؤمناً فإنه لن يجد في هذه المكونات إلا ما يقوّي إيمانه بربه، ويزيده تعظيماً له سبحانه وخشية منه، وإن كان مرتاباً كافراً فإن نظره وتفكيره يردّه إلى ربه، وإلى أصل فطرته التي فطره جل وعلا عليها.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (٩).

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا﴾ أي: نزلنا من السحاب الذي هو في جهة السماء ماءً كثير المنافع وهو ماء المطر.  
﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي: حب الزرع الذي من شأنه أن يُحصد كالقمح والشعير.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ (١٠).

أي: وأنبتنا النخل الطوال أو الحوامل، لها ثمر يطلع ويظهر، متراكب بعضه على بعض.

\* \* \*

## المخرج من القبور

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَا بِهِ بَلَدَةً مِّثْلًا كَذَلِكَ الْمُرْجُ ﴿١١﴾ كَذَت قَلَمَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَبُ الرِّيسِ وَنَمُوذُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُعِجَ كُلِّ كَذَبَ الرَّسُلِ حَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَعْيَيْنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَمَسٍ مِنْ حَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَا بِهِ بَلَدَةً مِّثْلًا كَذَلِكَ الْمُرْجُ ﴿١١﴾﴾ .

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: جعلنا ذلك رزقاً للعباد.

وفي تقديم الآيات للاستبصار والتذكر على الرزق إشارة إلى أهميتهما، وأنهما مقدّمان على المنافع المادية، ولكنَّ شأنَ أكثر الباحثين في العصر الحاضر الاهتمامُ بالانتفاع، والتغافلُ عن الاستبصار والتذكر.

﴿وَأَحْيَا بِهِ بَلَدَةً مِّثْلًا كَذَلِكَ الْمُرْجُ﴾ أي: وأحيينا بالمطر أرضاً يابسة لا نبات فيها، فصارت تهتزُّ وتنمو بعدما كانت جامدةً هامدةً، كذلك خروجُ الناسِ وبعثهم من القبور.

وتذكير ﴿مِثْلًا﴾ لأنَّ المرادَ البلدُ والمكانُ، وقرئ (مِثْلًا) بالتشديد.

وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن حياة الموتى بالخروج، تفخيمٌ لشأنِ الإنبات، وتهوينٌ لأمر البعث، فكأنه سبحانه يقول لمنكري البعث: إنَّه لأمرٌ هينٌ سهلٌ التحقُّقِ والوقوعِ كما في قوله: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ .

وقوله أيضاً: ﴿وَمَنْ أَيْنَبُكَ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَشَعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ .

ثم بيّنت الآيات أنَّ جميع الأنبياء السابقين دعوا إلى التصديق بأمر البعث ويوم الحساب والجزاء، وأنَّ جميع الأمم التي أرسلوا إليها قد أنكروه واستبعدوه:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَثَمُودُ ﴿١١﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٢﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ  
وَقَوْمُ ثَيْبٍ ﴿١٣﴾ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَثَمُودُ ﴿١١﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٢﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ  
وَقَوْمُ ثَيْبٍ ﴿١٣﴾﴾ وقد سبق الحديث عن هؤلاء الأقسام في عدد من السور.  
﴿كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي: كل هؤلاء المذكورين كذبوا الرسل، ومن  
كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل، فوجب عليهم وعيدي وعذابي.  
وتساءلت الآيات بعد هذا البيان مقررة حقيقة البعث ومنكرة على المكذبين به:

﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴿١٥﴾﴾ أي: أفعجزنا حين خلقناهم أول مرة حتى نعجز عن  
إعادتهم؟! والعي بالأمر: العجز عنه، فابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل  
منه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتُ عَلَيْهِ وَلَهُ  
الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].  
﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: بل هم في خلط وشبهة من خلق مستأنف،  
فهم تركوا الاستدلال الصحيح، ووقعوا في خلط وشبهة وحيرة.

\* \* \*

### الرقابة الإلهية

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُمُ الْإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ مَا نُوَسِّسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِن جَبَلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَبْلُغُ الْمَتَابِعَانَ  
عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْمِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ .

ثم أخبرت الآيات الإنسان أن الله تعالى ما أهمله بعد خلقه، بل هو تحت

رقابته الإلهية، وأن جميع أقواله وأعماله معلومة لله جل وعلا، وأنه سبحانه خصص له أيضاً ملائكة تسجل له جميع أقواله وأفعاله:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْسُورًا ۖ وَعَلَّمَ مَا نُؤَسِّرُ بِهِ ۚ فَكَسَبُ سَخَطِهِ وَخَنُوقَهُ آيَاتٍ لِلَّذِينَ يَحْكُمُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ آيَاتٍ أَلْوَمِيحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْسُورًا ۖ وَعَلَّمَ مَا نُؤَسِّرُ بِهِ ۚ فَكَسَبُ سَخَطِهِ وَخَنُوقَهُ آيَاتٍ لِلَّذِينَ يَحْكُمُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ آيَاتٍ أَلْوَمِيحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ .  
وما يختلج في سره وضميره من خواطر وهواجس .

والوسوسة في الأصل: حديث النفس، وقد جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ» [رواه مسلم (١٢٧)].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي: وملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه .

أو: ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد، لأنَّ القرب من الشيء في العادة سبب العلم به وبأحواله .

وحبل الوريد: هو العرق الممتد في صفحة العنق يمثل به للقرّب، وهما عرقان . والمعنى الأول أقوى، وهو ما ذكره ابن كثير في معنى الآية، ثم قال بعده: ومن تأوله على العلم فإنما فرّ لثلا يلزَمَ حلولاً أو اتحاداً، وهما منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدس، واللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يعني: ملائكته .

ويؤيده أيضاً قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِذْ يَنْفَقُ الْمَلَائِكَةُ عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ .

أي: إذ يتلقى الملكان اللذان يكتبان عمل الإنسان وأقواله، وأحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله .

والتلقي: التلقن بالحفظ والكتابة. والمراد بالقعيد هنا: الملازم الثابت لا ضدَّ القائم، فهما ملازمان للإنسان، يرصدان أعماله وأقواله، فالله أعلم بحال الإنسان من كل قريب حين يتلقى المتلقيان الحفيضان ما يتلفظ به:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ما يتكلم من كلمة إلا عنده ملك حافظ حاضر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٧﴾ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿١٨﴾ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار].

\* \* \*

## سَكَرَاتِ الْمَوْتِ

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾  
 ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾

ثم كشفت الآيات للإنسان بأسلوب المواجهة والتحدي حقيقة ما ينتظره عندما يحين أجله وتنتهي حياته في الدنيا:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أي: وجاءت غمرة الموت وشدته التي تغشى الإنسان عند الموت بحقيقة الموت، أو بالحق من أمر الآخرة، فبينت للإنسان ما لم يكن بيناً من أمر الآخرة الذي كان يشك فيه.

ودلت الآية على أن للموت سكرات، وقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما توفي جعل يَدْخُلُ يديه في ركوة ماءٍ، فيمسحُ بهما وجهه يقول: «لا إله إلا الله، إنَّ للموتِ سكرات» ثم نصب يده، فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده. [رواه البخاري (٤٤٤٩)].

﴿ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ مِنْهُ نَجِيذًا﴾ أي: ذلك الحق ما كنتَ منه تميل وتنفر، قد حلَّ بك ونزل بساحتك فلا تقدر على الفرار منه.

والموت أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغَ منه، أو يبعد شبحه عن خاطره، ولكن أنى له ذلك والموت طالِبٌ لا يَمَلُّ الطلب، ولا يبطئ الخطأ، ولا يخلف الميعاد<sup>(١)</sup>.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وجاء التعبير بصيغة الماضي هنا وفي ما بعده لتحقيق الوقوع وتأكيده. وانتقلت الآيات من الموت وسكراته إلى يوم القيامة وأهواله، فهو اليوم الذي كان المشركون ينكرونه ويستبعدون وقوعه:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (١٠)

أي: ذلك اليوم الذي يتحقق فيه الوعيد بالسؤال والجزاء.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (١١)

أي: وجاءت كل نفس إلى أرض المحشر معها ملك يسوقها، وشهيد يشهد عليها، ويبدو أنهما الملكان المتلقيان اللذان سبق ذكرهما. وقال بعضهم: السائق ملك، والشهيد النبي المرسل إلى هذا الإنسان. أو: السائق ملك، والشهيد العمل الذي يشهد على صاحبه. وقيل: السائق والشهيد ملك واحد، والعطف للمغايرة. وقيل: السائق والشهيد اسما جنس للملائكة، فالسائق الملائكة الموكلون بذلك، والشهيد الحفظة.

\* \* \*

(١) في ظلال القرآن، ص ٣٣٦٤.

## غطاء الغفلة

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَفَصَّرَكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿٢٣﴾ أَلَيْبَا فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ عَابِدٍ ﴿٢٤﴾ مَتَاعٌ لِلْحَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي حَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ .

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَفَصَّرَكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ .

أي: يقال للكافر المنكر يوم القيامة: لقد كنت في غفلة من هذا الذي تعابنه، فأزلنا غفلتك بما تشاهده وتبصره.

فجعلت الغفلة كأنها غطاء وغشاوة على عينيه، فما كان يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة انتبه من غفلته وتيقظ، فعرف الحقيقة وأبصرها.

وتنكير الغفلة وجعله فيها يدل على أنها غفلة تامة، والمراد منها الانهماك في المحسوسات والشهوات، وقصر النظر عليها كما ذكرنا عند قوله تعالى: ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ .

فالانهماك في الدنيا وشهواتها ومنافعها الدنيوية هو الذي جعلهم يغفلون عن أمور الآخرة وقطع الأصرة بينهم وبين التصديق بها.

﴿فَصَّرَكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ﴾ أي: قوي نافذ ترى ما كان محجوباً عنك في الدنيا، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وقال أيضاً: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

وقد يكون المعنى المراد: فبصر قلبك وبصيرتك اليوم قوية نافذة، ويقوي هذا المعنى أن الكفار يحشرون يوم القيامة عمي الأعين، قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَيَبْكُهَا وَصُمَّتْ أَعْيُنُهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَضَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَتَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿طه﴾﴾. ويمكن القول بأن يوم القيامة يوم طويل، يُحشر الكافر في أول الأمر وبصره حديد، ثم يعمى بعد ذلك.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿١٢٣﴾﴾.

أي: وقال الملك الموكل بسوقه: هذا ما كلفتني به قد أحضرته. فيقول الله تعالى:

﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِدٍ ﴿١٢٤﴾﴾.

أي: كل كفار معاند للحق، جاحد له، ويبدو أنه خطاب للسائق والشاهد، أو خطاب للسائق بلفظ الاثنين، وهو من كلام العرب الفصيح.

﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿١٢٥﴾﴾.

أي: كثير المنع للخير، ظالم، شك في الله تعالى أو في يوم الجزاء والحساب.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿١٢٦﴾﴾.

وهو تكرير لتأكيد الأمر السابق جاء بعد وصفه بتلك الأوصاف التي تبين استحقاقه للعذاب في جهنم.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعَيْتُهُ وَلَا لَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي: شيطانه الذي قُبض لهذا الكافر في الدنيا، كما سبق ذكره

عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِفَيْنِ فَيْسَأَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿﴾ [الزخرف].

فقرينه هنا هو شيطانه بغير اختلاف، وأخليت عن الواو دون الأولى، لأن الأولى عطف على ما قبلها، للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها، واستؤنفت هنا لأنها جواب لمحذوف.

ويبدو أن الكافر حين يوافي العذاب يقول: ربنا أطعاني شيطاني، فيقول شيطانه رداً عليه:

﴿رَبَّنَا مَا أَطَعْنَاهُ، وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ما أوقعته في الطغيان، ولكنه طعى واختار الضلالة على الهدى، فهو كقول الشيطان يوم القيامة للمعذَّبين في النار: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٣٨﴾﴾

أي: قال تعالى: لا تختصموا في موقف الحساب، فإنه لا فائدة فيه، وقد قدَّمتُ إليكم إنذاري على ألسن رسلي، فما تركتُ لكم حجة.

﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ أي: لا تبديل لوعيدي بتعذيب المعرضين عن عبادتي المكذَّبين رسلي.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فأعذب من لا يستحق العذاب، فهو سبحانه يتنزه عن الظلم، ويستحيل صدوره منه، وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى.

## يوم المزيد

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأَرْسَلَتْ الْجَنَّةَ الْمُنْفِقِينَ وَعِبْرَةَ عِيسَىٰ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ آوَابٍ حَاطِطٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ حَشَى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَهُ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْهَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

وقد أعدَّ سبحانه جهنم لتحقيق وعيده، وقال يصف سعتها بأسلوب الترهيب

والوعيد:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

وهذا يدل على شدة غضب جهنم وتشبها بالكفار والفجار.

وفي قراءة: (يوم يقول) بالياء.

وفي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، بعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة» [رواه مسلم (٢٨٤٨)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تجاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعدب بك من أشياء من عبادي، ولكل واحدٍ منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط، قط، قط - أي: حسبي حسبي - فهالك تمتلئ، ويؤزى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله صلى الله عليه وسلم من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله صلى الله عليه وسلم ينشئ لها خلقاً»

[رواه البخاري (٤٨٥٠)].

قال ابن حجر رحمته الله: «واختُلِفَ في المراد من القَدَم، فطريقة السلف في هذا وغيره مشهورة، وهو أن تُمرَّ كما جاءت، ولا يتعرَّض لتأويله، بل نعتقد استحالة ما يوهِّم النقص على الله، وخاصَّ كثيرٌ من أهل العلم في تأويل ذلك، فقال بعضهم: المراد إذلالُ جهنم، فإنَّها إذا بالغت في الطغيان وطلبَ المزيدَ أذلَّها الله، ووضعها تحتَ القدم، وليس المرادُ حقيقة القدم، والعرب تستعمل ألفاظ الأعضاء في ضرب الأمثال، ولا تريدُ أعيانها، كقولهم: (رغم أنفه) و(أسقط في يده)»<sup>(١)</sup>. وثمة أقوال أخرى ذكرها بعد هذا القول لا حاجة إلى ذكرها.

ولما فرغت الآيات من وصف أحوال المعذبين في جهنم ذكرت أحوال المنعمين في الجنة، وأبرزت من خلالها بعض صفاتهم وأعمالهم:

﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٣١)

أي: قُرِبَت الجنة للمتقين بحيث يشاهدونها، ويرون ما فيها من النعيم. وفي تقريب الجنة للمتقين تكريم عظيم لهم.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ (٣٢)

ويقال لهم: هذا الجزاء الذي وعدتم به في الدنيا لكل رجَّاع إلى الله تعالى، حافظ لأوامره، فهو كثير التوبة والاستغفار، لا يصرُّ على الذنب، بل يبادر إلى الاستغفار والتوبة كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] أي: وقَّاف عند حدود الله تعالى حافظ لها.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (٣٣)

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: من خشي الرحمن فأطاعه ولم يره، أو خافه في

الخلوة بحيث لا يراه أحدٌ كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة: «ورجلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا ففَاضت عيناه» [رواه البخاري (١٤٢٣)].

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي: وجاء بقلب مقبل على الله، راجع إليه، مستبصر بدلائله، منتفع بمواعظه، كما مرَّ معنا عند قوله: ﴿تَبَصَّرَ وَذَكَرَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٨].

﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ (٢٤)

﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ ويقال لهم: ادخلوا الجنة بسلام من الله وملائكته: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَقُولُهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].  
﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].  
أو: سالمين من العذاب والهموم، آمنين من زوال النعم.  
﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ في الجنة فلا موت بعده.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٢٥)

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي: لهم ما يشتهون في الجنة، فمهما اختاروا وجدوا من أي نوع من أنواع النعيم.  
﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: ولدنا مزيد من النعم لا تخطر ببالهم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].  
وقد يكونُ المزيدُ لذة النظر إلى الله سبحانه ورؤيته بلا كيف كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

## بصائر ومواعظ

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُؤَبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾﴾

ثم عادت الآيات إلى تذكير المعاندين الجاحدين بمواعظها البليغة:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي: كثيراً ما أهلكنا قبل كفار مكة من قرن، كقوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد... الذين سبق ذكرهم في آيات السورة؛ هم أشد قوة وسطوة من كفار مكة.

﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي: ساروا وتقلبوا في البلاد، وسلكوا كل طريق، فلم يجدوا لهم مهرباً من أمر الله أو من الموت.  
وفي قراءة: (فَنَقَّبُوا) على صيغة الأمر، والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتحدي، وإظهار عجز المعاندين المعرضين.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: إن ما ذكر في السورة لتذكرة وعظة لمن كان له قلب واع يدرك الحقائق، وينتفع بالمواعظ. أو أصغى لما يتلى عليه وهو حاضر غير غافل، فهما فريقان: فريق له قلب يفقهه، وفريق يسمع ويصغي لينتفع ويتذكر.

ففي آيات السورة كثيراً من البصائر والمواعظ، ولعل ذلك سرُّ قراءة النبي ﷺ بها في المجامع الكبار كالعيد والجمع.

وكما بين تعالى في معرض الرد على منكري البعث كمال علمه بقوله: ﴿تَدَّ عَلَمَنَا مَا نَفَضُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤] بين أيضاً كمال قدرته ﷻ فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ .

أي: خلقنا هذه المكونات العظيمة خلقاً متدرجاً في ستة أوقات، وما أصابنا بذلك من تعب ولا نصب ولا إعياء، وقد مر معنا تفصيل ذلك في عدد من الآيات.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ .

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: اصبر يا محمد على ما يقول المشركون في شأن البعث الذي سبق ذكره في صدر السورة: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ونزَّهه تعالى عن العجز وعن وقوع الخُلْفِ في أخباره، ومن جملتها الإخبار عن بعثهم يوم القيامة، حامداً له تعالى على كماله وإنعامه قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

والمراد: صلِّ في هذين الوقتين، وكانت الصلاة المفروضة قبل أن تفرض الصلوات الخمس قبل طلوع الشمس وقبل الغروب في وقت العصر.

وفي الحديث: عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلُوسًا لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ . [رواه البخاري (٤٨٥١)].

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ .

أي: وسبِّحه بعض الليل وأعقاب الصلوات. وعن مجاهد: قال ابن عباس: أمره أن يسبِّح في أدبار الصلوات كلها. [رواه البخاري (٤٨٥٢)].

وفي قراءة: (وإدبار السجود) بكسر الهمزة على المصدر، والمعنى وقت انقضاء السجود.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمَدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ

وتسعون، وقال تمام المئة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غُفِرَتْ خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر» [رواه مسلم (٥٩٧)].  
 فللصلاة دور كبير في تثبيت الداعية على طريق الدعوة، والتغلب على ما يلقى من مصاعب وشدائد، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى، كما أخرج أبو داود من حديث حذيفة [١٣١٩]، ومرر معنا قوله تعالى:  
 ﴿وَأَسْمِعِنَا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

\* \* \*

### صيحة الحق

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾

أي: وانتظر يوم ينادي المنادي من مكان قريب بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء. والمراد: نفخة البعث من القبور التي سبق ذكرها عند قوله تعالى:  
 ﴿ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِيهَا يُنظَرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

أو: استمع بما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفيه تعظيمٌ وتهويلٌ للمخبر به، ويؤيده قراءة الوقف على: (واستمع).

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾

أي: يوم يسمعون الصيحة المذكورة المحققة، أو الصيحة المتلبسة بالحق؛ وهي صيحة البعث من القبور، ذلك اليوم يوم الخروج من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ .

أي: إنا نحن نحْيي ونميتُ لا يشاركنا أحد في ذلك، وإلينا الرجوع إلى الجزاء والحساب يوم القيامة لا إلى غيرنا .

﴿يَوْمَ تَشْقُقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿يَوْمَ تَشْقُقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا﴾ أي: يوم تشقق الأرض عنهم مسرعين إلى أرض المحشر .

وقرى: (تشقق) بتشديد الشين، و(تشقق) على البناء للمفعول، و(تشقق).

﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: ذلك حشر علينا هيين .

وفي ختام السورة قال تعالى تسليةً لرسوله ﷺ عما يلقي من عنادهم وإعراضهم، وتهديداً لهم:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي: وما أنت عليهم بمتسلط تجبرهم على الإيمان، إنما بعثت مذكراً كما في قوله سبحانه: ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١٦﴾﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿[الغاشية]﴾ .

﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: عِظْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِي .

وَقُرِئَتْ (وعيدي) بإثبات الياء في الوقف والوصل، وأثبتها بعضهم في الوصل دون الوقف .

فالقرآن الكريم تبصرةً وعظةً، فيه الحجة البالغة والموعظة البليغة . ونحن

نقول مع قتادة رضي الله عنه: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك .

# فهرس الموضوعات

## تفسير سورة سبأ

### الرّسالةُ والسّاعةُ في سورة سبأ

- المقدمه ومؤصوعُ السّورة ..... ٥
- تفسير سورة سبأ: الرّسالةُ والسّاعةُ في سورة سبأ ..... ٧
- الحكيم الخبير ..... ٧
- العلم والساعة ..... ٨
- الصراع بين الحق والباطل ..... ١٠
- جهل وعناد ..... ١١
- صانع الدروع ..... ١٣
- النعمة والشكر ..... ١٦
- سيل العرم ..... ١٩
- الخلق والأمر والتدبير ..... ٢٣
- الجدل المنصف ..... ٢٥
- الرسول البشير النذير ..... ٢٨
- تصحيح القيم وتعديل الموازين ..... ٣١
- حيرة واضطراب ..... ٣٥
- دعوة إلى التفكير الهادئ ..... ٣٧
- جاء الحق وزهق الباطل ..... ٣٩
- إيمان البأس ..... ٤١

**تفسير سورة فاطر**  
**الاختلاف في المخلوقات، ووحدة الخالق**  
**في سورة فاطر**

- المقدمة وموضوع السورة ..... ٤٣
- تفسير سورة فاطر: الاختلاف في المخلوقات، ووحدة الخالق في سورة فاطر ..... ٤٥
- الاختلاف في أجنحة الملائكة ..... ٤٥
- تحذير وتثبيت ..... ٤٨
- العزة لله تعالى ..... ٥١
- الحياة أنفاس ..... ٥٣
- البحران عذب ومالح ..... ٥٥
- الفقراء إلى الله تعالى ..... ٥٧
- المسؤولية الشخصية والاختلاف فيها ..... ٥٩
- الاختلاف في السلوك والمصير ..... ٦٢
- الاختلاف في ألوان المكونات وجمالها ..... ٦٥
- التجارة الرابعة ..... ٦٩
- العباد المضطفون ..... ٧٠
- التفاضل في حمل رسالة الإسلام ..... ٧٢
- دار المقامة ..... ٧٣
- الإعذار في الأعمار ..... ٧٥
- الإيجاد والإمداد من الله وحده ..... ٧٨
- اختلاف المواقف ..... ٨٠

**تفسير سورة يس**  
**مرقاة الوصول في سورة يس**

- المقدمة وموضوع السورة ..... ٨٥
- تفسير سورة يس: مرقاة الوصول في سورة يس ..... ٨٧
- الرسول والساعة ..... ٨٧
- عناد وجحود ..... ٩٠

- ٩٢ - التمسك بالقرآن وخشية الرحمن .....
- ٩٤ - أصحاب القرية .....
- ٩٥ - تكذيب المرسلين .....
- ٩٧ - المتشائمون من دعوة المرسلين .....
- ٩٨ - الناصح في الحياة وبعد الممات .....
- ١٠١ - حسرة على العباد .....
- ١٠٣ - دلائل ونعم .....
- ١٠٦ - المستقر الزماني والمكاني للشمس .....
- ١٠٨ - منازل القمر .....
- ١٠٩ - السابحات في البحر والبر .....
- ١١١ - عناد وإعراض .....
- ١١٣ - النفخ في الصور والبعث من القبور .....
- ١١٦ - الوصول إلى دار السلام .....
- ١١٨ - المعرضون عن الصراط المستقيم .....
- ١٢٠ - التنكيس في الخلق .....
- ١٢٢ - القرآن والشعر .....
- ١٢٤ - تسخير الأنعام .....
- ١٢٥ - إحياء العظام البالية .....
- ١٢٨ - خلق الضد من الضد .....

### تفسير سورة الصافات

#### مَقَامُ الْعُبُودِيَّةِ فِي سُورَةِ الصَّافَاتِ

- ١٣١ • المقدمة ومَوْضُوعُ السُّورَةِ .....
- ١٣٣ • الفصل الأول: مَقَامُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى .....
- ١٣٤ - المصطفون للعبادة .....
- ١٣٥ - زينة وحرس .....
- ١٣٨ - الطين اللازب .....
- ١٤٠ - السوق إلى أرض المحشر .....
- ١٤٢ - لوم وعتاب .....

- ١٤٣ ..... المنسلخون عن العبودية
- ١٤٥ ..... الرزق المعلوم
- ١٤٦ ..... ذكريات ومسامرات
- ١٤٩ ..... شجرة الزقوم
- ١٥٢ ..... **الفصل الثاني: بَعْضُ مَوَاقِفِ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ**
- ١٥٣ ..... الإيمان والعبودية
- ١٥٥ ..... تكسير الأصنام
- ١٥٨ ..... الهجرة إلى بلاد الشام
- ١٥٩ ..... رؤيا الأنبياء
- ١٦١ ..... الاستسلام وتصديق الرؤيا
- ١٦٣ ..... النبي العبد
- ١٦٦ ..... المِنَّةُ على موسى وهارون
- ١٦٧ ..... سلام على إيل ياسين
- ١٦٩ ..... المنة على لوط
- ١٧٠ ..... صاحب الحوت
- ١٧١ ..... القرعة في الإسلام
- ١٧٣ ..... شجرة اليقطين
- ١٧٥ ..... **الفصل الثالث: الْمَلَائِكَةُ وَعِبَادَتُهُمْ وَإِخْلَاصُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى**
- ١٧٥ ..... القسمة الباطلة
- ١٧٧ ..... من نزغات الشياطين
- ١٧٨ ..... براءة الملائكة ومقامهم في العبادة
- ١٨٢ ..... **الفصل الرابع: بَشَائِرُ النَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ**
- ١٨٢ ..... وجاءت البشائر
- ١٨٤ ..... تسبيح وسلام وحمد

تفسير سورة ن

الْقُرْآنُ وَالْمُغَيَّبَاتُ فِي سُورَةِ ن

- ١٨٧ ..... المقدمة وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ
- ١٨٩ ..... **الفصل الأول: الإخْبَارُ بِالْغَيْبِ وَجَهٌ مِنْ وَجُوهِ الإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ**

- ١٨٩ ..... - تبليغ واستكبار
- ١٩١ ..... - الذنب الكبير
- ١٩٣ ..... - حسد وتكذيب
- ١٩٥ ..... • الفصل الثاني: بَعْضُ الْوَقَائِعِ الْغَيْبِيَّةِ مِنْ أَحْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ
- ١٩٦ ..... - تأنيس وتثييت
- ١٩٨ ..... - داوُد ﷺ وتسبيح الجبال والطير
- ٢٠٠ ..... - قصة ابتلاء داود ﷺ
- ٢٠٣ ..... - الخلافة والحكم بالحق
- ٢٠٥ ..... - ضرورة الحساب والجزاء
- ٢٠٧ ..... - التدبر في آيات القرآن الكريم
- ٢٠٨ ..... - خيل سليمان ﷺ
- ٢١٠ ..... - قصة ابتلاء سليمان ﷺ
- ٢١١ ..... - تنبيه وتحذير
- ٢١١ ..... - ملك سليمان ﷺ
- ٢١٤ ..... - قصة ابتلاء أيوب ﷺ
- ٢١٥ ..... - الفرج من الله تعالى بعد الشدة والبلاء
- ٢١٨ ..... - المصطفون الأخيار
- ٢٢٠ ..... • الفصل الثالث: مِنْ أَحْبَارِ غَيْبِ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ
- ٢٢٢ ..... - الإخبار عن تخاصم أهل النار
- ٢٢٤ ..... - القرآن والنبأ العظيم
- ٢٢٦ ..... - من أخبار الملأ الأعلى
- ٢٢٩ ..... - الله أعلم

### تفسير سورة الزمر

#### الهُدَى وَالضَّلَالُ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ

- ٢٣١ ..... • المقدمة ومَوْضُوعُ السُّورَةِ
- ٢٣٣ ..... • تفسير سورة الزُّمَرِ: الْهُدَى وَالضَّلَالُ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ
- ٢٣٣ ..... - الإخلاص في العبادة
- ٢٣٥ ..... - كروية الأرض

- ٢٣٧ ..... - الأزواج الثمانية والظلمات الثلاث
- ٢٣٩ ..... - الإرادة والرضا
- ٢٤١ ..... - الخوف والرجاء
- ٢٤٤ ..... - التقوى والإحسان
- ٢٤٥ ..... - أول المسلمين
- ٢٤٧ ..... - موعدة وبشارة
- ٢٥٠ ..... - التحذير من الاغترار بالدنيا
- ٢٥١ ..... - التحذير من قسوة القلب
- ٢٥٢ ..... - قشعريرة وطمأنينة
- ٢٥٤ ..... - اتقاء العذاب بالوجوه
- ٢٥٥ ..... - أمثال القرآن
- ٢٥٧ ..... - الحُكْمُ والكِفاية
- ٢٥٩ ..... - أمان وضمآن
- ٢٦١ ..... - حسبي الله
- ٢٦٣ ..... - النوم والموت
- ٢٦٥ ..... - يا فاطر السماوات والأرض
- ٢٦٧ ..... - الفتنة بالمال
- ٢٦٩ ..... - التوبة والمغفرة
- ٢٧٢ ..... - تذكير وتحذير
- ٢٧٤ ..... - طريق الفوز والفلاح
- ٢٧٦ ..... - الخسران المبين
- ٢٧٩ ..... - وما قدروا الله حق قدره
- ٢٨٠ ..... - في عرصات القيامة
- ٢٨٤ ..... - زمر الضالين وزمر المهتدين

### التَرْكِيَّةُ وَالتَّزْيِيَّةُ فِي الْحَوَامِيْمِ

- مقدمة في المَوْضُوعِ الأَسَاسِ لِسُورِ الحَوَامِيْمِ ..... ٢٩٠

## تفسير سورة غافر

## الدُّعَاءُ وَالتَّفْوِيضُ فِي سُورَةِ غَافِرٍ

- ٢٩١ ..... تعظيم وإجلال -
- ٢٩٤ ..... المجادلون بالباطل -
- ٢٩٦ ..... ثناء ودعاء -
- ٢٩٨ ..... مقت ويأس -
- ٣٠٠ ..... الإخلاص في العبادة والدعاء -
- ٣٠١ ..... يوم التلاقي والآزفة -
- ٣٠٦ ..... مؤمن آل فرعون -
- ٣١٠ ..... عاقبة التكذيب والعناد -
- ٣١٤ ..... ثبات وتفويض -
- ٣١٦ ..... من عذاب القبر إلى عذاب النار -
- ٣١٩ ..... تأييد وتشبيث -
- ٣٢٣ ..... الدعاء والعبادة -
- ٣٢٦ ..... فضل وإحسان -
- ٣٣٠ ..... مصير المعرضين عن عبادة الله -
- ٣٣٢ ..... الثبات على طريق الدعوة والتبليغ -
- ٣٣٤ ..... إيمان اليأس -

## تفسير سورة فصلت

## الْقُرْآنُ وَالتَّزْكِيَةُ فِي سُورَةِ فَصَلَّتْ

- ٣٣٧ ..... التنزيل العربي المفصل -
- ٣٣٩ ..... أهم وسائل التزكية -
- ٣٤١ ..... الخلق المتدرج -
- ٣٤٤ ..... صاعقة عاد وثمود -
- ٣٤٧ ..... الجوارح الناطقة -
- ٣٥٠ ..... قُرْنَاءُ السُّوءِ -
- ٣٥٢ ..... تهديد أعداء الله بعذاب النار -

- ٣٥٤ ..... تبشير أولياء الله بالجنة
- ٣٥٦ ..... الدعوة والداعي
- ٣٥٨ ..... ادفع بالتي هي أحسن
- ٣٦١ ..... سجود وتسييح
- ٣٦٤ ..... الهدى والشفاء في القرآن
- ٣٦٦ ..... المسؤولية والجزاء
- ٣٦٨ ..... معالم من الشخصية البشرية
- ٣٧٠ ..... شقاء المعرضين عن القرآن

### تفسير سورة الشورى

#### الْوَحْيُ وَالشَّرِيعَةُ فِي سُورَةِ الشُّورَى

- ٣٧٣ ..... حقيقة الوحي ومصدره
- ٣٧٥ ..... تسييح واستغفار
- ٣٧٦ ..... الوحي والقرآن
- ٣٧٧ ..... الله هو الولي
- ٣٧٩ ..... تنزيه وإثبات
- ٣٨١ ..... الحاكمية والتشريع لله وحده
- ٣٨٢ ..... الدعوة إلى الحق والاستقامة عليها
- ٣٨٥ ..... الشريعة الإلهية والعدل
- ٣٨٧ ..... الله لطيف بعباده
- ٣٨٩ ..... مودة آل البيت
- ٣٩٣ ..... حاجة العباد إلى الرزق والشريعة الإلهية
- ٣٩٥ ..... الذنوب والمصائب
- ٣٩٨ ..... الأسس الشرعية للمجتمع الإسلامي
- ٤٠٠ ..... العذاب المقيم
- ٤٠٤ ..... أقسام الوحي

## تفسير سورة الزخرف

## الْقُدْوَةُ وَالْمَثَلُ فِي سُورَةِ الزُّخْرَفِ

- ٤٠٧ ..... تعظيم القرآن الكريم -
- ٤٠٩ ..... المسرفون في الجهل والضلالة -
- ٤١٣ ..... القسمة الباطلة -
- ٤١٦ ..... التقليد الأعمى والترف -
- ٤١٨ ..... براءة إبراهيم عليه السلام -
- ٤٢١ ..... إعراض واعتراض -
- ٤٢٣ ..... الزينة والمتاع -
- ٤٢٤ ..... القدوة السيئة -
- ٤٢٦ ..... الثبات على الصراط المستقيم -
- ٤٢٨ ..... السلف والمثل -
- ٤٣٢ ..... الخصومة بالباطل -
- ٤٣٣ ..... عيسى عليه السلام والمثل -
- ٤٣٧ ..... رحم الإيمان والتقوى -
- ٤٤٠ ..... نداء المجرمين في جهنم -
- ٤٤٣ ..... توحيد وتنزيه -
- ٤٤٦ ..... صفح وسلام -

## تفسير سورة الدخان

## إِنْدَارٌ وَانْتِقَامٌ فِي سُورَةِ الدُّخَانِ

- ٤٤٩ ..... الليلة المباركة -
- ٤٥٣ ..... دخان من السماء -
- ٤٥٥ ..... البطشة الكبرى -
- ٤٥٧ ..... إهلاك المجرمين -
- ٤٥٩ ..... بكاء السماء والأرض -
- ٤٦١ ..... إسراف وطغيان -
- ٤٦٤ ..... الزقوم والحميم -

٤٦٦ ..... - أمن ونعيم

تفسير سورة الجاثية

اسْتِسْلَامٌ وَإِدْعَانٌ فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ

٤٦٩ ..... - مدارج الكمال

٤٧١ ..... - سبيل الهدى والفلاح

٤٧٤ ..... - اعتبار واستبصار

٤٧٦ ..... - التمييز بين المتفاضلين

٤٧٧ ..... - التحذير من اتباع الهوى

٤٧٨ ..... - الرد على الدهرية

٤٨١ ..... - من مشاهد يوم القيامة

٤٨٣ ..... - الحمد والكبرياء لله تعالى

تفسير سورة الإحقاف

الدَّعْوَةُ وَالِاسْتِجَابَةُ فِي سُورَةِ الْاِحْقَافِ

٤٨٥ ..... - دعوة الحق ودعوة الباطل

٤٨٧ ..... - ردود على أباطيل

٤٩٠ ..... - شاهد من بني إسرائيل

٤٩١ ..... - كبر وجهل

٤٩٣ ..... - دعوة القرآن ودعوة التوراة

٤٩٥ ..... - المستجيبون لدعوة الحق

٤٩٨ ..... - المعرضون عن دعوة الحق

٥٠١ ..... - دعوة هود عليه السلام

٥٠٥ ..... - الجن المستجيبون لدعوة الحق

٥٠٩ ..... - موعظة بليغة

تفسير سورة ممتد

الْحَرْبُ وَالسَّلَامُ فِي سُورَةِ مُمْتَدٍ

٥١١ ..... - المقارنة بين المؤمنين والكافرين

- ٥١٣ ..... أحكام في القتال والأسر
- ٥١٦ ..... الحكمة من تشريع القتال
- ٥١٧ ..... الإعراض عن شريعة الله
- ٥١٨ ..... الله مولى المؤمنين
- ٥٢٠ ..... أنهار الجنة وحميم النار
- ٥٢٢ ..... المرض الروحاني والدواء الإلهي
- ٥٢٤ ..... أشراط الساعة
- ٥٢٦ ..... استغفار النبي عليه الصلاة والسلام
- ٥٢٨ ..... المتقاعسون عن القتال
- ٥٢٩ ..... المفسدون في الأرض وقاطعو الأرحام
- ٥٣٢ ..... الردة والنفاق
- ٥٣٧ ..... السلام والاستعداد

### تفسير سورة الفتح

#### بَشَائِرُ النَّصْرِ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ

- ٥٤١ ..... الفتح الأعظم
- ٥٤٤ ..... جنود الله
- ٥٤٥ ..... زيادة الإيمان ونقصانه
- ٥٤٧ ..... دائرة السوء
- ٥٤٨ ..... البيعة على الموت
- ٥٥٢ ..... أعذار المتخلفين
- ٥٥٤ ..... عقوبة المتخلفين
- ٥٥٧ ..... بيعة الرضوان
- ٥٥٩ ..... مقدمة الفتوح وتوالي البشائر
- ٥٦١ ..... محل الهدى
- ٥٦٢ ..... حرمة المؤمنين والمؤمنات
- ٥٦٤ ..... حمية الجاهلية وكلمة التقوى
- ٥٦٦ ..... الرؤيا الصادقة
- ٥٦٨ ..... جند النصر والفتح

## تفسير سورة الحجرات

## أَخْلَاقٌ وَمَبَادِئُ فِي سُورَةِ الْحُجْرَاتِ

- ٥٧١ ..... تأديب وتحذير
- ٥٧٤ ..... المناذون من وراء الحجرات
- ٥٧٦ ..... الراشدون
- ٥٧٨ ..... مبدأ الإصلاح بين المتخاصمين
- ٥٨١ ..... تحريم أسباب الخصام
- ٥٨٣ ..... تحريم ظن السوء وما يؤدي إليه
- ٥٨٤ ..... تحريم الغيبة
- ٥٨٦ ..... المساواة في الأصل والتفاضل بالتقوى
- ٥٨٨ ..... الإيمان والإسلام

## تفسير سورة ق

## الْبَصِيرَةُ وَالْمَوْعِظَةُ فِي سُورَةِ ق

- ٥٩١ ..... الأمر العجيب
- ٥٩٣ ..... الكتاب الحفيظ
- ٥٩٤ ..... النظر إلى السماء
- ٥٩٦ ..... التبصرة والذكرى
- ٥٩٨ ..... الخروج من القبور
- ٥٩٩ ..... الرقابة الإلهية
- ٦٠١ ..... سكرات الموت
- ٦٠٣ ..... غطاء الغفلة
- ٦٠٦ ..... يوم المزيد
- ٦٠٩ ..... بصائر ومواظ
- ٦١١ ..... صيحة الحق
- ٦١٣ ..... فهرس الموضوعات

